

العروة الوثقى

جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده



العروة الوثقى

تأليف

جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده



العروة الوثقى

محمد عبده وجمال الدين الأفغاني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

بورك هاوس، شبيت سرتيت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تلفون: ٠١٧٥٣ ٨٢٢٥٢٢ + ٤٤ (٠)
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

التقديم الدولي: ١١٠٣٩ ١٥٢٧٣ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٨٨٤.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٥.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة
المشاع الإبداعي: تَسْبُبُ المُصْنَفَ، الإصدار ٤٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل
الأصلي خاضعة لملكية العامة.

المحتويات

١٥	جمال الدين الأفغاني
٢٥	الشيخ محمد عبده
٣١	العروة الوثقى
٣٣	فاتحة الجريدة
٤١	الفصل الأول
٤٥	الفصل الثاني
٥٥	الفصل الثالث
٦١	الفصل الرابع
٦٧	الفصل الخامس
٧١	الفصل السادس
٨١	الفصل السابع
٨٩	الفصل الثامن
٩٧	الفصل التاسع
١٠٣	الفصل العاشر
١٠٩	الفصل الحادي عشر
١١٧	الفصل الثاني عشر
١٢٣	الفصل الثالث عشر
١٢٩	الفصل الرابع عشر
١٣٥	الفصل الخامس عشر

١٣٧	الفصل السادس عشر
١٤١	الفصل السابع عشر
١٤٥	الفصل الثامن عشر
١٤٧	الفصل التاسع عشر
١٥٣	الفصل العشرون
١٥٧	الفصل الحادي والعشرون
١٥٩	الفصل الثاني والعشرون
١٦٥	الفصل الثالث والعشرون
١٧١	الفصل الرابع والعشرون
١٧٥	الفصل الخامس والعشرون
١٨١	باب النتف والأخبار
١٨٣	الفصل الأول
١٨٧	الفصل الثاني
١٩٣	الفصل الثالث
١٩٥	الفصل الرابع
١٩٧	الفصل الخامس
١٩٩	الفصل السادس
٢٠١	الفصل السابع
٢٠٥	الفصل الثامن
٢٠٩	الفصل التاسع
٢١١	الفصل العاشر
٢١٣	الفصل الحادي عشر
٢١٧	الفصل الثاني عشر
٢١٩	الفصل الثالث عشر
٢٢١	الفصل الرابع عشر
٢٢٣	الفصل الخامس عشر
٢٢٩	الفصل السادس عشر
٢٣١	الفصل السابع عشر

٢٣٣	الفصل الثامن عشر
٢٣٥	الفصل التاسع عشر
٢٣٧	الفصل العشرون
٢٣٩	الفصل الحادي والعشرون
٢٤١	الفصل الثاني والعشرون
٢٤٣	الفصل الثالث والعشرون
٢٤٥	الفصل الرابع والعشرون
٢٤٩	الفصل الخامس والعشرون
٢٥١	الفصل السادس والعشرون
٢٥٥	الفصل السابع والعشرون
٢٥٩	الفصل الثامن والعشرون
٢٦١	الفصل التاسع والعشرون
٢٦٣	الفصل الثلاثون
٢٦٥	الفصل الحادي والثلاثون
٢٦٩	الفصل الثاني والثلاثون
٢٧١	الفصل الثالث والثلاثون
٢٧٥	الفصل الرابع والثلاثون
٢٧٧	الفصل الخامس والثلاثون
٢٧٩	الفصل السادس والثلاثون
٢٨١	الفصل السابع والثلاثون
٢٨٣	الفصل الثامن والثلاثون
٢٨٧	الفصل التاسع والثلاثون
٢٨٩	الفصل الأربعون
٢٩١	الفصل الحادي والأربعون
٢٩٣	الفصل الثاني والأربعون
٢٩٥	الفصل الثالث والأربعون
٢٩٧	الفصل الرابع والأربعون
٣٠١	الفصل الخامس والأربعون

٣٠٣	الفصل السادس والأربعون
٣٠٩	الفصل السابع والأربعون
٣١١	الفصل الثامن والأربعون
٣١٧	الفصل التاسع والأربعون
٣١٩	الفصل الخامسون
٣٢١	الفصل الحادى والخمسون
٣٢٢	الفصل الثانى والخمسون
٣٢٥	الفصل الثالث والخمسون
٣٢٩	الفصل الرابع والخمسون
٣٣١	الفصل الخامس والخمسون
٣٣٥	الفصل السادس والخمسون
٣٣٩	الفصل السابع والخمسون
٣٤٣	الفصل الثامن والخمسون
٣٤٥	الفصل التاسع والخمسون
٣٤٩	الفصل ستون
٣٥٣	الفصل الحادى والستون
٣٥٥	الفصل الثانى والستون
٣٥٧	الفصل الثالث والستون
٣٦١	الفصل الرابع والستون
٣٦٥	الفصل الخامس والستون
٣٦٧	الفصل السادس والستون
٣٦٩	الفصل السابع والستون
٣٧٣	الفصل الثامن والستون
٣٧٥	الفصل التاسع والستون
٣٧٧	الفصل السبعون
٣٨١	الفصل الحادى والسبعين
٣٨٥	الفصل الثانى والسبعين
٣٨٩	الفصل الثالث والسبعين

٣٩١	الفصل الرابع والسبعون
٣٩٥	الفصل الخامس والسبعون
٣٩٩	الفصل السادس والسبعون
٤٠١	الفصل السابع والسبعون
٤٠٧	الفصل الثامن والسبعون
٤٠٩	الفصل التاسع والسبعون
٤١١	الفصل الثمانون
٤١٣	الفصل الحادي والثمانون
٤١٥	الفصل الثاني والثمانون
٤١٩	الفصل الثالث والثمانون
٤٢٣	الفصل الرابع والثمانون
٤٢٥	الفصل الخامس والثمانون
٤٢٧	الفصل السادس والثمانون
٤٣١	الفصل السابع والثمانون
٤٣٥	الفصل الثامن والثمانون
٤٣٧	الفصل التاسع والثمانون
٤٤١	الفصل التسعون
٤٤٧	الفصل الحادي والتسعون
٤٤٩	الفصل الثاني والتسعون
٤٥٣	الفصل الثالث والتسعون
٤٥٧	الفصل الرابع والتسعون
٤٥٩	الفصل الخامس والتسعون
٤٦١	الفصل السادس والتسعون
٤٦٥	الفصل السابع والتسعون
٤٦٧	الفصل الثامن والتسعون
٤٧١	الفصل التاسع والتسعون
٤٧٣	الفصل المائة
٤٧٥	الفصل الحادي والمائة

العروة الوثقى

٤٧٩

الفصل الثاني والمائة

٤٨٣

الفصل الثالث والمائة

٤٨٩

الفصل الرابع والمائة



السيد جمال الدين الأفغاني.



الشيخ محمد عبده

جمال الدين الأفغاني

بِقَلْمِ مُصْطَفَى عَبْدِ الرَّازِقِ

اتفق من ترجموا للسيد جمال الدين على أن اسمه: محمد جمال الدين، واسم أبيه صدر، وقد حرّف هذا الاسم مَن كتبوا ترجمته بالعربية فقالوا: صفتر. وصدر لفظ فارسي من ألقاب الإمام علي، مرَّكب من الكلمة «صف» العربية، و«در» وصف من فعل دريدان الفارسي بمعنى افترس أو اقتحم. ولم يختلفوا في أن جمال الدين ولد سنة ١٢٥٤هـ/١٨٣٩م.

وهل هو بعد ذلك وُلد في أسعد آباد، قرية من قرى كير، من أعمال كابل، من بيت عظيم في بلاد الأفغان، حنفي المذهب، ينتمي نسبة إلى السَّيِّد عَلِي الترمذى المحدث المشهور، ويرتقي إلى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب، وفي كابل تلقى علومه واستكمل الغاية من دروسه؟

أم هو قد وُلد في أسد آباد قرب همدان من أعمال فارس، وتعلم في مدينة قزوين ومدينة طهران، ثم سافر إلى الأفغان، وليس أفغاني الجنس كما يزعم أهل السنة والجماعة؟ أم أن والده من أهالي مازندران، إحدى ولايات إيران، وكان ضابطاً في الجيش الإيراني أو قدمت حكومته إلى بلاد الأفغان لمهمة، فطابت له السُّكُنِي هناك وتزوج، ووُلد له جمال الدين في إيران، وحمله معه صغيراً؟

هذا خلافٌ لا سبيل إلى تمحيصه؛ فإن ما يتعلّق بنشأة السَّيِّد جمال الدين وحياته قبل اتصال الشيخ محمد عبده به سنة ١٨٧١ هو — على قلة مصادره — محاطٌ بغموضٍ واضطراـبٍ — كما قال الأستاذ براون.

ويدل على هذا قول الشيخ محمد عبده في فاتحة تعرّيفه لرسالة الرَّد على الـَّدَهْرِيِّينَ: «يحملني على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل الفاضل ما رأينا من تخالف الناس في أمره، وتباعد ما بينهم في معرفة حاله، وتباعُّ صوره في مخبلات اللافقين لخبره، حتى كأنه حقيقةٌ كليّةٌ تجلّت في كل ذهن بما يلائمه، أو قوّةٌ روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله». ويرى أن السَّيِّد جمال الدين، وإن كان في الحقيقة فارسيّاً، فقد انتسب إلى الأفغان لأمرٍين:

- (١) أن يكون من السَّهْل عليه الظهور بمظاهر السُّنْنِي لا الشِّيعي.
- (٢) أن يستطيع الخلاص من رقابة الحكومة الإيرانية لرعاياها في الخارج.

وقد عُني والده بتربّيته، فأيدت العناية به قوّة فطرته. وتلقى معارفَ جمة بين علومٍ عربيةٍ وعلومٍ شرعيةٍ وعلومٍ عقليةٍ وفنونٍ رياضيةٍ، ودرس نظريّات الطب والتّشريح. أخذ جميع تلك الفنون عن أساتذةٍ ماهرين، على الطَّرِيقَة المُعروفة في تلك البلاد، وعلى ما في الكُتُب الإِسلامِيَّة المشهورة.

بدأ تعلّمه في السنة الثامنة من عمره، واستكمل الغاية من دروسه في الثامنة عشرة. ويقول جورج كوتشي: إن جمال الدين قد استرعى الانتظار منذ حادثة السن؛ بذكائه النادر، وميله الواضح إلى كل ما له صلة بالفنون العسكرية. ولما أتم دروسه سافر إلى الهند، وأقام سنة تعلم في خلالها شيئاً من العلوم الأوروبيّة وأساليبها.

وقصد بعد ذلك إلى الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج، فقضى نحو عام يتنقّل في بلاد العرب حتى وافى مكة سنة ١٢٧٣ هـ / ١٨٥٧ م.

وعاد إلى بلاد الأفغان فانتظم في خدمة الأمير دست محمد خان، وعُلّت منزلته عنده، ورافقه في بعض غزواته، ولما مات الأمير انحاز جمال الدين إلى الأمير محمد أعظم خان، الذي أثار حرباً عوائناً على شير علي، وهو أخوه أصغر منه سنّاً، تولى عرش الأفغان بتأييد الإنجليز.

وكان جمال الدين زعيم القُوَّاد في جيش محمد أعظم خان، فميّزته كفاية باهرة، ولكن الأمير أوجس في نفسه خيبة أن يساميه إلى العرش؛ فجعل لا يصغي إلى نصائحه، وعلى أثر الهزيمة شَخَّصَ معاً إلى الهند، وكانت الهند يومئذ تفوق بالفتن، وخشيت الحكومة الإنجليزية أن يتصل الثوار بالسَّيِّد جمال الدين؛ فردهُ من حيث جاء.

ولم يأْمِنُ الأمير شير على مقام السَّيِّد في الأفغان، وأحْسَسَ السَّيِّد ما توسوس به نفسُ الأمير؛ فاستأذن في الخروج للحج وارتحل من طريق الهند مع خادمه أبي تراب.

ولما بلغ التخوم الهندية تلقّته حكومتها بحفاوة وإجلال، ولكنها لم تسمح له ببطول المكث، ولم تأذن في لقائه إلا على عين من رجالها، وبعد نحو شهر سَيِّرَته من سواحل الهند في بعض مراكبها على نفقتها إلى السويس، فجاء مصر وأقام بها أربعين يوماً، تردد في خلالها على الجامع الأَزَّهر، وخلط كثيرين من طلبة العلم السوريين، وألقى عليهم محاضرات في مسكنه.

ثم تحول عن الحجاز عزمه، وصرف عنانه إلى الأستانة سنة ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠ م، وكانت سبقة شهرته الذائعة فحومت إليه — لفضله — قلوب الأمراء والوزراء، وعلا ذكره بينهم، واتصل برجال الأدب والعلم.

وبعد ستة أشهر سُمِيَّ عضواً في مجلس المعارف برعایة علي باشا الصدر الأعظم، فأدَى حق الاستقامة والنصح في آرائه، وأشار إلى طرق لتعيم المعارف لم يوافقه عليها رفقاؤه، ومن تلك الطرق ما أحفظ عليه قلب شيخ الإسلام لذلك العهد حسن أفندي فهمي؛ لأنها كانت تمس شيئاً من رزقه، وأضمر له السوء وأرصد له العنت، حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧ هـ فراغ إلى السَّيِّد مدير دار الفنون أن يُلقي خطاباً في الحث على الصناعات، واحتشد النَّاس لسماع المحاضرة في تلك الدار من جميع الطبقات العالية، وكان فيما ذكره السَّيِّد تشبيه المعيشة الإنسانية ببدن حيٍّ، وأن كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن، ثم قال: هذا ما يتَّأْلِفُ منه جسم السعادة الإنسانية، ولا حياة لجسم إلا بروح، وروح هذا الجسم إما النبوة وإما الحكمة.

هناك راح شيخ الإسلام يقيم من الحق باطلًا؛ ليصيّب غرضه من الانتقام، فأشاع أن جمال الدين يزعم أن النبوة صنعة، محتاجاً بأنه ذكرها في خطاب يتعلّق بالصناعات، ثم أوعز إلى الوعاظ في المساجد أن يذكروا ذلك محفوفاً بالتفنيد والتبييد، وأكثّرت الجرائد من الخوض في المسألة، وانقسم النَّاس فيها شيئاً.

وأشار بعض أصحاب السَّيِّد عليه بأنّ يغضي على الكريهة ويلزم السكون، والزمن كفيل باضمحلال هذه الإشاعة وتلاشي أثرها، ولكن جمال الدين كان عصبياً دموياً، في

مزاجه حدة، فلج في مخاصمة شيخ الإسلام وطلب محاكمته، حتى صدر الأمر إليه بالجلاء عن الأستانة ريثما تسكن الخواطر، وحمله بعض من كان معه على أن يهبط مصر، فجاءها أول سنة ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م وكان ذلك في زمن إسماعيل، واستئمانته مساعي رياض باشا للمقام؛ حيث لم يكن ينويه، وأجرت عليه الحكومة المصرية راتبا سنوياً مقداره ١٢٠ جنيهاً نزلأً، أكرمته به لا في مقابلة عمل.

استقرَّ قرار الرجل في وادي النيل بعد أسفار بعيدة، ومشاغل عديدة، في حياة الميادين والكفاح.

ولم تكن كل هذه الشواغل لتعوق جمال الدين عن متابعة الدراسة العلمية العالمية التي كان له إليها نزوع شديد، ولقد كان ينتقل في البلاد مصحوباً بكتبه، وكان قارئاً نهماً لا يشبع، عرف في شبابه كل المؤلفات القديمة في الفارسية والعربية، ولم يكن يجهل أي كتاب من الكتب الحديثة ترجم إلى لغة شرقية.

لم يكن جمال الدين ذا لهو ولا شهوانياً، وكان قليل الطعام يتبلغ منه بوجبة النهار، ويكتفي بمنقوع الشاي يشربه مراراً، وكان مغرماً بتدخين السיגار، ولم يكن لخلة النساء وسحرهن سلطان على قلبه الحديدي.

شهد في مصر أواخر عهد إسماعيل وأوائل عهد توفيق، إذ كانت تتمخص البلاد عن أزمات اقتصادية واجتماعية وفكرية وسياسية؛ بسبب إسراف إسماعيل وضعف توفيق، وبما بدا من التصادم بين القديم والحديث، وبسبب الدسائس السياسية وتدخل الأجانب. كل ذلك هيأ الوسائل لواهب رجل أُوتى حظاً عظيماً من سُمُّ النفس، ومتانة الخلق، وتوقد الذكاء، وقوة الذاكرة، ودقة الملاحظة، إلى علم غزير، ونشاط لا يكل، وشجاعة لا تعرف الخوف، وبلغة في الكتابة والخطاب خارقة للعادة، مع نفوذ ساحر وسمت مهيب جليل، جذبت إلى السَّيِّد مزاياه الباهرة قلوب كثير من الأمراء وأرباب المقامات العالمية وأهل العلم والأدب، فكانوا يوافونه في القهوات والمنتزهات العامة حيث كان سامره مجلس علم وحكمة وأدب وسياسة.

والتف حوله أذكياء الطلاب، ومن بينهم عدد من خيرة مجاوري الأزهر، فكان يلقي عليهم دروساً في الأدب والمنطق والتوحيد والفلسفة وعلم التصوف وأصول الفقه والفلك، في مسامرات خالية التكاليف والقيود.

وكانت مدرسته بيته، ولم يذهب إلى الأزهر قط مدرساً، وإنما كان يذهب إليه زائراً، وأكثر ما كان يزوره في يوم الجمعة.

وكان يحمل تلاميذه على العمل في الكتابة وإنشاء الفصول الأدبية والاجتماعية والسياسية، فاشتغلوا على نظره، وبرعوا بين يديه، وكانوا طليعة النهضة الأدبية في مصر، وكانوا مؤسسي بنيانها.

وانظم السيد في الماسونية وتقدم في درجاتها، ثم أنشأ محفلاً وطنياً جمع فيه نبهاء طلبه ومربيه حتى صار عدّ أعضائه نحو ٣٠٠، وكان هو رئيسه يمرن فيه تلاميذه على الخطابة ويلهمهم مبادئه ويعدهم للعمل، ويوقظ فيهم عواطف الوطنية ويعلّمهم الشفف بحياة الحرية وبالنظم الدستورية.

وقد هيأ من تلاميذه طبقة ذات حرية وجرأة في السياسة والأدب والإصلاح، وأخذ يتسلل بالحركات السياسية، وكان الرجل سياسياً، يعتبره أشياعه وطنياً عظيماً، ويعتبره خصومه مهيجاً خطراً !!

وفي سنة ١٨٧٩هـ/١٢٩٦م صدر أمر الخديوي توفيق بإخراجه من القطر المصري هو وتابعه أبو تراب؛ لأن مساعيه السياسية أوقعت عليه صدر المستر فيفان قنصل إنجلترا الجنرال، وتعلّمه الفلسفي هيج على الجامدين من الأزهريين، فجاءه الكيد من هنا وهناك !!

أبحر السيد من السويس إلى «بoshiher»، ومنها ذهب إلى حيدر أباد، فأقام عاماً كتب في أثنائه مذكراتٍ كثيرةً باللغة الفارسية والأفغانية، وكتب في ذلك الوقت بالفارسية رسالة الرد على الدهريين.

ولما كانت الثورة العربية دُعي من حيدر أباد إلى كلكتا، وألزمه حكومة الهند بالإقامة فيها حتى انقضى أمر الفتنة، وكانت الحكومة الإنجليزية تظن أن له فيها يدًا، ثم أبى له أن ينطلق إلى حيث شاء، فاختار الذهاب إلى أوروبا وقصد مدينة لندنرا، فأقام فيها أيامًا قلائل، ثم انتقل إلى باريس وأقام بها ما يزيد على ثلاثة سنوات.

وكتب في طريقه من بورسعيد إلى الشيخ محمد عبد يخبره بذهابه إلى لندنرا، ويطلب إليه أن يرسل الرد بعنوان جريدة الشرق والغرب، أو المستر بلانت.

وهذا يدل على أن السيد ذهب من الهند إلى لندنرا، خلافاً لما نقله جولد شهير في دائرة المعارف الإسلامية عن المستر براون في روايته عن المستر بلانت «من أن السيد ذهب من الهند إلى أمريكا فأقام بها بضعة أشهر على عزم أن يتّجنس بالجنسية الأمريكية، ولكنه - فيما يظهر - لم ينفّذ هذا العزم»، فإننا نجده في لندنرا سنة ١٨٨٣ حيث أقام زمناً قصيراً، ثم انحدر إلى باريس مع صديقه ومُريده الأمين محمد عبد، الذي صار بعد ذلك مفتى مصر.

والأقرب إلى الصحة أن **السيد** جمال الدين وصل باريس آتياً من لوندرا سنة ١٨٨٣؛ كما ذكره جورج كوتشي في رسالته التي عنوانها: «الشيخ جمال الدين الأفغاني ودخوله صاحب الجلالة الإمبراطورية السلطان عبد الحميد الثاني».

أما الشيخ محمد عبده فقد وافى أستاذه في باريس مدة مقامه بها — على ما صرخ به في ترجمته لأستاذه في فاتحة تعربيه لرسالة الرّد على الّدّهريّين.

وكان ذلك في أواخر سنة ١٨٨٣؛ لأنّ الشيخ عبده سافر إلى سوريا منفيًا في أواخر سنة ١٨٨٢، وبعد نحو عام من مقامه هناك دعاه إلى باريس فسافر إليها. وكان **السيد** جمال الدين في باريس منذ أول سنة ١٨٨٣ ولقي الفيلسوف رينان في ذلك العهد، كما يقول رينان نفسه في رده على **السيد** جمال الدين المكتوب في ١٨ مايو سنة ١٨٨٣:

لقد تعرفت بالشيخ جمال الدين منذ نحو شهرين، فوقع في نفسي منه ما لم يقع لي إلا من القليلين، وأثر فيَ تأثيرًا قويًا، وجرى بيننا حديث عقدت من أجله النية على أن تكون علاقة العلم بالإسلام موضوع محاضراتي في السربون، والشيخ جمال الدين رجلٌ أفغاني لا سلطان عليه لمؤثرات الإسلام، وهو ينتمي إلى ذلك الجنس القوي المستوطن إيران العلية الواقعة على حدود الهند، والتي لا يزال الذهن الاري يعيش فيها مطويًا في غلالة رقيقة من الإسلام الرسمي، والشيخ جمال الدين نفسه خير دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية القائلة بأن قيمة الأديان بقيمة الأجناس التي تعتنّقها، وقد خُلِّلَ إلىَ من حرية فكره ونباله **شيمه** وصراحته وأنا أتحدث إليه أنتي أرى — وجهاً لوجه — أحدَ من عرفتهم من القدماء، وأنني أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو أحد أولئك الملحدين العظام الذي ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار.

أقى رينان محاضرته في الإسلام والعلم في مارس ١٨٨٣، ونُشرت عقب إلقائها في جريدة الديبا، فأرسل **السيد** جمال الدين إلى مدير هذه الجريدة رداً بالعربية تُرجم إلى الفرنسية ونُشرَ بعد بضعة أسابيع، وعَقَبَ عليه رينان بِرَدٍ مملوء باللطف والمجاملة.

أخذ **السيد** جمال الدين ينشر أفكاره السياسية مهاربًا تدخل بعض الدول الغربية في شؤون الأمم الإسلامية، خصوصاً الهند ومصر، في مقالات تداولتها الجرائد الكبرى، وامتدت إليها أنْعَانُ الدوائر السياسية المشغولة بشؤون الشرق.

على أن أكبر مظهر لنشاط جمال الدين السياسي والأدبي في باريس كان في إنشاء «العروة الوثقى»، وهي مجلة أسبوعية عربية، كان هو مدير سياستها والشيخ محمد عبد محربها، وكانت تتولى الإنفاق عليها جمعية اسمها «جمعية العروة الوثقى» ذات فروع في الهند ومصر وغيرهما من أقطار الشرق الإسلامي، تعمل على إنهاض الدول الإسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شؤونها، ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الأقطار الشرقية، وتقليل ظلها عن رعوس الطوائف الإسلامية، وقد أخذت هذه الجريدة من قلوب الشرقيين — عموماً — وال المسلمين — خصوصاً — ما لم يأخذ قبلها واعظ ولا تنبيه منبه، وهي ذات أثر في كل ما جَدَّ بعدُ من حركات الوطنية والحرية في بلاد الشرق. وقد لقيت هذه الجريدة كل مصادر في الهند ومصر، حتى كانت توضع في غلاف لتصل إلى من يُراد إيصالها إليه، وحتى أُعلن في الجريدة الرسمية المصرية أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغَرِّم خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهاً! وقد نشر منها في ثمانيَّة أشهر ١٨ عدداً، صدر آخرها في ذي الحجة ١٣٠١.

خلفَ صوت العروة الوثقى بما أرصدَ لها إنجلترا من عنٍ وإرهاق، وترك الشيخ محمد عبد باريس عائداً إلى سوريا.

أما السيد جمال الدين فبقي في أوروبا متنقلاً بين لوندرا وباريس، يتصل بالعلماء والكتاب ورجالات السياسة، وينشر فصوله ومقالاته في الجرائد الكبرى. وجمع المستر بلانت بينه وبين اللورد سالسبوري واللورد تشرشل للمفاوضة في أمر ثورة المهدى في السودان، وهي يومئذ شغل القوم الشاغل، لكن التوفيق بين وجهات نظر متناضحة لم يكن مُستطاعاً.

وفي جمادى الأولى ١٣٠٣ سافر السيد إلى البلاد الإيرانية بدعوة من الشاه ناصر الدين، فنال مكانة سامية، وتراحم حوله الأمراء والمجتهدون والكبار، وتمكن من نظم كثير منهم في سلك الماسونية.

وكانَما غشيت الشاه من ذلك ريبة، وملأه الخوفُ من تعاظم السلطان الروحيٌّ لجمال الدين على شعبٍ أصبح يحيطه بإجلاله ومحبته.

ولح جمال الدين تنكر الشاه له، فغادر بلاد فارس إلى روسيا، فحل من الشعب الروسي محل الكرامة، وجعل تلقفه الماجمُّع العالٰية، ونشر في الجرائد الروسية فصولاً تردد في عالم السياسة صداتها.

ثم سافر إلى باريس ليزور معرضها الكبير سنة ١٨٩٩، فالتقى في منخ بالشاه ناصر الدين عائلاً من باريس، وما زال الشاه يزين له العودة إلى فارس حتى لأن شماسه وأجاب الدعوة.

وقد سارع الشعب الإيراني إلى الالتفاف حول السعيد من جديد، على وجه أبعث للمهابة وأدَّى على الحُبِّ والثقة، ولم يقتصر أمر مؤثريه على سماع مسامراته التي كان يبيث فيها معارفه وأفكاره الحرة، بل جعل الشعب يتسلَّى به إلى تحقيق مطامحه في إصلاح الإدارة وإقامة العدل والقانون، ويدُّنْهُ نهضة إصلاح يكرهها الصدر الأعظم ويخشى عواقبها على سلطانه، فوسوس للشاه حتى غَيَّر قلبه على السعيد.

هناك خرج جمال الدين إلى «شاه عبد العظيم»، وهو مكانٌ على بعد عشرين كيلو متراً من طهران به مقامٌ مقدس، لكنه لم يخل إلى راحة هناك ولا سكون، بل جعلت طوائف المستنيرين من الطبقات المختلفة حتى طبقات الشبان من الضباط تشد رحالها إلى «شاه عبد العظيم».

أدرك الشاه ناصر الدين الفزع، وخفَّ أن تُزلزل تلك الحركة قواعده سلطانه المطلق، فبعث إلى جمال الدين بخمسينيَّة من فرسانه مُدجَّجين بالسلاح اقتحموا عليه — وهو عليلٌ في فراشه — وقاده خمسون منهم إلى ما وراء الحدود.

أقام جمال الدين في البصرة زماناً حتى أبلَّ من سقامه، ولم يزل يواي أنصاره في فارس بكتبه؛ يثير فيهم الحمية ويؤجج بين جوانحهم نارَ الوطنية، وكأنَّ ما ناله من عسف الشاه قد أثار حفيظتهم.

وفي سنة ١٨٩٠ كانت حكومة فارس جعلت حق احتكار التنباك لشركة إنجلizية، فاغتنم الفرصة السعيد جمال الدين وكتب خطاباً لميرزا حسن الشيرازي رئيس المجهدين، يعيَّب فيه على الحكومة هذا العمل الضار بثروة البلاد الممكِّن لأعدائها. وكان من أثر هذا الخطاب أنَّ أصدر المجهد الشيرازي فتوى حَرَمَ بها على كل مؤمن تدخين التنباك ما لم تعدل الحكومة عن مشروعها، وقد اضطررت إلى العدول عنه ودفعت للشركة تعويضاً.

وكذلك قويَّت دعوةُ الحرية والإصلاح الدستوري في فارس، حتى طاحت بعد بِرَأس الشاه ناصر الدين.

وفي سنة ١٨٩٢ ذهب السعيد إلى لوندرا مرة أخرى وأقام فيها شهراً، موجهاً كل همته إلى محاربة الشاه ناصر الدين بقلمه ولسانه، داعياً إلى تخلص الشعب الفارسي

من ظلم الحكم الاستبدادي، وكان من المؤسسين للمجلة الشهرية «ضياء الخافقين» التي كانت تصدر بالعربية والإنجليزية، وكان من أكثر العاملين فيها نشاطاً. وأرسل السلطان عبد الحميد إلى **السيّد جمال الدين** بوساطة سفير تركيا في لوندرا كتاباً خلاباً؛ يستدعيه إلى الأستانة، فتردد **السيّد** واعتذر، لكن السلطان وجه إليه رسالة ثانية أكثر خداعاً ودهاءً، فأجاب برسالة برقية أنه **مُلّ** دعوة صاحب الجلالة، على أن يؤذن له بالعودة إلى أوروبا عقب الحظوة بالمقابلة.

وسافر **جمال الدين** إلى القسطنطينية، فاستغواه السلطان عبد الحميد، وهياً له منزلاً جميلاً يقع على ربوة نشان طاغ، غير بعيد من قصر يلدز، وفرض له ٥٧ جنيهاً تركياً راتياً شهرياً.

وقضى **السيّد** **جمال الدين** خمس سنين من حياته في الأستانة «يعيش بين مظاهر حَدَّاعة من عطف السلطان، ودسائس لا تحصى يبيتها له رجال القصر! وكم تضرع إليهم أن يسمحوا له بالسفر، فأمسكوه بقية عمره في إسار مموه بالذهب.» ذلك وصف سائح ألماني زاره سنة ١٨٩٦.

ومات **جمال الدين** يوم الثلاثاء ٩ مارس سنة ١٨٩٧ الساعة ١٢ والدقيقة ١٣ إثر أوجاع مضنية، وعقب موته أرسل السلطان بعض موظفي قصره ليستحونوا على أوراقه ومؤلفاته.

ويؤكد أكثر الإيرانيين، وغيرهم من ترجموا لـ **جمال الدين**؛ أن موته لم يكن طبيعياً، وأنه لقح في شفته بمادة سامة، سبب لها حالة مَرَضية تشبه السرطان، ويقولون: إن ذلك من كيد أبي الهدى.

وأمر السلطان بدفنه بدقنه لساعتين من وفاته، فسير نعشة بين جموع عديدة من الشرطة؛ مخافة فتنة مباغتة من أنصاره الذين كانوا في ريب من أسباب موته.

هكذا مات **السيّد** **جمال الدين** وشيعت جنازته، بعد أن عاش رجلاً ممتازاً، مؤثراً في حوادث الشرق الإسلامي خلال عشرين سنة أكثر مما أثر فيها أي رجل آخر من أهل زمانه.

وقد عاش متنقلاً في البلاد منذ طفولته، فزار بلاد العرب ومصر وتركيا، وأقام بالأفغان والهند وفارس، واتصل بحكومة الأفغان في شبابه مشتركاً في حروبها الداخلية، كما اتصل بحركات النهوض في كل بلاد الشرق التي حلّ بها، وزار كثيراً من العواصم الأوروبية وكتب في جرائدتها، وخطب في مجامعتها، وخلط رجال السياسة والعلم والأدب

فيها، وشَهَدَ دسائس الاستعمار الإنجليزي والأفغاني، والهند، وطارده الإنجليزُ في مصر وغيرها، وأماتوا مجلة العروة الوثقى في مهدها، ووضعوا العقبات في سبيله أَنَّى سار! من أجل ذلك لم يتعُّق ببِلِّي من البلاد على أنه وطن، ولم تدخل فكرة الوطنية بهذا المعنى في مذهبِه الاجتماعيِّ، ومن أجل ذلك اشتَدَ كُرْهُهُ للإنجليز وعاش عدُّوا لهم لدوِّاً. هو قد رأى الرقِّيَّ في بلاد أوروبا، ورأى الانحطاط في بلاد الشرق التي زارها، شهد نفوذ الأجنبي فيها وسُوءُ أثرِ الحكم الاستبدادي؛ فتوجَّهَ فكرته إلى إنهاض تلك البلاد جملةً وفُرَادَى، ولهذه المالك الشرقيَّة الإسلامية حُبٌّ في نفسه ينظمها جمِيعاً. أما أساس النهوض لهذه البلاد عنده فهو خلاصُها من سلطان الأجنبي، وخلاصُها من الحكم الاستبدادي، ثم تلائمها بنوعٍ من الوحدة يقوى التناصر بينها، ويُكفل لها الغلب.

وإن استيفاء النظر في تاريخ السَّيِّد جمال الدين هو — كما يقول الأستاذ براون — إحاطة بتاريخ المسألة الشرقية كلها في الأزمان الحديثة، يدخل في ذلك تاريخ الأفغان والهند، ويدخل فيها — بوجهٍ أَخْصَّ — تاريخُ تركيا ومصر وإيران، وفي هذه البلاد الثلاثة الأخيرة لا يزال تأثيره حِيًّا.

وإذا كان قبر السَّيِّد جمال الدين الأفغاني ظل في الأستانة مهَّدَّماً مهجوراً حتى جاءه في العام الماضي مستر كرين الأميركي فشيده وأظهره، فبحسب السَّيِّد أن مبادئه بعد مماته وموت الطغيان في الأستانة قامت حِيَّةً مشرقة على أطلاله.

حسب جمال الدين من عظمةٍ ومجدٍ؛ أنه في تاريخ الشرق الحديث أول داعٍ إلى الحرية، وأول شهيد في سبيل الحرية.

الشيخ محمد عبد

في محلة نصر، إحدى قرى مركز شبراخيت بمحافظة البحيرة، ولد الشيخ محمد عبد من أب اسمه عبد خير الدين، كان من رزقاً بسطة في جسومهم وقوه، ومرنوا على الرماية والغرسية، وما إليها، فكسروا من الهيبة بقوتهم وبطشهم فوق ما كان لهم من عزٌّ ومال. أما أمُّه فالسيدة جنتية أم ذات ولد، من حصة شيشير، من مركز السنطة بمحافظة الغربية، تزوجها أبوه في هجرته مطارداً من بعض الحكام.

وحفظ الشيخ محمد عبد القرآن في بلده، ثم ذهب إلى طنطا فجوده في الجامع الأحمدي، وصُدِّ عن طلب العلم، فعاد إلى بلده ليشتغل بالزراعة، وتزوج يومئذٍ – على حداثة سنِّه.

وكان في خلوة أبيه رجلٌ متصوفٌ يُدعى الشيخ درويش خضر كفف من جماعة الشباب، فجعله متصوفاً، ورَدَّهُ إلى طلب العلم في طنطا.

ورحل بعد ذلك الشيخ محمد عبد إلى الأزهر، فحضر دروس كبار العلماء في مختلف العلوم الأزهرية مع الاشتغال بالتصوف، وجاء إلى مصر السيد جمال الدين الأفغاني فحضر دروسه ولازمه، وظهرت في وقت قصير آثار انتفاعه بعشرته ومعارفه، فألف في التصوف «رسالة الواردات»، ثم ألف حاشية على شرح التصوواني على العقائد العضدية «في التوحيد»، وأخذ يكتب فصولاً في الجرائد استرعت إليه الأنظار.

ثم نال شهادة العالمية من الدرجة الثانية بعد امتحان ظهر فيه أن الشيخ ينقمون عليه نزعاته الفكرية المتأثرة بمذهب أستاذه.

وعين على أثر ذلك مدرساً في مدرسة دار العلوم وفي مدرسة الألسن الخديوية، ولما نُفي السَّيِّد جمال الدين من مصر عُزل تلميذه وأُمر بالمقام في بلده لا يبرحه، وعفي عنه فُجعل من محرري الجنال الرسمي «الوقائع الرسمية» ثم عين رئيساً للتحرير. وجاءت الثورة العربية، فحُوكم مع زعمائها، وحكم عليه بالتفوي ثلاث سنين وثلاثة أشهر، قضى شطرًا منها في سوريا، ثم دعاه أستاذه السَّيِّد الأفغاني إلى أوروبا فأصدرها في باريس معًا جريدة «العروة الوثقى» التي لم تعيش إلا نحو ثمانية أشهر.

ثم رجع الشيخ إلى بيروت فُعيّن أستاذًا في المدرسة السلطانية، وكان يشتغل مع التدريس بالتأليف والكتابة، فألف «رسالة التوحيد» ونقل إلى العربية «رسالة الرَّد على الدَّهْرِيِّين» التي كتبها السَّيِّد جمال الدين الأفغاني بالفارسية، وشرح «نهج البلاغة» و«مقامات بديع الزمان الهمذاني» ونشر في الجرائد مقالات عديدة. وفي بيروت تزوج زوجته الثانية بعد وفاة زوجته الأولى.

وعاد من منفاه فُعيّن قاضياً أهلياً، فمستشاراً في محكمة الاستئناف الأهلية، ثم جُعل عضواً في مجلس إدارة الأزهر، وهو أول مجلس أسس ليكون رسول الإصلاح، ثم عين مفتياً للديار المصرية، فظل في هذا المنصب حتى أدركه الأجل. وفي عهد تَوْلِيه الإفتاء كتب في إصلاح المحاكم الشرعية تقريراً جليلاً وأصدر فتاوى ذات شأن، ووضع تفاسير جزء عمٌ وتفاسير لبعض السور ولبعض الآيات المشكلة، وألف «كتاب الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» وكتب للمجلات والجرائد فصولاً قيمة في موضوعات دينية وغير دينية.

هذه الصورة المُجملة من تاريخ الشيخ محمد عبده؛ تبين مناصبه وتعُدُّ مؤلفاته، لكنها لا ترسم جوانب عظمته؛ فإن المناصب والكتب ليست مجلية عظمة الشيخ محمد عبده، وإن كان ترك نفحة من النبل والعلو في كل ما اتصل به.

تخلد ذكرى العالم الكُتُب يودع فيها آيات عقريته، ويخلد الأثر الفني ذكرى الفنان، أما المصلح فهو يهيء للجماعة مثلاً أعلى لم تعرفه من قبله، ويحاول أن يصرف إلى ذلك المثل القلوب محاولة تظهر فيها قوّة نفسه وقوّة عزيمته، ويظهر فيها فيض ما وهب من عقريّة وإلهام.

والشيخ محمد عبده مصلح جريء، حاول الهدم والبناء في أقدس هيكل عند البشر، فيما يعتبره الناس ديناً.

عرض لذلك في الشرق موطن العواطف الدينية، وبين المسلمين أشد المدينين بدينهم
كثيراً وأكثراً غيرةً وحفاظاً على ما له صورة دين.
أرسل صيحته في الأَزَهَرِ تدوِّي بين شيوخ إن لم يكونوا يومئِذ هيئة كبار العلماء،
فلعلهم لم يكونوا دون هُؤلاء جموداً.
ولم يبال الأَسْتَاذ بما لقي من الأَذى، وقد لقي من الأَذى كثِيرًا.

كان الشيخ محمد عبده رجلاً مربوع القامة أو فوق ذلك قليلاً، ممتلي الجسم متين البنية
شديد العضل رشيق الحركة نشيطها.
لامح وجهه جميلة في جملتها وتفصيلها، تزيدها جمالاً ومهابةً تلك اللحية البيضاء
النضيرة المطيفة بمحياً مشرق، ذي جبهة غراء انحر الشعر عنها رويداً وارتقت فسحة
ناطقة بالعقل والإرادة والذكاء.
ولعيينيه المعتدلتين في السعة من غير ضيق؛ بريقُ ساحرٌ، يملأ الصدر هيبةً وإعجاباً
وحبًا.

وأشهد لقد كان جمال الشيخ محمد عبده من الجنود التي سخرها الله لعقربيته،
وكان صوتُه العذبُ المؤثرُ من جنود عبقربيته أياً، كنت طالباً من صغار الطلاب أيام
جاء الشيخ محمد عبده إلى الأَزَهَرِ، وكان أَسْتَاذَتَنَا، عفا الله عنهم، لا يفتؤن يذمون لنا
الشيخ ويتمثلونه خطراً على الدين وأهله داهماً، فتتأثر بذلك عقولنا الطفولة، وكانت أَفْرُ
يَدِينِي مِنْ أَنْ أَلْقَى الأَسْتَاذَ أو أَسْتَمع لدروسه مع أنه صديق لوالدي.
وحضرت درسه مرة لأُشهد كيف تشييه وجوه الملحدين وتشييه معها عقولهم وقلوبهم.
فلما رأيتُ الرجل بالرواق العباسى وسمعته يفسر كتاب الله، قلت — منذ ذلك اليوم:
اللهم إن كان هذا إلحاداً فأنا أول الملحدين:

إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أني راضي

كان الشيخ محمد عبده متميّزاً من ناحية الكمال الجسماني بالفطرة والوراثة
والنشأة الريفية، ويظهر أنه كان ذا منزلة خاصة عند أبيه؛ لأنَّه أصغر أبناء أمه
وأنجب إخوته، فتربي على شيء من الحرية يكون عادةً للأبناء المميزين ولا يكون لغيرهم؛
فيُنشئون ذوي استقلال وجرأة وإقدام، ولا ينكر أثر التربية الصوفية في نفس الأَسْتَاذ؛
فإنها وجهت كل عواطف الشَّباب في نفس الفتى إلى اللذائذ القدسيَّة، لذائذ العارِفين.

وإذا كانت التّربية الحديثة تدعو إلى تلطيف السر بأنواعٍ من الرياضة البدنية والروحية ...
قال ابن سينا في الإشارات:

العارف هش بش بش بسامٌ، وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق وبكل شيء فإنه يرى فيه الحق.

العارف شجاعٌ، كيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت؟ وجوار، وكيف لا وهو بمعزل عن محبة الباطل؟ وصفاح، وكيف لا وذكره مشغول بالحق؟

هذه التعاليم الصُّوفية من شأنها أن تربى جانب الوجدان، وتلطف السر وتجمل النفس وتزينها، ولا جرم كان الشيخ محمد عبده صوفيًّاً الأخلاق، وقد هذبت من صوفيته تربيةُ السَّيِّد جمال الدين الأفغاني، وزاده ما استفاد من الأسفار وتعلم اللغة الفرنسية تهذيباً.

قال المرحوم قاسم بك أمين في وصف الأستاذ: «بلغت فيه طيبة النفس إلى درجة تكاد تكون غير محدودة، كان يجذبه الخير كما يجذب المغناطيس الحديد فيندفع إليه ويسعى إلى كل نفع للغير عام أو خاص، كان ملحاً للفقراء واليتامى والمظلومين والمرفوتين والمسابين بأى مصيبة، وأهل الأزّهر الذين هم أكثر الناس احتياجاً إلى المساعدة؛ لأنهم في وسط المدينة الحاضرة المتأخرن العاجزون عن الدّفاع عن أنفسهم في ميدان حياتنا الجديدة، يبذل إليهم ماله ويسعى لهم عند ولادة الأمور بهمة لا تعرف الملل، كأنّما كان يسعى لأعز إنسان لديه، بل كان يسعى لصاحب الحاجة وهو يعلم أنه أساء إليه وقدح فيه، وتحالف مع خصومه في ترويج عبارات القذف والنميمة التي لم تقطع عنه يوماً مدة حياته، كان الأستاذ يرى أن الشر لا فائدة منه مطلقاً، وأن التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هما أحسنُ ما يعالج به السوء، ويفيد في إصلاح فاعله.»

اتصل الشيخ محمد عبده بالمناصب الحكومية وبالشئون السياسية وبالحركة العلمية والأدبية وبأعمال البر، وكان له في كل هذه الميادين نشاطٌ مثمر ورأيٌ مصلح، وعزم لا يعرف دون الكمال تراجعاً ولا فنوراً، لكن الميدان الذي أنفق في رحابه الشيخ محمد عبده خير ما وهب من صحة وهمة وعلم وفصاحات هو ميدان الإصلاح الديني؛ دعا الشيخ محمد عبده إلى الإصلاح الديني باعتباره أساساً لكل إصلاح في الشرق.

وتنتظم دعوة الشيخ إلى الإصلاح الديني أموراً ثلاثة:

- (١) تحرير الفكر من قيد التقليد؛ حتى لا يخضع العقل لسلطان غير سلطان البرهان، ولا يتحكم فيه زعماء الدنيا ولا زعماء الأديان.
- (٢) اعتبار الدين صديقاً للعلم لا موضع لتصادمهما؛ إذ لكل منهما وظيفةٌ يؤديها، وهما حاجتان من حاجات البشر، لا تُغْنِي إدحاهما عن الأخرى.
- (٣) فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى.

ومنابع الإسلام في سذاجته التي ورد بها من صاحب الدين نفسه هي: الكتاب، وقليلٌ من السنة في العمل.

هذا هو الأصلُ الذي ينبغي أن يرد إليه الدين الإسلامي في مذهب أستاذنا. ولما كان الثابت بالتواتر من السنة قليلاً، فقد صرَّحُ الشيخُ في تفسير سورة الفاتحة «أنه يجب أن يكون القرآن أصلاً تُحمل عليه المذهب والأراء في الدين». لهذا تَوجَّهَتْ عزيمة الشيخ في أُخريات حياته إلى العناية بتفسير القرآن عناءً كانت تكاد تستغرق كل مجهوده للإصلاح الديني.

وجهة الطرافة في تفسير الأستاذ هي حُسن الطَّريقة في البحث ولطف التصوير لمعاني القرآن على ما يُوافق ذوق هذه العصور وإدراكتها حاجاتها. والشيخ في كِلَّ الأمرين متأثرٌ بمنهاج الفكر الحديث.

ولا شك أن الشيخ قد تأثر بالحياة الغربية على وجهٍ ما في حياته العقلية ومعيشته الخاصة، ذلك بأنه تعلم اللغة الفرنسية وسافر إلى أوروبا عدة مرات، وعاشر الأوروبيين في مصر وفي غير مصر، فاستفاد من مخالطته وسياحاته ومن مطالعاته لكتب الغربيين في الفنون المختلفة، وظهر أثر ذلك في أفكاره وكتاباته ودعواته الإصلاحية.

ولا يسع المؤرخ حين يترجم للشيخ محمد عبده أن يُغفل الإشارة إلى ما بلغه الرجل في حياته من عِزٌّ وجاه وحرمة موفورة، كان للشيخ محمد عبده خصوم يكرهونه ويكيدون له ويضعون له العقبات في سبيل إصلاحه، ولكن أحداً لم يكن يستطيع أن يُغْضَسْ منْ جلال الشيخ أو يُنْكَر عليه منزلته الرفيعة في النُّفُوس.

كان الشيخ محمد عبده بين الطوائف الرّاقية من المصريين وبين طوائف الأجانب في مصر محبوبًا عظيًّا معترفًا له بمقام الإمامة الذي لا يساميه مقامٌ، وانتشر صيته في أقطار الشرق وتوجهت إليه الأنطـار.

ولو شاء الشيخ محمد عبده لكان ذا غنىًّا، ولترك لأرمنته المحترمة المريضة ثروة تكفل لها من بعده رفه الشـيخوخة وتصونها من ذلة العـسر، ولكن الأستاذ الإمام كان أكبر نفسًا وأشد احتراراً للدنيـا من أن يبذل جهـده في جـمع المال، فعاش عظيـماً فقيرـاً، ومات فقيرـاً عظيـماً.

العروة الوثقى

المقالات والفصلن

فاتحة الجريدة

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْبَنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

هذا ما تمده العناية الإلهية من قول الحق، متعلقاً بأحوال الشرق، وعلى الله المتكل في نجاح العمل.

خفيت مذاهب الطامعين أرماناً ثم ظهرت، بدأت على طرق ربما لا تنكرها الأنفس ثم التوت، أوغل الأقوباء من الأمم في سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر، وسحروا ألبابهم حتى أذهلواهم عن أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام، وبلغوا بهم من الضيم حداً لا تحتمله الفنوس البشرية.

ذهب أقوام إلى ما يسوله الوهم، ويفري به شيطان الخيال، فظنوا أن القوة الآلية، وإن قلَّ عمالها، يدوم لها سلطانٌ على الكثرة العددية وإن اتفقت آحادها، بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير في التزر اليسير، وهو زعمٌ يأبه القياس، بل يُبطله البرهان: فإنَّ تقلبات الحوادث في الأزمان البعيدة والقريبة ناطقةٌ بأنه إنْ ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت في سواد أمة عظيمة، ونسقطت تلك العشيرة اسمها ونسبتها، فلم يجز في زمن من الأزمان إمحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها في العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة، وإن بلغت القوة أقصى ما يُمثّله الخيال.

والذي يحكم به العقل الصريح ويشهد به سير الاجتماع الإنساني، من يوم علم تاريه إلى اليوم: أن الأمم الكبيرة إذا عرها ضعف لافراق في الكلمة، وغفلة في عاقبة لا تُحمد، أو ركون إلى راحة لا تدوم، أو افتتان بنعيم يزول؛ ثم صالت عليها قوة أجنبية، أزعجتها ونبهتها بعض التنبية، فإذا توالّت عليها وخزات الحوادث، وأقلقتها آلامها؛

فزعت إلى استبقاء الموجود ورد المفقود، ولم تجد بدًّا من طلب النجاة من أي سبيل، وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية، وهي ما تكون بالائم أفرادها، والتحام آحادها، وأن الإلهام الإلهي والإحساس الفطري والتعليم الشرعي ترشدها إلى أن لا حاجة لها إلى ما وراء هذا الاتحاد، وهو أيسر شيء عليها.

إن **النُّفُوس الإنسانية**، وإن بلغت من فساد الطبع والعادات ما بلغت، إذا كثُر عددها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم إلا إلى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الإمكان، فإذا تجاوز الاستطاعة كرت **النُّفُوس** إلى قواها، واستأسد ذئبها، وتتمر ثعلبها، والتمسّت خلاصها، ولن تعدم عند الطلب رشادًا.

ربما تخطئ مرة ف تكون عليها الدائرة، لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط والاحتراس من الوقوع في مثله، فتصيب أخرى فيكون لهم الظفر والغلبة، وإن الحركة التي تتبعث لدفع ما لا يُطاق إذا قام بتذيرها قيمٌ عليها، ومدبرٌ لسيرها، لا يكفي في توقيف سريانها أو محو آثارها، قهر ذاك القيم وإهلاك ذاك المدبر، فإن العلة ما دامت موجودة لا تزال آثارها تصدر عنها، فإن ذهب قيمٌ خلفه آخرٌ أوسع منه خبرة وأنفذ بصيرة، نعم، يمكن تخفيف الأثر أو إزالتُه بازالة عنته ورفع أسبابه.

جرت عادة الأُمم أن تألف من الخضوع لمن يبيانيها في الأخلاق والعادات والمشارب، وإن لم يكلفها بزائد عما كانت تدين به لمن هو على شاكلتها، فكيف بها إذا حملها ما لا طاقة لها به؟ لا ريب أنها تستنكره، وإن كانت تستكبره، وكلما أنكرته بعدت عن الميل إليه، وكلما ابتعدت منه بجهة كونه غريباً تقرب بعضها من بعض، فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة، وما كان ذلك بغرير.

إن مجاوزة الحد في تعليم الاعتداء تُنسى الأمم ما بينها من الاختلاف في الجنسية والمشرب، فترى الاتحاد لدفع ما يعُمُّها من الخطر ألمَ من التحُّب للجنس والمذهب، وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية إلى الاتفاق أشدَّ من دعوتها إليه للاشتراك في طلب المنفعة.

أَبْعَدَ هذا يأخذنا العجب إذا أحسينا بحركةٍ فكرية في أغلب أنحاء المشرق في هذه الأيام؟! كلُّ يطلب خلاصاً ويبتغى نجاةً، وينتحل لذلك من الوسائل والأسباب ما يصل إليه فكره على درجته من الجودة والأفن، وإن العقلاء في كثيرٍ من أصقاعه يتفكرون في جعل القوى المترفة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل.

بلي، كان هذا أمراً ينتظره المستبصر وإن عمي عنه الطامع. وليس في الإمكان إقناع الطامعين بالبرهان، ولكن ما يأتي به الزمان من عاداته في أبنائه، بل ما يجري به القضاء الإلهي من سنة الله في خلقه؛ سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون.

بلغ الإجحاف بالشريين غايتها، ووصل العداون فيهم نهاية، وأدرك المغلب منهم نكايته، خصوصاً في المسلمين منهم، فمنهم ملوك أُنزلوا عن عروشهم جوراً، وذوو حقوق في الإمارة حُرموا حقوقهم ظلماً، وأعزاء باتوا أذلاء وأجلاء أصبحوا حقراء، وأغنياء أمسوا فقراء، وأصحاب أضحو سقاماً، وأسود تحولت أنعاماً، ولم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مسَّها الشر من إفراط الطامعين في أطمامهم، خصوصاً من جراء هذه الحوادث التي بذرت بذورها في الأراضي المصرية من نحو خمس سنوات بأيدي ذوي الطامع فيها، حملوا إلى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولها، وشدوا عليها بما لا تألفه فحارت أبابها، وألزموها ما ليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها، وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليهياوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطعم؛ فكانت الحركة العربية العشواء فاتخذوها ذريعة لما كانوا طالبين، فاندفع بهم سيل المصابع، بل طوفان المصائب، على تلك البلاد، وظنوا بلوغ الأرب، ولكن أخطأ الظن وهُموا بما لم ينالوا.

لم تكن تخدم تلك الحركة في بادئ النظر حتى خلفتها حركة أخرى، وفتح باباً كان مسدوداً، وقام قائم بدعوة لها المكانة الأولى في نفوس المسلمين، بل هي بقية آمالهم، ولا ندري الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة، وربما يوجد من يدرى أن مسببها في حيرة من تلافتها، نعم إنهم غرسوا غرساً، إلا أنهم سيجنون، أو هم الآن يجنون منه حنظلاً ويطعمون منه زقماً، لا جرم هذه هي العواقب التي لا محيد عنها لمن يغالي في طمعه ويغلغل في حرصه، ولو أنهم تركوا الأمر من ذاك الوقت لأربابه وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به والقادرين عليه العارفين بطرق مدافعته أو اقتناء فائدته؛ لحفظوا بذلك مصالحهم، ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوفيرة بدون أن تزل لهم قدم أو ينكس لهم علم.

غير أنهم ركبوا الشَّطَط وغَرَّهم ما وجدوا من تفرق الكلمة وتشتت الأهواء، وهو أندُعْ عواملهم وأفْتَلُها، وما علموا أنه وإن كان ذريع الفتاك إلا أنه سريع العطب، وما أسرع أنْ يتحول عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحدة يسدد لقلوب العتدين، فإنَّ بلاء الجور إذا حل بشطر من الأمة وعوفي منه باقيها؛ كانت سلامة البعض تعزية للمصابين وحجاب غفلة للسالحين يحول بينهم وبين الإحساس بما أصاب إخوانهم، أما إذا عَمَّ الضرر فلا

محالة يحيط بهم الضجر، ويعز عليهم الصبر فيندفعوا إلى ما فيه خيرهم، ولا خير فيه لغيرهم.

إن الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموماً. إن مصر تعتبر عندهم من الأرضي المقدسة ولها في قلوبهم منزلة لا يحلها سواها؛ نظراً لموقعها من المالك الإسلامية، ولأنها باب الحرمين الشريفين، فإنْ كان هذا الباب أميناً كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع، وإلا اضطربت أفكارهم و كانوا في ريب من سلامة رُكْن عظيم من أركان الديانة الإسلامية.

إن الخطر الذي ألم بمصر نفرت له أحشاء المسلمين، وتكلمت به قلوبهم، ولن تزال آلامه تستفزهم ما دام الجرح نغراً، وما هذا بغيرب على المسلمين؛ فإن رابطتهم الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة، وما دام القرآن يُنْتَلُ بينهم وفي آياته ما لا يذهب على أفهم قارئيه فلن يستطيع الدهر أن يذله.

إن الفجيعة بمصر حرقت أشجاراً كانت كامنة، وجَدَّدت أحزاناً لم تكن بالحسبان، وسرى الألم في أرواح المسلمين سريان الاعتقاد في مداركهم، وهم من تذكار الماضي ومراقبة الحاضر يتৎفسون الصعداء، ولا تأمن أن يصير التنفس زفيراً، بل نفيراً عاماً، بل يكون صاحباً تمزق مسامع من أصمهم الطمع.

إن أولى المتغلّبين بالاحتلال من هذه العواقب جيلٌ من النّاس لا كتائب له في فتوحاته إلا المداهنة، ولا فيالق يسوقها للاستملك سوى الحبابة، ولا أئسَة يحفظ بها ما تمتد إليه يده إلا المراضاة، يظهر بصور مختلفة الألوان متقاربة الأشكال كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم ومثبت مراكز الأئمّة ومسكّن الفتن ومخلص الحكومات من غواصي العصيان وواقي مصالح المغلوبين، فكان أول ما يجب عليه ملاحظته في سيره هذا أن لا يأتي من أعماله بما يهتك هذا الستر الرقيق الذي يكفي لتمزيقه رجع البصر وكر النّظر، وأن يتحاشى العنف مع أمّة يشهد تاريخها بأنّها إذا حنقت خنقت، وليس له أن يغتر بعدم مكانتهم وهو يعلم أن الكلمة إذا اتحدت لا تعوزها الوسائل ولا يعدم المتحدون قويّاً شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته، وإن المغيظ لا يبالي في الإيقاع بمناؤه أسلم أو عطّب، فهو يضر ليضر، إن مسه الضر.

إلا أن غشية النهم ذهبت بعقول المنهومين ووقرتْ أسماعهم عن حسيس الهمسات المتراسلة من الهند إلى مكة ومن مكة إلى مصر، والكريّر^١ المتد من مصر إلى مكة ومن مكة إلى الهند، وكلها تتلاقي بين تراقي المغوروين بقوتهم المسترسلين في جفوتهم.

إن الرزايا الأخيرة التي حلّت بأهم موقع الشرق جددت الروابط وقاربتْ بين الأقطار المتباعدة بحدودها المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها، فأيقظتْ أفكار العقلاة وحولتْ أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم، مع ملاحظة العلل التي أدّت بهم إلى ما هم فيه، فتقربوا في النظر وتواصلوا في طلب الحق وعمدوا إلى معالجة الحق وعلل الضعف، راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلاً حسناً يسلكونه لوقاية الدين والشرف، وإن في الحاضر منها لنهاية تغتنم وإليها يسطوا أكفهم، لا يخالونها تفوّتهم، ولئنْ فاتتْ فكم في الغيب من مثلها، وإلى الله عاقبة الأمور.

تألّفتْ عصبات خير من أولئك العقلاة لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار، خصوصاً البلاد الهندية والمصرية، وطفقوا يتحسّسون أسباب النجاح من كل وجه، ويوحدون كلمة الحق في كل صدق، لا ينون في السعي ولا يقصرون في الجهد، ولو أفضى بهم ذلك إلى أقصى ما يُشفع عنه حُيُّ على حياته.

ولما كانتْ بدايّتهم تستدعي مساعدة من يضارعهم في مثل حالهم؛ رأوا أن يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتّعلّمون من مُصابهم ويحبّون العدالة العامة ويُحامون عنها من أهالي أوروبا، وكتبوا على أنفسهم النّظر في أمر السلطة العامة الإسلامية وفروض القائم بها، وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ومناط اليقين وفيها موسم الحجّ العام في كل عام يجتمع إليه الشرقي والغربي، ويتأخّر في موقعها الطاهرة الجليل والحقير والغنى والفقير؛ كانتْ أفضل مدينة تتواردُ إليها أفكارُهم ثم تنبتُ إلى سائر الجهات – والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل.

ولَمَّا كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر وأقرب إلى الظفر؛ يستدعي أن يكون الداعي في كل قلب سليم نفثة حق ودعوة صدق؛ طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم بين مَنْ خفي عن شأنهم من إخوانهم، واختاروا أن يكون لهم في هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم وهو اللسان العربي، وأن تكون في مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا

^١ الكريّر: صوت في الصدر كصوت المختنق والمجهود.

بواسطتها من بَثٌ آرائهم وتوصيل أصواتهم إلى الأقطار القاصية؛ تنبيهاً للغافل وتنذيرًا للذاهل، فرغبوا إلى السَّيِّد جمال الدين الحسيني الأفغاني أن ينشئ تلك الجريدة بحيث تتبع مشربهم وتذهب مذهبهم، فلَبَّيَ رغبَتِهم، بل نادى حَقًا واجبًا عليه لدينه ووطنه، وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها، فكان ما حمل الأول على الإجابة حمل الثاني على الامتثال — وعلى الله الاتكال في جميع الأحوال.

الجريدة ومنهجها

سيأتي في خدمة الشرقيين على ما في الإمكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجبًا للسقوط والضعف، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات، والاحتراس من غوائل ما هو آت.

ويستتبع ذلك البحث في أصول الأسباب ومناشئ العلل التي قصرت بهم إلى جانب التفريط والبواعث التي دفعت بهم إلى مهامه حيرة عميت فيها السبل، واشتبهت بها المضارب، وتاه فيها الخريت،^٢ وضل المرشد حتى لا يدرى السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعه والمزعجات المدهشة والمدهشات القاتلة.

وتكشفُ الغطاء ما استطاعت عن الشُّبه التي شغلتُ أوهام المترفين، ولبَّست عليهم مسالك الرشد، وتزيح الوساوس التي أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم وشفاء أدوايهم، وظنوا أن زمان التدارك قد فات وأن العناية بلغت حدتها. وتحاول إشراك الأفهام أن لا حاجة في الوصول إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة، تصورها يوجب فتور الهم وانحطاط العزائم، وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة إنما عرض من الإدبار عن المطلوب وهو تحت الجناح ويَكُنْ في الوصول إليه عطفة نظر وقطع بعض خطوات قصيرة.

إإن الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسُك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم، وهي ما تمسكت به أعز دولة أوروبية وأمنها، ولا ضرورة في إيجاد المنعة إلى اجتماع الوسائل وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى، ولا مُلْجئ للشرقي في بدايته أن يقف موقف الأوروبي في

^٢ الخريت: الدليل الحاذق بخرت الأرض.

نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلك، وفيما مضى أصدق شاهد على أنَّ من طلبه فقد أقر نفسه وأمته وقرأ أعجزها وأعوزها.

وتنبه على أن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية، فإن فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوي لابتلاع الضعيف، وتجعل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة المدجج بأشكال المجاملة شفافاً يَنْمُّ عما وراءه، وتنق卜 عن المسالك الدقيقة التي يسري بها الطامعون في دياجر الغفلات.

وتهتم بدفع ما يُرمي به الشرقيون عموماً وال المسلمين خصوصاً من التهم الباطلة، التي يوجهها إليهم من لا خبرة له بحالهم ولا وقوفَ على حقائق أمورهم، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدنية ما داموا على أصولهم التي فاز بها آباؤهم الأولون، ولا تهن في تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية وما يتداوله السياسيون في شئونهم مع اختيار الصادق، وانتقاء الثابت، وتراعي في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة في أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها والسياسات القوية التي لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين.

ومع كل هذا، فهذه الجريدة تتبع سير الداعين إليها والحاملين عليها، لا تظهر إذا أدلجوا، ولا تنجد إذا غوروا، وتذهب مذاهب الرشد، وتصيب — بحول الله — مواقعه عند من سبق في أزلي علم الله هدایته، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وترسل إلى الذين نعرف أسماءهم مجاناً بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير والغني والفقير، ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه إلا أن يكتب إلى إدارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل إقامته على النهج الذي يريد، والله الموفق.

الفصل الأول

الجنسية والديانة الإسلامية

إن استقراء حال الأفراد من كل أمة واستطلاع أهواءها؛ يثبت لجلي النظر ودقيقه وجود تعصب للجنس ونعرة عليه عند الأغلب منهم، وإن التعصب لجنسه منهم ليتّيه بمفاخر بنّيه ويغضّب لما يمسّهم حتى يُقتل دون دفعه بدون تنبه منه لطلب السبب ولا بحث في علة هذا الوجдан، حتى ظنّ كثيرون من طلاب الحقيقة أن التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية، إلا أنه يبعد ظنّهم ما نراه في حال طفل ولد في أمة من الأمم ثم نُقل قبل التمييز إلى أرض أمة أخرى وربّي فيها إلى أنْ عقل ولم يذكر له مولده، فإنّا لا نرى في طبعه ميلًا إليه، بل يكون خالي الذهن من قبله، ويكون مع سائر الأقطار سواء، بل ربما كان آلفًا لمرباه وأميلاً إليه؛ والطبيعي لا يتغيّر.

ولهذا لا نذهب إلى أنه طبيعي، ولكن قد يكون من الملّكات العارضة على الأنفس، ترسمها على أواحها الضرورات؛ فإنّ الإنسان في أيّ أرض له حاجات جمّة، وفي أفراده ميل إلى الاختصاص والاستئثار بالمنفعة إذا لم يصيغوا ب التربية زكية، وسعة المطبع إذا صحبها اقتدارٌ تدعو بطبعها إلى العدوان؛ فلهذا صار بعض الناس عرضة لاعتداء بعض آخر، فاضطروا بعد منازلة الشرور أحقاباً طوالاً إلى الاعتصاب بلحمة النسب على درجاتٍ متّفّقة حتى وصلوا إلى الأجناس، فتوّزعوا أممًا كالهندي والإنجليزي والروسي والتركماني، ونحو ذلك، ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحم قادراً على صيانة منافعه وحفظ حقوقه من تعدي القبيل الآخر، ثم تجاوزوا في ذلك حدّ الضرورة — كما

هي عادة الإنسان في أطواره — فذهبوا إلى حد أن يأنف كل قبيل من سُلْطَة الآخر عليه، علمًا بأنه لا بد أن يكون جائراً إذا حكم، ولئن عدل فإن في قبول حكمه ذلًّا تحس به النفس، وينفع له القلب.

فلو زالت الضرورة لهذا النوع من العصبية: تبع هو الضرورة في الزوال كما تبعها في الحدوث — بلا ريب — وتبطل الضرورة بالاعتماد على حاكم تتصاغر لديه القوى وتتضاءل لعظمته القدرة وتخضع لسلطته ^{النُّفُوس} بالطبع، وتكون بالنسبة إليه متساوية الأقدام وهو مبدأ الكل وقَهَّار السماوات والأرض، ثم يكون القائم من قبله بتنفيذ أحكامه مساهماً للكافة في الاستكانة والرضوخ لأحكام الحاكمين، فإذا أذعنـت الأنفس بوجود الحاكم الأعلى وأيقنت بمشاركة القـيم على أحكامه لعامتهم في التضامن، لما أمر به: اطمأنـت في حفـظ الحق ودفعـ الشـر إلى صاحـب هـذه السـلطة المقدـسة، واستغـنت عن عصـبية الجنس لعدـم الحاجـة إليها فـمـحـيـ أـثـرـها من ^{النُّفُوس}، والـحـكم لـهـ العـلـيـ الـكـبـيرـ.

هـذا هو السـرـ في إـعـراضـ المـسـلـمـينـ — عـلـى اختـلـافـ أـقـطـارـهـمـ — عـنـ اعتـبارـ الجنسـياتـ، وـرـفـضـهـمـ أيـ نوعـ منـ أنـوـاعـ العـصـبـيـاتـ ماـ عـدـاـ عـصـبـتـهـمـ الإـسـلـامـيـةـ؛ فـإـنـ المـتـدـينـ بـالـدـينـ الإـسـلـامـيـ متـىـ رـسـخـ فـيـهـ اعتـقـادـهـ يـلـهـ عـنـ جـنـسـهـ وـشـعـبـهـ وـيـلـتـفـتـ عـنـ الرـوـابـطـ الـخـاصـةـ إـلـىـ الـعـلـاقـةـ الـعـامـةـ، وـهـيـ عـلـاقـةـ الـمـعـتـقـدـ.

لـأـنـ الـدـينـ الإـسـلـامـيـ لـمـ تـكـنـ أـصـوـلـهـ قـاـصـرـةـ عـلـىـ دـعـوـةـ الـخـلـقـ إـلـىـ الـحـقـ، وـمـلـاحـظـةـ أـحـوـالـ الـنـفـوسـ مـنـ جـهـةـ كـوـنـهـ رـوـحـانـيـةـ مـطـلـوـبـةـ مـنـ هـذـاـ الـعـالـمـ الـأـدـنـىـ إـلـىـ عـالـمـ أـعـلـىـ، بـلـ هـيـ كـمـاـ كـانـتـ كـافـلـةـ لـهـذـاـ؛ جـاءـتـ وـافـيـةـ بـوـضـعـ حدـودـ الـمـعـاـمـلـاتـ بـيـنـ الـعـيـادـ وـبـيـانـ الـحـقـوقـ كـلـيـّـاـ وـجـزـئـيـّـاـ، وـتـحـدـيدـ الـسـلـطـةـ الـواـزـعـةـ الـتـيـ تـقـوـمـ بـتـنـفـيـذـ الـمـشـرـوـعـاتـ وـإـقـامـةـ الـحـدـودـ وـتـعـيـينـ شـرـوـطـهـاـ، حـتـىـ لـاـ يـكـوـنـ الـقـاـبـضـ عـلـىـ زـيـامـهـاـ إـلـاـ مـنـ أـشـدـ النـاسـ خـضـوـعـاـ لـهـ، وـلـنـ يـنـالـهـاـ بـورـاثـةـ وـلـاـ اـمـتـيـازـ فـيـ جـنـسـهـ أـوـ قـبـيلـةـ أـوـ قـوـةـ بـدـنـيـةـ وـثـرـوـةـ مـالـيـةـ، وـإـنـماـ يـنـالـهـاـ بـالـوـقـوـفـ عـنـ أـحـكـامـ الـشـرـيـعـةـ وـالـقـدـرـةـ عـلـىـ تـنـفـيـذـهـاـ وـرـضـاءـ الـأـمـةـ، فـيـكـوـنـ وـازـعـ الـمـسـلـمـينـ فـيـ الـحـقـيـقـةـ شـرـيـعـتـهـمـ الـمـقـدـسـةـ الـإـلـهـيـةـ الـتـيـ لـاـ تـمـيـزـ بـيـنـ جـنـسـ وـجـنـسـ وـاجـتمـاعـ آرـاءـ الـأـمـةـ، وـلـيـسـ لـلـواـزـعـ أـدـنـىـ اـمـتـيـازـ عـنـهـمـ إـلـاـ بـكـوـنـهـ أـحـرـصـهـمـ عـلـىـ حـفـظـ الـشـرـيـعـةـ وـالـدـلـفـاعـ عـنـهـاـ. وـكـلـ فـخـارـ تـكـسـبـهـ الـأـسـابـ وـكـلـ اـمـتـيـازـ تـفـيـدـهـ الـأـحـسـابـ لـمـ يـجـعـلـ لـهـ الشـارـعـ أـثـرـاـ فـيـ وـقـاـيـةـ الـحـقـوقـ وـحـمـاـيـةـ الـأـرـوـاحـ وـالـأـمـوـالـ وـالـأـعـرـاضـ، بـلـ كـلـ رـابـطـةـ سـوـىـ رـابـطـةـ الـشـرـيـعـةـ الـحـقـةـ فـهـيـ مـمـقـوـتـةـ عـلـىـ لـسـانـ الشـارـعـ، وـالـمـعـتـمـدـ عـلـيـهـاـ مـذـمـومـ وـمـتـعـصـبـ لـهـاـ مـلـوـمـ، فـقـدـ

قال ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»، والأحاديث النبوية والآيات المنسّلة متضارفةٌ في هذا، ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافية في التقوى – اتباع الشريعة: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»، ومن ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الأزمان على اختلاف الأجيال؛ مَنْ لا شرف له في جنسه، ولا امتياز له في قبيله، ولا ورث الملك عن آبائه، ولا طلبه بشيء من حسبيه ونسبة، وما رفعه إلى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع وعナイته بالمحافظة عليه. وإن بسطة ملك الوازعين في المسلمين كان يُسديها إليهم على حسب امتحالهم للأحكام الإلهية، واهتدائهم بهديها، وتجددهم عن الاعتلاء الشخصي، وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره، في أبهته ورفاهة معيشته، وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد؛ رجعت الأجناس إلى تعصبها ووقع الاختلاف، وانقضت سلطة ذاك الوازع.

هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن، لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبات الأجناس، وإنما يتذمرون إلى جامعة الدين؛ لهذا ترى العربي لا ينفر من سلطة التركي، والفارسي يقبل سيادة العربي، والهندي يُذعن لرياسة الأفغاني، ولا الشمئizar عند أحد منهم ولا انقباض، وأن المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستذكر ما يُعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل إلى قبيل ما دام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهباً مذاهباً. نعم، إذا نبأ في سيره عنها وجار في حكمه عما نصت عليه وطلب الأثرة بما ليس من حقة؛ اندصعت منه القلوب، وانحرفت عن محبته الأنفس، وأصبح وإن كان وطنياً فيهم أشنع حالاً من الأجنبي عنهم.

إن المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الأديان بالتأثر والأسف عندما يسمعون بانفصال بقعة إسلامية عن حكم إسلامي بدون التفات إلى جنسها وقبيلها. ولو أن حاكماً صغيراً بين قوم مسلمين من أي جنس كان تبع الأوامر الإلهية وثابر على رعايتها، وأخذ الدهماء بحدودها وضرب بسهمه مع المحكومين في الخضوع لها، وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفة الباطلة؛ لأمكنه أن يحوز بسطة في الملك وعظامه في السلطان، وأن ينال الغاية من رفعة الشأن في الأقطار المعمورة بأرباب هذا الدين، ولا يتجشم في ذلك أتعاباً ولا يحتاج إلى بذل النفقات ولا تكثير الجيوش، ولا مظاهره الدول العظيمة ولا مداخلة أعون التمدن وأنصار الحرية ... ويستغنى عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع إلى الأصول الأولى في الديانة الإسلامية القوية، ومن سيره هذا تنبئ القوة وتتجدد لوازم المنعة، أكرر عليك القول بأن السبب هو أن الدين

الإسلامي لم تكن وجهته كوجهة سائر الأديان إلى الآخرة فقط، ولكن مع ذلك أتى بما فيه مصلحة العباد في دنياهم وما يكسبهم السعادة في الدنيا والنعيم في الآخرة، وهو المعبّر عنه في الإصلاح الشرعي بسعادة الدارين، وجاء بالمساواة في أحكامه بين الأجناس المتباينة والأمم المختلفة.

أبىضَت عين الدَّهْر وامتنع لون الزمان حتى أصاب أن بعضًا من المسلمين على حكم الندرة يعز عليهم الصبر، ويضيق منهم الصدر لجور حكامهم وخروجهم في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية، فيلجهُون للدخول تحت سلطة أجنبية، على أن الندم يأخذ بأرواحهم عند أول خطوة يخطونها في هذا الطَّريق، فمثُلهم كمثل من يريد الفتُك بنفسه حتى إذا أحس بالآلم رجع واسترجع ... وإن بعض ما يطرأ على المالك الإِسلامية من الانقسام والتفريق إنما يكون منشأه قصور الوازعين وحيدانهم عن الأصول القويمة التي بُنيت عليها الديانة الإِسلامية، وانحرافهم عن مناهج أسلافهم الأقدمين، فإن منابذة الأصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة؛ أشد ما يكون ضررها بالسلطنة العليا، فإذا رجع الوازعون في الإِسلام إلى قواعد شرعهم وسارُوا سيرة الأولين السابقين، لم يمض قليلٌ من الزمان إلا وقد آتاهم بسطة في الملك وألحقهم في العزة بالراشدين أئمَّة الدين — وفقنا الله للسداد، وهدانا طريق الرشاد.

الفصل الثاني

ماضي الأمة وحاضرها وعلاج عالها^١

﴿سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم انشق عنها عماء العدم، فإذا هي بحمية كل واحدٍ منها كونٌ بديعُ النظام قويٌّ الأركان شديدُ البنيان، عليها سياجٌ من شدة البأس ويحيطها سورٌ من منعة الهم، تحمد في ساحتها عاصفات النوازل، وتنحلُّ بأيدي مدريها عقد المشاكل، نمتُ فيها أفنانُ العِزَّةِ بعدها ثبتت أصولها ورسخت جذورها، وامتَّ لها السلطان على بعيد عنها والداني إليها، ونفذت منها الشوكة وعلَّت لها الكلمة و وكلت القوة، فاستعملت آدابها على الآداب وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها، وأحسستُ مشاعر سواها من الأمم بأن لا سعادة إلا في انتهاج منهاجها وورود شريعتها، وصارتْ وهي قليلةُ العدد كثيرةُ الساحات كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل.

وبعد هذا كله وَهَى بناوئها وانتشر منظومها وتفرقت فيها الأهواء وانشققت العصا، وتبدد ما كان مجتمعًا وانحل ما كان منعقدًا، وانفصمت عرى التعاون وانقطعت روابط

^١ أكثر عنوانين المقالات مأخوذه عن «تاريخ الإمام» — رحمة الله — طبعة مجلة «المنار» الإسلامية.

التعاضد، وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها، ودار كلُّ في محيط شخصه المحدود بنهيات بدنه، لا يلمح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية، وهو في غيبة عن أن ضروريات حاجاته لا تزال إلا على أيدي الملتزمين معه بلحمة الأمة، وأنه أحوج إلى شد عضدهم من تقوية ساعده، وإلى توفير خيرهم من تنمية رزقه، وكأنه بهذه الغيبة في سبات يخاله الناظر إليه صحواً، وذبول يظنه المغدور زهواً، وأخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشين فأبادها، وحدثتْ فيهم قناعة التهم والرضا بكل حال.

ولئن تنبه خاطر للحق في خيال أحدهم أو استغره داعٍ من قلبه إلى ما يُكسب ملته شرفاً أو يعيده إليها مجداً عدّه هوّساً وهذياناً أصيّب به من ضعف في المزاج أو خلل في البنية، أو حسب أنه لو أجاب داعي الذمة لعاد عليه بالوبال وأورده موارد الهلاكة، أو لصار من أقرب الأسباب لزوال نعمته ونكد معيشته، ويحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغللاً من اليأس، فتغلّ يداه عن العمل وتقف قدماه عن السعي، ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصالحه، ويقصر نظره عن درك ما أتى أسلافه من قبل، وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا وقيماً على ما أورثوه لأعقابهم، وبلغ هذا المرض من الأمة حداً يشرف بها على الهلاك ويطرحها على فراش الموت فريسة لكل عاٍ وطعمة لكل طاعم.

نعم، رأيت كثيراً من الأُمم لم تكن ثم كانت، وارتقت ثم انحطت، وقويت ثم ضعفت، وعزت ثم ذلت، وصحت ثم مرضت، ولكن أليس لكل علة دواء؟ بلى.

وأسفًا ما أصعب الداء! وما أعز الدواء! وما أقل العارفين بطرق العلاج! كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها وهي لم تفترق إلا لأن كلاً عكف على شأنه ... أستغفر الله. لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشدُّ أعضائه اتصالاً به، ولكن صرف لشئون غيره وهو يظنها من شئون نفسه، نعم، ربما التفت كلاً إلى ما هو في فطرة كل حي من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه، وهو لا يدرى من أي وجه يحصلها ولا بأية طريقة يكون في أمن عليها، كيف تُبَعِّث الْهَمُّ بعد موتها وما ماتت إلا بعدما سكتْ زمناً غير قصير إلى ما ليس من معالاتها؟ هل من السهلِ رَدُّ التائه إلى الصراط المستقيم وهو يعتقد أن الفوز في سلوكِ سواه، خصوصاً بعدما استدير المقصد، وفي كل خطوة يظن أنه على مقربة من الحظوة؟ كيف يمكن تنبية المستغرق في منامه المبتهج بأحلامه، وفي أذنه وقر في ملامسه خدر؟ هل من صيحة تقرع قلوب الآحاد المترفة من أمة عظيمة تتبعاد أنحاؤها وتتنائي أطرافها وتتبادر عاداتها وطبائعها؟ هل من نبأ تجمع

أهواهها المترفرفة وتوحد آراءها المترائلة بعدما تراكم جهلٌ ورَأَنَ غبنٌ، وُخِيلٌ للعقول أن كل قريب بعيدٌ وكل سهل وعُزٌّ؟ أيم الله، إنه لشيءٌ عسيرٌ يعيي في علاجه النطاسي، ويحار فيه الحكيم البصير.

هل يمكن تعين الدواء إلا بعد الوقوف على أصل الداء وأسبابه الأولى والعارض التي طرأت عليه، إن كان المرض في أمة، فكيف يمكن الوصول إلى عللها وأسبابها إلا بعد معرفة عمرها وما اعترافها فيه من تناقل الأحوال وتنوع الأطوار؟ أيمكن لطبيب يعالج شخصاً بعينه أن يختار له نوعاً من العلاج قبل أن يعرف ما عرض له من قبل في حياته، ليكون على بيته من حقيقة المرض، وإن كثيراً من الأمراض تتولد جراحتها في طور من أطوار العمر ثم لا تظهر إلا في طور آخر لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثراً؟ كلا، إنه لصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد سنو عمره محدودة وعوارض حياته محصورة، فكيف بمن يريد مداواة ملة طولية الأجل وافرة العدد؟ لهذا يندر في أجيال وجود بعض رجال يقومون بإحياء أمة أو إرجاع شرفها ومجدها إليها، وإن كان المتشبهون بهم كثيرين، وكما أن المتطلب القاصر في الأمراض البدنية لا يزيد علاجه المرض إلا شدة لولا مساعدة الاتفاق والصدفة، بل ربما يفضي بالمريض إلى الموت، كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الأمم على غير خبرة تامة بشأنها ووجب اعتلالها، ووجوه العلة فيها وأنواعها، وما يكتنف ذلك من العادات، وما يوجد في أفرادها من المذاهب والاعتقادات، وحوادثها المتتابعة على اختلاف مواقعها من الأرض، ومكانتها الأولى من الرفعة، ودرجتها الحالية من الضعف، وتدرجها فيما بين المترلتين، فإن أخطأ طالب إصلاحها في اكتناه شيءٍ مما ذكرنا تحول الدواء داءً والوجود فناً.

فمن له حظ في الكمال الإنساني ولم يُطمس من قلبه موضع الإلهام الإلهي؛ لا يجرؤ على القيام بما يسمونه تربية الأمم وإصلاح ما فسد منها، وهو يحس من نفسه أدنى قصور في أداء هذا الأمر العظيم علمًا أو عملاً. نعم، يكون ذلك من محبي الفخفة الباطلة وطلاب العيش في ظل وظائف ليسوا من حقوقها في شيء.

ظن قوم في هذه الأزمان أن أمراض الأمم تعالج بنشر الجرائد، وأنها تكفل إنهاض الأمم وتنبيه الأفكار وتقويم الأخلاق... كيف يصدق هذا الظن، وإنما لو فرضنا أن كتاب الجرائد لا يقصدون بما يكتبون إلا نجاح الأمم مع التنمية عن الأغراض، فبعدما عم الذهول واستولت الدهشة على العقول وقل القارئون والكتابون؛ لا تجد لها قارئاً، ولئن

ووجدت القارئ فقلما تجد الفاهم، والفاهم قد يحمل ما يجده على غير ما يراد منه لضيق في التصور أو ميل مع الهوى، فلا يكون منه إلا سوء التأثير، فيشبهه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر أضعافاً، على أنَّ الْهِمَةَ إذا كانت في درك الهبوط، فمن يستطع تفهمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع ما فيها مع قصر المدة وتتدفق سيول الحوادث، إن هذا وحقك لعزيز.

ويظنن قوم آخرون أنَّ الأمة المنبثة في أقطار واسعة من الأرض مع تفرق أهواها وإخلادها إلى ما دون رتبتها بدرجات لا تحصر، ورضاهما بالدون من العيش والتماس الشرف بالانتفاء لمن ليس من جنسها ولا من مشربها، بل لمن كان خاصعاً لسيادتها راضحاً لأحكامها؛ مع هذا كله يتم شفاؤها من هذه الأمراض القاتلة بإنشاء المدارس العمومية دفعة واحدة في كل بقعة من بقاعها، وتكون على الطراز الجديد المعروف بأوروبا حتى تعم المعرف جميع الأفراد في زمن قريب، ومتى عَمَّت المعرفة كملت الأخلاق واتحدت الكلمة واجتمعت القوة، وما أبعد ما يظنون، فإنَّ هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قويٌّ قاهر يحمل الأمة على ما تكره أزماناً حتى تذوق لذته وتجني شرته، ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائباً عن سلطته في تنفيذ ما أراد من خيرها، ويلزم له ثروةٌ وافرةٌ تفي بنفقات تلك المدارس وهي كثيرة، وموضع كلاماً في الصعف ودوائه، فهل مع الضعف سلطة تظهر وثروة تغنى؟ ولو كان للأمة هذان لما عُدَّت من الساقطين.

فإن قالوا: يُمْكِن التدرج مع الاستثمار والثبات؛ وافقناهم على الإمكان، لولا ما يكون من طمع الأقوية حتى لا يدعوا لهم سبيلاً لأنَّ يستنشقوا نسيم القوة، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر؟

على أنا لو فرضنا مسالمة الدَّهْر، وَمُنْحِت الأمة مدة من الزمان تكفي لبيث تلك العلوم في بعض الأفراد والاستزادة منها شيئاً فشيئاً، فهل يصح الحكم بأنَّ هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية، وأنَّ ما يُصْبِيَ البعض منها يهيئه للكمال اللائق به ويُمْكِنُه من القيام بإرشاد الباقي من أبناء أمتة؟ واعجبًا! كيف يكون هذا وإنَّ الأمة في بُعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها؟ وكيف بذرت بذورها، وكيف نبتت واستوت على سوقها وأينعت وأنثمرت؟ وبأي ماء سُقِيت وبأي تربة غذيت، ولا وقوف لها على الغاية التي قصدت منها في مناشئها، ولا خبرة لها بما يترتب عليها من التمرات؟ وإنَّ وصل إليها طرفٌ من ذلك فإنما يكون ظاهراً من القول لا نبأً عن الحقيقة، فهل مع هذا يصيِّب الظن بأنَّ مفاجأة

بعض الأفراد بها وسوقها إلى أذهانهم المشحونة بغيرها، يقُّوم من أفكارهم ويعدّل من أخلاقهم ويهديهم طُرُق الرشاد في إفادة إخوانهم؟

لعل الأقرب أنَّ نَاقِلِي تلك العلوم، وهم من أُمَّةٍ هذا شأنُها مع ما ينعكس إليهم من الأوهام المألوفة فيها، وما رسخ في نفوسهم على عهد الصبا، وما يعظمونه من أمر الأمة التي تَلَقَّوا عنها علومهم؛ يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعها إلا فساداً.

ماذا يكون من أولئك الناشئين في علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم ولو صدقوا في خدمة أوطانهم، يكون منهم ما تعطيه حالهم، يُؤْدِون ما تعلموه كما سمعوه، لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الأمة وطبعاعها وما مرتنت عليه من عاداتها، فيستعملونه على غير وضعيه، ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه وغفلتهم عن آتيه يظلونه على ما بلغهم هو الكمال لكل نفس والحياة لكل روح، فيرومون من الصغير ما لا يرام إلا من الكبير وبالعكس، غير ناظرين إلا إلى صور ما تعلموه ولا مفكرين في استعداد من يعرض عليهم وهل يكون له من طباعهم مكانُ يُحْمَدُ أو يزيدُها على ما بها أضعافاً، وما هذا إلا لكونهم ليسوا أربابها، وإنما هم لها نَقْلَةً وحملة.

فهؤلاء الصادقون — إلا من وَفَقَهَ الله منهم بعنایته الإلهية — يكون مثلهم كمثل والدِهِ حنون يلذ لها غذاء فتفيض منه على ولدها وهو رضيعٌ ليساهمها في اللذة، وسنَه سن اللبان لا يقبل سواه، فيسرع إليه المرض وينتهي به إلى التلف، ف تكون منزلتهم من الأمة منزلة الآلة المحلة يشتتون بقية الجمع ويبعدون آخريات الالئام، إن كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط، فهؤلاء المغوروون يغشونهم بما يذهلهم عنها، وما قصدوا إلا خيراً إن كانوا مخلصين، ويوسعون بذلك **الخصاص**^٢ حتى تعود أبواباً، ويباعدون ما بين الصفا فحتى تصير ميادين لتدخل الأجانب فيهم تحت اسم النصاء وعنوان المصلحين، ويدهبون بأُمَّتهم إلى الفناء والاضمحلال وبئس المصير.

شيد العثمانيون والمصريون عدداً من المدارس على النمط الجديد، وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب، وكل ما يسمونه تمدناً، وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني، هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك

^٢ **الخصاص**: جمع خص، وهو الخرق أو الثقب في الباب وما شابه.

وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟ هل صاروا أحسن حالاً مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الجبل الجديد؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنبياء الفقر والفاقة؟ هل نجوا بها من ورطات ما يلجهم إليه الأجانب بتصرفاتهم؟ هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور؟ هل نالوا بها من المنعة ما يدفع عنهم غارة الأعداء عليهم؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف في الأفكار حداً يميل عزائم الطامعين عنهم؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية فهي تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتطلبها وإن تجاوزت محيط الحياة الدنيا، وإن بادت في سبيلها خلفها وارث على شاكلتها — كما كان في كثير من الأمم؟

نعم، ربما وجد بينهم أفرادٌ يتفيهقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها، ويصوغونها في عبارات متقطعة بتراء لا تعرف غايتها ولا تعلم بدايتها، ووسموا أنفسهم زعماء الحرية أو بِسْمَةً أخرى على حسب ما يختارون، ووقفوا عند هذا الحد، ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم فقلبوا أوضاع المباني والمساكن وبَدَلُوا هيئات المأكِل والملابس والفراش والآنية وسائل الماعون، وتنافسوا في تطبيقها على أَجْوَد ما يكون منها في المالك الأجنبية، وعَدُوهَا من مفاحرهم وعرضوها معرض المباهة؛ فنسفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم، واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يرproc منظره ولا يُحِمِّدُ أثره، فأماتوا أرباب الصنائع من قومهم وأهلكوا العاملين في المهن لعدم اقتدارهم أنْ يقوموا بكل ما تستدعيه تلك العلوم الجديدة من الحاجيات الجديدة والكماليات الجديدة؛ لأن مصانعهم لم تتحول إلى الطراز الجديد، وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد، وثروتهم لا تسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة، وهذا جَدْعُ لأنف الأمة، يشوه وجهها ويحط شأنها، وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وُضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها.

عَلِمْتَنا التجاربُ ونطقتُ مواضي الحوادث بأنَّ المقلَّدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها مناذف وكوى لطرق الأعداء إليها، وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدَّسَائِس، بل يكونون، بما أَفْعَمْتُهم أَفْئَدُهم من تعظيم الذين قلدوهم واحتقار مَنْ لم يكن على مثالهم؛ شَوْمَاً على أبناء أمتهم يذلونهم ويحتقرن ويستهينون بجميع أعمالهم وإن جَلَّتْ، وإن بقي في بعض رجال الأمة بقِيَةً من الشُّم أو نزوعٌ إلى معالى الهم؛ انصبُوا عليه وأرغموا من أنفه حتى يُمْحِي أثر الشهامة وتخمد حرارة الغيرة ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين، وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل

ويفتحون الأبواب ثم يثبتون أقدامهم ويمكرون سلطتهم، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلاً لغيرهم ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم.

أقول – ولا أخشى لوماً: لو كان في البلاد الأفغانية عددٌ قليلٌ من تلك الطلائع عندما تغلبَ على بعض أراضيها الإنجليزُ لما بارحوها أبد الآدرين، فإن نتيجة العلم عند هؤلاء ليست إلا توطيد المسالك والركون إلى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم، فيُبالغون في تطمين النفوس وتسكين القلوب حتى يزيلوا الوحشة التي قد يصون بها الناس حقوقهم ويحفظون بها استقلالهم؛ ولهذا، لو طرق الأجانب أرضًا لآية آمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها يُقبلون عليهم، ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدومهم، ويكونون بطانة لهم وموضع لثقتهم، كأنما هم منهم! ويعدون الغلبة الأجنبية في بلادهم مباركةً عليهم وعلى أعقابهم.

فما الحيلة وما الوسيلة، والجرائم بعيدة الفائدة ضعيفةُ الأثر لو صحت الضمائر فيها، والعلوم الجديدة لسوء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها، والوقت ضيق والخطب شديد ... أي جهوري من الأصوات يوقظُ الرادين على حشایا الغفلات؟ أي قاصفة تزعج الطياع الجامدة وتحرك الأفكار الخامدة؟ أي نفخة تبعث هذه الأرواح في أجسادها وتحشرها إلى مواقف صلاحها وفلاحها؟ الأقطار فسيحةُ الجوانب بعيدةُ المناكب، المواصلات عسراً بين الشرقي والغربي والجنوبي والشمالي، الرءوس مطرقةٌ إلى ما تحت القدم أو منغضةٌ إلى ما فوق السماء، ليس للأبصار جَوَانٌ إلى الأمام والخلف واليمين والشمال، ولا للأسماع إصغاء، ولا للنفوس رغبات وللأهواء تحكم وللسواس سلطان.

ماذا يصنع المشفقون على الأمة والزمن قصير؟ لماذا يحاولون والأخطار محدقة بهم؟ بأي سبب يتمكنون ورسُل المنايا على أبوابهم؟ لا أطيل عليك بحثاً ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان، ولكنني أستلتفت نظرك إلى سبب يجمع الأسباب ووسيلة تحيط بالوسائل، أرسل فكرك إلى نشأة الأمة التي خملتُ بعد النهاية، وضعفتُ بعد القوة، واسترقتُ بعد السيادة وضيَّمتُ بعد النعمة، وتبين أسباب نهوضها الأول حتى تتبيّن مضارب الخلل وجرائم العلل، فقد يكون ما جمع كلمتها وأنهض هم آحادها ولحم ما بين أفرادها، وصعد بها إلى مكانة تشرف منها على رءوس الأمم وتسوسيهم، وهي في مقامها بدقيق حكمتها؛ إنما هو دين قويم الأصول محكم القواعد شاملً لأنواع الحكم، باعث على الألفة داعٍ إلى المحبة مُرَكّزٌ للنفوس، مطهر للقلوب من أدران الخسائس، منورٌ

للعقل بإشراق الحق من مطالع قضيّاه، كافٌ لـكل ما يحتاج إليه الإنسان من مبنيّ الاجتماعات البشرية، وحافظ وجودها، وينادي بمعتقداته إلى جميع فروع المدنية. فإنْ كانت هذه شرعتها ولها وردتُ وعنها صدرتُ، فما تراه من عارض خالها وهبوطها عن مكانِّها إنما يكون من طرح تلك الأصول ونَبْذِها ظهريًا وحدثَ بعد ليست منها في شيء، أقامها المعتقدون مقام الأصول الثابتة، وأعرضوا عما يرشد إليه الدين وعما أتى لأجله وما أَعْدَتْهُ الحكمة الإلهية له، حتى لم يبق منه إلا أسماء تُذكر وعبارات تُقرأ، فتكون هذه المحدثات حجَابًا بين الأمة وبين الحق الذي تشعر بندائه أحيانًا بين جوانحها.

فعلاجُها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته، وإرشاد العامة بمواعظه الواقية بتطهير القلوب وتهديب الأخلاق، وإيقاد نيران الغيرة، وجمع الكلمة، وبيع الروح لشرف الأمة، ولأن جرثومة الدين متصلة في النُّفوس بالوراثة من أحقاب طويلة، والقلوب مطمئنةٌ إليه، وفي زواياها نورٌ خفيٌّ من محبته؛ فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفحة واحدة يسري نَفْثَتها في جميع الأرواح لأقرب وقت، فإذا قاموا لشئونهم ووضعوا أقدامَهم على طريق نجاحهم وجعلوا أصول دينهم الحَقَّةُ نُصبَّ أعينهم؛ فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم مُنْتهى الكمال الإنساني. ومن طلب إصلاح أمة — شأنها ما ذكرنا — بوسيلة سوى هذه؛ فقد ركب بها شططاً، وجعل النهاية بدايةً وانعكست التَّرْبِيةُ وخالف فيها نظام الوجود، فينعكس عليه القصد ولا يزيد الأمة إلا نحساً ولا يكسبها إلا تعسًا.

هل تعجب أيها القارئ من قولي: إن الأصول الدينية الحقة المبرأة عن محدثات البدع تنشئ للأمم قوة الاتحاد وائللاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة، وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف، وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدنية؟ إن عجبت فإن عجبي من عجبك أشد! هل نسيت تاريخ الأمة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات وإتياي الدنيا والمنكرات، حتى إذا جاءها الدين فوحدها وقوّاها وهذبَّها ونورَّ عقولها وقوّمَ أخلاقها وسدَّ أحكامها، فسادَتْ على العالم وساستَ مَنْ تولته بسياسة العدل والإنصاف، وبعد أن كانت عقول أبنائها في غفلة عن لوازم المدينة ومقتضياتها نَبَهَّتها شريعتها وأيات دينها إلى طلب الفنون المتنوعة والتَّبَرُّ فيها، ونقلوا إلى ديارهم طَبَّ بقراط وجالينوس وهندسة إقليديس وهيئة بطليموس وحكمة أفلاطون وأرسطو، وما كانوا قبل الدين في شيء من هذا، وكل أمة سادَتْ تحت هذا اللواء إنما كانت قوتها ومدنتها في التمسك بأصول دينها؟

الفصل الثاني

وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك وافتتاح الأقطار وطلب السيادة على الأمسار، وتلك الدعوة؛ لما تستدعيه من عظم الهم وارتفاع النُّفُوس عن الدنيا وبعد الغايات وعلو المقصاد؛ هي التي هذبَت أخلاقهم، وقوَّمت أفكارهم، وكفتهم عن معاطة الرذائل وحسائس الأمور وسوافلها، ثم بعد مُضي زمانٍ من نشأتها أصابها من الانحطاط ما أصابها.

فبيانُ أسباب الخلل فيها وعلاته نفرد له فصلاً مستقلاً في عدد آخر – إن شاء الله،
وهو الموفق للصواب.

الفصل الثالث

النصرانية والإسلام وأهلهما

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لِذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

خلق الله الإنسان عالماً صناعياً، ويسر له سبيل العمل لنفسه، ودها للإبداع والاختراع، وقدر له الرزق من صنع يديه، بل جعله ركناً وجوده، ودعامة بقائه، فهو على جميع أحواله من ضيق وسعة، وخشونة ورفاهة، وتبدل وحضاره؛ صنيعة أعماله ... أقوافه من معالجة الأرض بالزراعة أو قيامه على الماشية، وسرابيله وما يقيه الحر والبرد والوجى من عمل يديه نسجاً أو خصفاً، وأكنانه ومساكنه ليست إلا مظاهر تقديره وتقديره، وجميع ما يفتن فيه من دواعي ترفة ونعيمه إنما هي صور أعماله ومجالي أفكاره، ولو نقض يديه من العمل لنفسه ساعةً من الزمان وبسط أكفةً للطبيعة؛ ليستجديها نفساً من حياة، لشحّت به عليه، بل دفعته إلى هاوية العدم، وهو في صنعه وإبداعه محتاج إلى أستاذٍ يثقفه وهادٍ يرشده، فكما ي العمل لتوفير لوازم معيشته وحاجات حياته يعمل ليعلم كيف يعمل، وليرتقى على أن يعمل، فصنعته أيضاً من صنعه، فهو في جميع شؤونه الحيوية عالم صناعي كأنه منفصل عن الطبيعة بعيداً عن آثارها، حاجته إليها كحاجة العامل لآلية العمل. هذا هو الإنسان في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه.

دعه في هذه الحالة وخذ طريقاً من النظر إلى أحواله النفسية؛ من الإدراك والتعلق والأخلاق والملكات والانفعالات الروحية؛ تجده فيها أيضاً عالماً صناعياً: شجاعته وجبنه،

جزعه وصبره، كرمه وبخله، شهامته ونذالته، قسوته ولينه، عفّته وشرهه، وما يشبهها من الكلمات والنقائص جمِيعُها تابعٌ لِمَا يصادفه في تربيته الأولى، وما يودع في نفسه من أحوال الذين نشأُ فِيهِمْ وترَبَّى بَيْنَهُمْ، ومرامي أفكاره، ومناهج تعقله، ومذاهب ميله، ومطامع رغباته، ونزعوه إلى الأسرار الإلهية أو رکونه إلى البحث في الخواص الطبيعية، وعنياته باكتشاف الحقيقة في كل شيء، أو وقوفه عند بادئ الرأي فيه، وكل ما يرتبط بالحركات الفكرية إنما هي ودائعاً اختزناها لديه الآباء والأمهات، والأقوام والعشائر والمخاطرطنون.

وأما هواء المولد والمربى ونوع المزاج، وشكل الدماغ وتركيب البدن، وسائل الغواشي الطبيعية؛ فلا أثر له في الأعراض النفسيّة والصفات الروحانية إلا ما يكون في الاستعداد والقابلية، على ضعفٍ في ذلك الأثر، فإن التّربية وما ينطبع في النفس من أحوال المعاشرين وأفكار المثقفين تذهب به كأن لم يكن أودع في الطبع، نعم إن أفكاراً تتجدد، ومعقولاتٍ من أخرى تتولد، وصفاتٍ تسمو، وهمماً تعلو، حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين، ويظن أن هذا من تصرف الطبيعة لا من آثار الاكتساب، ولكن الحق فيه أن ثمرة ما غرس ونتيجة ما كسب فهو مصنوعٌ يتبع مصنوعاً، فالإنسانُ في عقله وصفات رُوحه عالمٌ صناعيٌّ.

هذا مما لا يرتاب عليه العقلاءُ والسدج، ولكن هل تذكرت — مع هذا — أن الأعمال البدنية، إنما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية، وأن الروح هي السلطان القاهر على البدن؟ أظنك لا تحتاج فيه إلى تذكير؛ لأنه مما لا يغرس عن الأذهان. إنما قبل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين، ولا أظن منكراً يجدها:

إن الدين وضع إلهيٌّ، ومعلمه والداعي إليه البشر، تتلقاه العقول عن المبشرين المندرين، فهو مكسوبٌ لمن لم يختصهم الله بالوحى، ومنقولٌ عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين، وهو عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب، ويرسخ في الأفئدة، وتصبِّغ النُّفوس بعقائده وما يبعدها من الملكات والعادات، وتنتمن الأبدان على ما ينشأ عنه من الأعمال عظيمها وحقيرها، فله السلطة الأولى على الأفكار وما يطاوعلها من العزائم والإرادات، فهو سلطانُ الروح ومرشدُها إلى ما تُدِّبرُ به بدنها، وكأنَّما الإنسانُ في نشأته لوحٌ صقيل، وأول ما يخط في رسم الدين، ثم ينبعث إلى سائر الأعمال بدعوته وإرشاده، وما يطأ على النُّفوس من غيره؛ فإنما هو نادرٌ شاذٌ، حتى لو خرج مارقاً عن دينه لم

يستطيع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات، بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندماج.

وبعد هذا، فموضوع بحثنا الآن **اللَّهُ الْمَسِيحِيَّةُ وَاللَّهُ الْإِسْلَامِيَّةُ**، وهو بحثٌ طويلٌ الذيل، وإنما نأتي فيه على إجمالٍ ينبعُ عن تفصيل أن الديانة **الْمَسِيحِيَّةُ** بُنيت على **الْمُسَالَّمَةِ** والمياسرة في كل شيء، وجاءت برفع القصاص واطراح الملك والسلطة، ونبذ الدنيا وبهرجها، ووُعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدين بها، وترك أموال السلاطين للسلاطين، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية، بل والدينية.

ومن وصايا الإنجيل: «من ضربك على خدك الأيمن فأدْرِ له الأيسر»، ومن أخباره: أن الملوك إنما ولادُتهم على الأجساد وهي فانية، والولاية الحقيقة الباقيَة على الأرواح هي الله وحده، فمن يقف على مباني هذه الديانة، ويُلاحظ ما قلنا من أن الدين صاحب الشوكة العظمى على الأفكار، مع ملاحظة أن لكل خيال أثراً في الإرادة يتبعه حركة في البدن على حسبه؛ يعجب كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين الإسلامي، المنتسبين في عقائدهم إليه؛ فإنهم يتسابقون في المفاحرَة والمباهة بزينة هذه الحياة ورفاه العيش فيها، ولا يقفون عند حد في استيفاء لذاتها، ويسارعون إلى افتتاح المالك، والتغلب على الأقطار الشاسعة، ويخترعون كل يوم فناً جديداً من فنون الحرب، ويبذلُون في اختراع الآلات الحربية القاتلة، ويستعملها بعضهم في بعض، ويصولون بها على غيرهم، ويبالغون في ترتيب الجيوش وتدبير سوقها في ميادين القتال، ويصرُّون عقولهم في إحكام نظمها، حتى وصلوا غايةً صار بها الفن العسكري من أوسع الفنون وأصعبها، وإن أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية بحفظ أملائهم، فضلاً عن الالتفات إلى طلب غيرها.

الديانة الإسلامية وضع أساسها على طلب الغلبة والشوكة والافتتاح والعزَّة، ورفض كل قانون يُخالف شريعتها، ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها، فالناظر في أصول هذه الديانة، ومن يقرأ سورة من كتابها المنزَل؛ يحكم حكماً لا ريب فيه بأن المعتقدين بها لا بد أن يكونوا أول ملة حربية في العالم، وأن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات القاتلة، وإتقان العلوم العسكرية، والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكميات وجر الأثقال والهندسة وغيرها، ومن تأمل في آية **﴿وَأَعْوَذُ لَهُمْ مَا أُسْتَطِعُتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾** أيقَن أن من صُبغَ بهذا الدين فقد صُبغَ بحب الغلبة، وطلب كل وسيلة إلى ما يسهل لها سبيلها، والسعى إليها بقدر الطاقة البشرية، فضلاً عن الاعتصام

بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه. ومن لاحظ أن الشرع الإسلامي حرم المراهنة إلا في السباقه والرمادية، انكشف مقدار رغبة الشارع في معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليها.

ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتسكين بهذا الدين لهذه الأوقات؛ إذ يراهم يتهاونون بالقوة، ويتساهلون في طلب لوازمهما، وليس لهم عناءً بالبراعة في فنون القتال ولا في اختراع الآلات، حتى فاقتهم الأمم سواهم فيما كان أول واجب عليهم، واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون إليه من تلك الفنون والآلات، وسقط كثيرون منهم تحت سلطة مخالفיהם واستكانوا لها ورضخوا لأحكامها، ومن وازن بين الديانتين حار فكره، كيف اخترع مدفع الكروب والمتاليلوز، وغيرهما؛ بأيدي أبناء الديانة الأولى قبل الثانية! وكيف وُجدت بندقية مارتين في ديار الأولين، قبل وجودها عند الآخرين! وكيف أحكمت الحصون، ودرعت البوار، وأخذت مغالق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم، دون أهل الغلبة وال الحرب؟!

لم لا يحار الحكيم وإن كان نطايسياً؟! لم لا يقف الخبير دون استكناه الحقيقة؟! هل القرون الخالية والأحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في نفوس المتسكين بعراهما؟ هل نبذت كل ملة من الملتين عقائد دينها ظهرياً من أجيال بعيدة؟ هل اقتصر النصارى في دينهم على الأخذ بشرعية موسى، واقتفاء سيرة يوشع بن نون؟ هل تخللت بعض آيات الإنجيل من حيث يدرى ولا يدرى بين الخطب والمواعظ التي تُتلَى على منابر المسلمين، أو أُلقي شيء منها في أمانٍ معلميهم وناشرٍ شريعتهم عندما يتربعون في محافل دروسهم؟ هل تبدلَت سُنَّة الله في الملتين، هل تَحَوَّلَ مجرى الطبيعة فيها؟ هل استبدت الأبدان فيهما على الأرواح؟ أو وجد للأرواح دبير سوى الفكر والخيال؟ أو انفلتت الأفكار من سلطة الدين؟ أو تعصت النُّفُوس عن الانتقاد بنقشته، وهو أول حاكم عليها وأقوى مؤثر فيها؟ هل تختلف العلل عن معلولاتها؟ هل تتقطع النسب بين الأسباب ومسبباتها؟ ماذا عساه يرشد العقول إلى كشف المساطير وحل المعميات؟

أُينُسُب هذا إلى اختلاف الأجناس، وكثير من أبناء المللتين يرجعون إلى أصول واحدة، ويتقاربون في الأنساب الدانية؟ أُينُسُب هذا إلى اختلاف الأقطار، وكثير من القبائل يتشابهون في طبائع البلدان، ويتجاوزون في موقع المكانة؟ ألم يصدر من المسلمين وهم في شبيبة دينهم أعمالٌ بهرت الأ بصار، وأدهشت الألباب؟ ألم يكن منهم مثل فارس العرب والترك الذين دوخلوا المالك واستولوا على كرسي السيادة فيها ... كان للMuslimين

في الحروب الصليبية آلاتٌ ناريةٌ أشباء المدافع، فزع لها المسيحيون، وغابوا عن معرفة أسبابها. ذكر ملکام سرجم «إنجليزي» في تاريخ فارس: أن مهوماً القرنوني كان يحارب وثنىً الهندي بالمدافع، وكانت هي الأسباب في انهزامهم بين يديه سنة ٤٠٠ من الهجرة، وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئاً منها.

فأي عنون من الدَّهْر أخذ بأيدي المُلْلَةِ المُسِيْحِيَّةِ فَقَدَّمَهَا إلى ما لم يكن في قواعد دينها؟ وأي صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخْرَتْهُم عن تعاطي الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم؟ مقامُ للحيرة وموضع للعجب! ويظن أن لا بد لهذا التناقض من سبب، نعم، وتفصيله يطول، ولكن نُجمل على ما شرطنا أن الدين المسيحي إنما امتد ظله وعمت دعوته في المالك الأوروبية من أبناء الرومانيين، وهم على عقائد وأداب وملكات عادات ورثوها عن أديانهم السابقة، وعلومهم وشرائعهم الأولى، وجاء الدين المسيحي إليهم مسالماً لعوايدهم ومذاهِب عقولهم، وداخلهم من طرق الإقناع ومسارقة الخواطر لا من مطارق البأس والقوة، فكان كالطراز على مطارفهم، ولم يسلبهم ما ورثوه عن أسلافهم، ومع هذا فإن صحف الإنجيل الداعية إلى السلامة والسلم لم تكن لسابق العهد مما يتناوله الكافة من النَّاس، بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين.

ثم إن الأخبار الرومانيين لَمَّا أقاموا أنفسهم في منصب التَّشْرِيع، وسُنوا محاربة الصليب، ودعوا إليها دعوة الدين؛ التحتمت آثارُها في النُّفُوس بالعقائد الدينية، وجرت منها مجرى الأُصُول، ولحقَّها على الأثر تزعزع عقائد المسيحيين في أوروبا، وافترقوا شيعات وذهبوا مذاهب تنازع الدين في سلطته، وعاد وميض ما أودعه أجدادُهم في جراثيم وجودهم ضراماً، وتوسعوا في فنون كثيرة، وانفسح لهم مجال الفكر فيها، وكانت براعتهم في الفن العسكري واختراع آلات الحرب والدُّفاع مساوية لبراعتهم في سائر الفنون.

أما المسلمين، فبعد أن نالوا في نشأة دينهم ما نالوا، وأخذوا من كل كمال حربي حظاً، وضربوا في كل فخار عسكري بسهم، بل تقدموا سائر الملل في فنون المقارعة وعلوم النزال والمكافحة؛ ظهر فيهم أقوامٌ بلباس الدين وأبدعوا فيه، وخلطوا بأصوله ما ليس منها، فانتشرت بينهم قواعدُ الجبر، وضُربت في الأذهان حتى اخترقتها، وامتزجت بالنُّفُوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال، هذا إلى ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع، وما أحدهُه السوفسطائية الذين أنكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق، وما وضعه كَبَّةُ النقل من الأحاديث ينسبونها إلى

صاحب الشرع وَكِتَابُهُ ويثبتونها في الكُتب، وفيها السُّمُّ القاتل لروح الغيرة، وإن ما يلصق منها بالعقل يوجب ضعفًا في الهمم وفتورًا في العزائم.

وتحقيق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة، خصوصًا بعد حصول النقص في التعليم، والقصیر في إرشاد الكافة إلى أصول دينهم الحقة ومبانيه الثابتة التي دعا إليها النبيُّ وأصحابه، فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم إلا منحصرة في دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة، لعل هذا هو العلة في وقوفهم، بل الوجب لتقهقرهم، وهو الذي نعاني من عنايه اليوم ما نسأل الله السلامة منه.

إلا أن هذه العوارض التي غشيت الدين، وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته — وإن كان حجابها كثيفاً — لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يحرموها بالمرة تدأفع دائمٌ وتغالب لا ينقطع، والمنارة بين الحق والباطل كالمدافعة بين المرض وقوء المزاج، وحيث إن الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم، ولا يزال ومضى برقه يلوح في أفقائهم بين تلك الغيم العارضة؛ فلا بد يوماً أن يسطع ضياؤه ويفشع سحاب الأغيان.

وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزّل وإمامهم الحق، وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدّفاع عن ولائهم، ومغالبة المعذين، وطلب المنعة من كل سبيل، لا يعين لها وجهاً، ولا يخصص لها طريقة ... فإننا لا نرتاب في عودتهم إلى مثل نشأتهم، ونهوضهم إلى مقاضاة الزمان ما سلب منهم، فيتقدمون على مَنْ سواهم في فنون الملاحمة والمنازلة والمحاولة حفظاً لحقوقهم، وضناً بأنفسهم عن الذل وملتهم عن الضياع، وإلى الله تصرير الأمور.

الفصل الرابع

انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك

﴿وَاعْنَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

إن للMuslimين شدة في دينهم، وقوة في إيمانهم، وثباتاً على يقينهم، يباهون بها من عادهم من الملل، وإن في عقidiتهم أو ثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض، ومما رسخ في نفوسهم أن في الإيمان بالله وما جاء به نبيهم ﷺ كفالة لسعادة الدارين، ومن حرم الإيمان فقد حرم السعادتين، ويُشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء، وهذه الحالة – كما هي في علمائهم – متمكنة في عامتهم، حتى لو سمع أي شخص منهم في أي بقعة من بقاع الأرض عالماً كان أو جاهلاً أن واحداً من وسم بسمة الإسلام في أي قطر ومن أي جنس صباً عن دينه؛ رأيت من يصل إليه هذا الخبر في تحرق وتأسف يلهم بالحوقلة والاسترجاع، ويعود النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به، بل على جميع من يشاركه في دينه، ولو ذكرت مثل هذه الحادثة في تاريخ وقرأها قارئهم بعد مائين من السنين؛ لا يتمالك قلبه من الاضطراب ودمه من الغليان، ويستفزه الغضبُ ويدفعه لحكاية ما رأى كأنه يحدث عن غريب أو يحكى عن عجيب. المسلمين – بحكم شريعتهم ونطقوصها الصريرة – مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل في ولائهم من البلدان، وكلهم مأمور بذلك لا فرق بين قربهم وبعدهم، ولا بين المتحدين في الجنس ولا المختلفين فيه، وهو فرض عين على كل واحد منهم، إن

لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثم، ومن فروضهم في سبيل الحماية وحفظ الولاية، بذل الأموال والأرواح، وارتكاب كل صعب، واقتحام كل خطب، ولا يُباح لهم المسالمة مع من يغالبهم في حال من الأحوال حتى ينالوا الولاية خاصةً لهم من دون غيرهم، وبالغت الشريعة في طلب السيادة منهم على من يُخالفهم إلى حد لو عجز المسلم عن التملُّص من سلطة غيره؛ لوجبت عليه الهجرة من دار حربه، وهذه قواعد مثبتة في الشريعة الإسلامية يعرفها أهل الحق، ولا يغير منها تأويلاً لأهل الأهواء وأعوان الشهوات في كل زمان.

المسلمون يحث كل واحد منه بهاتفٍ يهتف من بين جنبيه يُذَكِّره بما تُطالبه به الشريعة، وما يفرض عليه الإيمان، وهو هاتفُ الحق الذي بقي له من إلهامات دينه، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين في هذه الأيام بعضُهم في غفلةٍ عما يُلِمُ بالبعض الآخر، ولا يَلْمُون لما يَلْمُون له بعضُهم، فأهل «بلوجستان» كانوا يرون حركات الإنجلiz في «أفغانستان» على موقع أنظارهم ولا يجيش لهم جأشُ، ولم تكن لهم نعمة على إخوانهم، والأفغانيون كانوا يشهدون تداخل الإنجلiz في بلاد فارس ولا يضجرون ولا يتململون، وإن جنود الإنجلiz تضرب في الأراضي المصرية ذهاباً وإياباً وتقتل وتُقتل، ولا ترى نجدة في نفوس إخوانهم المشرفين على مجريي دمائهم، بل السامعين لخريرها من حلاقيمهم، الذين أحرمت أحداً منهم من مشاهدتها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن شمائهم.

تمسُّك المسلمين بتلك العقائد وإحساسهم بداعية الحق في نفوسهم، مع هذه الحالة التي هم عليها؛ مما يقضي بالعجب ويدعو إلى الحيرة، ويسبق إلى بيان السبب، فخذ مجملًا عنه: إن الأفكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدركات والوجدانيات النُّفُسية، وإن كانت هي الباعثة على الأفعال وعن حكمها، تصدر بتقدير العزيز العليم؛ لكن الأفعال تُثبتُها وتقوّيها وتطبعها في الأنفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق، وتترتب عليه الآثار التي تلائمها.

نعم، إن الإنسان إنسانٌ بفكرة وعقائده إلا ما ينعكس إلى مرايا عقله من مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير، فكل شهودٍ يُحدث فكرًا، وكل فكر يكون له أثر في داعية، وعن كل داعية ينشأ عمل، ثم يعود من العمل إلى الفكر، ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الأفعال والأفكار، ما دامت الأرواح في الأجساد، وكل قبيل هو للأخر عماد.

إن للأخوة وسائر دعائِ القرابة صورةٌ عند العقل، ولا أثر لها في الاعتصاب والالتحام لولا ما تَبَعَّثَ عليه الضرورات وتلتجئُ إليه الحاجات، عن تعاون الأنسباء والعصبة على

نيل المنافع، وتضاؤرهم على دفع المضار، وبعد كرور الأيام على المضائرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذًا يصرفه في آثارها بقية الأجل، ويكون انبساط النفس لعون القريب، وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جارياً مجرى الوجданيات الطبيعية، كإحساس بالجوع والعطش والري والشبع، بل اشتبه أمره على بعض الناظرين فعدده طبيعياً، فلو أهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها، ولم تدع ضرورات الحياة في وقت من الأوقات إلى ما يمكن تلك الصلة ويفوكدها، أو وجَد صاحبُ النسب من يظاهره في غير نسبة أو الجائحة ضرورة إلى ذلك؛ ذهب أثر تلك الرابطة النفسية، ولم يبق منها إلا صورة في العقل تجري مجراً المحفوظات من الروايات والمنقولات.

وعلى مثال ما ذكرنا في رابطة النسب — وهي أقوى رابطة بين البشر — يكون الأمر في سائر الاعتقادات التي لها أثر في الاجتماع الإنساني من حيث ارتباط بعضه ببعض، إذا لم يصح العقد الفكري ملجم الضرورة أو قوة الداعية إلى عمل تنطبع عليه الجارحة وتمرن عليه ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئاً للروح وشكلاً من أشكالها، فلن يكون منشأً لآثاره، وإنما يعد في الصور العلمية له رسم يلوح في الذاكرة عند الالتفات إليه — كما قدمنا.

بعد تدبر هذه الأصول البينية والنظر فيها بعين الحكمة؛ يظهر لك السبب في سكون المسلمين إلى ما هم فيه مع شدتهم في دينهم، والعلة في تباطؤهم عن نصرة إخوانهم، وهم أثبت الناس في عقائدهم؛ فإنه لم يبق من جامعة بين المسلمين — في الأغلب — إلا العقيدة الدينية مجردةً عما يتبعها من الأعمال، وانقطع التعارفُ بينهم، وهجر بعضهم بعضًا هجراً غير جميل؛ فالعلماء — وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها — لا تواصل بينهم ولا تراسل، فالعالم التركي في غيبة عن حال العالم الحجازي فضلاً عن بعده عنهم، والعالم الهندي في غفلة عن شؤون العالم الأفغاني، وهكذا.

بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ولا صلة تجمعهم، إلا ما يكون بين أفراد العامة لدواعٍ خاصة؛ من صداقة أو قرابة بين أحدهم وأخر، أما في هيئتهم الكلية فلا وحدة لهم، بل لا أنساب بينهم، وكلُّ ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها كأنه كونُ برأسه. كما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء؛ كانت كذلك بين الملوك والسلطانين من المسلمين، أليس بعجيب أن لا تكون سفارة للعثمانيين في مراكش ولا لمراشك عند العثمانيين؟ أليس بغرير أن لا تكون للدولة العثمانية صلاتٌ صحيحةٌ مع الأفغانين وغيرهم من طوائف المسلمين في المشرق؟

هذا التدابر والتقاطع وإرسال الحبال على الغوارب عمَّ المسلمين، حتى صَحَّ أَنْ يُقال: لا علاقَةَ بَيْنَ قَوْمٍ مِّنْهُمْ وَقَوْمٍ وَلَا بَلْدَ وَبَلْدٌ إِلَّا طَفِيفٌ مِّنْ الإِحساسِ بِأَنَّ بَعْضَ الشعوبِ عَلَى دِينِهِمْ وَيُعْتَقِدونَ مِثْلَ اعْتِقادِهِمْ، وَرَبِّمَا يَتَعَرَّفُونَ مَوْاقِعَ أَقْطَارِهِمْ بِالصَّدِفَةِ إِذَا التَّقَى بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فِي مُوْسِمِ الْحَجَّاجِ الْعَامِ، وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الإِحساسِ هُوَ الدَّاعِيُّ إِلَى الْأَسْفِ وَانْقَبَاضِ الصِّدَرِ إِذَا شَعَرَ مُسْلِمٌ بِضَيَاعِ حَقِّ مُسْلِمٍ عَلَى يَدِ أَجْنَبِيِّ عَنْ مُلْتَهِ، لَكِنَّهُ لِضَعْفِهِ لَا يَبْعِثُ عَلَى النَّهْوِ مَعَاضِدَتِهِ.

كَانَتِ الْمَلَةُ كَجَسْمٍ عَظِيمٍ قَوِيَّ الْبَنِيةِ صَحِيحُ الْمَزَاجِ، فَنَزَلَ بِهِ مِنَ الْعَوَارِضِ مَا أَضَعَفَ الْالْتِئَامَ بَيْنَ أَجْزَائِهِ، فَتَدَاعَتْ لِلتَّنَاثِرِ وَالْانْهَالِ، وَكَادَ كُلُّ جَزْءٍ يَكُونُ عَلَى حَدَّةِ وَتَضَمَّنُهُ هَيَّةَ الْجَسْمِ.

بِدَأَ هَذَا الْانْهَالُ وَالْأَضَعَفُ فِي رَوَابِطِ الْمَلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَنْ اِنْفَصَالِ الرَّتِبَةِ الْعَلَمِيَّةِ عَنْ رَتِبَةِ الْخَلَافَةِ، وَقَتَمَا قَنَعَ الْخَلَافَاءُ الْعَبَاسِيُّونَ بِاسْمِ الْخَلَافَةِ دُونَ أَنْ يُحُوَّزُوا شَرْفَ الْعِلْمِ وَالْتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ وَالْاجْتِهَادِ فِي أَصْوَلِهِ وَفِرْوَاهِهِ كَمَا كَانَ الرَّاشِدُونَ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ —.

كَثُرَتْ بِذَلِكَ الْمَذَاهِبُ وَتَشَعَّبَ الْخَلَافُ مِنْ بَدْيَةِ الْقَرْنِ الْثَالِثِ مِنَ الْهِجَرَةِ إِلَى حَدٍّ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ مِثْلُهُ فِي دِينِ الْأَدِيَانِ، ثُمَّ انْتَلَمَتْ وَحْدَةُ الْخَلَافَةِ فَانْقَسَمَتْ إِلَى أَقْسَامٍ: خَلَافَةُ عَبَاسِيَّةٍ فِي بَغْدَادٍ، وَفَاطِمِيَّةٍ فِي مِصْرَ وَالْمَغْرِبِ، وَأَمْوَاهٍ فِي أَطْرَافِ الْأَنْدَلُسِ، تَفَرَّقَتْ بِهَا كُلُّمَهُ الْأَمَّةِ وَانْشَقَتْ عَصَاهَا وَانْحَطَتْ رَتِبَةُ الْخَلَافَ إِلَى وَظِيفَةِ الْمَلِكِ، فَسَقَطَتْ هَيَّتَهَا مِنَ النُّفُوسِ، وَخَرَجَ طَلَابُ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ يَدْأَبُونَ إِلَيْهِ مِنْ وَسَائِلِ الْقُوَّةِ وَالشُّوَكَّةِ وَلَا يَرْعَونَ جَانِبَ الْخَلَافَةِ.

وَزَادَ الْاخْتِلَافُ شَدَّةً وَتَقَطَّعَتِ الْوَشَائِجُ بَيْنَهُمْ بَظُهُورِ جَنْكِيزِ خَانِ وَأَوْلَادِهِ، وَتِيمُورِلَنْكَ وَأَحْفَادِهِ، وَإِيْقَاعِهِمْ بِالْمُسْلِمِينَ قَتْلًا وَإِذْلَالًا حَتَّى أَذْهَلُوهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، فَتَفَرَّقَ الشَّمْلُ بِالْكُلِّيَّةِ وَانْفَصَمَتْ عُرْىُ الْالْتِئَامِ بَيْنَ الْمُلُوكِ وَالْعُلَمَاءِ جَمِيعًا، وَانْفَرَدَ كُلُّ بَشَّانِهِ أَوْ انْصَرَفَ إِلَى مَا يَلِيهِ، فَتَبَدَّدَ الْجَمْعُ إِلَى آحَادٍ، وَافْتَرَقَ النَّاسُ فَرِقًا كُلُّ فَرْقَةٍ تَتَبَعُ دَاعِيًّا إِمَّا إِلَى مَلِكٍ أَوْ مَذْهَبٍ، فَضَعَفَتْ آثارُ الْعَقَائِدِ الَّتِي كَانَتْ تَدْعُو إِلَى الْوَحْدَةِ، وَتَبَعَثُ عَلَى اشْتِبَاكِ الْوَشِيقَةِ، وَصَارَ مَا فِي الْعُقُولِ مِنْهَا صُورًا ذَهَنِيَّةً تَحْوِيَهَا مَخَازِنُ الْخِيَالِ، وَتَلَهُظُهَا الْذَّاكرةُ عَنْدَ عَرْضِ مَا فِي خَزَانَتِ النَّفْسِ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ آثَارِهَا إِلَّا أَسْفٌ وَحَسْرَةٌ يَأْخُذُانِ بِالْقُلُوبِ عَنِّدَمَا تَنَزَّلُ الْمَصَائِبُ بِبَعْضِ الْمُسْلِمِينَ، بَعْدَ أَنْ يَنْفَذَ الْقَضَاءُ وَيَبْلُغَ الْخَبَرُ إِلَى الْمَسَامِعِ عَلَى طُولِ الْزَّمَانِ، وَمَا هُوَ إِلَّا نَوْعٌ مِّنَ الْحَزَنِ عَلَى الْفَائِتَ، كَمَا يَكُونُ عَلَى الْأَمْوَاتِ مِنَ الْأَقْارِبِ لَا يَدْعُونَ إِلَى حَرْكَةِ لِتَدَارُكِ النَّازِلَةِ، وَلَا دَفْعَةِ الْغَائِلَةِ.

وكان من الواجب على العلماء قياماً بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع، أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية، ويختاروا الاختلاف الذي وقع في الملك بتمكن الاتفاق الذي يدعو إليه الدين، ويجعلوا معاقداً هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطاً لروح حياة الوحدة، ويصيير كل واحد منهم حلقة في سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ في جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض، ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون إليها في شئون وحدتهم، ويأخذون بأيدي العامة إلى حيث يُرشدهم التنزيل وصحيح الآخر، ويجمعوا أطراف الوسائل إلى معقد واحد يكون مرکزه في الأقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام، حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العداون، والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل وطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها، ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الأفهams وصيانته الدين من البدع، فإن إحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف، فلو أبدع مبدعُ أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارُك بدعته ومحوُها قبل فشوها بين العامة، وليس بخافٍ على المستصررين ما يتبع هذا من قوة الأمة وعلو كلمتها واقتدارها على دفع ما يغشاها من النوازل.

إلا أنا نأسف غاية الأسف إذا لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة، وهي أقرب الوسائل، وإن التفتت إليها في هذه الأيام طائفةٌ من أرباب الغيرة، ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفتنة ولا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ويجمع شتتهم، فقد دارستهم التجارب ببيان لا مزيد عليه، وما هو بالعسير عليهم أن يبثوا الدُّعاء إلى من يبعد عنهم، ويصافحوا بالأكفَّ مَنْ هو على مقربةٍ منهم، ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وملتهم بفائدة، أو ما يخشى أن يمسها بضرر، ويكونوا بهذا العمل الجليل قد أَدَّوا فريضة وطلبو سعادة، والرمق باقٍ والأمال مقبلة، وإلى الله المصير.

الفصل الخامس

سبات من له حق ... وحرك من لا حق له

هذه دول أوروبا جمِيعاً ودولة فرنسا خصوصاً، شاخصة الأ بصار إلى ما أصاب مصالحها وأضاع حقوقها في القطر المصري وأضر بتجارتها فيه، ولا تبدي حركة ولا يسمع لها صوت، إلا همس خفي في الجرائد، والدولة العثمانية وهي شديدة الأزر قوية العضد؛ لما لها من المكانة في قلوب الهنديين، وكل إنجليزي قلبه بين أصابع الدولة العثمانية، وأحساه مستقرة على أناملها، وفي نظرها أن سلطتها أشرفت على الزوال في الأقطار المصرية، وسيادتها عليها كادت تكون اسمًا، ومع ذلك لا تأتي عملاً ولا تخطو خطوة، سوى أنها اكتفت بإقامة الحجج ورفع الصوت بالاستغاثة لدى الدول حتى أَبَحَّا الصياح، وليس من يسمع ولا من يجيب.

وذوو الحقوق في الولاية على مصر والأخذ بزمام الحكم فيها على اختلاف مشاربهم، قد شدَّتْ أياديهم بحبالٍ من الآمال، وسلسل من المخاوف، لا يجدون لهم قراراً على فكر، ولا ثباتاً على رأي، وإنما هم بين إعصار من الأوهام، وتيارات من هواجس الخيال، يحملقون إلى موضع الحوادث، حائرين لا يطرف لهم طرف، ولا يغمض لهم جفن.

وعامة الأهالي في الديار المصرية بين فقر كاد يفضي إلى قحط، واختلاف في النظام، وضعف في السلطة، وخطب في الأحكام، كادت تؤدي إلى يأس من الإصلاح، وقد أخذهم الدوار من التلف إلى جوانبهم طوراً ينظرون إلى أحكامهم نظر الأمل في هممهم، وحسن تدبيرهم، وأخر ما وعدهم به الحكومة الإنجليزية من الجلاء عن أوطانهم، وتركهم وما

يدبرون لأنفسهم، والقرعة تضرب عند الأمة البريطانية على ديارهم، بدون أن يجعل لهم فيها سهم، كأنما هم عنها أغراً لا يُؤْبَه بهم، ولا يبالي بشأنهم. نزاعٌ بين رجال السياسة الإنجليزية، بعضهم يدفع الحكومة للاستيلاء على مصر وإعلان السيادة فيها واستسلام أَرْزَمَة أحكامها، وآخرون يقولون: هذا مما يُخالف أحكام الزمن، ولا تسوغه شريعة الوفاء، وإنما علينا أن نحل بها عساكرنا زمَّناً يكفي لقضاء ما نريده فيها، ثم نخليها إذا لم يوجد موجب يحتم البقاء.

عبارات مختلفة، ومعانٍ متشابهة، يتنازعون وهم متافقون، ويختلفون وهم متحدون، يذهبون في انتقال الأسباب لما يبتغون مذاهب مختلفة، فبعض الجرائد كجريدة «التايمز» وما على مشربها تعتل بالجنرال جوردون وتهون ما حل به من الفشل، وتتقدم إلى الحكومة الإنجليزية بطلب إنقاذه من الخطر، ولا وسيلة لخلاصه إلا إعلان الحكومة بالسيادة على البلاد المصرية.

فلهذا الإعلان من القوة المعنوية التي تدافع عن الجنرال ما ليس لجيش عرمم، أما إرسال الجيوش فهو محالٌ لوعرة السبيل وكثرة النفقات وشدة الحرارة، ولئن همت به الحكومة فإنما يكون من أعمال اليأس والقنوط، فهذه الجرائد جعلت هذه المصالح الدولية وحقوق الدولة العثمانية وحقوق ستة ملايين من سكان القطر المصري، فداء لرأس الجنرال جوردون، وفي زعمها أن ما تراه ليس رأياً يبديه أرباب الجرائد بل هو ما تراه الأمة البريطانية بأسرها، وربما لا يكون بعيداً.

وبعض الجرائد — وتشاركهم جريدة «التايمز» — تتذرع فيما تطلب بما حصل لأرباب الديون المصرية من القلق على ديونهم، وليس لهم ضمانة ترفع قلقهم، وتُسْكِن اضطرابهم، إلا إعلان السيادة على القطر المصري، وقوم آخرين منهم يجعلون حجتهم مصائب الأهالي المصريين ورزاياهم وما حل ببلادهم من احتلال، ولا ينقدهم من هذا الشقاء إلا السيادة الإنجليزية.

جميعهم على وفاق على أن هذه السيادة هي الجوهر الثمين والسر المكنون، والإكسير المضنون به على غير أهله، متى أبزروه لم يبق مريض إلا عُوفي، ولا ضعيف إلا قوي، ولا فاسد إلا صلح، كأن في هذا الاسم ما في الرقى والطلاسم، يعني عن الجيوش والأموال والعدة والرجال.

ولا نظن أن يكون في هذا الاسم ما يدعوه الإنجليز من القوة، ولا أن تكون في طيه هذه الأسرار العجيبة، ولو أننا فرضنا تنازلاً لأرباب الحقوق عن حقوقهم من الدول

الأوروبية والدولة العثمانية وأرباب الشأن والولاية، وسوغوا لحكومة إنجلترا أن تنقش أحرف السيادة في أوراقها الرسمية أو في هواء الديار؛ فليس من السهل عليها أنْ تزيد الحامية إلى حد يحفظ ملكاً عظيماً يتاخم بلاد أوروبا، وقد ظهرت آثار قوتها مدة الحلول وما عاد منها على البلاد.

على أن الأهالي كانوا في سُكُونٍ تام؛ لرکونهم إلى ما تعدهم به حكومة إنجلترا من الجلاء عن أوطانهم، فإذا أعلنت السيادة انقصمت علاقتُ الأمال، وانحرفت القلوب ومالت إلى الدعوة القائمة على القرب منها، وانقلب الكافة إلى الذود عن حقوقهم الوطنية أو المدنية، ولا يرهبون القوة الإنجليزية في داخل البلاد بعدما علموا شأنها، ويكون هذا حجة جديدة لمحمد أحمد في تأييد دعوه لدى المصريين، ولا يرعبه اسم السيادة بعدما لم ترهبه جيوش الجنرال هكس وجراهام، وفتكه بالأولى وإلجائه الثانية إلى إخلاء سواحل البحر الأحمر، فأي شأن يكون لهذا الاسم الشريف، نعم يكون بداية مشكل جديد في مصر، والله أعلم بعاقبته.

الفصل السادس

التعصب

﴿اتَّبَعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبَعُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِيَاءِ﴾.

لفظُ شغل مناطق النَّاس خصوصاً في البلاد المشرقة، تلوِّكُهُ الألسنُ وترمي به الأفواهُ في المحافل والمجامع، حتى صار تكأةً^١ للمتكلمين، يلْجأُ إِلَيْهِ الْعَيْ^٢ في تهتهته،^٣ والذملقاني^٤ في تفيهقه،^٥ أخذ هذا اللفظ بموقع التعبير، فقلما تكون عبارة إِلا وهو فاتحُها أو حشوها أو خاتمتها، يعدون مسماه علة لكل بلاء، ومنبعاً لكل عناء، ويزعمونه حجاً^٦ كثيّفاً وسدّاً بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح، ويجعلونه عنواناً على النقص وعلماً للرذائل، والمتسربلون بسرابيل الإفرنج الذاهبون في تقليدهم مذاهب الخطط والخلط لا يميزن بين حق وباطل، هم أحرصُ النَّاس على التشدق بهذا البدع الجديد، فتراهم في بيان مفاسد التعصب يهزون الرءوس ويعيثون باللحى ويبرمون السبال، وإذا رموا به شخصاً للحطّ

^١ التكأة: ما يُتوِّكُ عليه.

^٢ العي: من العي وهو العجز عن الكلام.

^٣ التهتهة: ضرب من اللكتة.

^٤ الذملقاني: السريع الكلام.

^٥ التفيهق: التوسيع والتنطع.

من شأنه أردهم للتوبيخ بلفظ أفرنجي «فناتيك»:^٦ فإن عهدوا بشخص نوعاً من المخالفة لشربهم عدوه متعصباً، وهمزوا به وغمزوا ولزوا، وإذا رأوه عبسوا وبرروا، وشمخوا بأنوفهم كبراً وولوه دبراً، ونادوا عليه بالوليل والثبور. ماذما سبق إلى أفهمهم من هذا اللفظ، وماذا اتصل بعقولهم من معناه حتى خالوه مبدأ لكل شناعة، ومصدراً لكل نقىصة، وهل لهم وقوفٌ على شيءٍ من حقيقته؟

التعصب قيام بالعصبية، والعصبية من المصادر النسبية، نسبة إلى العصبية، وهي قوم الرجل الذين يُعزّزون قوته، ويدفعون عنه الضيم والعداء، فالتعصب وصفٌ للنفس الإنسانية، تصدر عنه نهضةٌ لحماية من يتصل بها والذود عن حقه، ووجوه الاتصال تابعةٌ لأحكام النفس في معلوماتها ومعارفها.

هذا الوصف هو الذي شكل الله به الشعوب، وأقام بناء الأمم، وهو عقد الربط في كل أمة، بل هو المزاج الصحيح يُوحّد المترافق منها تحت اسمٍ واحد، أو ينشأها بتقدير الله خلقاً واحداً، كبدن تألفَ من أجزاءٍ وعناصر، تبره روحٌ واحدة، فتكون كشخص يمتاز في أطواره وشئونه وسعادته وشقائه عن سائر الأشخاص.

وهذه الوحدة هي مبعث المباراة بين أمة وأمة، وقبيلٍ وقبيل، ومباهة كل من الأمتين المتقابلتين بما يتتوفر لها من أسباب الرفاهة وهناء العيش، وما تجمعه قواها من وسائل العزة والمنعة، وسموّ المقام ونفاذ الكلمة، والتنافس بين الأمم كالتنافس بين الأشخاص، أعظم باعث على بلوغ أقصى درجات الكمال في جميع لوازم الحياة بقدر ما تسعه الطاقة. التعصب روحٌ كلي مهبطه هيئه الأمم وصورتها، وسائر أرواح الأفراد حواسه ومشاعره، فإذا ألمَ بأحد المشاعر ما لا يلائمه من أجنبٍ عنه انفعل الروح الكلي، وجاشت طبيعته لدفعه، فهو لهذا مثار الحمية العامة، ومسعر النعرة الجنسية، هذا هو الذي يرفع نفوس آحاد الأمم عن معاطة الدنيا وارتكاب الخيانات فيما يعود على الأمة بضرر، أو يئول إلى سوء عاقبة، وإن استقامة الطياع ورسوخ الفضيلة في أمة تكون على حسب درجة التعصب فيها والالتحام بين آحادها، يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم من بدن حي، لا يجد الرأس بارتفاعه غنىً عن القدم، ولا يرى القدمان في تطرفهما انحطاطاً في رتبة الوجود، وإنما كلُّ يؤدي وظائفه لحفظ البدن وبقائه.

^٦ معناها: متعصب.

وكلما ضعفت قوة الربط بين أفراد الأمة بضعف التعصب فيهم؛ استرخت الأعصاب، ورثت الأطناب، ورقت الأوتار، وتداعى بناءُ الأُجنة إلى الانحلال كما يتداعى بناءُ البنية البدنية إلى الفناء، بعد هذا يموتُ الروح الكليُّ، وتبطل هيئة الأمة وإن بقيت آحادها، فما هي إلا كالأجزاء المتناثرة، إما أن تتصل بأبدان أخرى – بحكم ضرورة الكون – وإنما أن تبقى في قبضة الموت إلى أن ينفخ فيها روح النشأة الأخرى.

سنة الله في خلقه، إذا ضعفت العصبية في قوم رماهم الله بالفشل، وغفل بعضهم عن بعض، وأعقب الغفلة تقطُّع في الروابط، وتبعه تقاطع وتدابر، فيتسع للأجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم، ولن تقوم لهم قائمةٌ من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بإفراط روح التعصب في نشأة ثانية.

نعم، إن التعصب وصف كسائر الأوصاف، له حد اعتدال وطريقاً إفراط وتفريط، واعتده الله هو الكمال الذي **بِيَّنَا** مزاياه، والتفريط فيه هو النقص الذي **أَشْرَنَا** لرزاياه، والإفراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء؛ فالمفرط في تعصبه يدافع عن الملاحم به بحق وبغير حق، ويرى عصبه منفردة باستحقاق الكرامة، وينظر إلى الأجنبي عنه كما ينظر إلى الهمل، لا يعترف به بحق، ولا يرعى له ذمة، فيخرج بذلك عن جادة العدل، فتتقلب منفعة التعصب إلى مضره ويده بهاء الأمة، بل يتقوّض مجدها، فإن العدل قوام الاجتماع الإنساني، وبه حياة الأُمم، وكل قوة لا تخضع للعدل فمصيرها إلى الزوال، وهذا الحد من الإفراط في التعصب هو المقوّط على لسان الشارع **بِسْمِ اللَّهِ** في قوله: «ليس من دعا إلى عصبية».

التعصب كما يُطلق ويراد منه النعرة على الجنس، ومرجعها رابطة النسب والاجتماع في منبت واحد. كذلك توسيع أهل العرف فيه، فأطلقواه على قيام الملاحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضاً، والمتنطعون من مقلدة الإفرنج يخسون هذا النوع منه بالمقت، ويرمونه بالتعس، ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل، فإن لحمة يصير بها المتفرقون إلى وحدة تنبئ عنها قوة لدفع الغائطات وكسب الكلمات؛ لا يختلف شأنها إذا كان مرجعها الدين أو النسب، وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين في أقوام مختلفة من البشر، وعن كل منهما صدرت في العالم آثار جليلة يفتخرون بها الكون الإنساني، وليس يوجد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة القريب عن قريبه ومعاونته على حاجات معيشته، وبين ما يصدر من ذلك عن الملاحمين بصلة المعتقد ورابطة المشرب.

فتعصبُ المشتركين في الدين المتفاقيين في أصول العقائد – بعضهم لبعض – إذا وقف عند الاعتدال ولم يدفع إلى جور في المعاملة، ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم أو

نقض لذمته؛ فهو فضيلة من أجل الفضائل الإنسانية، وأوفرها نفعاً وأجزلها فائدةً، بل هو أقدس رابطة وأعلاها، إذا استحكت صعدت بذوي المكنة فيها إلى أوج السيادة وذروة المجد، خصوصاً إن كانوا من قبيل قويٍ فيهم سلطانُ الدين، واشتدت سطوه على الأهواء الجنسية حتى أشرف بها على الزوال كما في أهل الديانة الإسلامية – على ما أشرنا إليه في العدد الثاني من جريتنا.

ولا يؤخذ علينا في القول بأنه من أقدس الروابط؛ فإنه كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وأحاديث متعددة، ويصل ما بينهم في المقاصد والغايات والأعمال، وكذلك يمحو أثر المنابذة والمنافرة بين القبائل والعشائر، بل الأجناس المتخالفة في المناصب واللغات والعادات، بل المتباينة في الصور والأشكال، ويحول أهواءها المتضاربة إلى قصد واحد، وهو: تأصيلُ المجد وتأييدهُ الشرف وتخليدُ الذكر تحت الاسم الجامع لهم، هذا الأثر الجليل عهد لقوة التعصب الديني، وشهد عليه التاريخ بعدما أرشد إليه العقل الصحيح، وما كانت رابطة الجنس لِتقوى على شيء منه.

تُثْغِّر جماعةٌ من متزندقة هذه الأوقات في بيان مفاسد التعصب الديني، وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به إخوانهم من ضيم، وتضليلهم لدفع ما يلم بهم عن نور غاشية الوهن والضعف، هو الذي يصدُّهم عن السير إلى كمال المدنية، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة، ويرمي بهم في ظلمات الجهل، ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على مَنْ يُخالفهم في دينهم، ومن رأى أولئك المُثْغِّرين أن لا سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح إلا بانحلال العصبية الدينية ومحو أثرها، وتخلص العقول من سُلطة العقائد، وكثيرًا ما يرجفون بأهل الدين الإِسلامي، ويخوضون في نسبة مذمَّ التعصب إليهم.

كذب الخراسون، إن الدين أولُ معلم وأرشدُ أستاذٍ وأهديَ قائدَ للأنفس إلى اكتساب العلوم والتَّوْسُّع في المعرفة، وأرحمَ مُؤَدِّب وأبصرَ مُرَوْض بطبع الأرواح على الآداب الحسنة والأخلاقِ الكريمة، ويقيمهَا على جادة العدل، وينبهُ فيها حاسَّة الشفقة والرحمة، خصوصاً دين الإِسلام؛ فهو الذي رفعَ أَمَّةً كانت من أعرق الأمم في التَّوْحُش والقسوة والخشونة، وسما بها إلى أرقى مراقيِ الحكمَة والمدنية في أقرب مدة، وهي الأمة العربية.

قد يطأ على التعصب الديني من التغالي والإفراط مثل ما يعرض على التعصب الجنسي فيفضي إلى ظلم وجور، ربما يؤدي إلى قيام أهل الدين بإبادة مخالفيهِم ومُحْقِّقَ وجودهم، كما قاتلت الأُمم الغربية واندفعت على بلاد الشرق لمحض الفتك والإبادة لا للفتح

ولا للدعوة إلى الدين في الحرب الهائلة المعروفة بحرب الصليب، وكما فعل الإسبانيوليون ب المسلمي الأندلس، وكما وقع قبل هذا وذاك في بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحي، أن صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود في القدس وأحرقهم، إلا أن هذا العارض لخالفته لأصول الدين فلما تمت له مدة، ثم يرجع أرباب الدين إلى أصوله القائمة على قواعد السلم والرحمة والعدل.

أما أهل الدين الإسلامي فمنهم طوائف شَطَّتْ في تعصبها في الأجيال الماضية، إلا أنه لم يصل بهم الإفراط إلى حد يقصدون فيه الإبادة وإخلاء الأرض من مخالفتهم في دينهم، وما عهد ذلك في تاريخ المسلمين بعدما تجاوزوا حدود جزيرة العرب، ولنا الدليل الأقوم على ما نقول، وهو وجود الملل المختلفة في ديارهم إلى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم تسلطوا عليها وهم في عنفوان القوة وهي في وهن الضعف، نعم كان للمسلمين ولع بتوسيع المالك وامتداد الفتوحات، وكانت لهم شدة على من يعارضهم في سلطانهم، إلا أنهم كانوا — مع ذلك — يحفظون حُرمة الأديان، ويرعون حق الذمة، ويعرّفون لمن يخضع لهم من الملل المختلفة حَقَّهُ، ويدفعون عنه غائلة العداون، ومن العقائد الراسخة في نفوسهم: «أن من رضي بدمتنا فله ما لنا وعليه ما علينا» ولم يعدلوا في معاملتهم لغيرهم عن أمر الله في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالَدَيْنِ وَالْأَقْرَبَيْنِ﴾، اللهم إلا ما لا تخلو عنه الطبائع البشرية.

ومن نشأة المسلمين إلى اليوم لم يدفعوا أحداً من مخالفتهم عن التقدُّم إلى ما يستحقه من عُلوٌّ الرتبة وارتفاع المكانة، ولقد سما في دول المسلمين — على اختلافها — إلى المراتب العالية: كثيرون من أرباب الأديان المختلفة، وكان ذلك في شببيتها وكمال قوتها، ولم يزل الأمر على ما كان، وفي الظن أن الأمم الغربية لم تبلغ هذه الدرجَة من العدل إلى اليوم «فسحَّقاً لقوم يظنون أن المسلمين بتعصِّبِهم يمنعون مخالفتهم من حقوقهم».

لم يسلك المسلمون من عهد قريب مسلك الإلزام بدينهم والإجبار على قبوله مع شدة بأسهم في بدايات دولهم، وتغلغلهم في افتتاح الأقطار، واندفاع همِّهم للبساطة في الملك والسلطنة، وإنما كانت لهم دعوة يُبلغونها، فإن قبلت وإن استبدلوا بها رسمًا مالياً يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تُعلم من كتب الفقه الإسلامي، هذا على خلاف متنصرة الرومانيين واليونانيين أيام شوكتهم الأولى، فإنهم ما كانوا يطئون أرضاً إلا ويُلزّمون أهلها بخلع أديانهم، والتطوّق بدين أولئك المسلمين وهو الدين المسيحي؛ كما فعلوا في مصر وسوريا، بل وفي البلاد الإفرنجية نفسها.

هذا فصلٌ من الكلام ساق إِلَيْهِ الْبَيَانُ وفيه تبصرةٌ لِمَنْ يَتَذَكَّرُ، وَتَذَكْرَةٌ لِمَنْ يَتَذَكَّرُ،
ثُمَّ أَعُودُ بِكَ إِلَى سَابِقِ الْحَدِيثِ فِيمَا كَنَا بِصَدِّدِهِ: هَلْ لِعَاقِلٍ لَمْ يَصِبْ بِرِزْيَةٍ فِي عَقْلِهِ أَنْ
الْاعْدَالُ مِنَ التَّعْصِبِ الْدِينِيِّ نَقِيَّةٌ؟ وَهُلْ يَوْجُدُ فَرْقٌ بَيْنِهِ وَبَيْنِ التَّعْصِبِ الْجَنْسِيِّ إِلَّا
بِمَا يَكُونُ بِهِ التَّعْصِبُ الْدِينِيُّ أَقْدَسُ وَأَطْهَرُ وَأَعَمَّ فَائِدَةً؟ لَا نَخَالْ عَاقِلًا يَرْتَابُ فِي صَحَّةِ
مَا قَرَرْنَا، فَمَا لِأَوْلَئِكَ الْقَوْمِ يَهْذِرُونَ بِمَا لَا يَدْرُونَ؟ أَيُّ أَصْلٍ مِنْ أَصْوَلِ الْعُقْلِ يَسْتَنْدُونَ
إِلَيْهِ فِي الْمَفَاحِرَةِ وَالْمَبَاهِهِ بِالْتَّعْصِبِ الْجَنْسِيِّ فَقْطُ، وَاعْتِقَادُهُ فَضِيلَةٌ مِنْ أَشْرَفِ الْفَضَائِلِ،
وَيَعْبُرُونَ عَنْهُ بِمَحْبَّةِ الْوَطْنِ، وَأَيُّ قَاعِدَةٍ مِنْ قَوَاعِدِ الْعُمَرَانِ الْبَشَرِيِّ فِي التَّهَاوُنِ بِالْتَّعْصِبِ
الْدِينِيِّ الْمُعْتَدِلِ وَحْسِبَانِهِ نَقِيَّةٌ يَجِدُ التَّرْفَعَ عَنْهَا؟

نَعَمْ، إِنَّ الْإِفْرَنجَ تَأْكُدُ لِدِيهِمْ أَنْ أَقْوَى رَابِطَةٍ بَيْنِ الْمُسْلِمِينَ إِنَّمَا فِي الْرَّابِطَةِ الْدِينِيَّةِ،
وَأَدْرِكُوا أَنْ قُوَّتَهُمْ لَا تَكُونُ إِلَّا بِالْعَصَبَيَّةِ الْاعْتِقَادِيَّةِ، وَلِأَوْلَئِكَ الْإِفْرَنجَ مَطَامِعُ فِي دِيَارِ
الْمُسْلِمِينَ وَأَوْطَانِهِمْ؛ فَتَوَجَّهُتْ عَنَائِيَّتُهُمْ إِلَى بَشَّرٍ هَذِهِ الْأَفْكَارِ السَّاقِطَةِ بَيْنِ أَرْبَابِ الْدِيَانَاتِ
الْإِسْلَامِيَّةِ، وَرَيَّنُوا لَهُمْ هَجْرُ هَذِهِ الْصَّلَةِ الْمَقْدَسَةِ وَفَصْمُ حَبَالَهَا، لِيَنْقُضُوا بِذَلِكَ بَنَاءَ الْمِلَّةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ وَيَمْزُقُوهَا شَيْعًا وَأَحْزَابًا؛ فَإِنَّهُمْ عَلِمُوا — كَمَا عَلِمَنَا وَعَلِمَ الْعَقَلَاءُ أَجْمَعُونَ —
أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَا يَعْرُفُونَ لَهُمْ جَنْسِيَّةً إِلَّا فِي دِينِهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ، وَتَسْنِي لِلْمُفْسِدِينَ نَجَاحٌ
فِي بَعْضِ الْأَقْطَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَتَبَعُهُمْ بَعْضُ الْغَفَلَةِ بَعْدَمَا فَقَدُوهَا وَلَمْ يَسْتَبِدُلُوهَا بِهَا رَابِطَةُ الْجَنْسِ الَّتِي
يَبَالُغُونَ فِي تَعْظِيمِهَا وَاحْتِرَامِهَا حَمْقًا مِنْهُمْ وَسُفَاهَةً، فَمَتَّهُمْ كَمِثْلِ مَنْ هَدَمَ بَيْتَهُ قَبْلَ أَنْ
يَهُبِّئَ لِنَفْسِهِ مَسْكَنًا سَوَاهِ فَاضْطُرَّ إِلَيْقَامَةِ الْعُرَاءِ مَعْرَضًا لِفَوْاعِلِ الْجَوِّ وَمَا تَصُولُ بِهِ
عَلَى حَيَاتِهِ.

مِنْ هَذَا مَا سَلَكَ الْإِنْجِلِيزُ فِي الْهَنْدِ لَمَّا أَحْسَوْا بِالْعُرَاءِ بِخِيَالِ السُّلْطَانِ يَطْوُفُ عَلَى
أَفْكَارِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ لِقَرْبِ عَهْدِهَا بِهِمْ، وَفِي دِينِهِمْ مَا يَبْعَثُهُمْ عَلَى الْحَرْكَةِ إِلَى اسْتِرْدَادِ
مَا سُلِّبَ مِنْهُمْ، وَأَرْشَدُهُمُ الْبَحْثُ فِي طَبَائِعِ الْمَلَلِ إِلَى أَنَّ حَيَاةَ الْمُسْلِمِينَ قَائِمَةٌ عَلَى الْوَصْلَةِ
الْدِينِيَّةِ، وَمَا دَامَ الْاعْتِقَادُ الْمَحْمَدِيُّ وَالْعَصَبَيَّةُ الْمَلِيَّةُ سَائِدَةُ فِيهِمْ فَلَا تَؤْمِنُ بِعَثْثَمَ إِلَى طَلْبِ
حَقْوَهُمْ؛ فَاسْتَهْوَوْهُ طَائِفَةٌ مِنْ يَتَسَمُونَ بِسَمَةِ إِسْلَامِ، وَيَلْبِسُونَ لِبَاسَ الْمُسْلِمِينَ، وَفِي
صُدُورِهِمْ غُلٌ وَنَفَاقٌ وَفِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ وَزَنْدَقَةٌ، وَهُمُ الْمَعْرُوفُونَ فِي الْبَلَادِ الْهَنْدِيَّةِ بِالْنِيَّجِيرِيَّةِ
أَيُّ الدَّهْرِيَّينِ، فَاتَّخَذُهُمُ الْإِنْجِلِيزُ أَعْوَانًا لَهُمْ عَلَى فَسَادِ عَقَائِدِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَوْهِينِ عَلَائِقِ
الْتَّعْصِبِ الْدِينِيِّ، لِيَطْفَئُوا بِذَلِكَ نَارَ حَمِيَّتِهِمْ وَيَخْمُدُوا ثَأْرَةَ غَيْرِهِمْ، وَيَبْدُدُوا جَمِيعَهُمْ،
وَيَمْزُقُوا شَمْلَهُمْ، وَسَاعِدُوا تَلْكَ الطَّائِفَةَ عَلَى إِنْشَاءِ مَدْرَسَةَ كَبِيرَةَ فِي «عَلِيَّكَ» وَنَشَرَ جَرِيدَةَ

لبث هذه الأباطيل بين الهنديين حتى يعم الضعف في العقائد وترث أطنان الصلات بين المسلمين، فيستريح الإنجليز في التسلط عليهم، وطمئن قلوبهم من جهتهم كما اطمأنوا من جهة غيرهم، وغر أولئك الغفل المتزندقين أن رجال دولة بريطانيا يظهرون لهم رعاية صورية، ويدنونهم من بعض الوظائف الخسيسة — تعس من يبيع ملته بلقمة وذمته بزدال العيش!

هذا أسلوب من السياسة الأوروبية أجادت الدول اختباره وجنت ثماره، فأخذت به الشرقيين لتناول مطامعها فيهم، فكثير من تلك الدول نصبت الحبائل في البلاد العثمانية والمصرية وغيرها من المالك الإسلامية، ولم تعدم صيداً من النساء والمتسببن إلى العلم والمدنية الجديدة، واستعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم، وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة من يتسترون بلباس الإسلام أن يميلوا مع هذه الأهواء الباطلة، ولكننا نعجب من أن بعض من سذج المسلمين — مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم في إيمانهم — يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني، ويهجرون في رمي المتعصبين بالخشونة، والبعد عن معدات المدينة الحاضرة، ولا يعلم أولئك المسلمين أنهم بهذا يشقون عصاهم، ويفسدون شأنهم، ويخرّبون بيوتهم بأيديهم وأيدي المارقين، يطلبون محو التعصب المعتدل، وفي محوه محو الملة ودفعها إلى أيدي الأجانب يستعبدونها ما دامت الأرض أرضاً والسماء سماء.

والله ما عجبنا من هؤلاء وهؤلاء بأشد من العجب لأحوال الغربيين من الأمم الإفرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الأفكار بين الشرقيين ولا يخجلون من تبشيري التعصب الديني ورمي المتعصبين بالخشونة، الإفرنج أشد الناس في هذا النوع من التعصب وأحرصهم على القيام بدعوايه، ومن القواعد الأساسية في حكماتهم السياسية الدّفاع عن دعاء الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم، وإذا عدّت عاديةً مما لا يخلو عنه الاجتماع البشري على واحدٍ منّ على دينهم ومذاهبيهم في ناحية من نواحي الشرق سمعت صيحاً وعوياً وهيعات ونباءات تتلاقى أمواجهاً في جو بلاد المدينة الغربية وينادي جميعهم: ألا قد ألمت ملمةً، وحدثت حادثةً مهمة، فأجمعوا الأمر وخذوا الأهبة لتدارك الواقعه والاحتياط من وقوع مثلها، حتى لا تنخدش الجامعة الدينية، وتراءهم على اختلافهم في الأجناس وتباغضهم وتحاقدهم وتنبذهم في السياسات، وترقب كل دولة منهم لعترة الأخرى حتى توقع بها السوء، يتقاربون ويتآلفون ويتحدون في توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاكّهم في الدين وإن كان في أقصى قاصيةٍ من الأرض، ولو تقطّعت بينه وبينهم الأنساب الجنسية.

أما لو فاض طوفانُ الفتنة وطَمَّ وجهَ الأرض وغمرَ البسيطةَ من دماءِ المخالفين لهم في الدين والمذهب، فلا ينبعُنَّ فيهم عرق ولا يتبنَّه لهم إحساس، بل يتغافلون عنه ويذرونَه وما يجرف حتى يأخذ مده الغاية من حده، ويذهلونَ عما أودع في الفطر البشرية من الشفقة الإنسانية والرحمة الطبيعية، كأنَّما يغدونَ الخارجين عن دينهم من الحيوانات السائمة والهمَل الراعية، وليس من نوع الإنسان الذي يزعم الأوروبيون أنهم حُماته وأنصارُه، وليس هذا خاصاً بالمتدينين منهم، بل الدَّهْرِيون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقونَ المتدينين في تعصبهم الديني، ولا يألفونَ جهداً في تقوية عصبيتهم، وليتهم يقفونَ عند الحق، ولكن كثيراً ما تجاوزوه، أما إن شأنَ الإفرنج في تمسكهم بالعصبية الدينية لغريب ...!

يبلغ الرجل منهم أعلى درجة في الحرية كجلادستون، ثم لا تجد كلمة تصدر عنه إلا وفيها نفثة من روح بطرس الراهب⁷، بل لا ترى روحه إلا نسخة من روحه (انظر إلى كتب جلادستون وخطبه السابقة).

فيما أيتها الأمة المرحومة، هذه حياتكم فاحفظوها، ودماؤكم فلا تُرِيقُوها، وأرواحكم فلا تزهقوها، وسعادكم بثمن فلا تبیعواها دون الموت، هذه هي روابطكم الدينية فلا تغرنكم الوساوسُ ولا تستهويكم الترهات، ولا تدهشكم زخارفُ الباطل، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكُم رابطة اجتماع فيها العربيُّ بالتركي، والفارسيُّ بالهندي، والمصريُّ بالمغربي، وقامت لهم مقام الرابطة النسبيَّة حتى إن الرجل منهم ليَلِمُّ لما يصيِّب أخاه من عاديات الدَّهْر وإن تناهت دياره، وتقاصلت أقطاره.

هذه صلةٌ من أَمْتَنِ الصلات، ساقها الله إليكم، وفيها عزتكم ومنعكم وسلطانكم وسيادتكم فلا تُوهنوها، ولكن عليكم في رعايتها أن تخضعوا لسيطرة العدل؛ فالعدل أساسُ الكون وبه قوامه، ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم، وعليكم أن تتقووا الله وتلتزموا أوامره في حفظ الدَّمَّ، ومعرفة الحقوق لأربابها، وحسن المعاملة وإحكام الألفة في المنافع الوطنية بينكم وبين أبناء أوطانكم وجيرانكم من أرباب الأديان المختلفة، فإن مصالحكم لا تقوم إلا بمصالحهم، كما لا تقوم مصالحهم إلا بمصالحكم، وعليكم أن

⁷ هو داعية الحرب الصليبية وموقد نارها.

لا تجعلوا عصبة الدين وسيلة للعدوان، وذرية لانتهك الحقوق؛ فإن دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدهم عليه بأشد العقاب، هذا ولا تجعلوا عصبيتكم قاصرةً على مجرد ميل بعضاكم لبعض، بل تضافروا بها على مباراة الأمم في القوة والمنعة والشوكه والسلطان، ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الإنسانية.

اجعلوا عصبيتكم سبيلاً لتوحيد كلمتكم، واجتماع شملكم، وأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوة النقص إلى ذروة الكمال، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان.

الفصل السابع

القضاء والقدر

مضت سنة الله في خلقه بأن للعقائد القلبية سلطاناً على الأعمال البدنية، فما يكون في الأعمال من صلاح أو فساد، فإنما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها على ما بيننا في بعض الأعداد الماضية، ورب عقيدة واحدة تأخذ بأطراف الأفكار فيتبعها عقائد ومدركات أخرى، ثم تظهر على البدن بأعمال تلائم أثراها في النفس، ورب أصل من أصول الخير وقاعدة من قواعد الكمال إذا عرضت على الأنفس في تعلم أو تبليغ شرع يقع فيها الاستثناء على السامع فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة فيتعلق بها عند الاعتقاد شيء مما تصادفه، وفي كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها.

وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ في الفهم، أو على خبث الاستعداد، فتنشأ عنها أعمال غير صالحة، وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد، ولا كيف يصرفه اعتقاده، والمغور بالظواهر يظن أن تلك الأعمال إنما نشأت عن الاعتقاد بذلك الأصل وتلك القاعدة.

ومن مثل هذا الانحراف في الفهم وقع التحريف والتبييل في بعض أصول الأديان غالباً، بل هو علء البدع في كل دين - على الأغلب - وكثيراً ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطياع وقبائح الأعمال، حتى أفضى بمن ابتلاهم الله به إلى ال�لاك وبئس المصير، وهذا ما يحمل بعض من لا خبرة لهم على الطعن في دين من

الأديان، أو عقيدة من العقائد الحقة؛ استناداً إلى أعمال بعض السذج المنتسبين إلى الدين أو العقيدة.

من ذلك عقيدة القضاء والقدر، التي تُعد من أصول العقائد في الديانة الإسلامية الحقة، كثُر فيها لغط المغفلين من الإفرنج وظنوا بها الظنون، وزعموا أنها ما تمكنت من نفوس قوم إلا وسلَّبُتْهم الهمة والقوة، وحكمت فيهم الضعف والضعة، ورموا المسلمين بصفات ونسبوا إليهم أطواراً، ثم حصروا علتها في الاعتقاد بالقدر؛ فقالوا: إن المسلمين في فقر وفاقة وتَأَخْرُ في القوة الحربية والسياسية عن سائر الأمم، وقد فشا فيهم فساد الأخلاق فكُثُرَ الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض، وتفرقت كلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلة، وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون، ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة، ولكن متى أمكن لأحدهم أن يضر أخيه لا يقتصر في إلحاق الضرر به، فجعلوا بأسمهم بينهم والأمم من ورائهم تتبعهم لقمة بعد أخرى.

رَضُوا بكل عارض، واستعدوا لقبول كل حادث، ورکنوا إلى السكون في كسور بيوبتهم، يسرحون في مرعاهم، ثم يعودون إلى مأواهم، الأمراء فيهم يقطعون أزمتهم في اللهو واللَّعْبِ وِمُعَاطَةِ الشَّهَوَاتِ، وعليهم فروضُ وواجباتٌ تستغرق في أدائِها أعمارَهم ولا يُؤْدُون منها شيئاً.

يصرفون أموالَهُم فيما يقطعون به زمانهم إسراً وتبذيرًا، نفقاتهم واسعةٌ ولكن لا يدخل في حسابها شيء يعود على ملتهم بالمنفعة، يتذالون ويتناذرون، وينوطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية، فرب تنافر بين أميرين يضيع أمة كاملة، كل منهما يخذل صاحبه، ويستعدى عليه جاره، فيجد الأجنبي فيهما قوَّةً فانيةً وضعفاً قاتلاً فينال من بِلادِهِمَا ما لا يكفيه عدداً ولا عدة.

شملهم الخوف وعَمِّهم الجبن والخور، يفزعون من الهمس، ويأملون من اللمس، قعدوا عن الحركة إلى ما يلحقون به الأُمُم في العِزَّة والشوكة، وخالفوا في ذلك أوامر دينهم، مع رؤيتهم لجيرانهم – بل الذين تحت سلطتهم – يتقدمون عليهم ويباهونهم بما يكسبون، وإذا أصاب قوماً من إخوانهم مصيبة أو عَدَتْ عليهم عادية لا يسعون في تخفيف مصابهم، ولا ينبعثون لمناصرتهم، ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لا جهوية ولا سرية، يكون من مقاصدها إِحْيَا الغَيْرَةِ، وِتَتْبِيَّهِ الْحَمِيَّةِ، وِمَسَاعِدَةِ الْضَّعْفَاءِ، وِحَفْظِ الْحَقِّ من بُغْيِ الْأَقْوَيَاءِ وِتَسْلُطِ الْغَرَبَاءِ.

هكذا نسبوا إلى المسلمين هذه الصفات وتلك الأطوار، وزعموا أن لا منشأ لها إلا اعتقادهم بالقضاء والقدر وتحويل جميع مهامهم على القدرة الإلهية، وحكموا بأن المسلمين لو داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة، ولن ينالوا عزًا ولن يعيدوا مجدًا، ولا يأخذون بحق، ولا يدفعون تعدىًا، ولا ينهضون بتنمية سلطان، أو تأييد ملك، ولا يزال بهم الضعف يفعل في نفوسهم، ويركّس من طباعهم، حتى يؤدي بهم إلى الفناء والزوال — والعياذ بالله — يفني بعضهم بعضاً بالمنازعات الخاصة، وما يسلم من أيدي بعضهم يحصده الأجانب.

واعتقد أولئك الإفرنج أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية، القائلين: بأن الإنسان مجبور محضر في جميع أفعاله، وتوهموا أن المسلمين — بعقيدة القضاء — يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء، تقلبها الرياح كيفما تميل، وممتنى رسم في نفوس قوم أنه لا خيار لهم في قول ولا عمل، ولا حركة ولا سكون، وإنما جميع ذلك بقوة جابرية، وقدرة قاسرة؛ فلا ريب تتتعطل قواهم، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى، وتُتمّي من خواطرهم داعية السعي والكسب، وأجدرُ بهم —

بعد ذلك — أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم.

هكذا ظلت طائفة من الإفرنج، وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول في المشرق، ولست أخشع أن أقول: كذب الظانُ، وأخطاء الوهم، وبطل الزاعم، وافتروا على الله وال المسلمين كذبًا؛ لا يوجد مسلم في هذا الوقت من سني وشيعي، وزيدي وإسماعيلي، ووهابي وخارجي؛ يرى مذهب الجبر المحضر، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة، بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزء اختيارياً في أعمالهم، ويسمى بالكسب، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري، ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الإلهية، والنواهي الربانية، الداعية إلى كل خير، الهدافية إلى كل فلاح، وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعي، وبه تتم الحكمة والعدل.

نعم، كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت إلى أن الإنسان مضطرب في جميع أفعاله اضطراراً لا يشوبه اختيار، وزعمت أن لا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ وبين أن يتحرك بقفقة البرد عند شدته، ومذهب هذه الطائفة يعدد المسلمين من منازع السفسطة الفاسدة، وقد انقرض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبق لهم أثر، وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر، ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمنون.

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع، بل تُرشد إليه الفطرة، وسهُل على مَنْ له فكر أن يلتفت إلى أنَّ كلَّ حادث له سببٌ يُقاربِه في الزمان، وأنَّه لا يرى من سلسلة الأسبابِ إلا ما هو حاضرٌ لديه، ولا يعلم ماضيها إلا مبدعُ نظامها، وأنَّ لكلَّ منها مدخلًا زاهراً فيما بعده بتقدير العزيز العليم، وإرادة الإنسان إنما هي حلقةٌ من حلقات تلك السلسلة، ولنِسِت الإرادة إلا أثراً من آثار الإدراك، والإدراك انفعالُ النَّفْس بما يعرض على الحواس وشعورها بما أُودع في الفطرة من الحاجات، فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والإرادة ما لا ينكره أَبْلُهُ، فضلاً عن عاقل، وإنَّ مبدأً هذا الأسباب التي ترى في الظواهر مؤثرة إنما هو بيد مدبر الكون الأعظم الذي أبدع الأشياء على وفق حكمته، وجعل كلَّ حادث تابعاً لشبيهه كأنَّه جزاء له، خصوصاً في العالم الإنساني.

ولو فرضنا أنَّ جاهلاً ضلَّ عن الاعتراف بوجود إله صانع للعالم، فليس في إمكانه أن يتخلص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الذهنية في الإرادات البشرية، فهل يستطيع إنسانٌ أن يخرج عن هذه السنة التي سنها الله في خلقه؟ هذا أمرٌ يعترض به طلب الحقائق فضلاً عن الوالصلين. وإنَّ بعضَ من حكماء الإغريق وعلماء سياستهم التجئوا إلى الخضوع لسلطة القضاء، وأطالوا البيان في إثباتها، ولسنا في حاجة إلى الاستشهاد بآرائهم.

إنَّ للتاريخ علمًا فوق الرواية عُني بالبحث فيه العلماء من كلِّ أُمَّة، وهو العلم الباحث عن سير الأمم في صعودها وهبوطها، وطبائع الحوادث العظيمة وخصائصها، وما ينشأ عنها من التغيير والتبدل في العادات والأخلاق والأفكار، بل في خصائص الإحساس الباطن والوجود، وما يتبع ذلك كله من نشأة الأمم، وتكون الدول، أو فناء بعضها واندرايس أثره.

هذا الفن الذي عُدوه من أَجْلِ الفنون الأدبية وأجزلها فائدة ببناء البحث فيه على الاعتقاد بالقضاء والقدر، والإذعان بأنَّ قوى البشر في قبضة مُدِّبِر للكائنات ومصرِّف للحوادث، ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع، ولا ضَغْفَ قويٌّ، ولا انهدم مجد، ولا تقوض سلطان.

الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجرأة والإقدام، وخلق الشجاعة والبسالة، ويبعث على اقتحام المهالك التي توجف بها قلوب الأسود، وتنشق منها مرائُ النمور، هذا الاعتقاد يطبع الأنفَس على الثبات، واحتمال المكاره، ومقارعة الأهوال، ويحلِّيها بحلِّ الجود والحساء، ويدعوها إلى الخروج من كلِّ ما يعز

عليها، بل يحملها على بذل الأرواح، والتخلي عن نصرة الحياة؛ كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة.

الذي يعتقد بأن الأجل محدودٌ، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء، كيف يرهب الموت في الدّفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته، أو ملته، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشييد المجد، على حسب الأوامر الإلهية، وأصول الاجتماعات البشرية؟

امتنح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قوله الحق: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَأَخْشُوهُمْ فَزَادُهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسِسْهُمْ سُوءٌ وَابْنَجُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾. اندفع المسلمون في أوائل نشأتهم إلى الملك والأقطار يفتحونها ويسلطون عليها، فأدّهشوا العقول وحَرَبُوا الألباب بما دوخوا الدول وقهروا الأمم، وامتدت سلطتهم من جبال بيريني الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا إلى جدار الصين، مع قلة عدتهم وعدهم، وعدم اعتمادهم على الأهوية المختلفة، وطبعات الأقطار المتنوعة، أرغموا الملوك وأذلوا القياصرة والأكاسرة في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة، إن هذا ليُعد من خوارق العادات وعظام المعجزات.

دمروا بلاداً، ودككوا أطواذاً، ورفعوا فوق الأرض أرضاً ثانية من القسطل، وطبقية أخرى من النقع، وسحقوا رءوس الجبال تحت حواffer جيادهم، وأقاموا بدلها جبالاً وتللاً من رءوس النابذين لسلطانهم، وأرجفوا كل قلب وأرعدوا كل فريصة، وما كان قائدهم وسائقهم إلى جميع هذا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر.

هذا الاعتقاد هو الذي ثبّت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها القضاء، ويضيق بها بسيط الغبراء، فكشفوهم عن مواقعهم، ورُؤُهم على أعقابهم. بهذا الاعتقاد لمعت سيفهم بالشرق، وانقضت شهبها على الحياد في هبوات الحرب من أهل المغرب، وهو الذي حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق في سبيل إعلاء كلمتهم، لا يخشون فقراً ولا يخافون فاقه، هذا الاعتقاد هو الذي سَهَّلَ عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون في حُجُورهم إلى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم، كأنّما يسيرون إلى الحدائق والرياض، وكأنّهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أماناً من كل غادرة، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحسن يصونهم من كل طارقة.

وكان نسائهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم، وخدمتها فيما تحتاج إليه، لا يفترق النساء والأولاد عن الرجال والكهول إلا بحمل السلاح، ولا تأخذ النساء رهبة، ولا تخشى الأولاد مهابةً.

هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم إلى حد كان ذكر اسمهم يُذيب القلوب، ويُبدد أفلان الأكباد، حتى كانوا يُنصررون بالرعب، ويقذف به في قلوب أعدائهم فيهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيموا ببروق سيوفهم ولمعان أستنّتهم، بل قبل أن تصل إلى تخومهم أطراف جحافلهم.

بكائي على السالفين ونحيبي على السالفين، أين أنتم يا عصابة الرحمة وأولياء الشفقة، أين أنتم يا أعلام المروءة، وشوماخ القوة؟ أين أنتم يا آل النجدة وغوث المصيم يوم الشدة؟ أين أنتم يا خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر؟ أين أنتم أيها الأمجاد الأنجاد القوامون بالقسط الآخذون بالعدل الناطقون بالحكمة، المؤسسوں لبناء الأمة؟ لا تتظرون من خلال قبوركم إلى ما أتاه خلفكم من بعدهم، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم، انحرفوا عن سنتكم، وجاروا عن طريقكم فضلوا عن سبilkكم وتفرقوا فرقاً وأشياغاً، حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفًا، وتحترق الأكباد حزنًا، أصبحوا فريسة للأمم الأجنبية لا يستطيعون ذودًا عن حوضهم، ولا دفاعًا عن حوزتهم، لا يصبح من برازخكم صالحٌ منكم يبنه الغافل، ويوقظ النائم، ويهدي الضال إلى سواء السبيل؟ «إنا لله وإنا إليه راجعون».

أقول، وربما لا أخشي واهما ينazuني فيما أقول: إنه من بداية تاريخ الاجتماع البشري إلى اليوم ما وُجد فاتحٌ عظيم، ولا محارب شهير، نبت في أوسط الطبقات، ثم رُقِيَ بهمته إلى أعلى الدرجات، فذَلَّت له الصعاب، وخضعت الرقاب، وبلغ من بسطة الملك ما يدعو إلى العجب، وبيعث الفكر لطلب السبب؛ إلا كان معتقدًا بالقضاء والقدر، سبحان الله! الإنسان حريص على حياته شحِيْح بوجوهه على مقتضى الفطرة والجِبَلَة، فما الذي يهُون عليه اقتحام المخاطر، وحُوْض المهاك، ومُصارعة المنيا، إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر، ورکونُ قلبه إلى أن المقدر كائن ولا أثر لهول المظاهر.

أثبتت لنا التواريخ أن كورش الفارسي «كيخسرو»، وهو أول فاتح يُعرف في تاريخ الأقدمين؛ ما تَسَنَّى له الظفر في فتوحاته الواسعة، إلا لأنَّه كان معتقدًا بالقضاء والقدر، فكان لهذا الاعتقاد لا يهوله هولٌ، ولا توهن عزيمته شدَّة، وإن إسكندر الأكبر اليوناني كان من رسمخ في نفوسهم هذه العقيدة الجليلة، وجنكيز خان التتري صاحب الفتوحات

المشهورة كان من أرباب هذا الاعتقاد، بل كان نابليون الأول بونابرت الفرنسي من أشد الناس تمسكاً بعقيدة القضاء، وهي التي كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيرة، فيتهياً له الظفر، وينال بغيته من النصر.

فنعم الاعتقاد الذي يطهّر النفوس الإنسانية من رذيلة الجبن، وهو أول عائق للمتدنس به عن بلوغ كماله في طبقته أيّاً كانت، نعم، إننا لا ننكر أن هذه العقيدة وقد خالطها في نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر، وربما كان هذا سبباً في رزيعتهم ببعض المصائب التي أخذتهم بها الحوادث في الأعصر الأخيرة، ورجأوا في الراسخين من علماء العصر أن يسعوا جهدهم في تخلص هذه العقيدة الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع، ويدركوا العامة بسذن السلف الصالح وما كانوا يعملون، وينشروا بينهم ما أثبته أئمتنا — رضي الله عنهم — كالشيخ الغزالى وأمثاله من أن التوكل والرکون إلى القضاء إنما طلبه الشرع منا في العمل، لا في البطالة والكسل، وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا، ونبذ ما أوجب علينا، بحجة التوكل عليه، فتلك حجة المارقين عن الدين، الحائدين عن الصراط المستقيم، ولا يرتاب أحدٌ من أهل الدين الإسلامي في أن الدّفاع عن الله في هذه الأوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكّف، وليس بين المسلمين وبين الالتفات إلى عقائدهم الحقة التي تجمع كلمتهم، وترد إليهم عزيمتهم، وتنهض غيرتهم لاسترداد شأنهم الأول؛ إلا دعوة خير من علمائهم، وإن جميع ذلك موكولٌ إلى ذمّتهم.

أما ما زعموه في المسلمين من الانحطاط والتّأخّر فليس من شأن هذه العقيدة (ولا غيرها من العقائد الإسلامية)، ونسبة إليها كنسبة النقيس إلى نقيسه، بل أشبه ما يمكن بنسبة الحرارة إلى الثلوج والبرودة إلى النار، نعم، حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر، وثمل من العز والغلب، وفاجأهم وهو على تلك الحال صدمتان قويتان: صدمة من طرف الشرق وهي غارة التتر من جنكيز خان وأحفاده، وصدمة من جهة الغرب وهي زحف الأمم الأوروبية بأسرها على ديارهم، وإن الصدمة في حال النشوة تذهب بالرأي، وتوجب الدهشة والسبات بحكم الطبيعة، وبعد ذلك تداولتهم حكومات متعددة، ووسد الأمر فيهم إلى غير أهله، وولي على أمرورهم من لا يُحسن سياستها، فكان حُكّامُهم وأمراؤهم من جراثيم الفساد في أخلاقهم وطبعهم، وكانوا مجيبة لشقاوئهم وبلائهم، فتمكن الضعف من نفوسهم، وقصرت أنظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيات التي لا تتجاوز لذاته الآنية، وأخذ كل منهم بناصية الآخر، يطلب لهضره ويلتمس له السوء

من كل باب، لا لعنة صحيحة ولا داع قوي، وجعلوا هذا ثمرة الحياة، فآل الأمر بهم إلى الضعف والقنوط وأدى إلى ما صاروا إليه.

ولكنني أقول — وحقُّ ما أقول: إن هذه المِلَّة لن تموت ما دامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم، ورسومها تلوح في أذهانهم، وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم، وكل ما عرض عليهم من الأمراض النفسيّة والاعتلال العقلي، فلا بد أن تدفعه قوّة العقائد الحقة، ويعود الأمر كما بدأ وينشطون من عقالهم، وينهبون مذاهب الحكمة والتبرُّر في إنقاذ بلادهم، وإرهاب الأمم الطامعة فيهم، وإيقافها عند حدتها، وما ذلك ببعيد، والحوادثُ التاريخية تؤيد هذه الفكرة، فانظر إلى العثمانيين الذي نهضوا بعد تلك الصدمات القوية (حروب التتر والحروب الصليبية) وساقوا الجيوش إلى أرجاء العالم، واتسعت لهم ميادين الفتوحات، ودواخوا البلاد وأرغموا أنوف الملوك، ودانت سلطانهم الدول الإفرنجية، حتى كان السلطان العثماني يلقب بين الدول بالسلطان الأكبر.

ثم ارجع البصر تجد هزة في نفوسهم وحركة في طباعهم أحدها فيهم ما توعدتهم به الحوادثُ الأخيرةِ من رداءة العاقبة وسوء المقلب: حركة سرت في أفكار ذوي البصيرة منهم في أغلب الأنحاء شرقاً وغرباً، وتالفت من خيالهم عصباتُ للحق كتبت على نفسها نصرة العدل والشرع، والسعى بغاية الجهد لبثُّ أفكارها، وجمع الكلمة المفترقة، وضمُّ الأشتات المتبددة، وجعلوا من أصغر أعمالهم نشر جريدة عربية، لتصل بما يُكتب فيها بين المتباعدين منهم وتنقل إليهم بعض ما يُضمّن في الأجنبيّ لهم، وإنما نرى عدد الجمعية الصالحة يزداد يوماً بعد يوم، نسأل الله تعالى نجاح أعمالها، وتؤيد مقصدها الحق، ورجاؤنا من كرمه أن يتربّ على حسن سعيها أثرٌ مفيدة للشرقين عموماً، وللمسلمين خصوصاً.

الفصل الثامن

الفضائل والرذائل وأثرهما

﴿وَذَكِّرْ فِإِنَّ الذِّكْرَى تَنَعُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قالوا: للإنسان كمالٌ، مفروضٌ عليه أن يسعى إليه، وقالوا: إنه عرضة لنقص يجب عليه الترفع عنه، وقالوا: كماله في استيفاء ما يمكن من الفضائل، ونقصه في التلوث برذيلة من الرذائل، فما هي الفضائل وما هي الرذائل، الفضائل سجايا للنفس من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها، كالسخاء والعفة والحياء ونحوها، فالسخيان لا يتشاحنان ولا يتنازعان في التعامل، فإن من سجية كل منها البذل في الحق، والمنع إذا اقتضاه الحق، فكلُّ يعرف حده فيقف عنده.

فلا يوجد موضوع للنزاع عند معاطاة الأعمال المالية، والأعفاء لا يتزاحمون على مُشتئي من المشتاهيات؛ فإن من خلق كل منهم التجافي عن الشهوة، وفي طبيعته الإيثار بالرغائب.

وهكذا، إذا استقررت جميع ما عده علماء التهذيب من الصفات الفاضلة؛ تجد أن من لوازم كل فضيلة منها التأليف بين المتصفين بها في متعلق الأثر الناشئ عن تلك الفضيلة، فإذا اجتمعت الفضائل أو غلبت في شخصين؛ مالت نفوسهما إلى الاتحاد والالتحام في جميع الأعمال والمقاصد أو جلها، ودامت الوحدة بينهما بمقدار رسوخ الفضيلة، وعلى هذا النحو يكون الأمر في الأشخاص الكثيرة، فالفضائل هي مناط الوحدة بين الهيئة

الاجتماعية وعروة الاتحاد بين الأحاد، تمثل بكل منها إلى الآخر إلى من يشاكله حتى يكون الجمhour من الناس كواحد منهم، يتحرك بإرادة واحدة، ويطلب في حركته غاية واحدة.

مجموع الفضائل هو العدل في جميع الأعمال، فإذا شمل طائفة من نوع الإنسان وقف بكلٍّ من آحادها عند حدّه في عمله، لا يتجاوزه بما يمس حقاً للأخر فيه يكون التكافؤ والتوازن، لكل شخص من أفراد الإنسان وجودٌ خاصٌ به، وألودعت فيه العناية الإلهية من القوى ما به يحفظ وجوده، وما به التناُّس لبقاء النوع، وهو في هذا يُساوي سائر أفراد الحيوان، لكنْ قضت حكمة الله أن يكون الإنسان ممتازاً عن بقية الأنواع الحيوانية بكون آخر، ووجود أرقى وأعلى، وهو كون المجتمع، حتى يتّألف من أفراد الكثيرة بنية واحدة يعمها اسم واحد، والأفراد فيها كأعضاء تختلف في الوظائف والأشكال، وإنما كلُّ يؤدي عمله لبقاء البنية الجامعية وتقويتها وتوفير حظها من الوجود؛ ليعود إليه نصيبٌ من عملها الكلي كما أودع الله في أعضاء أبداننا وبنينا الشخصية.

والفضائل في المجتمع الإنساني كقوة الحياة المستكملة في كل عضو ما يقدره على أداء عمله مع الوقوف عند حدّ وظيفته، كاليد بها البطش والتناُّس وليس من خصائصها الإبصار، والعين بها الإبصار وتميز الألوان والأشكال وليس من وظائفها البطش، والكل هي بحياة واحدة، وإن شئت قلت: الفضائل في عالم الإنسان كالجذبة العامة في العالم الكبير، فكما أن الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات، وبالتوافز في الجاذبية ثبت كل كوكب في مركزه، وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب الآخر، وانتظم بها سيره في مداره الخاص بتقدير العزيز العليم، حتى تمت حكمة الله في وجود الأكوان وبقائهما؛ كذلك شأن الفضائل في المجتمع الإنساني، بها يحفظ الله الوجود الشخصي إلى الأجل المحدود ويثبت البقاء النوعي إلى أن يأتي أمر الله.

أي أمة يكون الواضح فيها والرافق، والحارث والوازع، والجالب والدافع، وجميع من يدير أمورها، ويسوسها في شئونها إنما هم أفراد منها، من هامتها أو من لاهماها «من الأعلیاء والأوسمات، بل سائر الأطراف» ويكون كل واحد منها قائماً بحق الكل، ولا يختار مقصداً يعكس مقصد الكل، ولا يسعى إلى غاية تمثل به من غاية الكل، ولا يهمل عملاً يتعلق بالأمة، حتى يكون الجميع كالبنيان المتين لا تُزعزعه العاصف ولا تُدكّه الزلزال، وبقوّة كل منهم يجتمع للأمة قوّة، تحفظ بها موقعها، وتتفع بها عن شرفها ومجدها، وتُردد غارة الأغيار عليها، فهي الأمة التي سادت فيها الفضائل، واستعلت فيها مكارم الأخلاق.

إن أمة هذا شأنها لا يختلف أفرادها إلا للتآلّف، ولا يتغايرون إلا للاتحاد، فمثّلهم في اختلاف أعمالهم كمثل المتابرين على محيط دائرة يتفارقان في مبدأ السير ليتلاقيا على نقطة من المحيط، ومثّلهم في تغاير مأخذهم لجلب منافعهم كجاذبي طرفي خيطة واحدة – حبل واحد – كلّ آخذُ بطرف، مع تعادل القوتين، ففي جذب أحدهما لصاحبه إبعادٌ لنفسه عنه من وجه، وحفظ لكان قربه منه من وجه آخر، فلا يفترقان ولا يتباينان، ولا تفني منفعة أحدهما في منفعة الآخر، أما إن مسالك الأفراد من مثل هذه الأمة بما منحوه من الارتباط بينهم كأنصاف دائرة مركزها حياة الأمة وعظمتها، ولا يخرج ولا واحد منهم عن محيط الجنسية، وإنهم في جلب منافعها واستكمال فوائدها كالجدال تتم البحار ل تستمد منه.

يرى كل واحد منهم أن ما تبتوجه به ^{النُّفُوس} البشرية وتمتاز بالليل إليه عن سائر الحيوانات من رفعة المكانة والغلب وبسط الجاه ونفاذ الكلمة؛ إنما يمكن إذا توفر للأمة حظّها من هذه المزايا فيسعى جهده لإبلاغ كل واحد من الأمة أقصى ما يؤهله استعداده ليأخذ بسهم مما يناله، فلا يهمل ولا يخون في الدّفاع عن فرد من أفرادها، فضلاً عن هيئتها العامة، وإن فقد خان نفسه، لأنّه أبطل الله من آلات عمله، وقطع سبيلاً من أسباب غايته، ولا يحتقر واحداً من الأّحاد، ولا يزدرى بعمله، ويحسب الشخص من الأمة – وإن كان صغيراً – بمنزل مسمار صغير في آلة كبيرة، لو سقط منها تعطلت الآلة بسقوطه.

عليك أن تنظر في حقائق الصفات لتحكم بما ينشأ عنها من الأثر الذي بيناه: التعقل والتّروي وانطلاق الفكر من قيود الأوهام، والعلفة والسخاء والقناعة والدّماتة (لين الجانب)، والوقار والتواضع وعظم الهمة، والصبر والحمل والشجاعة والإيثار (تقديم الغير بالمنفعة على النفس)، والنجدة والسماحة والصدق والوفاء والأمانة، وسلامة الصدر من الحقد والحسد، والعفو والرفق والمروءة والحمية وحب العدالة والشفقة.

ألا ترى لو عَمِّت هذه الصفاتُ الجليلةُ أُمّةً من الأُمم أو غلبتُ في أفرادها لا يكون بينها سوى الاتحاد واللتئام التام؟ هل يوجد مثارُ للخلاف والتنافر بين عاقلينَ حُرّينَ، صادقينَ وفيّينَ، كريمينَ شجاعينَ، رفيقينَ صابرينَ، حليمينَ متواضعينَ، وقورينَ عفيفينَ رحيمينَ؟ أما والله لو نفخت نسمة من أرواح هذه الفضائل على أرض قومٍ وكانت مواطناً لأحيتها، أو قفراً لأنبتتها، أو جديباً لأمطرتها من غيث الرحمة ما يسبغ نعمة الله عليها، ولأقامت لها من الوحدة سياجاً لا يُخرق، وحرزاً منيعاً لا يُهتك، وإن أُولى الأُمم

بأن تبلغ الكمال في هذه السجايا الشريفة أمةٌ قال نبيهم: «إنما بعثت لأنتم مكارم الأخلاق». الفضيلة حياة الأمم؛ تصور أجسامها عن تداخل العناصر الغربية، وتحفظها من الانحلال المؤدي إلى الزوال (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلَحُونَ). وأما الرذائل فهي كيفيات خبيثة تعرض للأنفس، من طبيعتها التحليل والتفريق بين النُّفوس المتكيفة بها، كاللقة (قلة الحياة) والبداء (التطاول على الأعراض بما لا تقتضيه الحشمة والأدب من الكلام)، والسفه والبله، والطيش والتهور، والجبن والدناءة والجزع، والحدق والحسد، والكرياء واللجاج واللجاج، والغدر والخيانة والكذب والنفاق، فأي صفة من هذه الصفات تلوث بها نفسانَ الْفَتْ بينهما العداوة والبغضاء، وذهبت بهما مذاهب الخلاف إلى حيث لا يبقى أملٌ في الوفاق؛ فإن طبيعة كل واحدة منها إما مجاوزة الحدود في التعدي على الحقوق، وإما السقوط إلى ما لا يمكن معه للشخص أداء الواجب عليه لَمْ يشاركه في الجنسية أو المِلَّة أو القبيلة أو العشيرة أو بأي نوعٍ من أنواع التعامل. والإنسان مجبول بالطبع على النفرة من يتعدي على حقوقه أو يمنعه حَقّاً منها، وإن شئت فتخيل وقحين بذويين سفيهين جبانيين بخيلين (كُلُّ يمنع الآخر حقه)، شرهين حاذدين حاسدين متكررين (كُلُّ لا يستحسن إلا فعل نفسه)، لجوجين خاذلين غادرين كاذبين منافقين، هل يمكن أن يجمعهما مقصود أو توحد بينهما غاية؟ أليس كل وصف على حدته قاضياً بانتباذه كل من صاحبه وإن لم تكن داعية، وكفى بخلقه وصفته باعثاً قوياً للتنابذ.

هذه الرذائل إذا فَشَّتْ في أمة نقضت بناها ونثرت أعضاءها بدمتها شذر مذر، واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعي؛ أن تسقط على هذه الأمة قوةُ أجنبية عنها لتأخذها بالقهر، وتصرفها في أعمال الحياة بالقسر، فإن حاجاتهم في المعيشة طالبة للجتماع، وهو لا يمكن مع هذه الأوصاف، فلا بد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع إلى حد الضرورة.

هذه صفاتٌ إذا رسختْ في نُفُوس قوم صار بأسهم بينهم شديداً، تحسبُهم جميعاً وقلوبُهم شَتَّى، تراهم أَعْزَّةَ بعضهم على بعض أذلة للأجنبى عنهم، يدعون أعداءهم للسيادة عليهم، ويفترخون بالانتقام إليهم، يُمْهِدون السُّبُلُ للغالبين إلى النكایة بهم، ويُمْكِنُون مخالبَ المغتالين من أحشائهم، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحاً، وكل جليل منهم حقيراً، إذا نطق أجنبيٌّ بما يدور على ألسنة صبيانهم عَدُوًّا من جوامع الكلم ونفائس الحكم، وإذا غاص أحدهم بحر الوجود واستخرج لهم دُرَّ الحقيقة وكشف لهم

دقائق الأسرار عدوه من سقط المتع، وقالوا بلسان حالهم أو مقاهم: ليس في الإمكان أن يكون منا عارف ومن الحال أن يوجد بيننا خير! ويغلب عليهم حب الفخفة والفخر الكاذب، ويتنافسون في سفاسف الأمور ودُنِيَّاتها.

يرتابون في نصح الناصحين، وإن قامت على صدقهم أقطعُ البراهين، يسخرون بالواعظين، وإن كانوا في طلب خيرهم من أخلص المخلصين، يبذلون جهدهم لخيبة من يسعى لإعلاء شأنهم، وجمع كلمتهم، ويقدعون له بكل سبيل، يُقيّمون في طريقه العقبات، ويهُيئون له أسباب العثار، تراهم بتضارب أخلاقهم وتعارض أطوارهم كالبدن المصاب بالفالج لا تنتظم لأعضائه حركة، ولا يمكن تحريك عضو منه على وجه مخصوص لقصد معلوم، فتتغلّطُ أعمالهم عن حد الضبط، وتخرج عن قواعد الربط، فسادُ طباعهم بهذه الأخلاق يجعلهم منبعاً ومبعداً للضر، يصير الواحد منهم كالكلب الكلب، أول ما يبدأ ببعض صاحبه قبل الأجنبي، بل كالمتلئ بجذون مطبق، أول ما يفت بمربيه ومهدبه ثم يثني بطبعيه ومن يعالج داءه، تكون الأحاداد منهم كالأمراض الأكالة من نحو الجذام والأكلة، يمزقون الأمة قطعاً وجذازات بعدما يشوهون وجهها ويشوشون هيئتها.

أولئك قوم يسامون في مراجعي الدنيا والخسائس لتغلب النذالة على سائر أوصافهم، فينتخرون على أبناء جلدتهم، ويدلون لقزم الأجانب فضلاً عن عليتهم، وبهذا يمكنون الذلة في نفوسهم، من دونهم، ويطبعونها على الخضوع للغرباء، بل الأعداء الألداء، من طبقة إلى طبقة حتى تض محل الأمة وتتنفس هيئتها وتتفنى في أمة أو ملة أخرى، سنة الله في تبديل الدول وفناء الأمم **﴿وَكَذَلِكَ أَخْدُرَبِكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرْبَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَيْمٌ شَدِيدٌ﴾**، أعادنا الله من هذه العاقبة، وحرس أمتنا وملتنا من المصير إلى هذه النهاية.

بقيت لنا لحنة نظر إلى ما به تُقْتَنِي الفضائل، وتُمْحَصُ النُّفُوس من الرذائل، حتى تسع الجمعيات البشرية بالاتحاد، وتصون به أ��وانها من الفساد «كل مولود يولد على الفطرة» مادة مستعدة لقبول كل شكل، والتلون بأي لون، فهل ينال كمال الفضيلة من آبائه وأسلافه؟ أنى يكون لهم حظ منها وقد كانوا ناشئين على مثل ما نشأ ولديهم؟ يرشدنا رائد الحق إلى أن الاعتدال في أصول الأخلاق، والتحلي بحلية الفضائل وترويض القوى والآلات البدنية على العمل بآثارها: إنما يكون بالدين، ولن يتم أثر الدين في نفوس الآخذين به فيصيّبوا حظاً وافراً مما يرشد إليه فيتعمّلوا بحياة طيبة وعيشة مرضية؛ إلا إذا قام رؤساء الدين وحَمَلَتْهُ وحَفَظَتْهُ بأداء وظائفهم؛ من تبيين أوامرها ونواهيه وتشبيتها في العقول ودعوة النّاس إلى العمل بها، وتنبيه الغافلين عن رعايتها وتذكير الساهين عن

هديها، أما إذا أهمل خدمة الدين وظائفهم أو تهاونوا في تأدية أعمالها؛ ضعف اليقين في النفوس، وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية، وأظلمت البصائر بالغفلة، وتحكمت الشهوات البهيمية، وتسلطت الحاجات المعاشرية، ومال ميزان الاختيار مع الهوى، فحشدت إلى الأنفس أوفاد الرذائل، فيتحقق على الناس كلمة العذاب، ويحل بهم من الشقاء ما أشرنا إليه سابقاً.

هذه علُّ الخراب في كل أمة، لقد ظهر أثرها في أمم لا تحصى عدداً من بداية كون الإنسان إلى الآن، ولم يزل يقایا بعضاً منها يشهد على ما فتك به الرذائل فيهم، بعدما بدأوا وغيرة، كما في طائفة الدهيرو «منك» من سُكّنة الأقطار الهندية المعروفة عند الأوروبيين بطائفة «باريا» ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، فالدين وهو السائق إلى السعادة في الدنيا كما يسوق إليها في الآخرة.

تَقَلَّبَ قلبُ الدَّهْرِ عَلَى بَعْضِ طَوَافَتِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَقْطَارٍ مُخْتَلَفَةٍ مِنَ الْأَرْضِ وَسَلَبَهُمْ تِيجَانَ عِزِّهِمْ وَالْقَاهَا عَلَى هَامَاتِ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَالْيَوْمَ يَنَازِعُ طَوَافَتِ أُخْرَى، وَلَا نَخَالَهُ يَتَغلَّبُ عَلَيْهِمْ، فَكَشَفَ هَذَا عَنْ نُوْعٍ مِنَ الْعَسْفِ، وَلَا يَكُونُ نَاشِئاً إِلَّا عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْإِهْمَالِ فِي اتِّبَاعِ أَوْامِرِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيِّيِّيِّنَ وَنَوَاهِيِّهِ بِحُكْمِ قَوْلِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِالْأَرْضِ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ، وَرَبِّمَا لَا يَنْكِرُ الْأَنَّ أَنْ كَثِيرًا مِنَ عَامَةِ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ صَحَّ عَقَائِدُهُمْ مِنْ حِيثِ مَا تَعْلَقَ بِهِ الْاعْتِقَادُ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يَنْهَجُونَ فِي بَعْضِ أَعْمَالِهِمْ مِنْهَاجَ الشَّرِيعَةِ الْغَرَاءِ، وَهَذَا مَا يُحْدِثُ ضَعْفًا فِي قُوَّةِ الْأَمَّةِ يَقْدِرُ الْمِيلَ عَنْ جَادَةِ الْإِعْدَالِ فِي الْفَضَائِلِ وَالْأَعْمَالِ ﴿وَمَا أَصَابُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَيَمَا كَسَبْتُ أَيْدِيكُمْ﴾. إِلَّا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَزَالُوا عَلَى أَصْوَلِ الْفَضَائِلِ الْمُورَوَّةِ عَنْ أَسْلَافِهِمْ، وَلَهُمْ حَسْنَ الْإِذْعَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ شَرِعُهُمْ وَكِتَابُ اللَّهِ مُتَلَوُّ عَلَى أَسْنَتِهِمْ، وَسَنَةُ نَبِيِّهِمْ يَتَنَاقِلُونَهَا رَوَايَةً وَدَرِيَّةً، وَسَيِّرُ الْخَلْفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالسَّلْفَ الصَّالِحِ مَرْسُومَةً عَلَى صَفَحَاتِ نُفُوسِ الْخَاصَّةِ مِنْهُمْ، فَلَيْسَ مَا طَرَأَ عَلَى بَعْضِهِمْ مِنَ الْغَفْلَةِ عَنْ مَتَابِعَةِ الشَّرِيعَةِ وَمَا تَسْبِبُ عَنْهُ مِنَ الْعَسْفِ فِي الْقُوَّةِ إِلَّا عَرَضًا لَا يَبْقَى، وَحَالًا لَا يَدُوِّمُ.

انظر نظرة إنصاف إلى ما أودعهُ آيات القرآن من غرر الفضائل وكرائم الشيم، وإلى حرص المسلمين على احترام كتابهم وتبجيله؛ تجد من نفسك حكماً باتاً بأن علماء الديانة الإسلامية لو نشطوا لأداء وظائفهم المفروضة عليهم بحكم وراثتهم لصاحب الشرع، والمحتملة على ذمتهما بأمر الله الموجه إلى الذين يعقلونه، وهم هم في قوله الحق: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ》， وبالحضر الإلهي المفهوم من قوله: ﴿فَلَوْلَا تَفَرَّ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ﴾ (من المؤمنين) ﴿طَائِفَةٌ لَيَنْفَقُهُوا فِي الدِّينِ وَلَيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، ولو قاموا يَعْظُّونَ العامة بما ينطّق به القرآن، ويدركونهم بما كان عليه صاحب الشرع ﷺ وخلفاؤه التاهجون على سنته من الأخلاق المحمودة والأعمال المبرورة؛ لرأيت أن الأمة الإسلامية ناشطةٌ من عقالها، متضافرة على إعادة مجدها وصيانتها ولاليتها العامة من الضعف، وببيضة دينها من الصدع، كل ذلك في أقرب وقت، ولن تكون إلا صيحةٌ واحدة فإذا هم قيامٌ ينظرون.

ولا ريب أن الراسخين في العلم من أهل الدين الإسلامي يعلمون أن ما أصيب به المسلمون في هذه الأزمان الأخيرة، إنما هو مما امتحنهم الله به جزاءً على بعض ما فرطوا، وليس للناس على الله حجة، فالرجاء في همهم وغيরتهم الدينية وحميّتهم الملاية أن يوجهوا العناية إلى رتق الفتق قبل اتساعه، ومداواة العلة قبل استحكامها، فيذكروا أبناء الملة بأحكام الله، ويحكموا بينهم روابط الأخوة والألفة كما أمر الله في كتابه وعلى لسان نبيه، ويبذلوا الجهد لمحو اليأس والقنوط الذي ملك أفئدة البعض منهم، ويقنعوا بهم أنه لا ييأس من لطف الله إلا الذين في قلوبهم مرض وفي عقائدهم زيف، ويسيروا بهم في سبيل يجمع كلمتهم، ويُوحّد وجهتهم، ويقوّي فيهم إباءة الضيم، والنفرة من الذل، ويحرك فيهم روح الأنفة، حتى لا تسمح نفس أحدهم أن يأتي الدينية في دينه، ويكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعده الحق في قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الفصل التاسع

الوحدة الإسلامية

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازِعُوا فَتَفْشِلُوا وَتَنْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

أطلت ولاية الإسلام ما بين نقطة الغرب الأقصى إلى تونازني على حدود الصين في عرض ما بين فازان من جهة الشمال وبين سرديب تحت خط الاستواء. أقطار متصلة، وديار متجاورة، يسكنها المسلمون، وكان لهم فيها السلطان الذي لا يغالب. أخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام، فأداروا بشوكتهم كرة الأرض إلا قليلاً، ما كان يهزم لهم جيش، ولا يعكس لهم علم، ولا يُرُدُّ قولٌ على قائلهم، قلّا لهم وصياصيهم متلاقيّة، ومنابتهم ومجارسهم في سهوبهم (أراضيهم السهلة الواسعة) وأخيافهم (الأراضي المنحدرة عن الجبل) رابية مزدهية بأنواع النبات، حالية بأصناف الأشجار، صنع أيدي المسلمين، ومدنهم كانت آهلاً لمؤسسة على أمن قواعد العمran تباهي مدن العالم بصنائع سكانها وبدائعهم، وتفاخرها بشموس الفضل، وبدور العلم، ونجوم الهدایة، من رجال لهم المكان الأعلى في العلوم والآداب.

كان في نقطة الشرق من حكمائهم: ابن سينا والفارابي والرازي، ومن يشاكلهم. وفي الغرب ابن باجه وابن رشد وابن الطفيلي، ومما ثلواهم. وما بين ذلك أمصار تتزاحم فيها أقدام العلماء في الحكمة والطب والهيئة والهندسة وسائر العلوم العقلية، هذا فضلاً عن العلوم الشرعية التي كانت عامة في جميع طبقات الملة، كان خليفتهم العباسي ينطّق

بالكلمة فيخضع لها فغفور الصين^١، وترتعد منها فرائصُ أعظم الملوك في أوروبا، ومن ملوكهم في قرونهم المتوسطة مثل محمود الغزنوي، وملكشاه السلجوقي، وصلاح الدين الأيوبي، وكان منهم في المشرق مثل تيمور الكوركان، وفي الغرب السلطان محمد الفاتح، والسلطان سليم والسلطان سليمان العثماني. أولئك رجال قضوا ولم يطوا الزمان ذكرهم ولم يمح أثرهم.

كان لأساطيل المسلمين سلطة لا تُبارى في البحر الأبيض والأحمر والمحيط الهندي، ولها الكلمة العليا في تلك البحار إلى زمانٍ غير بعيد، كان مخالفوهم يدينون لملوكوت فضلهم كما يذلون لسلطان عليهم.

والمسلمون اليوم هم يملئون تلك الأقطار التي ورثوها عن آبائهم وعددهم لا ينقص عن أربعين مليون، وأفرادهم في كل قطر بما أشربت قلوبهم من عقائد دينهم أشجع وأسرع إقداماً على الموت من يجاورهم، وهم بذلك أشد الناس ازدراً بالحياة الدنيا وأقلهم مبالاة بزخرفها البطل.

جاءهم القرآن بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم، ويعيب الأخذ بالظنون والتمسك بالأوهام، ويدعو إلى الفضائل وعوائق الصفات، فأودع في أفكارهم جراثيم الحق وبَدَرَ في نفوسهم بذور الفضل، فهم بأصول دينهم أنورٌ عَقْلًا وأنبهُ ذهناً وأشدُّ استعداداً لنيل الكلمات الإنسانية، وأقرب إلى الاستقامة في الأخلاق. وربما يرون لأنفسهم من الاختصاص بالشرف، وما وعدوا به على لسان كتابهم الصادق من إظهار شأنهم على شؤون العالم أجمع ولو كره المبطلون.

لا يرغبون بسلطةٍ لغيرهم عليهم، ولا يحوم بفكروا واحد منهم أن يخضع لذى سطوة من سواهم، وإن بلغت من الشدة أو اللين ما بلغت؛ لما بينهم من الإخاء المؤزر بمناطق العقائد، يحسب كل واحد منهم أن سقوط طائفة منبني ملته تحت سلطة الأجانب سقوطٌ لنفسه، ذلك إحساسٌ يشعر به وجده ولا يجد عنه مسلِّيًّا، وبما ساخ (غاص ورسب) في نفوسهم من جذور المعارف التي أرشدهم إليها دينهم، ونالوا منها النصيب الأعلى في عنفوان دولتهم؛ يعدون أنفسهم أولى الناس بالعلم وأجدرهم بالفضل.

ذلك شأنهم الأول وهذا وصفهم الآن، ولكنهم مع هذا كله وقفوا في سيرهم، بل تأخروا عن غيرهم في المعارف والصناعات بعد أن كانوا فيها أستاذة العالم، وأخذت

^١ فغفور: لقب ملوك الصين.

ممالكهم تنقص أطرافها وتتمزق حواشيهَا مع أَن دينهم يرسم عليهم أَن لا يدينوا سلطة من يخالفهم، بل الركن الأعظم لدينهم طرح ولية الأجنبي عنهم وكشفها عن ديارهم، بل منازعة كل ذي شوكة في شوكته.

هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الأرض وهم العباد الصالحون؟ هل غفلوا عن تكفل الله لهم بإظهار شأنهم على سائر الشئون ولو كره المجرمون؟ هل سهوا عن أَن الله اشتري منهم – لإعلاء كلمته – أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة؟ لا، إن العقائد الإسلامية مالكة لقلوب المسلمين حاكمة في إرادتهم، وسواء في العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصلتهم.

نعم، يوجد للتقسيم في إنشاء العلوم، وللضعف في القوة، أسبابٌ أعظمُها تناقض طلب الملك فيهم؛ لأنَّا بَيْنَ أَنْ لا جنسية للمسلمين إِلَّا في دينهم، فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة، والسلطانين في جنس واحد، مع تباين الأغراض وتعارض الغaiات، فشغلو أفكار الكافة بمظاهره كل خصم على خصم، وأهلوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهْر بعضهم البعض، فَأَدَّتْ هذه المغالبات وهي أشبه شيء بالمنازعات الداخلية إلى الذهول عما نالوا من العلوم والصناعات، فضلاً عن التقسيم في طلب ما لم ينالوا منها، والإعسار دون الترقى في عواليها، ونشأ من هذا ما تراه من الفاقة والاحتياج وعقبه الضعف في القوة والخلل في النظام، وجَلَّ تنازعُ الأُمَّاء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا، فلهوا بأنفسهم عن تعرُّض الأجانب بالعدوان عليهم.

هذا كان من أُمَّاء المسلمين مع ما فيه من الضرر الفادح عندما كانوا منفردين في ميادين الْوَقْفِيَّ، لا يجاريهُم فيها سواهم من الملل ولكنْ ضَرَبَ الفسادُ في نفوس أولئك الأُمَّاء بمرور الزمان، وتمكن من طباعهم حرصٌ وطمعٌ باطلٌ، فانقلبوا مع الهوى، وضلتْ عنهم غaiات المجد المؤثِّل، وقنعوا بألقاب الإمارة وأسماء السلطنة وما يتبع هذه الأسماء من مظاهر الفخفة وأطوار النفحة ونعومة العيش مدة من الزمان، واختاروا موالاةَ الأجنبيِّ عنهم المخالف لهم في الدين والجنس، ولجئوا للاستئصال به وطلب المعونة منه على أبناءِ ملَّتهم؛ استبقاءً لهذا الشبح البالي والنعيم الزائل.

هذا الذي أباد مسلمي الأنجلترا، وهَدَمَ أركانَ السلطنة التيمورية في الهند، وفي أطلالها وعلى رُسُومها شيد الإنجليز مُلَكَّهم بتلك الديار، هكذا تلاعبتْ أهواء السفهاء بالملك الإسلامية، ودَهْرَرَتْها أماناتهم الكاذبة في مهاوي الضعف والوهن، فَبُعْ ما صنعوا وبئس ما كانوا يعملون، أولئك الlahون بذَّاتهم، العاكفون على شهواتهم، هم الذين بدروا

شمل الملة، وأضاعوا شأنها، وأوقفوا سير العلوم فيها، وأوجبوا الفترة في الأعمال النافعة، من صناعة وتجارة وزراعة بما غلوا من أيدي بنها.

ألا قاتل الله الحرص على الدنيا والتهالك على الخسائس، ما أشد ضررهما وما أسوأ أثرهما، نبذوا كلام الله خلف ظهورهم، وجحدوا فرضاً من أعظم فرضيه، فاختلفوا والعدُّ على أبوابهم، وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا في الكلمة الجامعة، حتى يدفعوا غارة الأبعد عنهم، ثم لهم أن يعودوا لشئونهم، مازاً أفادتهم المغالاة في الطمع والمنافسة في السفاسف؟ أفادتهم حسرة دائمة في الحياة، وشقاءً أبدياً بعد الممات، وسوء ذِكر لا تمحوه الأيام.

أما وعزة الحق وسر العدل، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم؛ لتعارفوا أراوهم وائلفت آحادهم، ولكن وأسفًا! تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة في لقب أمير أو ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهي، هؤلاء الذين حَوَّلُوا أوجُهَ المسلمين عما ولهم الله، وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم، حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب.

الاتفاق والتضاد على تعزيز الولاية الإسلامية، من أشد أركان الديانة المحمدية، والاعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين، لا يحتاجون فيه إلى أستاذ يعلم، ولا كتاب يثبت، ولا رسائل تنشر، إن رعاة المسلمين – فضلاً عَمَّنْ علام – تتصادع زفراهم، وتفيض أعينُهم من الدمع؛ حزناً وبكاءً على ما أصاب ملتهم من تفرق الآراء، وتضارب الأهواء، ولو لا وجود الغواة من الأمراء، ذوي المطامع في السلطة بينهم؛ لاجتمع شرقيهم بغربيهم، وشمالاً لهم بجنوبهم، ولبى جميعهم نداءً واحداً، إن المسلمين لا يحتاجون في صيانة حقوقهم، إلا إلى تتبُّه أفكارهم لعرفة ما به يكون الدّفاع، واتفاق آرائهم على القيام به عند لزومه، وارتباط قلوبهم الناشئ عن إحساس بما يطأ على الملة من الأخطار.

ألم تر أمّة الروس، هل تجد فيها ما يزيد على هذه الأصول الثلاثة؟ هي أمّة متأخرة في الفنون والصناعات عن سائر أمّـمـ أوروبا وليس في ممالكها ينابيع للثروة، ولئن كانت فليـسـ هناك ما يستـفـيـضـهاـ منـ الأـعـمـالـ الصـنـاعـيـةـ،ـ فـهـيـ مـصـابـةـ بـالـحـاجـةـ وـالـإـعـواـزـ،ـ غـيرـ أـنـ تـتـبـهـ أـفـكـارـ آـحـادـهـاـ لـمـ يـكـونـ الدـفـاعـ عـنـ أـمـتـهـمـ وـاتـفـاقـهـمـ فـيـ النـهـوـضـ بـهـ وـارـتـبـاطـ قـلـوـبـهـمـ؛ـ صـيـرـ لـهـ دـوـلـةـ تـمـيـدـ لـسـطـوـتـهـ رـوـسـيـاـ أـوـرـوـبـاـ،ـ لـمـ يـكـنـ لـلـرـوـسـيـةـ مـصـانـعـ لـعـظـمـ الـآـلـاتـ الـحـرـبـيـةـ،ـ وـلـكـنـ لـمـ يـمـنـعـهـ ذـلـكـ عـنـ اـقـتـنـائـهـاـ،ـ وـلـمـ يـرـتـقـ فـيـهـ الـفـنـ الـعـسـكـرـيـ إـلـىـ حدـ ماـ عـلـيـهـ جـيـرـانـهـاـ،ـ إـلـاـ أـنـ هـذـاـ لـمـ يـقـعـدـهـاـ عـنـ جـلـبـ ضـبـاطـ مـنـ الـأـمـمـ الـأـخـرـىـ لـتـعـلـيمـ عـسـاـكـرـهـاـ،ـ حـتـىـ صـارـ لـجـيـشـهـاـ صـوـلـةـ تـخـيـفـ،ـ وـحـمـلـةـ تـخـشـاـهـاـ دـوـلـ أـوـرـوـبـاـ.

فما الذي أقعدنا عن مُشاكلة غربنا، فيما هو أيسُرُ الأشياء علينا، ونحن أشدُّ الناس ميلاً إليه: من رعاية شرف الملة والتألم بما يحيط منه والتعاون على صون الوحدة الجامعية لنا عن كل ما يثلها، ما رد الأفكار عن الحركة، وما أقعد الهم عن النهوض، إلا أولئك المترفون، يحرضون على طيب في المطعم، ولين في المضجع، وتطاول في البناء، وتفاخر بالخدم والخول، ولا يراغون في حرصهم ما بعد يومهم، ويحافظون على لقب موضوع ورسم متبع، يقنعون منه بالاحتفال لهم في المواسم والأعياد وهز الرءوس وثنى الأعطااف، تعظيمًا وتبجيلاً، ثم تذليل الأوراق الرسمية بأسماء ليس لها مسميات، هؤلاء الساقطون يرضون لتخييل هذه المواثيل (جمع ماثل، من الرسوم: ما ذهب أثره) بكل دنيئة، هؤلاء يقبلون من تصرف أعدائهم في بيوتهم ما لا يقبله واحدٌ من آحاد الناس دون موته، أولئك صاروا في أنعاق المسلمين سلاسل وأغلالاً، يحبسون هذه الأسود عن فريستها بل يجعلونها طعمة للثعالب، لا حول ولا قوة إلا بالله.

أيا بقية الرجال، ويا خلف الأبطال، ويا نسل الأقيال؛ هل ولَّ بكم الزمان، هل مضى وقت التارُك، هل آن أوان اليأس؟ لا، لا، معاذ الله أن ينقطع أملُ الزمان منكم، إن من أدرنة إلى يشاور دولاً إسلامية متصلة الأرضي، ومتحدة العقيدة يجمعهم القرآن، لا ينقص عددهم عن خمسين مليوناً، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة، أليس لهم أن يتلقوا على الذب والإقدام كما اتفق عليه سائر الأمم؟ ولو اتفقوا فليس ذلك ببعد منهم، فالاتفاق من أصول دينهم، هل أصاب الخدر مشاعرهم فلا يُحِسُّون بحاجات بعضهم البعض؟ أليس لكل واحد أن ينظر إلى أخيه بما حكم الله في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِحْوَةٌ﴾ فيقيمون بالوحدة سداً يحول عنهم هذه السيول المتقدمة عليهم من جميع الجوانب؟

لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالكُ الأمر في الجميع شخصاً واحداً، فإن هذا ربما كان عسيراً، ولكنني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته ب حياته وبقاءه ببقاءه، إلا أن هذا بعد كونه أساساً لدينهم تقضي به الضرورة، وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات.

هذا آنُ الاتفاق، هذا آنُ الاتفاق، ألا إن الزمان يواسيكم بالفرص، وهي لكم غنائم، فلا تقرطوا، إن البكاء لا يحيي الميت، إن الأسف لا يرد الفائت، إن الحزن لا يدفع المصيبة، إن العمل مفتاح النجاح، إن الصدق والإخلاص سلم الفلاح، إن الوجل يقرب

الأجل، إن اليأس وضعف الهمة من أسباب الحتف ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ طَسْتُرُونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُبَيَّنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ألا تكونوا من كره الله انبعاثهم فتبطّهم، وقيل اقعدوا مع القاعدين، احذروا أن تقعوا تحت قول الله: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، إن القرآن حي لا يموت، ومن أصحابه نصيب من حمده فهو محمود، ومن أصيب بسهم من مقته فهو ممقوت، كتاب الله لا ينسخ فارجعوا إليه، وحَكْمُوهُ في أحوالكم وطباعكم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ولعل أمراء المسلمين قد وعظوا بسوء مغبة أعمال السالفين وهموا بخلافة أمرهم، قبل أن يقضى عليهم، بما رزئ به المفرطون من قبلهم، ورجأونا أن أول صيحة تبعث إلى الوحدة وتوقف عن الرقدة، تصدر عن أعلاهم مرتبة، وأقواهم شوكة، ولا نرتاب في أن العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى في هذا العمل الشريف، والله يهدي من يشاء والله الأمر من قبل ومن بعد.

الفصل العاشر

الوحدة والسيادة أو الوفاق والغلب

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً.»

أمران خطيران، تحمل عليهما الضرورة تارة، ويهدي إليهما الدين تارة أخرى، وقد تفیدهما التربة وممارسة الآداب، وكل منهما يطلب الآخر ويستصحبه، بل يستلزم، وبهما نمو الأمم وعظامها ورفعتها واعتلاؤها؛ وهما: الميل إلى وحدة تجتمع، والكلف بسيادة لا توضع، وإذا أراد الله بشعب أن يوجد ويلقي بوانيه (يثبت ويقيم) إلى أجل مسمى؛ أودع في ضآضته (أصوله) هذين الوصفين الجليلين، فأنشأه خلقاً سوياً، ثم استبقى له حياته بقدر ما مكّن فيه من الصفتين إلى منتهى أجله.

كل أمة لا تمد ساعدها لغالبة سواها لتنال منها بالغلب ما تنمو به بنيتها، ويشتد به بناؤها؛ فلا بد يوماً أن تُقضم وتهضم وتضمحل ويُمحى أثرها من بسيط الأرض، إن التغلب في الأمم كالالتغذي في الحياة الشخصية، فإذا أهمل البدن من الغذاء وقف حركة النمو، ثم ارتدت إلى الذبول والنحول، ثم أفضت إلى الموت والهلاك، وليس من الممكن لآمة أن تحفظ قوامها، وتصول على من يليها لتخزل منه ما يكون مادةً لنمائها، إلا أن تكون متفقة في تحصيل ما تحتاج إليه هيئتها.

إذا أحسست من أمة ميلاً إلى الوحدة فبشرها بما أعد الله لها في مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على متفرقة الأمم.

إذا تصفحنا تاريخ كل جنس واستقرينا أحوال الشعوب في وجودها وفنها؛ وجدنا سنّة الله في الجمعيات البشرية: حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة، وبلغها من العظمة على حسب تطاولها في الغلب، وما انحرف شأنُّ قوم وما هبطوا عن مكانهم، إلا عند لهوهم بما في أيديهم، وقناعتهم بما تَسَنَّ لهم، ووقفهم على أبواب ديارهم، ينظرون طارقهم بالسوء، وما أهلك الله قبيلًا إلا بعدما رُزئوا بالافتراق، وابتلوا بالشقاقي، فأورتهم نَلَّا طويلاً وعداً وبليلاً، ثم فناءً سرمدياً.

الوفاق تواصُل وتقارب، يحدثه إحساسُ كل فرد من أفراد الأمة بمنافعها ومضارها، وشعور جميع الآحاد في جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان، فيلذُ لهم كما يلذُ أشهى مرغوبٍ لديهم، وبما تفقده من ذلك، فيألونون له كما يأملون لعظيم رزء يصابون به، وهذا الإحساس هو ما يبعث كل واحد على الفكر في أحوال أمتة، فيجعل جزءاً من زمنه للبحث فيما يرجع إليها بالشرف والسؤدد، وما يدفع عنها طوارق الشر والغيلة.

ولا يكون همه بالفكر في هذا أقل من همه بالنظر في أحواله الخاصة، ثم لا يكون نظراً عقيماً حائزاً بين جدران المخيلة، دائراً على أطراف الألسنة، بل يكون استبصاراً تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على استكماله بما يمكن من السعة، وما تحمله القدرة على نحو ما يكون في استحصال مواد المعيشة بلا فرق، بل تجد الأنفس أن شأن الأمة في المكان الأول من النظر، والدَّرَجَةُ الأولى من الاعتبار، والشئون الخاصة في المنزلة الثانية منها.

ولا تقف فيما تجد عند جلب المصالح ودرء المفاسد لأوقاتها الحاضرة، بل يأخذ العقلاً منها سُبُلاً من التفكير، ويختطرون سيفاً من الهمة، ليصيروا من سعيهم شوارد من القوة، ونواب من المكنة، ويستخرجوا دفائين من الثروة ويجمعوا ذلك للأمة، لصيانة حياتها إلى حد العمر اللائق بها، كما يسعى الحازم جهده لتوفير ما يلزم لعيشته، وما يطمئن به قلبه في دفع حاجته مدة العمر الغالب، بل يزيد عليه ما فيه الكفاية لأنبائه من بعده، وإن الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون ثم تتلوه سائر الأدوار، وأولها أقصرها وهو سن الطفولية، وبدء الكمال فيما يليه، فما أرفع هم العقلاء في الأمم المستبصرة!

إذا بلغ الإحساس من مشاعر أفراد الأمة إلى الحد الذي بيناه، رأيت في الدهماء منهم والخاصة همماً تعلو، وشيمماً تسمو، وإقداماً يقود، وعزمماً يسوق، كلُّ يطلب السيادة والغلب، فتتلاقي هممهم، وتتلاحق عزائمهم في سبيل الطلب، فيندفعون للتغلب على الذين

يلونهم، كما تندفع السيول على الوهاد، ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا إليه، ويكون نزوهם على الأمم بعد الغلب الأول تدفقاً من الطبع لا يحتاج إلى فكر وروية إلا في إعداد وسائل الفوز والظفر.

هذا الأمران — الوفاق والغلب — عمدان قويان وركنان شديدان من أركان الديانة الإسلامية، وفرضان محتملان على من يستمسك بها، ومن خالف أمر الله فيما فرض منها عوقب من مقته بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، جاء في قول صاحب الشرع: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه ببعضًا»، وإن المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه إذا مس أحداً ألم تأثر له الآخر، وجاء في نهيه: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً»، وأنذر ما شذ عن الجماعة بالخسان والهلكة، وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب.

هذا كله بعدما أمر الله عباده بالاعتصام بحبه، ونهاهم عن التفرق والتغابن، وامتن عليهم بنعمة الأخوة بعد أن كانوا أعداء، ونطق الكتاب الإلهي: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ»، وطلب من المخاطبين بآياته أن يبادروا بإصلاح ذات البين عند التحالف، ثم شدد على وجوب الإصلاح وإن أدى إلى مقاتلة الباغي، فقال: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا أُلَّا تَتَغَيِّرَ حَتَّى تَفَيَّءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ»، وإنما أمر الله الدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَأَخْتَلُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ»، وتوعد الكتاب الأقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الأليم، فحكم بأن من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله الله ما تولى، ويصله جهنم وساعات مصرىاً، وفي أمره الصريح إيجاب التعاون على البر والتقوى، ولا بر أحق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق وإعلاء منار الأمة.

وأخبر الصادق عليه السلام أن: «يد الله مع الجماعة»، وكفى بالقدرة الإلهية عوناً إذا صر الاجتماع وصدقت الألفة، وقد بلغت مكانة الاتفاق في الشريعة الإسلامية أسمى درجة في الرعاية الدينية، حتى جعل إجماع الأمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفاً عن حكم الله وما في علمه، وأوجب الشرع الأخذ به على عموم المسلمين، وعدّ جحوده مروقاً من الدين، وانسلحاً عن الإيمان، ومن عناية الشارع بأمر الاتفاق قوله عليه السلام: «لو دعيت إلى حلف الفضول لفعلت» (حلف الفضول): ما كان من هاشم وزهرة وتيم، حيث وفدو على عبد الله بن جدعان وتحالفوا على أن يدفعوا الظلم ويأخذوا الحق من الظالم، وسمى حلف الفضول؛ لأنهم تحالفوا على أن لا يدعوا عند أحد فضلاً يزيد عن حقه ويكون نواله

بالظلم إلا أخذوه منه وردوه لستحقيه)، فهو من حِلْفِ الْجَاهْلِيَّةِ، وقد صَرَّحَ الشَّارِعُ بِقَبْوِلِهِ لَوْ دُعِيَ إِلَيْهِ، هَذَا إِجْمَالُ الْأَدْلَةِ عَلَى وجوبِ الْإِتْفَاقِ وَحَظْرِ الْمَنَابِذَةِ وَالْمَغَابِذَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِيْنَ، بَلْ وَبَيْنِهِمْ وَبَيْنِ غَيْرِهِمْ مَمَنْ رَضِيَ بِذَمْتِهِمْ وَقَبْلَ جَوَارِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ فِي شَرِعِهِمْ، فَإِنْ سَبِيلَ الْمُؤْمِنِيْنَ يَسِعُهُ وَلَا يَضِيقُ عَنْهُ.

وَأَمَّا السُّعِيُّ لِإِلْعَالِيَّةِ كَلْمَةِ الْحَقِّ وَبِسْطَةِ الْمَلْكِ وَعُمُومِ السِّيَادَةِ، فَلَا تَجِدُ آيَةً مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الشَّرِيفِ إِلَّا وَهِيَ دَاعِيَةٌ إِلَيْهِ، جَاهِرَةٌ بِمُطَالِبِ الْمُسْلِمِيْنَ بِالْجَدِّ فِيهِ، حَاظِرَةٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَوَانَوْا فِي أَدَاءِ الْمَفْرُوضِ مِنْهُ، وَمِنَ الْأَوَامِرِ الشَّرِيعَةِ أَنْ لَا يَدْعُ الْمُسْلِمُونَ تَنْبِيَةً مُلْتَهِمْ حَتَّى لَا يَكُونَ فَتْنَةً وَيَكُونُ الدِّينُ كَلِمَةُ اللَّهِ، وَفِي السَّنَةِ الْحَمْدِيَّةِ وَالسِّيَرَةِ النَّبُوَيَّةِ، مَا يَضَافِرُ آيَاتُ الْقُرْآنِ مَا جَمَعَهُ الْعُلَمَاءُ فِي مُجَلَّدَاتٍ يَطْوِلُ عَدْهَا، هَذَا حَكْمُ دِينِنَا لَا يَرْتَابُ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ بِهِ وَالْمُسْتَمْسِكِيْنَ بِعَرْوَتِهِ.

هَلْ يَمْكُنُ لَنَا — وَنَحْنُ عَلَى مَا نَرَى مِنَ الْاِخْتِلَافِ وَالرِّكْوَنِ إِلَى الْضَّيْمِ — أَنْ نَدْعَى الْقِيَامَ بِقَرْبَوْضِ دِينِنَا؟ كَيْفَ وَمَعْظَمُ الْأَحْكَامِ الْدِينِيَّةِ مُوقَوفٌ إِجْرَاؤُهُ عَلَى قُوَّةِ الْوَلَايَةِ الشَّرِيعَةِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْوَفَاقُ وَالْمَلِيلُ إِلَى الْغَلْبِ فَرَضَيْنِ لِذَاهِمَيْهِمَا، أَفَلَا يَكُونُانَ مَا لَا يَتَمَمُ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ؟ فَكَيْفَ وَهُمَا رَكْنَانِ قَامَتْ عَلَيْهِمَا الشَّرِيعَةُ — كَمَا قَدَّمْنَا؟ هَلْ لَنَا عَذْرٌ نَقِيمُهُ عَنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ بَعْدَ هَذِينِ الرَّكْنَيْنِ، وَأَيْسَرُ شَيْءٍ عَلَيْنَا إِقْرَامُهُمَا وَعَدِيدُنَا خَمْسَيْمَائَةً مَلِيُّونًا أَوْ يَزِيدُ، هَلْ يَتِيسِرُ لَنَا — إِذَا خَلُونَا بِأَنفُسِنَا وَجَادَلْنَا ضَمَائِرَنَا — أَنْ نَقْعِنَهَا وَنَرْضِيَّهَا بِمَا نَحْنُ عَلَيْهِ الْآنَ؟

كُلُّ هَذِهِ الرِّزَايَا الَّتِي حَطَّتْ بِأَقْطَارِنَا، وَوُضِعَتْ مِنْ أَقْدَارِنَا، مَا كَانَ قَادِنَا بِبِلَائِهَا، وَرَامِينَا بِسَهَامِهَا إِلَّا افْتَرَاقُنَا وَتَدَابِرُنَا وَالْتَّقَاطُعُ الَّذِي نَهَا اللَّهُ وَنَبِيُّهُ عَنْهُ. لَوْ أَدِينَا حَقْقًا تَطَالِبُنَا بِهَا تُلْكَ الْكَلْمَةُ الَّتِي تَهَلُّ بِهَا أَسْنَنَتَا، وَتَطْمَئِنُ قُلُوبُنَا بِذَكْرِهَا — وَهِيَ كَلْمَةُ اللَّهِ الْعُلِيَا — هَلْ كَانَ يُمْكِنُ لِلْأَغْرَابِ أَنْ يَمْزُقُوا مَمَالِكَنَا كُلَّ مَمْزُقٍ؟ وَهَلْ كَانَ يَلْمُعُ سِيفُ الْعُدُوَانِ فِي وَجْهِنَا؟ وَهَلْ كَانَ نَشِيمُ نَيْرَانِ الْأَعْدَاءِ إِلَّا وَأَقْدَامُنَا فِي صِيَاصِيهِمْ، وَأَيْدِينَا عَلَى نَوَاصِيهِمْ؟ إِنْ لِأَبْنَاءِ الْمِلَلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ يَقِيْنًا بِمَا جَاءَ بِهِ شَرِعُهُمْ، لَكِنْ أَلِيْسَ عَلَى صَاحِبِ الْيَقِينِ بِدِينِنَا أَنْ يَقُولَ أَنْ يَرْفَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الدِّينِ؟ ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنَّ يُتْرَكُوْا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِيْنَ﴾.

وَلَا رِبَّةٌ فِي أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسِرُّهُ أَنْ يَعْلَمَ اللَّهُ صَادِقًا لَا كَاذِبًا، وَأَيْ صِدْقَةٌ تَظَهُرُهُ الْفَتْنَةُ وَيَمْتَازُ بِالصَّادِقِ إِلَّا الصَّدَقِ فِي الْعَمَلِ، هَلْ يَوْدُ الْمُسْلِمُ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ فِي

الذل والهوان وهو يعلم أن الازدراء بالحياة هو دليل الإيمان، أترضى — ونحن المؤمنون — وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تُضرب علينا الذلة والمسكنة، وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يرد مشربنا، ولا يحترم شريعتنا، ولا يرقب فينا إلاّ ولا ذمة، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلي منا أوطاننا، ويستخلف فيها بعدها أبناء جلدته، والجالية من أمته؟

لا. لا. إن المخلصين في إيمانهم الواثقين بوعد الله في نصر من ينصر الله الثابت في قوله: ﴿إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيُبَيِّنُ أَفْدَامَكُمْ﴾ لا يتخلقون عن بذل أموالهم وبيع أرواحهم، والحق داع والله حاكم والضرورة قاضية، فأين المفر؟ المبشر بنور الله يعلم أنه لا سبيل لنصر الله وتعزيز دينه إلا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين، هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة، وأملاكنا ممزقة، والقرعة تُضرب بين الغرباء على ما بقي في أيدينا، ثم لا نُبدي حركة، ولا نجتمع على كلمة، وندعى مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد؟ واحجلتاه لو خطر هذا ببالنا! ولا أظنه يخطر ببال مسلم يجري على لسانه شاهد الإسلام.

إن الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الإسلام؛ كل هذه صفاتٌ كامنةٌ في نفوس المسلمين قاطبة، ولكن دهائم بعض ما أشرنا إليه في أعداد ماضية، فألهامهم عما يُوحى به الدين في قلوبهم وأذهلهم أزماناً عن سماع صوت الحق يناديهم من بين جوانحهم، فسَهُوا وما غروا، وزلوا وما ضلوا، ولكنهم دهشوا وتابوا، فمثيلهم مثل جواب المجاهيل من الأرض في الليالي المظلمة، كلٌّ يطلب عوناً وهو معه ولكن لا يهتدى إليه، وأرى أن العلماء العاملين لو وَجَهُوا فكرتهم لإيصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض؛ لأمكنتهم أن يجمعوا بين أهوائهم في أقرب وقت، وليس بعسر عليهم ذلك بعدما اختص الله من بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام وفرضَ على كل مسلم أن يحجه ما استطاع، وفي تلك البقعة يحشر الله من جميع رجال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم، فما هي إلا كلمة تُقال بينهم من ذي مكانة في نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض، وتضطرب لها سواكن القلوب، هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية.

فإن أضفت إليه ما أذاب قلوبهم من تعديات الأجانب عليهم، وما ضافت به صدورُهم من غارات الغرباء على بلادهم، حتى بلغت أرواحهم التراقي، ذهبت إلى أن الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حدًّا يوشك أن يكون فعلاً، وهو مما يؤيد الساعين في هذا المقصود، ويبيئ لهم فوزاً ونجاحاً بعون الله الذي ما خاب قاصده، وهو ربِّ إليه أدعوه وإليه أنيب.

الفصل الحادي عشر

الأمل وطلب المجد

﴿إِنَّهُ لَا يَنِيأسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

تلك آياتُ الكتاب الحكيم، تنبئ عن سر عظيم، اختص الله به الإنسان، ورفعه به على سائر الأكوان، ليبلغ به المقام المحمود، ويحوز ما أعدَّتْ له العناية الإلهية من الكمال اللائق به، راجع نفسك، وأصغِ لمناجاة سرك؛ تجدُ في وجданك ميلًا قويًا، وحرصًا شديداً، يدفعك إلى طلب المجد، وعلو المكانة في قلوب أبناء جنسك، ثم ارفع بصرك إلى سواد أمة بتمامها؛ تجدُ مثل ذلك في كليتها كما هو في آحادها، تتبعي رفعة المكانة في نفوس الأمم سواها، ذلك أمرٌ فطريٌّ جيل الله عليه طبيعة هذا النوع منفردًا ومجتمعاً.

ليس من السهل على طالب المجد وعلو المكانة أن يصل إلى ما يطلب، ولكن يلاقي في الوصول إليه وعراً في السبل، وعقبات تصد عن المسير، ومع هذا فلا يضعف حرصه، ولا ينقص ميله، يقطع شعاباً، ويعاني صعاباً، حتى يرقى ذروة المجد، ويَتَسَنَّمَ شاهق العِزَّة، ولو قام في وجهه مانعٌ عن الاسترسال في مسيره والتجاء للسكون؛ رأيته يتململ كأنما يتَّقلبُ على الرمضاء، ولو سير الحكيم الخير أعمال البشر، ونسب كل عمل إلى غاية العامل منه؛ رأى أن معظمها في طلب الكرامة وعلو المقام، كلُّ على حسيبه، وما يتعلّق منها بتقويم المعيشة ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة لما يتعلّق بشئون الشرف.

هذه خلة ثابتة في الكافة من كل شعب على اختلاف الطبقات من أرباب المهن إلى أصحاب الأمر والنهي، كلٌ ينافس أهل طبقته في أسباب الكرامة بينهم، ويأنف من ضعته فيهم ويحرص على ما يُحِلُّه من قلوبهم محلَّ الاعتبار، حتى إذا بلغ الغاية مما به الرفعُ عندهم، تخطي حدود تلك الطبقة ودخل في طبقة أخرى، ونافس أهلها في الجاه، ولا يزال يتبع سيره ما دام حيًّا يخطر في بسيط الأرض؛ ذلك لأنَّ الكمال الإنسانيَّ ليس له حدٌّ، ولا تحدُه نهاية، وليس في استطاعة أحدٍ من النَّاس أنْ يُقنع نفسه ويعتقد أنه بلغ من الكمال حَدًّا ليست بعده غاية.

سبحان الله! ماذا أخذت محبة الشرف من قلب الإنسان، وماذا ملكت من أهوائه؟ يُعدُّ ثمرة حياته وغاية وجوده، حتى إنه يحتقر الحياة عند فقده والعجز عن دركه، أو عند مسه والخوف من سلبه، أرأيت أنْ فقيرًا ذا أسمال لا يُؤبه له إذا اعتدى عليه من تطول يده إليه بفعلة تهينه، أو قذفة تشينه؛ يغلبه الغضب للدفاع عن المنزلة التي هو فيها فيرتكب مُخاطرة ربما تفضي به إلى الموت، وإن القذف أو الإهانة ما نقصت شيئاً من طعامه ولا شرابه، ولا خشت مضعه في مبيته، آلاف مؤلفة من النَّاس في الأجيال المختلفة والأجناس المتنوعة ألقوا بأنفسهم إلى المهالك، وماتوا دفاغاً عن الشرف أو طلباً للكرامة والمجد.

جل شأن الله، لا يهنا للإنسان طعامٌ ولا شراب، ولا يلين له مضجعٌ إلا أنْ يلحظ فيه أنَّ ما نال منه أعلى مما نال سواه، مع وقوف بعض من النَّاس على ذلك ليعرفوا له بالأعلوَّية فيه، كأنَّ لذة التغذية والتوليد إنما وُضعت لتكون وسيلة للذلة المُباهاة والمفاخرة، فما ظنك بسائر اللذائذ.

كم يُعاني الإنسان من التعب البدني، وكم يقاسي من مشاق الأسفار، وكم يُخاطر بروحه في اقتحام الحروب والمكافحات، وكم يتحمل في الانقطاع عن اللذات، مع التمكُّن منها، كل ذلك لينال شهرة أو ليكسب فخاراً أو ليحفظ ما أتاه الله منه، ما أجل عناية الله بالإنسان! لا يعيش إلا ليشرف فيشرف به العالم، وكل لذة دون الشرف فهي وسيلة إليه، بل الحياة الدنيا هي السبيل الوعرة يسلكها الحُيُّ إلى ما يستطيع من المجد، وفي نهاية الأجل يُقارقها قرير العين بما قارب منه، آسف الفواد على ما قصر عنه.

ما هو المجد الذي يسعى إليه الإنسان بالإلهام الإلهي، ويخوض الأخطر في طلبه ويقارع الخطوب في تحصيله؟ هو شأن تعرف النُّفُوس لصاحبها بالسُّؤُدُّ، وتُدْعَن له بالاعتلاء، وتلقى إليه قياد الطاعة، يكون هذا له ولكل من يدخل في نسبته إليه من ذوي

قرباته وعشيرته وسائر أمهاته، فتنفذ كلمته إليه وكلمة المتصلين به، والملتحمين معه في شئون من سواهم، وهو أعظم مكافأة من العزيز الحكيم على معاناة الأوصاب لتحصيل ذلك الشأن في هذه الحياة الأولى، فما كان يحسبه طالب المجد عائداً إلى نفسه بالمنفعة، ببارك فيه مدبر الكون فيفيض خيره علىبني جلدته أجمعين، واهما! تلك حكمة بالغة: إذا نال الواحد من الأمة مطلبه من المجد نالت الأمة حظها من السُّؤدد، نعم، وهل نال ما نال إلا بمعونة سائر الآحاد منها؟ ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾. ماذا يستطيع المجاهد وحده، وماذا يكسبه من سعيه؟ إن لم يكن له إعصار منبني قبيله، فمن كان همه أن يصعد إلى عرش العِزَّة، ويرقى إلى ذرورة السيادة، فعليه أن يهوي نفسه والمنتمنين إليه لتحصيل كل ما يعد في العالم الإنساني فضيلةً وكمال، ما أصعب القيام بخدمة هذا الميل الفطري والإلهام الإلهي! وما أشد ما تحمل النُّفوس في قضاء بعض الوطر مما يتصل به! وما أعظم الحامل للأنفس على تجُّس المصاعب لنيل ما تميل إليه من هذا الأمر الرفيع! ما هذا الباущ الشرييف الذي يسهل على الأرواح كل صعب ويقرب كل بعيد، ويصغر كل عظيم، ويلين كل خشن، ويسليها عن جميع الآلام، ويرضيها بال تعرض للتهلكة ومفارقة الحياة، فضلاً عن بذل كل نفيس، والسماح بكل عزيز، هذا الباущ الجليل، وهذا الموجب الفعال هو الأمل.

الأمل ضياءُ ساطع في ظلام الخطوب، ومرشد حاذق في يهاء الكروب، وعلم هاد في مجاهيل المشكلات، وحاكمُ قاهرُ للعزم إذا اعترتها فترة، ومستفز للهم إن عرض لها سكون، ليس الأمل هو الأمينة والتشهي اللذين يلمحهما الذهن تارة بعد أخرى، ويعبر عنهما بليت لي كذا من المال وكذا من الفضل مع الركون إلى الراحة والاستلقاء على الفراش، واللهو بما يبعد عن المرغوب لأن صاحبها يروم أن يبدل الله سنته في سير الإنسان عنانية بنفسه الشريفة أو الخسيسة، فيسوق إليه ما يهجم بخاطره دون أن يصيبه تعباً أو يلاقي مشقة، إنما الأمل رجاء يتبعه عمل، ويصحبه حمل النَّفَس على المكاره، وعرك لها في المشاق والمتابع، وتوطينها للاقاة البلاء بالصبر، والشدائيد بالجلد، وتهوين كل ملم يعرض لها في سبيل الغرض من الحياة، حتى يرسخ في مداركها أن الحياة لغوٌ إذا لم تغذ بنيل الأربع، فيكون بذل الروح أول خطوة يخطوها القاصد فضلاً عن المال الذي لا يقصد منه إلا وقاية بناء الحياة من صدمات حوادث الكون.

وكما كان الميل للرفة أمرًا فطريًّا، كذلك الأمل وثقة النفس بالوصول إلى غاية سعيها من ودائع الفطرة، غير أن ثبوتها في فطرة عموم البشر كان داعيًّا للمزاحمات والممانعات، فإن كل واحد بما أودع في جبلته يطلب الكرامة والتمكُّن في قلب الآخر، فكل طالب ومطلوب.

ولم تبلغ سعة العقل الإنساني إلى درجة تعين لكل فرد من الأفراد عملاً تكون له به المنزلة العليا في جميع النُّفُوس، غير ما يكون به الآخر مثل تلك المنزلة، حتى يكون جميعهم أمجاداً شرفاء بما يأتون من أعمالهم، ولكنهم تراهموا في الآمال والأهواء، ومسالكهم ضيق، ومشارعهم ضنك، فنشأت تلك المقاومات والمصادمات بين النوع البشري؛ حكمة من الله ليعلم الذي جاهدوا ويعلم الصابرين.

فإذا تواى الصدام على شخص أو قوم حدث في الهمم ضعفٌ وأصابها انحطاط، وحصل الفساد في هاتين الحليتين الشريفتين «الرجاء وطلب المجد»، كما يحصل الفساد في سائر الأخلاق الفاضلة بسوء التَّرْبِية وربما يُؤَلِّ الضَّعْفَ إِلَى الْيَأسِ وَالْقُنُوطِ — نعوذ بالله منها.

ماذا يكون حال القانطين المقطعة آمالهم، يحكمون على أنفسهم باللحظة، ويسلِّلُون عليها العجز عن كل رفعة، فـيأتون الدنيا ويتَّعَاطُون الرِّذائل، ولا ينفرون من الإهانة والتحقير بل يُوَطِّنُون أنفسهم على قبول ما يوجَّه إليهم من ذلك — أَيًّا كان — فتُسلِّبُ منهم جميع الإحساسات والوجدانات الإنسانية التي يمتاز بها الإنسان عن الأنعام، فيرضون بما ترضى به البهائم، فلا يهتمون إلا ب حاجات قبقيهم وذبذبهم.

ثم يا ليتهم يكونون هملاً وسواقب يرعنون النبات، ويتبعون موضع الغيث، ولكنهم وإن تركوا العمل لأنفسهم فـالله تعالى يسلط عليهم من يكلفهم بالعمل لغيرهم، فيكونون كالنحال الحمال لا تستفيد مما تحمل شيئاً، وظيفتها أن تسعى وتشقى ليسعد غيرها ويستريح، فيعالجون العمل في الفلاحة والصناعة وغيرها من الأعمال الشاقة، ويدأبون بأشد مما يدأب العامل لنفسه، ثم لا ينالون مما يعملون شيئاً.

ثمرات كسبهم بأسرها محولة إلى الذين سادوا عليهم بهمهم (هذا الذي يتتجشه الذليل في ذله من مشاق الأعمال ومعاناة المكاره لو تحمل بعضاً منه في طلب العِزَّة لأصحاب حظه منها) بل تصير درجة القانطين عند من سادوا عليهم أدنى من درجة الحيوانات العاملة، فإن السائدين يشعرون — بحكم البداهة — أن هؤلاء أسقطوا أنفسهم عن منزلة كانوا سيستحقونها بمقتضى الفطرة الإنسانية، ورضوا لها بما دون حقها، بل بما

لا يصحُّ أن يكون من شأنها، وكفروا نعمة الله في تكوينهم على الشكل الإنساني وإيداعهم ما أودع في أفراد الإنسان، فيعاملهم أولئك السادات بما لا يعاملون به ما يقتنون من الحيوانات، ولنا على ذلك شاهدُ العيان في الأمم التي أدركها اليأس وسقطت في أيدي الأجانب.

ونظن أنه يوجد أقوام آخرن سادُتهم في الزمن السابق – ويسمونهم الآن – ما لا تسام به **السواثُمُ** الراعية، وهم على القرب منا وليسوا ببعيد عننا.

عجبًا، كيف تتبدل **أحكام الجبَّة** وكيف يمحى أثر الفطرة؟ كيف تسفُل النفس حتى لا تطلب رفعة؟ وكيف تقنط حتى لا يكون لها أمل، والأمل وحب الكرامة طبيعتان في الإنسان؟ بعد إمعان النظر نجد السبب في ذلك ظن الإنسان أن جميع أعماله إنما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال، وأن قوته هي سلطان أعماله، وليس فوق يده يد تمده بالمعونة أو تصدُه بالقهر، فإذا صادفته الموانع مرَّة بعد أخرى وقطعت عليه سبيل الوصول لطلبها، رجع إلى قدرته فوجدها فانية، وقوته فرآها واهنة، فيعترف بوهنه، ويُسكن إلى عجزه، فييأس ويقطن، ويذل ويُسفِل اعتقادًا منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التي تعصَّت على قدرته، ومتى كانت قوة المانع أعظم من قوته فلا سبيل إلى العمل لاستحالة قهر المانع، فيقطع الأمل فيقع في الشقاء الأبدِي.

أما لو أُيقن أن لهذا الكون مدبرًا عظيم القدرة تخضع كل قوة لعظمته، وتدين كل سطوة لجبروته الأعلى، وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملوكه يصرُّف عباده كيف يشاء؛ لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس، وتغتال آماله غالٌة القنوط، فإن صاحب اليقين لو نظر إلى ضعف قدرته لا يفوتُه النظر إلى قوة الله التي هي أعلى من كل قوة، فيركِن إليها في أعماله، ولا يجد اليأس إلى نفسه طريقًا، فكلما تعاظمت عليه الشدائد زادت همته انبُعاً في مدافعتها معتمدًا على أن قدرة الله أعظم منها، وكلما أغلق في وجهه باب فُتحت له من الركون إلى الله أبواب، فلا يمل ولا يكل، ولا تدركه السامة، لاعتقاده أن في قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعمااء، ويلقي قيادهم إلى الأذلاء، وأن يدك الجبال، ويُشَقُّ البحار، ويمكن الضعفاء من نواصي الأقواء، وكم كانت لقدرة الله من هذه الآثار.

فتشتَّد عزيمته ويدأب فيما كلفه الله من السعي لنيل الكمال والفوز بما أعدَه الله له من السعادة في الأولى والآخرة، وما كان لمؤمن بالله وبقدرته وعزته وجبروته أن يقنط وبيأس، ولهذا أخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التي لا ريبة فيها بما قال وهو أصدق

القائلين: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْمَنُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، وبما حكي من قول نبيه إبراهيم: ﴿وَمَنْ يُكْنِطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾، فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلاً على الكفر، ومن أين يطرق اليأس قلباً عقد على الإيمان بالله وقدرته الكاملة.

لهذا نقول: إن المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله وبما جاء به محمد - عليه الصلاة والسلام - أن يقطعوا من رحمة ربهم في إعادة مجدهم مع كثرة عددهم، ولا يسوغ لهم إيمانهم أن يرخصوا للذل، ويرضوا للضييم، ويتقاعدوا عن إلقاء كلمتهم وهم إلى الآن محفوظون مما ابْتُلُوا به كثيرون من الأمم، فإن لهم ملوكاً عظاماً، ولا يزال في أيديهم ملك عظيم على بسيط الأرض، وإن من الحق أن نقول: إن أبواب رحمة الله مفتوحة لديهم وما عليهم سوى أن يلْجُوهَا، وإن روح الله نافحةٌ عليهم وما يلزمهم سوى أن يستنشقونها، والفرص دائمةً تمد أيديها إليهم تطلب إنهاضهم وتنبه غافلهم وتوقظ نائمهم، وليس عليهم في استرجاع مكانتهم الأولى والصعود إلى مقامهم الأول إلا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملتهم، وذلك أيسرُ ما يكون عليهم، بعد تمكن الجامعة الدينية بينهم، فأي موجبٍ لل Yasas و أي داعٍ للقنوط وبين أيديهم كتاب الله الناطق بأن اليأس من أوصاف الضالين، وهل توجد واسطة بين الرشد والغي ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾؟ هل يكون للقانطين فيهم من عذر؟ أيرضون بالعبودية للأجانب بعد تلك السيادة العليا، ماذا يبتغون من الحياة إن كانت في ذلٍ وإهانة وفقر وفاقة وشقاء دائم بيد عدو غاشم؟ أيمطمئنون وهم بين أجنبي حاكم، وبغيض شامت، ومقبح غبي، ومشنع دني، ومعير خسيس، يرمونهم بضعف العقول ونقص الاستعداد، ويحكمون بأن مُحَالاً عليهم أن يصيروا أمة في عداد الأمم؟ ألم ينسلخ الإنسان عن كل خاصة إنسانية؟ كيف يرضى بحياة مكتنفة بكل هذه التعاسات والمكررات؟ أينسون أنهم كانوا الأعلين في الأرض وما طال على ذلك الزمان، ولا مُحيت التواريخ ولا عفت الآثار، ولا أضحلت بالكلية شوكة المسلمين من وجه الأرض.

إن كان للعامة عذر في الغفلة عما أوجب الله عليهم، فأي عذر يكون للعلماء وهم حفظة الشرع والراسخون في علومه، لم لا يسعون في توحيد متفرق المسلمين؟ لم لا يبذلون الجهد في جمع شملهم؟ لم لا يُفرغون الوسع لإصلاح ما فسد من ذات بينهم؟ لم لا يأتون على ما في الطاقة لتنمية آمال المسلمين، وتذكيرهم بوعود الله التي لا تختلف ملْصدق في طاعته واليقين به، وتبشيرهم بهبوب روح الله على أرواحهم؟

بلى، إن قوماً شرح الله صدرهم للإيمان قاموا بهذا الأمر في موقع مختلف من الأرض، يجمع التواصل بينها عقدة واحدة، إلا أن أملنا في بقية المسلمين أن يتلقوا معهم ويقوموا بتعزيزهم، ليتمكن الجميع من نصر الله ﴿إِن تَنْصُرُوا الله يَنْصُرْكُمْ وَيُبَيِّنَ لَكُمْ أَنَّا دَامَكُمْ﴾.

الفصل الثاني عشر

رجال الدولة وبطانة الملك وكيف يجب أن يكونوا؟

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَحِذُّو بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُولًا مَا عِنْتُمْ قَدْ بَدَّتِ الْبُغْضَاءُ مِنْ أَقْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرٌ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

قالوا: تُصان البلاد ويحرس الملك بالبروج المشيدة، والقلاع المنيعة، والجيوش العاملة، والأهُب الوافرة، والأسلحة الجيدة، قلنا: نعم، هي أحرازٌ وآلاتٌ لا بد منها للعمل فيما يقي البلاد، ولكنها لا تعمل بنفسها، ولا تحرس بذاتها، فلا صيانة بها ولا حراسة إلا أن يتناول أعمالها رجالٌ ذوو خبرة، وأولو رأي وحكمة، يتبعهونها بالإصلاح زمن السلم، ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب.

وليس بكافٍ حتى يكون رجالٌ من ذوي التدبير والحزم وأصحاب الحدق والدراءة يقومون على سائر شئون المملكة، يوطئون طريق الأمن، ويبيطئون بساط الراحة، ويرفعون بناء الملك على قواعد العدل، ويُوقفون الرعية عند حدود الشريعة، ثم يُراقبون روابط المملكة مع سائر المالك الأجنبية ليحفظوا لها المزلة التي تليق بها بيتهما، بل يحملوها على أجحنة السياسة القوية إلى أسمى مكانةٍ تمكن لها.

ولن يكونوا أهلاً للقيام على هذه الشئون الرفيعة حتى تكون قلوبهم فائضةً بمحبة البلاد، طافحة بالرحمة والشفقة على سُكَّانها، وحتى تكون الحمية ضاربة في نفوسهم آخذةً بطبعهم، يجدون في أنفسهم منبهًا على ما يجب عليهم، وزاجراً عما لا

يليق بهم، وغضاضةً وألماً موجعاً عندما يمس مصلحة الدولة ضرر، ويوجس عليها من خطر، ليتيسر لهم بهذا الإحساس وتلك الصفات أن يُؤْدُوا أعمالاً وظائفهم كما ينبغي، ويصونوها من الخلل الذي ربما يُفضي قليلاً إلى فسادٍ كبير في الملك، فهوئاء الرجال بهذه الخلل هم المنعة الواقعية والقوة الغالبة.

يسهل على حاكم في أي قبيل أن يكتب الكتائب ويجمع الجنود ويوفر العدد من كل نوع بفقد النقود وبذل النفقات، ولكن من أين يصيب بطانةً من أولئك الذين أشرنا إليهم: عقلاً رحماء، وأبأةً أسفياء، تهمهم حاجات الملك كما تهمهم ضرورات حياتهم؟ لا بد أن يتبع في هذا الأمر الخطير قانون الفطرة، ويراعي ناموس الطبيعة؛ فإن متابعة هذا الناموس تحفظ الفكر من الخطأ وتكشف له خفيات الدقائق، وقلما يخطئ في رأيه أو يتاؤد في عمله من أخذ به دليلاً، وجعل له من هديه مرشدًا، وإذا نظر العاقل في أنواع الخطأ التي وقعت في العالم الإنساني من كلية وجزئية وطلب أسبابها؛ لا يجد لها من علة سوى الميل عن قانون الفطرة، والانحراف عن سنة الله في خلقه.

من أحكام هذا الناموس الثابت أن الشفقة والرحمة والحمية والنعرة على الملك والرعية؛ إنما تكون لمن له في الأمة أصلٌ راسخٌ ووسيط يشد صلته بها، هذه فطرة فطر الله النّاس عليها، إن الملتحم مع الأمة بعلاقة الجنس أو المشرب يراعي نسبته إليها ونسبتها إليه، ويراهما لا تخرج عن سائر نسبة الخاصة به، فيدافع الضيم عن الداخلين معه في تلك النسبة دفاعه عن حوزته وحريمه (راجع رأيك فيما تشهده كثيراً حتى بين العامة عندما يرمي أحدهم أهل البلد الآخر أو دينه بسوء على وجه عام، كஸوري ينتقد المصريين أو مصري ينتقد السوريين)، هذا إلى ما يعلمه كل واحدٍ من الأمة أن ما تناله أمهته من الفوائد يلحقه حظ منها، وما يصيبها من الأذاء يصيبه سهمٌ منه، خصوصاً إن كان بيده هاماتٌ أمورها وفي قبضته زمامُ التصرف فيها؛ فإن حظه من المنفعة أوفٌ ومصبيته بالضرة أعظم، وسهمه من العار الذي يلحق الأمة أكبر، فيكون اهتمامه بشئون الأمة التي هو منها وحرصه على سلامتها بمقدار ما يؤمله من المنفعة أو يخشأه من المضرة.

فعلٌ ولِيُّ الأمر في الدولة أن لا يكل شيئاً من عمله إلا إلى أحد رجلين: إما رجل يتصل به في جنسية سالمة من الضعف والتمزق موقرة في نفوس المنتظمين فيها، محترمة في قلوبهم، يحملهم توقيرها واحترامها على التفاني في وقايتها من كل شين يدنو منها، ولم توهن روابطها اختلافات المشارب والأديان، وإما رجل يجتمع معه في دين قامت جامعته

مقام الجنسية، بل فاقت منزلته من القلوب منزلتها، كالدين الإسلامي الذي حل عند المسلمين – وإن اختلفت شعوبهم – محل كل رابطة نسبية، فإن كلاً من الجامعتين – الجنسية على النحو السابق والدينية – مبدآن للحمية على الملك ومنشأن للغيرة عليه.

أما الأجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطته مقام الجنس، فمثلهم في المملكة كمثل الأجير في بناء بيت، لا يهمه إلا استيفاء أجرته، ثم لا يبالي أسلام البيت أو جرفه السيل أو دكّته الزلزال، هذا إذا صدقوا في أعمالهم يؤدون منها بمقدار ما يأخذون من الأجر، واقفين فيها عند الرسم الظاهر، فإن الواحد منهم لا يشرف بشرف الأمة الذي هو خادم فيها ولا يمسه شيءٌ مما يمسها من الضعة؛ لأنَّه منفصل عنها، إذا فقد العيش فيها فارقها وارتدى إلى منبته الذي ينتسب إليه، بل هو في حال عمله وخدمته لغير جنسه لاصق بمنبته في جميع شئونه ما عدا الأجر الذي يأخذة. وهذا معلوم ببداهة العقل فلا يجد في طبيعته ولا في خواطر قلبه ما يبيعه على الحذر الشديد مما يفسد الملك أو الحرث الزائد على ما يعلي شأنه، بل لا يجد باعثاً يبيعه على الفكر فيما يقوم مصلحته من أي وجه، هذه حالهم هي لهم بمقتضى الطبيعة لو فرضنا صدقهم وبراءتهم من أغراضٍ أخرى، فما ظنك بالأجانب لو كانوا نازحين من بلادهم فراراً من الفقر والفاقة وضربوا في أرض غيرهم طلباً للعيش من أي طريق، وسواء عليهم في تحصيله صدقوا أو كذبوا، وسواء وفوا أو قصروا، وسواء رأعوا الذمة أو خانوا، أو لو كانوا مع هذا كله يخدمون مقاصد لأممهم يمهدون لها طرق الولاية والسيادة على الأقطار التي يتولون الوظائف فيها – كما هو حال الأجانب في المملكة الإسلامية، لا يجدون في أنفسهم حاملاً على الصدق والأمانة، ولكن يجدون منها الباعث على الغش والخيانة.^١ ومن تتبع التواريix التي تمثل أحوال الأمم الماضية وتحكى لنا عن سنة الله في خليقته وتصرifice لشئون عباده؛ رأى أن الدول في نموها وبسطتها ما كانت مصونة إلا ببرجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم، وما كان شيءٌ من أعمالها بيد أجنبي عنها، وأن تلك الدول ما انخفضت مكانها ولا سقطت في هوة الانحطاط إلا عند دخول العنصر الأجنبي فيها، وارتقاء الغرباء إلى الوظائف السامية في

^١ يقصد الأفغاني في مهاجمته العنيفة هنا، بعض الأجانب الذي أساءوا إلى البلاد التي آو挺هم. وبدهي أن هجومه لا ينطبق اليوم على الأجانب الذين يحترمون تقاليد البلاد.

أعمالها؛ فإن ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار، خصوصاً إذا كان بين الغرباء وبين الدولة التي يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مُزجت بها دمائهم، وعُجنت بها طينتهم من أزمان طويلة.

نعم، كما يحصل الفساد في بعض الأخلاق والسمجايا الطبيعية لسبب العوارض الخارجية؛ كذلك يحصل الضعف والفتور في حمية أبناء الدين والأمة، ويطرأ النقص على شفقتهم ومرحمتهم، فينقص بذلك اهتمام العظام منهم بمصالح الملك إذا كان ولـيُ الأمر لا يقدر أعمالهم حق قدرها، وفي هذه الحالة يقدمون منافعهم الخاصة على فرائضهم العامة، فيقع الخل في نظام الأمة ويضرب الفساد، ولكن ما يكون من ضره أخف وأقرب إلى التلادي من الضرر الذي يكون سببه استلام الأجانب لهامات الأمور في البلاد؛ لأن صاحب اللحمة في الأمة وإن مرضتُ أخلاقه واعتلتُ صفاته إلا أن ما أودعته الفطرة وثبت في الجبلة، لا يمكن محـوـه بالكلية، فإذا أساء في عمله مرة أزعجه من نفسه صائـحـ الوشـيـحةـ الـديـنـيـةـ أوـ الـجـنـسـيـةـ، فيـرـجـعـ إـلـىـ الإـحـسـانـ مـرـةـ أـخـرـىـ، وإنـ ماـ شـدـ بالـقـلـبـ منـ عـلـائـقـ الـدـيـنـ أوـ الـجـنـسـ لاـ يـزالـ يـجـذـبـهـ آـوـنـةـ بـعـدـ آـوـنـةـ لـرـاعـاتـهـ وـالـالـلـفـاتـ إـلـيـهاـ، وـيـمـيلـهـ إـلـىـ الـمـتـصـلـينـ مـعـهـ بـتـكـ الـعـلـائـقـ وـإـنـ بـعـدـواـ.

لهـذاـ يـحقـ لـنـاـ أـنـ نـأـسـفـ غـاـيـةـ الـأـسـفـ عـلـىـ أـمـرـاءـ الشـرـقـ، وـأـخـصـ مـنـ بـيـنـهـمـ أـمـرـاءـ الـمـسـلـمـينـ، حـيـثـ سـلـمـواـ أـمـرـهـمـ وـوـكـلـواـ أـعـمـالـهـمـ؛ مـنـ كـتـابـةـ وـإـدـارـةـ وـحـمـاـيـةـ؛ لـلـأـجـانـبـ عـنـهـمـ، بـلـ زـادـواـ فـيـ مـوـالـةـ الـغـرـبـاءـ وـالـثـقـةـ بـهـمـ حـتـىـ وـلـوـهـمـ خـدـمـتـهـمـ بـهـمـ فـيـ بـطـوـنـ بـيـوـتـهـمـ، بـلـ كـادـواـ يـتـنـازـلـوـنـ لـهـمـ عـنـ مـلـكـيـتـهـمـ فـيـ مـمـالـكـهـمـ، بـعـدـمـ رـأـواـ كـثـرـةـ المـطـامـعـ فـيـهـمـ لـهـذـاـ الزـمـانـ، وـأـحـسـوـاـ بـالـضـغـائـنـ وـالـأـحـقـادـ الـمـوـرـوـثـةـ مـنـ أـجـيـالـ بـعـيـدةـ، وـبـعـدـمـ عـلـمـتـهـمـ التـجـارـبـ أـنـهـمـ إـذـ اـتـمـنـوـاـ خـانـوـاـ، إـذـ عـزـزـوـاـ أـهـانـوـاـ، يـقـابـلـوـنـ إـلـىـ الإـحـسـانـ بـالـإـسـاءـةـ وـالـتـوـقـيرـ بـالـتـحـقـيـقـ، وـالـنـعـمـةـ بـالـكـفـرـانـ، وـيـجـازـوـنـ عـلـىـ الـلـقـمـةـ بـالـلـطـمـةـ، وـالـرـكـونـ إـلـيـهـمـ بـالـجـفـوةـ، وـالـصـلـةـ بـالـقـطـيـعـةـ، وـالـثـقـةـ فـيـهـمـ بـالـخـدـعـةـ.

أـمـاـ آـنـ لـأـمـرـاءـ الشـرـقـ أـنـ يـدـيـنـوـاـ لـأـحـكـامـ اللهـ الـتـيـ لـاـ تـنـقـضـ؟ أـلـمـ يـأـنـ لـهـمـ أـنـ يـرـجـعـوـاـ إـلـىـ حـسـهـمـ وـوـجـدـانـهـمـ؟ أـلـمـ يـأـتـ وـقـتـ يـعـلـمـوـنـ فـيـهـاـ بـمـاـ أـرـشـدـتـهـمـ الـحـوـادـثـ وـدـلـلـهـمـ عـلـيـهـ الرـزـيـاـ وـالـمـصـائـبـ؟ أـلـمـ يـحـنـ لـهـمـ أـنـ يـكـفـوـاـ عـنـ تـخـرـيـبـ بـيـوـتـهـمـ بـأـيـدـيـهـمـ وـأـيـدـيـهـمـ؟ أـلـاـ يـأـيـهـاـ الـأـمـرـاءـ الـعـظـامـ، مـاـ لـكـمـ وـلـلـأـجـانـبـ عـنـكـمـ، هـاـ أـنـتـمـ تـحـبـوـنـهـمـ وـلـاـ يـحـبـوـنـكـمـ، قـدـ عـلـمـتـ شـائـهـمـ وـلـمـ تـبـقـ رـيـةـ فـيـ أـمـرـهـمـ **إـنـ تـمـسـسـكـمـ حـسـنـةـ سـوـهـمـ وـإـنـ تـصـبـكـمـ سـيـئـةـ يـفـرـحـوـنـ بـهـاـ**، سـارـعـوـنـ إـلـىـ أـبـنـاءـ أـوـطـانـكـمـ وـإـخـوـانـ دـيـنـكـمـ، وـأـقـبـلـوـنـ عـلـيـهـمـ بـبـعـضـ ماـ

تُقبلون به على غيرهم؛ تجدوا فيهم خير عون وأفضل نصير، اتبعوا سُنَّةَ اللَّهِ فِيمَا أَلْهَمَكُمْ وَفَطَرَكُمْ عَلَيْهِ كَمَا فَطَرَ النَّاسَ أَجْمَعِينَ، وَرَاعُوا حِكْمَتَهُ الْبَالِغَةَ فِيمَا أَمْرَكُمْ وَمَا نَهَاكُمْ؛ كَيْ لَا تَضْلُّوا وَيَهُوَ بِكُمُ الْخَطْلُ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ، أَلَمْ تَرُوا، أَلَمْ تَعْلَمُوا، أَلَمْ تَحْسُوا، أَلَمْ تَجْرِبُوا، إِلَى مَتَى؟ إِلَى مَتَى؟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

الفصل الثالث عشر

كم حكمة الله في حب المحمدة الحقة

العالم الإنساني كتاب المعتبر، وسفر المستبصر، وكل قرن من قرونها صفة، وكل جيل من الناس سطر فيه أو جملة، ولنا في كل ما خطه القلم الإلهي عبرة.

أول ما يفيينا النظر فيه وقوفنا على أحوال الشعوب في أطوارها المختلفة، وأدوارها المتبدلة، فترى أممًا علت وسمت وحلقت في جو المuali وجازت في الرفعة مساح النظر، ثم انحدرت بعد هذا وتدهرت وعفت رسومها، ولم يبق لها أثر إلا في الروايات والأحاديث، ومنها أجيالٌ كانت في ثني العدم ثم اكتسست حلية الوجود، واتخذت من الاجتماع الإنساني مكان الهمامة من الجسد، ثم انطوت وأختن عليها أمهات قشעם، ومنها ما نراه اليوم يسحب مطارف العزة، ويشرف على العالم بالأمر والنهي من شواهق القوة.

فمن الناس من تجلى له هذه الشئون وتلك الأطوار كما تعرض عليه التمايل ينبعط لبعضها إذا أعجبه، وينقبض للأخر إذا أنكره، وهو في غفلة عن منشأ ظهورها وعلل انقلابها، فإن سُئل عن السبب قال: سبحان الله! هكذا كان وهكذا يكون، وما هو إلا بخت يسعد فيسعد به السعداء، وينحس فيتعس به الأشقياء.

ومنهم من تنفذ بصيرته إلى الحقيقة، فيقف على ما هيأه الله من الأسباب التي تتبعها أحوال الأمم في صعودها وهبوطها، ويعلم أن ما سيق من الخير لأمة إنما كان بأيدي أحد من أمثالها جدوا وجهدوا، وبما بذلوا من نفائسهم وأنفسهم فازوا بتأصيل المجد لشعوبهم وبني جنسهم، ويرى لأولئك الأعلام ذكرًا يرفع ومكانة من القلوب تحمد،

وتميّزاً عند الخلف بالكرامة، وهم لم يُخالفوا النّاس في جُسومهم ودمائهم، وإنما تقدموهم بهمّهم، وقد يسوقه الاعتبار إلى الاقتداء بهم رغبةً في اقتطاف ثمار الثناء وتخليل الذكر، فإذا أخذ مأخذهم، واستقام على طريقهم فلا يكاد يخطو بعض خطوات ومبأ المسير تحت نظره، حتى تتعثر أقدامه في أيادٍ مقطعة، ورعوس مجدوذة، وأشلاء مبددة، وشعور منثورة، وصدور مدقوقة، ويشهد الطريق مضرسة بقبور الشهداء، من طلاب الحق والناهجين في منهاجه، ولا محيسن عن سلوكها، وتبدو له غاباتُ وأدغالُ يرجع إليها منها صدى زئير الأسد وزمرة الضراغم، ولا بد له من اختراقها.

هكذا تتكشف لطلاب المعالي موحشات مدهشات مصاولة المخاطر أدنها، والموت الشريف أقصاها وأعلاها، فتارة يخور عزمه ويضعف همه فينكص على عقيبه، ويرتد إلى أسوأ حاليه، ويرتع في مراتع أمثاله، حتى يروح إلى عطنه الأولى به وهو العدم، وتارة يوحى إليه الإلهام الإلهي أن الشخص في خاصته والأمم في هيئتها ونوع الإنسان في مجموعة، تطالبها صورة الإبداع بأعمال شريفة دونها إجهاد الأنفس في السعي، وحملها على ما لا تهوى، ومغالبة الأهوال والغوائل، وفيما أودع الله الإنسان من القوى العالية، والخواص السامية، أكبر مساعد على ما تندفع إليه الهمة، وتبعث له العزيمة.

إن من أحياه الله بالحياة الإنسانية كلما هاجمته المصاعب لا يزداد إلا حرصاً على قهرها، كما أن صاحب الشم لا يزيده الخصم إلا حدة في الجدال، وإصراراً على إقناع المخاصم، وكثيرٌ من على شكل الإنسان يحيا حياته هذه بروح حيوانٍ آخر، وهو يعاني فيها من الشقاء أشدَّ مما يعانيه الإنسان في إبراز مزايا الإنسان.

إن صاعد الجبل ربما يَحْدُّ شيئاً من التعب ويخشى مفترسة الكواسر، ولكن قد ينجو منها ويستريح على القنة، ويعتصم بمكانه من الرفعة، وتقصر عنده يد المتناول، أما من أخلد إلى أسفل فحظهُ من الحياة خوفُ لا ينقطع، وإشفاقٌ لا يزول، كل لحظة توعده بالسقوط في صيد الصائد، والوقوع بين أنياب الغائل، مات من النّاس كثيرٌ في طلب العلاء ولم ينالوا، وبلغ كثير من المطالبين غاية ما أَمْلُوا، ولكن هلك بالفتك أضعافُ هؤلاء وهؤلاء من رئموا الخمول، ورضوا بالحياة الحيوانية – هذه أحاديثُ الحق ونفثات الروح الزكية تبعث من أيده الله ووهبه نعمة العقل إلى مداومة السير واقتفاء أثر الماضين إلى أشرف المقادس، فإنما وصل وإنما مات كما يموت الكرام.

لم تتن أُمّةٌ من الأمم مزية من المزايا المحمودة عند بني البشر، سواء في العلوم والمعارف، والآداب والفضائل، أو القوانين والنواوميس العادلة، أو العسكرية وقوة الحماية؛

حتى خرج آحاد منها إلى ما تخشاه **النُّفُوس** وتهابه القلوب، وسلكوا تلك المسالك الوعرة، فبلغوا بأتمهم أقصى ما بلغت بهم هممهم، مع الاعتماد على العناية الأزلية في جميع سيرهم.

ماذا يريد القانون في خدمة الأمم أو النوع الإنساني، والمنفقون لحياتهم في أعمال فادحة يعود نفعها على من تجمعه معهم جامعة الأمة أو **المَلَة** أو يشاركونهم في النوع؟ أليس قد جعل الله لكل شيء سبباً؟ أليس من سُنة الله في عباده أن لا تتجه الإرادة البشرية إلى حركة تصدر عن المرید إلا بعد تصوّر غاية تعود إلى ذاته، وبعد اليقين أو راجح الظن بأنه يستفيد الغاية من العمل؟ فإن كل الأجل يذهب في مساورة الآلام الروحية، والعمر ينفد في مناهدة الأوصاب البدنية، فماذا يقصدون من أعمالهم؟ إن كان يوجد في أبناء جلدتهم، وذوي ملتهم، من يُساعد حوادث الكون إلى إيلامهم، وهمانعهم في مقاصدهم، وصدهم عن السعي فيما يرجع خيره إلى أنفس المعارضين، ويُثخن فيهم جراح اللوم والتقرير والشماتة والتشنيع، أو يدفعهم باللماحة والمنازلة، فما الذي يتغون من جدهم وكدهم؟ لا لذة تجتنى، ولا ألم يُتَّقَى، فما هذا الباущ القوي الذي غلب الأهواء، ولم يضعفه جهد البلاء؟

نعم، أودع الله في الإنسان ميلاً أقوى من كل ميل، وهو أَخْصُ خاصية فيه يمتاز بها عن غيره من الأنواع، وهو (حُبُّ المحمدة الحقة وحُسْن الذكر من وجوه الحق)، أقول هذا تفادياً من حب المحمدة من أي وجه، حَقّاً كان أو باطلًا، وطلب الثناء بالزور والغش والرياء، والظهور بمظاهر الأخيار، مع تبَطُّن سرائر الأشرار، فإن هذا من أسوأ الخلال، وإنما يعرض بعد اعتلال الفطرة وفساد الطبيعة.

المحمدة هي الغذاء الروحاني، والقوم **النَّفَسَانِي**، وكلما قرب الشخص من الكمال الإنساني تَهَوَّن بالشهوات أو ازدرى باللذائذ الحسية، وقوى فيه الميل إلى المحمدة الباقية، وبذل الوسع فيما يفيدها من جلائل الأعمال، تأمل، إن الفاضل يرى له في هذا العالم أَجَلَّين، أَقْصَرُهُما الأَجْلُ المحدود من يوم ولادته إلى نهاية العمر المقدر، والآخر أَبْعَدُ من هذا نهاية، وبدايتها عندما ينجم من عمله الصالح أَثْرٌ لمنفعة تشمل أمته أو تعم النوع الإنساني، وغاية هذا الأجل عندما يمحى أثره من **أَواح النُّفُوس** وصفحات التاريخ، فللروح الفاضلة وجودان: وجود في بدنها الخاص، ووجود في جميع الأبدان، وهو ما يكون بحلولها من كل روح محل الكراهة والتوجيل، ولا ريب أن هذا الأجل الطويل، وهذا

الوجود العريض؛ خيرٌ من ذاك الأجل القصير، وذاك الوجود الكز،^١ وحقيقةً بالإنسان أن
يبيع ما هو أدنى بالذى هو خير.

يطول بي الكلام فأقصر، إن الله الذي وهب كل نوع ما به كماله، وضع في جيلَةِ
البشر ميلاً إلى الحمد، وألهمهم تأدبة حقه لستحقة، ألم تر انطلاق الألسن في كل أمة
بالثناء على كل من كان سبباً لها في مجد ورفة، أو نهوض من سقطة، أو توحيد كلمة،
أو تجديد قوة، أو كمال في فضيلة، أو تقدم في علم أو صنعة، ويرسمونه في الألواح،
ويسجلون مدحه في بطون التواريخ، ويرفعون له الهياكل والتماثيل، ويحفظون له ذكرًا
حميًّا يتناقلهُ الأبناء عن الآباء، حتى ينقرضوا وينقرض العالم.

إذا جدت الأمة حق العالم لها، أو قصرت في استحسان عمله، ضعفت الهمم، وقل
السعى في المصالح العامة، وانقضت الأيدي عن تعاطيها، فهبطت شؤون الأمة، فافترقت
وماتت.

إن الله — جل شأنه — قرن كل حادث بسبب، فإذا استوى لدى الأمة الحسن
والقبيح، والطيب والخبيث، والفضيلة والرذيلة، والمصلحة والمفسدة، وفقد منها التمييز،
ولم تقدّرْ أعمالُ العاملين حَقَّ قدرها، ولم تعرف معروفاً، ولم تنكر منكراً، سلبت آثارها
الميل إلى المعالي والكمالات، وكان هذا أشدّ نكা�ية بها من جور الظالمين، وتغلب الغالبين.
وظلم الظالم لا يدوم، وسطوة الغالب لا تثبت، إذا كان جمهور الأمة يقابل الإحسان
بالاعتراف، والفضل بالحمد، فإنه يوجد منها من يشتري هذه المكافأة بتخلصها وإنقاذها،
وأما فقد هذا الإحساس الشريف، فهو أشبه علة بالهرم، لا عقبى له إلا الموت والهلاك.

كيف لا تكون الحمدُ الحَقَّةُ نعمةً على النُّفوس الإنسانية، يسعى لها الأعلون من
بني الإنسان، وقد امتن الله بها على نبيه فيما يقول له: ﴿وَرَفَعْنَا إِلَكَ ذِكْرَكَ﴾، وكيف
لا تكون حَقًّا تطالب به الطبيعة، وقد سمح الله لستحقها بالتحدث بنعم الأعمال
الصالحت، كما سوغ ذلك لنبيه في قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدَّثْ﴾.

قلْب طرفك في تواريخ الأمم، أقصاها وأدناها، تجدُ برهاناً قاطعاً على أن الأمة متى
بخست قيم الأعمال العالية، وازدرى فيها بشأن الفضيلة؛ فقدت ما به قوامها، وانهدم
بناؤها، وذهبت كما ذهب أمس، ولا جرم أن الكفران مقرون بزوال النعم.

^١ الكز: اليابس والنقبض، والمراد هنا: ما لا خير فيه.

يمكنني أن أختتم كلامي هذا بكلمة شكر لهذه العصابة الطاولة التي أقدمت في هذه الآونة النحسة، ووقفت على شفير الخطر، وكتبت على نفسها السعي في توحيد المسلمين، ويسرُّنا أنا نرى عددها كل يوم في ازدياد، نسأل الله نجاح أعمالها وتأييد مقاصدها، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الفصل الرابع عشر

الشرف

كلمة يهتف بها أقوام مختلفة من الناس، إلا أن أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون، فئة ترى الشرف في تشييد القصور، والتعالي في البناء، وزخرفة الحوائط والجدران، ووفرة الخدم والحشم، واقتناء الجياد، وركوب العربات، وفئة أخرى تتوجه أن الشرف في لبس الفاخر من الثياب، والتزيين بألوان الألبسة وأنواعها، والتحلي بحلي الجوادر الثمينة، مرصعة بالأحجار الكريمة، كالألاس والياقوت والزمرد ونحوها.

وفئة تتخيل الشرف في الألقاب والرتب كالبيك والباشا، أو في الوسامات المعروفة بالنباشين وعلو أسمائها كالأول من الصنف الفلاني، والثاني من الدرجة الفلانية، حتى إنك ترى الرجل يسلب مال أخيه، وينهب ثروة أقاربه وذويه، أو بني ملته ومواطنه، ليشيد بما يصيب من السحت قصراً، ويرفع بناءً، ويزخرف بيته، ويقيم له حراساً من المالك، وخفراء من الغلمان، ويظن بذلك أنه نال مجدًا وفخاراً سرمدياً، وصح لحاله أن يعنون بعنوان الشرف.

وتجد الآخر يذهب في الكسب أشنع مما يذهب الأول ليكتسي برفيع الثياب، ويتنزين بأجمل الحلي، أو ليكون له من ذلك ما يفخر به أمثاله، ويتخيل أنه بلغ به درجة من الرفعة لا يُداني فيها، ويعبر عن حاله هذا بلفظ الشرف، ويتوهم أنه وصل الحقيقة من معناه.

ومنهم ثالث يسهر ليله ويقطع نهاره، بالتفكير في وسيلة ينال بها لقباً من تلك الألقاب، أو يحصل بها وساماً أو يستفيد وشاًحاً، وسواء عنده الوسائل يطلبها أياً كان

نوعها، وإن أفضت إلى خراب بلاده، أو تزليل أمته، أو تمزيق ملته، وعنده أنه رقى الذروة من معنى الشرف.

نحن نرى هذه الأوهام قائمةً مقام الحقائق في أذهان كثير من الناس، ولكن لا نظنها طمست عين الحق فيهم، حتى عمّوا عن إدراك أخطائهم وانحرافهم عن الصواب في وهمهم. ماذا يجد من نفسه المباهي بقصوره، وولدانه وحوره؟ ألا يحس من نفسه أنه وإن حاز منها على أعلى ما يتصوره العقل، فذاته التي هي أعز لديه من جميع ما كسب لم تستفْدْ شيئاً من الكمال، وأن جميع ما حصله فهو أجنبٌ عنه، وليس له نسبة إلا نسبة العنااء في تحصيله؟ ألا يرى أن كثيراً من بلغ مبلغه أو فاقه، سلبتهم صروف الدّهْر ما بآيديهم، فأصبحوا بصفاتهم وجواهر ذاتهم، فإن لم تكن على جانب من الكمال الإنساني انخرطت في سلك الطبقات السافلة، ولم يبق لهم في القلوب منزلة ولا في النُّفُوس مكانة.

ماذا يشعر به المفاحر بحليه ولباسه إذا تجرد منه وخلى بنفسه إن لم يكن لذاته حلية من الفضيلة وزينة من الكمال، ألا يكون هو وعراة الفقراء سواء؟ أولاً يجد من سره عند المفاحرة أنه يجول مع الغانيات وربات الخدور، في ميدان واحد؟ ماذا يتصور الراهي برتبته، المعجب بوسامه، إن لم يكن قبل وسمته أو الصعود لرتبته، على حال تجل، أو كمال يبجل، أليس يشعر أنه لو سلب الوسام، أو نزع عنه الوشاح، يعود إلى منزلته من الاحتقار؟ فإن نال الكرامة عند بعض السُّلَّاج واللقب معلق عليه، أليس ذلك تعظيمًا للقب لا للملقب به، ألا تكون هذه الكرامة عارضاً سريعاً الزوال، بل رسمًا ظاهراً لا يمس بواطن القلوب؟

نعم، لهذه الألقاب الشريفة شأنٌ يرتفع به النظر إذا سُبق بعمل يعترف عمومُ العالم بشرفه، وكان اللقب دليلاً عليه أو مشيراً إليه، كما يكون لثلثها حالٌ يسقط به الاعتبار إذا تقدمها فعلة يمقتها العقلاة من النوع البشري، وكان الوسام أو اللقب عنواناً على ما اقترف كاسبه، وعلامة على ما اجترم.

انظر وتَدَبَّرْ ولا تخطئ، فما أنت من الصواب ببعيدٍ، إن عثمان الغازي الذي لقبه أعداؤه بأسد «بلاونه» نال رتبة ومنح لقباً، وحظي بمكانة رفيعة بين الطبقة العليا من العظاماء في دولته، بعدهما دفع بروحه للموت في المدافعة عن ملته، وجاحد في إعلاء كلمة دينه، بما شهد له الأداء والأصدقاء.

وإن بعض الأمراء في دار إسلامية علقت عليهم ألقابٌ شريفة من دولة كدولة الإنجليز جزاءً لهم على ما تقدموا أمام جيوش أعدائهم، لافتتاح بلادهم، حتى مكروا الإنجليز من

ديارهم، وجميع المسلمين الآن يكابدون الجهد في إيجاد الوسائل لخروجهم منها ... أين موقع النيشان من صدر عثمان الغازي من موقعه على صدور أولئك المخدوعين، أظن رجع النظر بين الموقعين يثبت لك أن النيشان يشرف بشرف العمل الذي جعل دليلاً عليه ويسقط بسقوطه.

ماذا غرّ أولئك الواهمين على اختلافهم، ألا يعلمون أن الثياب المعلمة بالدم، الموشأة بالنجع، الملوونة بالمهج، هي التي حفظت للايسيرها ذكرًا حسناً لا ينقطع، وأثراً مجيداً لا يمحى، إن الذين ضرموا بدمائهم في طلب المجد للهـم هـم الذين خشعت لذكرهم الأصوات، وأجمعت على فضلهم خواطـر القلوب.

الـم يصل إليـهم أـن الذين قـضوا نـحبـهم في غـيـابـاتـ الـجـبـ، وـانتـهـتـ حـيـاتـهـمـ فيـ ظـلـمـاتـ السـجـنـ، لـطـلـبـ حـقـ مـسـلـوبـ أـوـ حـفـظـ مـجـدـ مـوـجـودـ؛ هـمـ الـذـيـنـ سـماـ ذـكـرـهـمـ إـلـىـ شـرـفـ الـشـمـسـ الـأـعـلـىـ، وـعـلـتـ أـسـمـأـهـمـ عـلـىـ جـمـيـعـ الـأـسـمـاءـ، أـظـنـ أـنـ الـذـيـنـ كـانـوـاـ فيـ الـغـرـفـاتـ الـعـالـيـةـ يـنـظـرـوـنـ إـلـىـ جـاتـهـمـ وـحـدـائـهـمـ، وـيـشـرـفـوـنـ عـلـىـ النـاسـ مـنـ شـرـفـاتـ قـصـورـهـمـ، وـقـصـرـواـ حـيـاتـهـمـ عـلـىـ التـمـتـعـ بـمـاـ نـالـوـاـ؛ لـمـ يـبـقـ لـهـمـ ذـكـرـ وـلـمـ يـكـنـ لـهـمـ شـأـنـ، إـلـاـ ماـ هوـ مـحـصـوـرـ فيـ دـوـائـرـ بـيـوـتـهـمـ.

وـلـاـ يـخـتـالـ عـنـهـمـ أـولـئـكـ الـذـيـنـ كـانـوـاـ يـسـبـحـوـنـ مـطـارـفـ الرـفـهـ، وـيـكـسـبـوـنـ حـلـ الـخـرـ والـدـيـبـاجـ، ذـهـبـواـ وـذـهـبـتـ مـعـهـمـ أـكـسـيـتـهـمـ، فـارـتـدـوـاـ مـنـ حـيـثـ أـتـوـاـ لـاـ يـعـلـمـ مـتـىـ جـاءـوـاـ إـلـىـ الـدـنـيـاـ، وـمـتـىـ اـنـكـشـفـوـاـ عـنـهـاـ.

هل سمعنا أـنـ أحـدـاـ يـذـكـرـ بـيـنـ بـنـيـ الـبـشـرـ بـأـنـهـ نـالـ نـيـشـانـ كـذـاـ وـحـصـلـ رـتـبةـ كـذـاـ؟
نعم، يـقـولـونـ: عـلـمـ وـعـلـمـ، وـأـعـطـيـ وـبـنـلـ، وـرـفـعـ وـوـضـعـ، وـجـاهـدـ وـكـافـحـ، وـأـبـادـ وـأـبـقـيـ، وـماـ يـشـاـكـلـ ذـلـكـ مـنـ الـأـعـمـالـ الـتـيـ لـهـ أـتـرـ ثـابـتـ، إـذـاـ ذـكـرـ الإـسـكـنـدـرـ الـأـكـبـرـ هـلـ يـخـطـرـ بـالـبـالـ، إـنـ كـانـ لـهـ قـصـرـ أـوـ لـاـ؟ أـيـ أـبـلـهـ يـطـلـبـ سـيـرـةـ نـابـلـيـوـنـ الـأـوـلـ فيـ آـثـارـ قـصـرـ كـانـ يـسـكـنـهـ، أـوـ فيـ خـرـقـ ثـيـابـ كـانـ يـلـبـسـهـاـ؟ وـهـلـ بـلـغـ عـظـمـاءـ الـعـالـمـ مـاـ بـلـغـوـاـ مـنـ مـقـامـاتـ الـشـرـفـ بـعـدـمـ شـيـدـواـ وـزـيـنـواـ وـتـرـفـهـواـ وـتـنـعـمـواـ، أـمـ كـانـ جـمـيـعـ مـاـ يـنـالـوـنـ مـنـ ذـلـكـ بـعـدـ أـنـ يـسـودـواـ وـيـفـتـحـوـاـ وـيـغـلـبـوـاـ وـيـأـخـذـوـاـ بـالـنـوـاصـيـ؟

خدع قـومـ بـالـأـحـلـامـ وـغـرـتـهـمـ الـأـوهـامـ، فـفـرـطـواـ فـيـ شـئـوـنـ بـلـادـهـمـ، وـبـاعـوـ مـجـدـهـاـ الشـامـخـ بـتـلـكـ الـأـسـمـاءـ الـتـيـ لـاـ مـسـمـىـ لـهـاـ، وـزـعـمـواـ، وـإـنـ لـمـ تـطاـوـعـهـمـ ضـمـائـرـهـمـ، أـنـهـمـ رـقـواـ مـنـ مـكـانـةـ الـشـرـفـ وـإـنـ كـانـ خـاصـاـ بـهـمـ بـعـدـمـ عـلـمـواـ أـنـ الرـتـبـ وـالـنـيـاشـينـ جـاـوـزـتـ حـدـهـاـ، وـنـالـهـاـ غـيرـ أـهـلـهـاـ، فـلـوـ أـنـهـمـ أـصـغـواـ لـمـ تـحـدـثـهـمـ بـهـ سـرـائـرـهـمـ، وـتـعـنـفـهـمـ بـهـ خـواـطـرـ أـفـئـدـهـمـ،

ورمقوا بأبصارهم ما يحيط بهم؛ لعلموا أنهم في أخس المنازل وأبعد المزاجر، وأدركوا خطأهم في معنى الشرف وجورهم عن جادة الصواب في طلبه، لو أحسوا بما رزت به أوطانهم، وما لصق من الذل والعار بذاريهم، لطروحوا الوضاحات، ونبذوا الوسامات، ولبسوا أنواب الحداد، ونفروا خفافاً وثقالاً لطلب الشرف الحقيقي.

الشرف حقيقةٌ محدودةٌ كشفتها الشرائع، وحدتها عقول الكاملين من البشر، وليس الذي شاكلة إنسانية أن يرتاب في فهمها، إلا منْ ختم الله على قلبه، وجعل على بصره غشاوة.

الشرف بهاء للشخص، يحوم عليه بالأنظار، ويوجه إليه الخواطر والأفكار، وجمال يرproc حسن في البصائر والأبصار، ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه طالبه يكون له أثر حسن في أمته أو بني ملته، أو في النوع الإنساني عامه، كإنقاذٍ من تهلكة، أو كشف لجهالة، أو تنبيه لطلب حق سلب، أو تذكير بمجد سبق، وسُؤدد سلب، أو إنهاض من عثرة، أو إيقاظ من غفلة، أو إرشاد لخير يعم، أو تحذير من شر يغُم، أو تهذيب أخلاق، أو تثقيف عقول، أو جمع كلمة وتتجدد رابطة، أو إعادة قوة وانتشال من ضعف، أو إيقاد حمية، أو حضُو لغيرة.

من أتى عملاً من الأعمال له أثر من هذه الآثار فهو الشريفُ وإن كان يسكن الخصاص والأكواخ، ويلبس الدلوق والأسمال، ويقتات بنبات البر، ويبتت على تُراب الفقر، ويتوسد نشر الأرض، ويضرب في كل واد، ويتردد بين الْرُّبُّي والْوَهَادِ، هذا له حلية من عمله، وزينة من فضله، وبهاءٌ من كماله، وضياءٌ من جده، يهدي إليه ضالة الألباب، وتألهة الأئمَّة، تعرفه المشاعر الحساسة ولا تنكره، وتكتنفه ذرَّاتُ القلوب المتطايرة إليه ولا تنفصل عنه، له من رُوحه قصورٌ شاهقة، وغرفاتٌ شائقه، ومناظرٌ رائقة، وجمال باهر، ونورٌ زاهر، لا يكاد يخفى حتى يظهر، ولا يكاد يُسْتَر حتى يبصَر، إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه إلى أعلى علَيْنِ، حيَاةٌ طيبةٌ في القلوب وعزَّةٌ مشرقةٌ في جبهة الزمان (وَفِي ذَلِكَ فَلَيَتَّافِسُ الْمُتَنَافِسُونَ).

نعم، وقد ينبعث عليه من أرباب الطياع الفاسدة بعض الكرائه، فيسلقونه بالألسنة، ويرشقونه بسهام اللَّوم، ولا ترُوِّق في أنظارهم أزهارُ أعماله، ولا أنوار مزاهره؛ لبعدها عن فهمهم، وغرايتها على حواسهم؛ لما أُلْفُوه من الانكباب على تلك السفاسف الساقطة التي عَدُوها شرفاً، وحسبوها مجدًا، وقد بیناها كما كشفتها الشرائع وأراء العقلاة، وإنما مثلهم مثل الجُعل ينفر من رائحة الورد، ويألف روائح القدر، لا يبعد أن يسخر بالعامل

الفاضل أناس لا أخلاق لهم، أو يقصده بالأضرار من لا ذمة له، ولكنهم بأنفسهم يهزعون، وبمصالحهم يضرون، ولا يطول عليهم الزمان في هذا العمى، بل لا يلبثون إذا بدت الثمرة الشهية أن يهربوا لاقتطافها، ويطعموا من جنابها، ولا يسعهم بعد ذلك إلا الحمد لغارس الشجرة، وحافظ الثمرة، وإن كان دونهم في تلك الزخارف التي لا قيمة لها في نظر العاقل؛ ثم يكون عقابهم على ما فرط منهم ندماً على الخطيئة، وأسفًا على السيئة، وألماً في قلوبهم تهيجه ذكرى ما قاموا من سوء عملهم، وانكشف نقصهم لدى وجداً لهم. هكذا تمنح العناية الإلهية هذه الكرامة لصاحب العمل الشريف ما دام حيًّا، فإذا غابت شمسه عن أفق هذا العالم لم تحجب أشعة ضيائه التي فاضت منه على نجوم هارديات، وبدور منيرات، نعم إنه يموت ويتوارى خلف حجاب العدم بجسمه، ولكنه قائمٌ في الأفئدة، شاهدٌ على الألسنة، حُيُّ يُرزق عند ربه — ونعمت الحياة حياته، ولمثل هذا فليعمل العاملون.

الفصل الخامس عشر

الأمة وسلطة الحكم المستبد

﴿وَمَا ظَلَمُهُمُ اللَّهُ وَلَكُنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

إن الأمة التي ليس لها في شئونها حل ولا عقد، ولا تستشار في مصالحها، ولا أثر لإرادتها في منافعها العمومية، وإنما هي خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون، ومشيته نظام، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، فتلك أمة لا تثبت على حال واحد، ولا ينضبط لها سير، فتعتورها السعادة والشقاء، ويتدالو عليها العلم والجهل، ويتبادل عليها الغنى والفقر، ويتناوبيها العز والذل، وكل ما يعرض عليها من هذه الأحوال — خيرها وشرها — فهوتابع لحال الحاكم، فإن كان حاكُمها عالماً حازماً أصيل الرأي، على الهمة، رفيع المقصود، قويُّ الطبيع؛ ساس الأمة بسياسة العدل، ورفع فيها منار العلم، ومهَّد لها طرق اليسار والثروة، وفتح لها أبواباً للتفنُّن في الصنائع، والصدق في جميع لوازم الحياة، وبعث في أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة، وحملهم على التحلي بالميزايا الشريفة من الشجاعة والشهامة وإباء الضييم، والأئفة من الذل، ورفعهم إلى مكانة عُليا من العِزَّة، ووطأ لهم سُبُل الراحة والرفاهة، وتقدم بهم إلى كل وجه من وُجُوه الخير.

إن كان حاكُمها جاهلاً سيءُ الطبيع، سافل الهمة، شرهاً مغتلاماً جباناً، ضعيف الرأي، أحمق الجنان، خسيس النفس، معوجُ الطبيعة؛ أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوي الخسنان، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل، وجلب عليها غائلة الفاقة، وجار في

سلطته عن جادة العدل، وفتح أبواباً للعدوان، فيتغلب القويُّ على حُقُوق الضعيف، ويختل النظام، وتفسد الأخلاق، وتخفض الكلمة، ويغلب اليأس فتمتد إليها أنظار الطامعين، وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها في أحشاء الأمة.

عند ذلك إن كان في الأمة رقمٌ من الحياة وبقيت فيها بقية منها، وأراد الله بها خيراً، اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة، واستئصال جذورها قبل أن تنشر الرياحُ بذورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع الأمة، فتميتها وينقطع الأمل من العلاج، وباردو إلى قطع هذا العضو المجنون قبل أن يسري فسادُه إلى جميع البدن فيمزقه، وغرسوا لهم شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وجددوا لهم بنية صحيحة سالمة من الآفات — استبدلوا الخبيث بالطيب.

وإن انحنت الأمة عن هذه الدرجَة وتركت شئونها بيد الحاكم الأبله الغاشم يصرفها كيف يشاء، فأنذرُها بمضض العبودية، وعنة الذلة، ووصمة العار بين الأمم؛ جزاءً على ما فرطوا في أمورهم، وما ربك بظلم العبيد.

الفصل السادس عشر

دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغان

«إذا أراد الله بقومٍ خيراً جمع كلمتهم..»

سرّنا من الجرائد الفارسية صدقها في خدمة أوطانها واعتدالها في مشاربها، وزادنا مسيرة اهتمامها بترجمة بعض الفصول المهمة من جريدةتنا ونقلها إلى اللسان العذب الفارسي مما تظن فيه تتبّيئاً لأفكار المسلمين، واستلتفاتاً لعقولهم إلى ما فيه خيرهم، فلها منا ومن كل مخلص في محبة ملته أوفرُ الشكر، خصوصاً جريدة «اطلاع» التي تطبع في مدينة «طهران»، وهذا المنهج القويم مما تعم به الفائدة في جميع الأقطار الإسلامية؛ فإن جميعها بعد بلاد العرب، وإن اختلفت ألسنة سكانها باختلاف شعوبهم، إلا أنهم ينطقون باللغة الفارسية، فهي في الشرق كاللسان الفرنسياوي في الغرب، وكان بوّدنا أن يعززوا أفكارنا بما تجود به قرائحهم السليمة، وأذهانهم الصافية، وترشدهم إليه عقولهم العالية، خصوصاً فيما يتعلق بالدعوة للوحدة الإسلامية، وإحياء الرابطة الملبية بين المسلمين، لا سيما في الاتفاق بين الإيرانيين والأفغانين.

هاتان طائفتان هما فرعان لشجرة واحدة، وشعبتان ترجعان لأصل واحد، هو الأصل الفارسي القديم، وقد زادهما ارتباطاً اجتماعهما في الديانة الحقة الإسلامية، ولا يوجد بينهما إلا نوعٌ من الاختلاف الجزئي لا يدعو إلى شق العصا، وتمزيق نسيج

الاتحاد، وليس بسائغٍ عند العقول السليمة أن يكون مثل هذا التغايرُ الخفيف سببًا في تخالفٍ عنيف.

ليس بعيدًا على هم الإيرانيين وعلو أفكارهم أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الإسلامية، وتنمية الصلات الدينية، كما قاموا في بداية الإسلام بنشر علومه، وحفظ حكماته وكشف أسراره، وما قصروا في خدمة الشرع الشريف بأية وسيلة.

نعم، البخاري ومسلم، والنيسابوري والنسائي والترمذى، وابن ماجه وأبو داود، والبغوي وأبو جعفر البلاخي والكليني، وغيرهم من أبنتهم أراضي إيران؛ أبو بكر الرازى الطبيب الشهير والإمام فخر الدين الرازى من نشئوا في طهران؛ أبو حامد الغزالي حجة الإسلام، وأبو إسحاق الإسپرائيىنی والبیضاوی وخواجه نصیر الدین الطوسي والأبهري وعُضُدُ الملة والدين، وغيرهم من علماء الكلام والأصول من تفتخرون بهم بلاد فارس وهم فخار المسلمين؛ الفیلیسوف الشهیر أبو علی بن سینا، وشهاب الدين المقتول، ومن على شاكلتهم من جُبلاوا من تراب فارس.

إن أهل فارس كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربي وضبط أصوله، وتأسيس فنونه؛ منهم: سيبويه، وأبو علي الفارسي، والرضي، ومنهم: عبد القاهر الجرجاني، مؤسس علوم البلاغة لبيان إعجاز القرآن، وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية، وصاحب صحاح الجوهرى من إحدى قراهم، ومجد الدين الفیروز آبادى من إحدى بلدانهم، والزمخشري، والسكاكى، وأبو الفرج الأصفهانى، وبديع الدين الهمذانى، وغيرهم من بينوا دقائق القرآن، وشيدوا معاالم الدين، كلهم من أرض فارس.

الطبرى أول المؤرخين، والإصطخري، والقزويني أول الجغرافيين، كانوا في بلاد فارس، الشبلى كان من نهاوند، وأبو يزيد البسطامي كان من بسطام، والأستاذ الهروى، وهو الأستاذ الحقيقى للشيخ محى الدين بن العربى؛ كان من هراة وكلها بلاد إيران. هل ينسى صدر الشريعة وفخر الإسلام البذوى والأمدى، والمرغينانى والسرخسى، والسعد التفتازانى، والسيد الشريف والأبيوردى، وكلهم من أبناء فارس، من أين كان القطب الشيرازى، والصدر الشيرازى، ورأس الحكمة في المؤاخرين ميربابق الداماد، وميرفند ركسي وغيرهم؛ كانوا من أهل فارس.

أيُّ فضلٍ كان ولم يكن لهم فيه اليُّ الطُّولى؟ أي مزية مَنْ الله بها على الإسلام ولم يكونوا من السابقين لاقتناها؟ نعم، وفيهم جاء من قول النبي ﷺ: «لو كان العلم في الثريا لناله رجال من فارس».

في أيها الفارسيون تذكروا أياديكم في العلم، وانظروا إلى آثاركم في الإسلام، وكونوا للوحدة الدينية دعامة، كما كنتم للنشأة الإسلامية وقاية، أنتم بما سبق لكم أحق الناس بالسعى في استرجاع ما كان لكم في فتوة الإسلام، أنتم أجدُر المسلمين بوضع أساس الوحدة الإسلامية، وما ذلك ببعيد على طيب عناصركم وقوة عزائمكم، أظن لا يخفي عليكم أن هذا الوقت هو أحسن الأوقات لذئبكم بالوحدة مع الأفغانيين والتحالف معهم على مقاومة العاديين؛ لتكونوا بالاتحاد معهم حصنًا حصينًا، وحرزاً منيعاً، تقف دونه أقدامُ الطامعين، أظنكم لم تنسوا أن استيلاء الإنجليز على المالك الهندية، إنما تم بوقوع الخلاف بينكم وبين الأفغانيين.

هل يخفي عليكم أن كل مسلم في الهند شاخص بصره إلى طرف بنجاب ينتظر قدومكم إذا اتحدتم مع إخوانكم الأفغانيين، حصلت لكم تجارب كثيرة وشهدتم من مظاهر الحوادث ما فيه أكمل عبرة، فهل يصح بعد هذا أن تستمروا على التجاقي والتباُع، مع علمكم أن الوحدة منبت الشوكة؟

هذا آن التأخي والتواُقُّف، هذه أوقات التحالف والتواُقُّف، أحاط الأعداء ببلادكم، شرقاً وغرباً، وكلُّ يشحد سيفه ويسدد سهمه، حتى تمكنه الفرصة من شن الغارة على أطراف بلادكم، فلو ضاعت الفرصة في هذا الوقت فربما لا تصادفونها في غيره، الإنجليز في ارتباك شديد في المسألة المصرية مع ضعفهم في القوة العسكرية، ومتورطون باختلاف الدول عليهم ومعاكساتهم لمقاصدهم.

الأمير عبد الرحمن خان أمير أفغانستان على ما نعهد من أول شبيوبته أشد الناس عداوة للإنجليز، وبينه وبينهم حزارات لا تزول، بل نقول: إن عداوة الإنجليز سارية في عروق الأفغانيين عموماً ممتزجة بدمائهم، فلو حصل الاتفاق الآن بين سلطنة الشاه وبين إمارة الأفغان، لوجدت قوة إسلامية جديدة في المشرق بين سائر الطوائف الإسلامية، وينبعث فيهم وفي سائر المسلمين حياةً جديدة، وتتجدد لهم آمال جليلة، وتنتعش بذلك أرواح المؤمنين، هذا وقت تتباهت فيه أفكار الأفغانيين إلى أعمال جيرانهم في المسألة المصرية، وتحركت فيهم السواكن، وهي أعظم فرصة لأهل فارس في دعوتهم للاتحاد معهم.

هذا عمل من أجل الأعمال وأجزلها فائدة، وإن من أكبر الفضل أن يقوم أهل الفضل من أهالي إيران بتحرير الفصول ونشر الرسائل في بيان فوائد الاتفاق بين الطائفتين، وإن

لذلك لأنّا عظيماً في النُّفوس خصوصاً إن كانت من أقلم العلماء الأعلام، والمجتهدين الكرام.

العالم الإنساني عالم الفكر والكلام، فإحكام الفكر الصالح ونشره في الكُتب والرسائل والجرائد مما يؤثر أجمل الأثر في تهذيب النّاس وتنقيف عقولهم، وإزالة الضغائن المفسدة لمعاشرهم ومعادهم، فإذا قام المستبصرون وخطبوا ووعدوا، وكتبوا ونشروا، مع الوقوف عند الحدود الدينية، والأصول الشرعية، كان فضل الله كافلاً لهم النجاح.

أي فرق بين الأفغانيين وإخوانهم الإيرانيين، كلُّ يؤمن بالله وبما جاء به محمد ﷺ، عبد الرحمن خان بما أكسيته التجارب أول من يتقدم لهذا الاتفاق، ولا نشك أن شاه إيران لما اطلع عليه في سياحاته وشاهده في أسفاره لا يأبى المبادرة إليه والسعى فيه، إن البداء بالعمل في هذا المقصود الأسمى هو صاحب الفضل الأعظم بين المسلمين خصوصاً وبين العالم عموماً ويجني ثمرته في وقت قريب.

كان الألمانيون يختلفون في الدين المسيحي على نحو ما يختلف الإيرانيون مع الأفغانيين في مذاهب الديانة الإسلامية، فلما كان لهذا الاختلاف الفرعى أثرٌ في الوحدة السياسية، ظهر الضعف في الأمة الألمانية، وكثرت عليها عاديات جيرانها، ولم يكن لها كلمة في سياسة أوروبا، وعندما رجعوا إلى أنفسهم وأخذوا بالأصول الجوهرية، وراغعوا الوحدة الوطنية في المصالح العامة، أرجع الله إليهم من القوة والشوكة ما صاروا به حكام أوروبا وبيدهم ميزان سياستها.

رجأونا في الأفضل الكرام صاحب جريدة «فرهنك» الأصفهانية، وصاحب جريدة «أطلاع» الطهرانية، وسائل أرباب الجرائد الإيرانية أن يُوجهوا أفكارهم إلى هذا المطلب الرفيع، ويجعلوا له محلًّا فسيحاً في جرائد them، وينشروها في بلادهم، وببلاد الأفغان، باللسان الفارسي، وهو لسان الطائفتين، وما هي إلا أيام ثم نرى علائم النجاح — إن شاء الله رب العالمين.

الفصل السابع عشر

امتحان الله للمؤمنين

﴿إِنَّمَا أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنُوا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾.

(العنكبوت: ٣-١)

من الناس، بل أغلب الناس، من يقول: آمنا، وللإيمان آثار، ثم يحسبون أن الله يتركهم وما يقولون، ويدعهم وما يتوجهون، ويعاملهم – سبحانه – وهو الحكم العدل بما يطnoon في أنفسهم قبل أن يبيتيلهم أيهم أحسن عملاً، حتى تظهر أنفسهم لأنفسهم، ويعلموا هل هم حقيقة مؤمنون أو هذه دعوى سولتها النفس، وغررت بها الأمانى، وأنهم تائرون في أوهامهم يحسبون أنهم على شيء، وهم خلو من كل شيء، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، إلا في غيه حتى يبيتيله في دعوى الإيمان ليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين ولئلا تكون للناس على الله حجة.

حاشا حكيمًا، أنزل الكتب وأرسل الرسل، ووعد وأوعد وبشّر وأنذر، وقوله الصدق ووعده الحق: أن يجازي منبني عقيدته على خيال ليس له أثر، وظن ليس له أساس، وبالسعادة السرمدية، والنعيم الأبدي، إن المفتر بزعمه، الحائز في ظلمات أوهامه، الذي لا يسهّل عليه الإيمان احتمال المشاق وتجشم المصاعب في سبيله؛ ليس بمعزل عن المنافقين الذين حكم الله عليهم بالشقاء الأبدي والعذاب المخلد.

الإيمان يغلب كل هوى، ويقهر كل أمنية، ويدفع بالنّفس إلى طلب مرضاه الله بلا سائق ولا قائد سواه، يقول الله — وهو أصدق الصادقين: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَإِذَا تَأْتَهُ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَرَدَّدُونَ﴾ (التوبه: ٤٥-٤٦)، هذا قضاء الله وهذا حكمه على الذين يستأذنون في بذل أرواحهم وأموالهم في أداء فريضة الإيمان، حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون.

صدق الله وصدق تُكْبُهُ ورسله، إن للعقائد الراسخة آثاراً تظهر في العزائم والأعمال وتأثيراً في الأفكار والإرادات، لا يمكن للمعتقدين أن يُزيجوها عن أنفسهم ما داموا معتقدين، هكذا إيمان في جميع شئونه وأطواره، له خواص لا تفارقه، ونزعات لا تزايله، وصفاتٌ جليلةٌ لا تنفكُ عنه، وخلائقٌ عاليةٌ ساميةٌ لا تباينه، بها كان يمتاز المؤمنون في الصدر الأول، وكان يعترف بمزيتهم وعلوّ منزلتهم من كانوا يجحدون عقيدتهم، نعم، هم الذين صبروا في نيران امتحان الله وابتلاءه حتى ظهر إيمانهم ذهباً إبريزاً صافياً من كل غش، وأعدَ الله لهم جزاءً على صبرهم نعيمًا مقيمًا، ما أصعب ابتلاء الله وما أشدَ فتنته، وما أدقَ حكمته في ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب!

نعم، إن دون ابتلاء الله خلُ العادات، وتحمُل الصعوبات، وبذل الأموال، وبَيْع الأرواح، كل خطر فهو تهلكة ينبعي البُعد عنها إلا في الإيمان، فكل تهلكة فيه فهي نجاة، وكل موت في المحamaة عن الإيمان فهو بقاءً أبدي، وكل شقاء في أداء حقوق الإيمان فهو سعادة سرمدية، المؤمن يبذل ماله فيما يقتضيه إيمانه ولا يخشى الفقر، وإن كان الشيطان يعْدُ الفقر، ليس في النفقة لأداء حق الإيمان تبذيرٌ ولو أثنت على كل ما في أيدي المؤمنين، إن للمؤمن حيَاً وراء هذه الحياة، وإن له لذة وراء لذاتها، وإن له سعادة غير ما يزينه الشيطان من سعادتها، هكذا يرى المؤمن إن كان الإيمان مَسْ قلبه ولو لم يبلغ العناية من كماله.

إن الفرار من محنَة الله في الإيمان مجلبة للخزي الأبدي، إن الفرار من صدمة جيش الضلال وإن بلغت أقصى ما يتصور موجب للشقاء السرمدي، لا سعادة إلا بالدين، ودون حفظ الدين تتتطاير الأعناق، إن للإيمان تكاليف شاقةً وفرائض صعبة الأداء إلا على الذين امتحن الله قلوبهم للقوى، إن القيام بفرائض الإيمان محفوفٌ بالمخاطر، مكتفٌ بالمكاره، كيف لا وأول ما يوجبه الإيمان خروج الإنسان عن نفسه وماله وشهوته ووضع جميع ذلك تحت أوامر ربه؟

لن يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه من نفسه، أول إحساس يلُمُّ بنفس المؤمن أنه في هذه الدنيا عابرٌ سبيلٌ إلى دارٍ أخرى خيرٌ من هذه الحياة وأبقى، وأول خطوة يخطوها المؤمنُ بذلُّ روحه إذا دعاه داعي الإيمان، ولا داعي أرفع صوتاً وأَبْيَنْ حجة من نداء الحق على لسان أنبيائه، لا يقبل الله في صيانة الإيمان عذرًا ولا تعلة ما دامت الرُّجْل تمشي والعينُ تنظر واليدُ تعمل، إن امتحان الله للمؤمنين سُنَّة من سننه.

الفصل الثامن عشر

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

(الرعد: ٣٣)

يوجد بين بني البشر نفوسٌ لم يرضها الإسلام، ولم تقنع بالكفر، تتلون تلوّن الحرباء، وتنشكل تشکل الأغواط، وتتقلب تقلب الدهر الخئون، لا ترضى بحال، ولا تننسج على منوال، يضحكون وقت البكاء، ويمرحون عند اشتداد الألواط، ويبيكون لأوقات المسرة، ويضجرون لسعة الرحمة، مثلهم كمثل الحس克 المثلث الأصلع، كله شوك حيثما قلبته، تراهم في النهار مسلمين متقلبين بين مذاهب الإسلام، يصبحون سنين ويقللون شيعين ويقضون طرف اليوم وهابيين، فإذا جنَّ الليل رأيتهم دهريين إبا Higgins! أولئك الذين غضب الله عليهم ويلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون.

منهم أناس من أرباب الجرائد الساقطة في الهند، يريدون أن يتزلّفوا للحكومة الهندية الإنجليزية بما فيه مضرًّاً أو طانهم وأبناء الملة التي ولدا فيها؛ ليتالوا من ظالمائهم جائزة ما، أو ليكون لهم في دواوينهم اسمٌ ما، فأخذوا يثولون بعض قصّول العروة الوثقى ويحولونها عن وجهتها جهلاً، أو عناداً ولوّماً، ويحرّفون الكلم عن مواضعه على حسب أهوائهم الخسيسة، وطباعهم الخبيثة — قاتلهم الله أَنَّى يؤفكون — أولئك قوم عرفناهم وليس لهم بين قومهم شأنٌ يُعرفون به فليس يهمنا أمرهم، وإنما نقدم الشكر للجرائد المهمة الهندية الناهجة في خدمة أوطانهم منهج الحق، السالكة جادة الاعتدال على ما تعني به من ترجمة قصّول العروة الوثقى إلى اللسان الهندي تعميماً للفائدة في أبناء أوطانها، جزاها الله عن المسلمين خيراً.

الفصل التاسع عشر

أسباب حفظ الملك

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواٰ فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا
فَإِنَّهَا لَا تَعْمَلُ الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَلُ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

(الحج: ٤٦)

أهلk الله شعوبًا، وأباد قبائل، ودمرَّ بلادًا، ولا يزال عدال الله يبدّل قومًا ويأتي للكل حين بآناس آخرين، حكيم سبقت رحمته غضبه، جعل لكل عمل جزاء، وعين بحكمته لكل حادث سبباً ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٩)، وليست أفعاله جزافاً، ولا يصدر عنه شيء عبثاً، أمر الله عباده بالسير في الأرض ﴿قُلْ سِيرُواٰ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواٰ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (الأنعام: ١١) ليりهم قضاه الحق وحكمه العدل، فيمن سلف ومنْ خلف، فيطيعوا أوامره، ويقفوا عند حدود شرائعه، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة، من كان له قلبٌ يعقل وعينٌ تُبصر، وعقلٌ يفقه، وتتبع حوادث العالم، وتدبر كيفية انقلاب الأمم، وخاضع في توارييخ الأجيال الماضية، واعتبر بما قصَّ الله علينا في كتابه المنزَل؛ يحكم حكمًا لا يخالطه ريب، بأنه ما حاق السوء بأمة وما نزلت بها نازلةً البلاء، وما مسَّها الضُّرُّ في شيءٍ إِلَّا وكانت هي الظالمة لنفسها، بما تجاوزت حدود الله وانتهكت حرماته، ونبذتْ أوامره العادلة، وانحرفتْ عن شرائعه الحقة، وحرَّفت الكلم عن مواضعه، وأوَّلتْ من كلامه تعالى على حسب الأهواء والشهوات.

كما أن للأغذية والأدوية، واختلاف الفصول والأهوية، أثراً ظاهراً في الأمزجة بتقدير العزيز العليم، كذلك اقتضت حكمة الله أن يكون لكل عمل من الأعمال الإنسانية، وكل طور من أطوار البشر، أثر في الهيئة الاجتماعية؛ ولهذا كان من رحمته بعباده تحديد الحدود، وتقرير الأحكام ليتبين الخير من الشر، ويتميز النفع من الضر، فأرسل الرسل، وأنزل الكتب، فمن خالف الأوامر الإلهية فقد ظلم نفسه، فليستعد لخزي الدنيا وعذاب الآخرة.

إن تأثير الفواعل الكونية في أطوار الحياة قد يخفي سببها حتى على الطبيب الماهر، أما تأثيرُ أحوال بني الإنسان في هيئة إجماعهم، فيسهل على سره لكل ذي إدراك، إن لم تكن عين بصيرته عمياء.

ألم تر أن الله جعل اتفاق الرأي في المصلحة العامة والاتصال بصلة الألفة في المنافع الكلية سبباً للقوة واستكمال لوازم الراحة في هذه الحياة الدنيا، والتمكن من الوصول لخير الأبد في الآخرة. وجعل التنازع والتغابن علة للضعف، وداعياً للسقوط في هوة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخرى، ومهيناً لوقوع المتنازعين في مخالب العاديات من الأمم، فمن نظر نظرة في أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها، ولم يكن مصاباً بمرض القلب، وعمى البصيرة؛ أدرك سرّ أمر الله في قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَرَقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣)، وسرّ نهيه في قوله: ﴿وَلَا تَنَازَّعُوا فَتَفْشِلُوا وَتَنَاهَبُ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦)، أي جاهكم وعظمتكم وعلوّ كلمتكم.

إن الله تعالى يجعل الركون إلى من لا يصحُّ الركونُ إليه، والثقة بمن لا تنبغي الثقة به، سبباً في اختلال الأمر وفساد الحال، فمن وثق في عمله بمن ليس منه في شيء، ولا تجمعته معه جامعة حقيقة، ولا تصله به رابطة صحيحة، وليس في طبعه ما يبعثه على رعاية مصلحته، أو كتم سره، ولا ما يحمله على بذل الجهد في جلب منفعته، ودفع المضارّ عنه؛ فلا ريب يفسد حاله، ويسوء مآلته، وإن كان ملكاً ضاع ملكه، أو أميراً بطل أمره، والحوادث عاهدة، وأحوال المغرورين ناطقة، فمن لم يرزاً بعمى البصيرة يدرك بأول التفاتات سرّ نهيه الله تعالى في قوله: ﴿لَا تَتَخَذُوا عَدُوّي وَعَدُوّكُمْ أَوْلَيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُؤَدِّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِّنَ الْحَقِّ﴾ (المتحنة: ١)، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَخَذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ حَبَالًا وَدُؤُوا مَا عَنِتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبُغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ (آل عمران: ١١٨)، وسائل نواهيه المبنية على الحكمة البالغة المرشدة إلى مصالح الدارين.

لكل شخص في طبقته من أُمته عملٌ مفروضٌ عليه، وواجب يلزمـه القيام به، ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة في هذه الدنيا، ويعـد لها مـالـاً صالحـاً في الآخرـة، وهو إنسـان له قـلب واحدـ، لو جـعل مـعـظم هـمـه في شيءـ فإـنه سـائـر الأـشـيـاءـ، فـلو توـغلـ في الشـهـوـاتـ، وبالـغـ في التـرـفـ، وبـطـرـ فيـما أـنـعـم اللهـ عـلـيـهـ، فـقد أـغـفـلـ فـرـائـصـهـ، وأـضـرـ بـنـفـسـهـ، وـحـرـمـ منـ مـنـافـعـهـ، وـحـلـ بـهـ مـنـ عـقـابـ اللهـ أـشـدـ الـوـبـالـ، وـخـسـرـ الدـنـيـاـ وـالـآخـرـةـ مـعـاـ، وـرـبـماـ مـسـتـ آـثـارـ أـعـمـالـهـ بـالـسـوـءـ مـنـ يـجاـوـرـهـ، وـاحـتـرـقـ بـنـارـهـ الـمـوـقـدـةـ بـفـسـادـ أـخـلـاقـهـ وـانـحـرـافـهـ عـنـ سـنـنـ الـحـقـ مـنـ يـساـكـنـهـ فيـ بـلـدـتـهـ، أـوـ يـواـطـنـهـ فيـ مـدـيـنـتـهـ، وـهـذـهـ آـثـارـ الـمـتـرـفـينـ فيـ كـلـ أـمـةـ تـنـطـقـ بـمـاـ لـيـعـجـمـ إـلـاـ عـلـىـ أـذـنـ صـمـاءـ، وـتـشـهـدـ بـمـاـ لـيـخـفـيـ إـلـاـ عـلـىـ بـصـيرـةـ كـمـاءـ، وـإـنـ فـيـماـ قـصـ اللهـ عـلـيـنـاـ مـنـ أـحـوـالـ الـمـتـرـفـينـ لـأـكـبـرـ عـبـرـةـ: ﴿وَكُمْ أَهْلُكُنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرْتُ مَعِيشَتَهَا فَتَلَكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (القصص: ٥٨)، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخْذَنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ * لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مَنَا لَا تُنَصَّرُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٥-٦٤)، ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمَرَّحُونَ﴾ (غافر: ٧٥)، هذه عـاقـبـ الـلـاهـيـنـ بـحـظـوـظـهـ عـمـاـ أـوـجـبـ اللهـ عـلـيـهـ، وـوـمـنـ أـعـرـضـ عـنـ ذـكـرـيـ فـإـنـ لـهـ مـعـيـشـةـ ضـنـكـاـ وـنـحـشـرـهـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ أـعـمـىـ﴾ (طه: ١٢٤).

ما أـوـتـيـ إـلـيـهـ إـنـسـانـ مـنـ الـعـلـمـ إـلـاـ قـلـيـلـاـ، لـاـ يـمـكـنـ لـإـنـسـانـ وـحـدـهـ أـنـ يـحـيـطـ بـوـجـوـهـ الـمـنـافـعـ الـخـاصـةـ بـنـفـسـهـ، وـلـاـ أـنـ يـطـلـعـ عـلـىـ مـنـابـعـ فـوـائـدـ لـيـكـسـبـهـاـ، أـوـ يـكـشـفـ مـكـامـنـ مـضـارـهـ فـيـتـقـيـهـاـ، خـلـقـ إـلـيـهـ ضـعـيفـاـ فـأـرـشـدـهـ اللهـ لـلـلـاستـعـانـةـ بـغـيـرـهـ مـنـ بـنـيـ جـنـسـهـ ﴿وَجَعَلْنـاـكـمـ شـعـوـبـاـ وـقـبـائـلـ لـتـعـارـفـوـاـ﴾ (الحجـراتـ: ١٣)، خـلـقـنـاـ مـحـاجـيـنـ لـلـعـونـ مـضـطـرـيـنـ لـلـصـبـرـ، وـهـدـانـاـ رـبـنـاـ لـلـتـعـاـوـنـ وـالـتـنـاـصـرـ.

هـذـاـ مـاـ يـحـكـمـ بـهـ الـعـقـلـ فـيـ الـمـصالـحـ الـخـاصـةـ، فـكـيـفـ لـوـ كـانـ شـخـصـ وـلـاـهـ رـعـاـيـةـ أـمـةـ، وـأـلـقـيـ إـلـيـهـ بـزـمامـ شـعـبـ مـصـالـحـ الـتـامـةـ تـحـتـ إـرـادـتـهـ، وـهـوـ الـواـزـعـ فـيـهـ وـالـواـضـعـ وـالـرـافـعـ؟ لـاـ رـبـ أـنـ مـثـلـ هـذـاـ شـخـصـ أـحـوـجـ إـلـىـ الـمـشـورـةـ وـالـاسـتـفـادـةـ مـنـ آـرـاءـ الـعـقـلـاءـ، وـهـوـ أـشـدـ اـفـتـقـارـاـ إـلـىـ ذـكـرـ مـنـ يـكـونـ سـعـيـهـ لـمـتـعـلـقـاتـ ذـاتـهـ، وـتـكـونـ سـعـةـ دـائـرـةـ اـفـتـقـارـهـ إـلـىـ التـشـاـوـرـ عـلـىـ مـقـدـارـ سـعـةـ سـلـطـانـهـ، وـقـدـ أـمـرـ اللهـ نـبـيـهـ وـهـوـ الـمـعـصـومـ مـنـ الـخـطـأـ تـعـلـيـمـاـ وـإـرـشـادـاـ فـقـالـ: ﴿وَشـاـوـرـهـمـ فـيـ الـأـمـرـ﴾ (آلـعـمـرـانـ: ١٥٩)، وـقـالـ فـيـمـاـ اـمـتـدـحـ بـهـ الـمـؤـمـنـينـ: ﴿وَأـمـرـهـمـ شـوـرـيـ بـيـنـهـمـ﴾ (الـشـورـىـ: ٢٨)، أـيـ بـصـيرـةـ يـرـوـغـ عـنـ هـذـاـ الـصـرـاطـ الـمـسـتـقـيمـ؟! أـيـ بـصـيرـةـ لـاـ تـهـتـدـيـ إـلـىـ هـذـاـ الـمـنـهـجـ الـقـوـيـمـ: ﴿أَفَلـمـ يـدـبـرـوا الـقـوـلـ أـمـ جـاءـهـمـ مـاـ لـمـ يـأـتـ آـبـاءـهـمـ الـأـوـلـيـنـ﴾ (الـمـؤـمـنـينـ: ٦٨).

إن وازع البلاد والقائم على الملك لو ألمح لحمة إلى نفسه لرأى أنَّ بلاده في كل وقت معرَّضة لأطماع الطامعين، وأنَّ الحرص المولَع في طباع البشر، يحرِّك جيرانه كلَّ آنَّ للسيطرة على ممالكه ليذلوا قومه، ويستعبدوا أهله، ويستأثروا بمنافع أرضهم وثمارِ كُلُّهم، وينحوها أبناء جلتهم، فعليه وعلى من يشركه في أمره من عماله، والحكام النائبين عنه في إياته، وقوَّاد جيشه، وعلى كلِّ أرباب الرأي، ومن بهم قوامُ الملك، أن يستعدوا لدفع طوارئ العدوان، ورفع نوازل الغارات الأجنبية، فلو فرَّطوا في إعداد لوازم الدِّفاع، أو تساهلوا فيما يكُفُّ عنهم سيلَ الأطماع، أو تهاونوا فيما يشدُّ قوتهم، ويقوّي شوكتهم بأيِّ وجه كان ومن أيِّ نوع كان؛ فقد عرضوا ملوكهم للهلاك وألقوا بأنفسهم في مهافي الأخطار.

هذا مما يفهمه الأبله والحكيم، ويصلُّ إليه إدراكُ الجاهل والعليم، وهو سُرُّ الإفصاح والإبهام في قوله تعالى: ﴿وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠)، أمر بإعداد القوة و وكلها إلى الطاقة وحكم الاستطاعة، على حسب ما يقتضيه الزمان، وما تكون عليه حالة من تُخْشى غوايَّتهم، هذا أمر الله ينْبِئُ الغافل، ويدُّرِّجُ الظاهر: ﴿فَمَا هُوَ لِإِلَّا مَا كَادُوا يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٧٨).

إعطاء كل ذي حقٍّ حقه، ووضع الأشياء في مواضعها، وتفويض أعمال الملك للقادرين على أدائها؛ مما يوجب صيانة الملك، وقوَّة السلطان، ويشيد بناء السلطة، ويفتح دعائم السلطة، ويحفظ نظام الداخل من الخل، ويفتحي نُفُوس الأمة من العلل، هذا مما تحكم به بذاته العقل، وهو عنوان الحكمة التي قامت بها السماوات والأرض، وثبت بها نظام كل موجود، وهو العدل المأمور به على لسان الشرع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠)، كما أنَّ الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة في كل جزء من أجزاء العالم يوجب فناءه واصحاحاته، كذلك الجور في الجمعيات البشرية يسبب دمارها، لهذا حثَّ الأوامر الإلهية على العدل، وكثُر النهي في الكتاب المجيد عن الظلم والجور، والحكام أولى منْ توجَّه إليه الأوامر والنواهي في هذا الباب، العدل هو الحكمة التي امتنَّ الله بها على عباده، وقرنها بالخير الكبير فقال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ حَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩)، هي مظهر من أَجَلٍ مظاهر صفاتِه العالية، فهو الحكم العدل وهو اللطيفُ الخير.

مَنْ سار في الأرض، وتتبع تواريَّخَ الأُمُّ، وكان بصير القلب؛ علم أنه ما انهدم بناء ملك، ولا انقلب عرش مجد، إلا لشقاق واختلاف، أو ثقة بمن لا يوثق به، وتدخل العنصر

الأجنبي، أو استبداد في الرأي، واستنكاف عن المشورة، وإهمال في إعداد القوة، والدفأع عن الحوزة، أو تفويض الأعمال لمن لا يحسن أداءها ووضع الأشياء في غير مواضعها، فيكون جور في الحكم، واحتلال في النظم، وفي كل ذلك حيد عن سنن الله، فيحصل غضبه بالخاطئين، وهو أحكم الحاكمين.

لو تدبرنا آيات القرآن، واعتبرنا بالحوادث التي ألمت بالملك الإسلامية لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه، ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذي ضربه الله لنا وأرشدنا إليه، وبيننا من اتبع أهواه النفس وخطوات الشيطان، **﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ مُغَيِّرًا نَعْمَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ لَا وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** (الأفال: ٥٣)، فعلى العلماء الراسخين — وهم روح الأمة وقود الملة المحمدية — أن يهتموا بتتبّع الغافلين عن ما أوجب الله، وإيقاظ النائم قلوبهم عمّا فرض الدين، ويعلموا الجاهل، ويزعجو نفوس الظاهل، ويدركوا الجميع بما أنعم الله به على آبائهم، ويستلفتوهم إلى ما أعد الله لهم لو استقاموا، ويحذرّوهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ورفض كل بدعة، والخروج عن كل عادة سيئة لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز، ويقصوا عليهم أحوال الأمم الماضية، وما نزل بها من قضاء الله عندما حادت عن شرائعه، ونبذت أوامره **﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِرْيَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَاٰ وَلَعَبَ الْآخِرَةَ أَكْبَرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾** (الزمر: ٢٦).

على العلماء أن يزيلوا اليأس بذكر وعد الله ووعده الحق في قوله تعالى: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيُسْتَحْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَحْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيَمْكُنَّ لَهُمْ بِيَنَّهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيَبْدُلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ حَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾** (النور: ٥٥)، هذه وظيفة العلماء الراسخين وما هم بقليل بين المسلمين، ولا نظفهم يتهاونون فيما فوّض الله إليهم، ووكل إلى ذمته، وهم أمناء الدين وحاملة الشرع، ورافعو لواء الإسلام، وأوصياء الله على المؤمنين، أعنهم الله على خير أعمالهم، ونفع بهم المؤمنين بإرشادهم.

الفصل العشرون

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمِنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلُهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلُهُمْ الْوَارِثِينَ﴾.

(القصص: ٥)

للإنسان عقل سميٌّ، وفكّر علىٌّ، وحدس قويٌّ، وبراعةٌ في الاستدلال، ومهارةٌ في الاستنباط، ومع هذا كله تراه في رأيه علیلاً، ولا يصيّب في مقاصده إلا قليلاً، تشابه علل الحوادث في تنوعها يحولُّ بين المرء وعلم الحوادث الآتية، ويحجب عن نظره جادة الصواب، فيخبط في خطأٍ ويخوض في عَمَّه، وتلتبس عليه المقدمات، فتشبه النتائج، فيختل قياس الاستنباط؛ هذا ما يحمل كثيراً من الناس على الحكم باستحالة ممكناً، أو إمكان مستحيل.

لو أن حاذقاً بصيراً بفنون السياسة، وخييراً بأحوال الأمم، ذهب إلى البلد الهندية قبل اليوم بأربعين سنة، وساح في أرجائها ووقف على أحوال أولاد السلاطين المغوليين وما هم فيه من الذلة، وأحفاد «تبيوسليدان» وما أصحابهم من الفقر والمسكنة، وسلالة سلاطين «أوده» وما نزل بهم من الهوان، ونوابي «كارناتاك» وأمراء السندي وما حل بهم من الصغار، وتدبر شيئاً «مرتبة» تلك القبيلة العظيمة القاطنة في «فونا» و«ستارة» وما حولها، وأحاط بالبلاء المنصب على غيرهم من سائر الأمراء والرجوات العظام؛ ثم لاحظ سلطة الإنجليز وتغلبهم على تلك البلد وما أعدوه لقهرها من الآلات الحربية، والحسون القوية، وما هم عليه من الحذق في الحيل والخدع السياسية، وما عليه رعایاهم من الضعف والعجز وسلامة القلب وغرة الجنان؛ ولو أتى من الفكر في لواحق هذه الأحوال على غاية جهده؛ لحكم، بناء على ما لديه من المقدمات وما يحضره من الأقىسة، بأن أولئك الأقوام وسلائل الأمراء وأحفاد السلاطين، قد ضرب عليهم الذل الأبدي، وسجلت

عليهم العبودية السرمدية، بل ربما ذهب به الوهم إلى الحكم عليهم بتحمّل الفناء ولزوم الأضاحل؛ فإن الناظر في شئونهم ما كان يحضره إلا صولة الإنجليز وسعة اقتدارهم، وخضوع الهنديين وشدة عجزهم، ما كان يخطر في ذلك الوقت بخاطر أحد أن الأيام تأتى بهذا الحادث الجديد.

إن الروسية تقطع الفيافي من وراء بحر الخزر حاملة عواملها رافعةً أعلامها ضاربة في تلك البوادي، زاحفة إلى حدود الهند، ما كان يختل في صدر أحد في تلك الأوقات أن حرص الإنجليز وطمعهم في الاستيلاء على مصر يوجب انحراف الدول عنهم ويقتضي قيام رجل السياسة «البرنس بسمارك» لجمع كلمة الدول على مُصادمتهم، ما كان يحوم في خيال أن قائماً يسمى محمد أحمد يقوم بدعوة دينية في أعلى السودان وبعد إرغامه للإنجليز مرات يحرك قلوب الهنديين ويوقظ نائمهم، ويُثير الساكن من خواطرهم وينهض بهم، ويُحيي الآمال فيهم بعد القنوط وتنتشر دعوته في أرجاء الهند. نعم، ومن أين يكون للإنسان علم بهذه الحوادث وهي محجوبة بستار الغيب، فهو معذورٌ في أحکامه مقصورٌ على أوهامه.

نرى دوائر السوء تدور بالحكومة الإنجليزية، وقد تهيأتْ ضاربات الشر الوثنية عليها، وليس لها حليف في أوروبا، وإن استثارها بمنافع الأمم، وطمعها في الاختصاص بمصالح العالم أَبَعَدَ عنها الأصدقاء، ونَفَرَ منها الأولياء، فكانت هذه السقطةُ بهزة لنھوض الروسية وتقديمها إلى الحدود الهندية، ومن مصلحة الدول في أوروبا خصوصاً دولة الألمان – على ما يظهر من جرائدها الرسمية – أن تؤيد الروسية فيما تقصد من فتح الهند؛ فإن اندفاع السيل الروسي على تخوم الهند خيرٌ لأوروبا عموماً وألمانيا خصوصاً من انحداره إلى بعض الواقع الأوروبي، وأنجع في صيانة السلم الأوروبي إذا جاء يوم التصادُم بين روسيا والإنجليز على حدود الهند – وما هو بعيد – كان قضاء السوء على الجيش الإنجليزي في الصدمة الأولى فيما نظن لقلة عدده، ولأن العدد الغالب فيه من الهنديين الحرجة صدورهم المجرورة قلوبهم المترقبين لفرصة تمكّنهم من الخروج على حكامهم الظالمين، فإذا وقعت الهزيمة اشتعلت نار الثورة في عموم الهند، ومحيت سلطة الإنجليز بأيدي الهنديين.

ليس من الممكن للروسية أن تستولي على الأقطار الهندية استيلاءً مطلقاً لأول وهلة؛ فإن البلاد واسعةً أطراها شاسعة تحتاج في إدارتها والمحافظة عليها إلى ملايين من الناس يعُسر عليها جذبهم من بلادها البعيدة، نعم إن الإنجليز تسلطوا على الهند ولكن

في أحقاب، فدولة روسيا ملجاً بحكم الضرورة إلى تشكيل ممالك في الهند يُديرها رجال من العائلات الملكية والقديمة من أولاد سلاطين المغول وذرية سيفو سلطان وأمراء السندي و«أوده» و«كارناتك» والمرتدين وغيرهم، وتكتفي دولة الروس بعقد محالفات تجارية بينما وبين تلك الممالك، وربما كانت هذه السيرة توافق بعض الإمارات الإسلامية المستقلة وبعض ممالك المسلمين، وقد يكون من مصلحة دولة إيران وإمارة أفغانستان أن تتفقا مع الروسية اتفاقاً يفيد كلاً من المتحالفين.

إن الروسية ما جاءت إلى «مرو» لتهلك عساكرها في قفارها، ولا يصدأها عن سيرها إخلاصها في محبة الإنجليز ولا ارتباطها معهم بعهد، مع علمها أن لا عهد لهم، إنما جاءت لفتح باب التجارة مع أخرى قطر في الشرق وتهدم سلطان الإنجليز فيه؛ فإن الأثرة الإنجليزية ما تركت مصلحة تجارية تتمتع بها أمّة من الأمم.

هذا عرض سوء على حكومة بريطانيا، ولكنه سحابٌ رحمة على الهنديين بما انتقم الله لهم من عدوهم، فبذلك فليرحوا، وليرع الأماء أنفسهم لما أعد الله لهم من العزة بعد الذلة، والحرية بعد العبودية، والخلاص من قهر حكومة لا ترحم صغيراً ولا تؤقر كبيراً. لا نظن ولن نظن أن يجد الإنجليز لهم يوم التصادم نصيراً من دول أوروبا ولا من دول الشرق ولا من الهنديين ولا من صنف البشر؛ لأنه لا توجد نفسٌ تشعر بوجود حكومة الإنجليز على سطح الأرض إلا وقد مسها شيءٌ من الضّرّ.

إن حكومة الإنجليز تشعر بقربها من هذا الخطر العظيم، وتعلم أن ما ينزل بها من المصائب في الهند لا يقصر ضرره على حالها فيه، ولكنه يزلزل جزائر بريطانيا، فإن حياتها ومجدها ليس إلا بالهند، كيف لا يشعر الإنجليز بسوء عاقبتهم وهم يحسون بضعفهم في القوى العسكرية، وانحراف قلوب رعاياهم الهنديين عنهم، واحتدامها غيظاً عليهم، عجل الله لهم ما فيه خير الضعفاء.

الفصل الحادي والعشرون

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَأَخْتَلُفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

(آل عمران: ١٠٥)

أزفت هجمة الروسية على الهند، وسير الدول في سياستها وحرصها على تقرير السلم في أوروبا يمد الروس في مقاصدهم ويهميئ لهم الأسباب ويقرب مدة الوصول، هذا طور من السياسة جديد لو اتفقت فيه دولة إيران مع إمارة أفغانستان لكن لـكُلّ منهما حظٌ وافرٌ ونفعٌ جزيل، إن الروسية وإن كانت تنصرها نفرة قلوب الهندية من الإنجليز إلا أن في طريقها عقباتٌ لا يذللها إلا موالاة الفرس والأفغان.

إن الهند بعيدٌ من معسكرات الروس ودونه مسالكٌ مجهولةٌ وطرق ملتوية وليس الروس من الخبرة بها في شيء، الروس في حاجة للمواصلة مع أمراء الهند وفي ضرورة الوقوف على أخلاقهم ومجاري ميلهم وموقع أهواهم، ولا سبيل يوصلهم إلى ذلك إلا إشراك الفارسيين والأفغانين في أعمالهم الحربية والسلمية، ليس من السهل على الروسية أن تستعين بدولة فارس وإمارة الأفغان على فتح أبواب الهند إلا أن تساهمهما في الغنيمة وتشرکهما في المنفعة، وإلا كانا سداً محكماً دون أهم غایاتها.

كيف يمكن للروسية أن تخرق تلك الأجسام الأخذة بطريق الهند وهي مرابض الأسود؟! كيف تتوجه السلامة في معايرها الضيقة إذا قصدت الاختصاص بالفريسة؟! إن الروسية لا تخفي عليها صعوبةُ الأمر، ولا يغيب عنها أن كشف أمة عظيمة عن بلاد سكنتها أحقاباً ونالت فيها أعلى مجد وأعظم فخار؛ يُعدُّ من أعظم الأعمال ويحتاج للكثرة الأعوان والأنصار، وليس بين يديها من يصح به الاستئثار إلا دولة الفرس وحكومة

الأفغان؛ فليس من الحكم في العمل أن تختص دونها بثمراته، خصوصاً وأنها لا تبتغي سوى فتح أبواب الهند للتجارة.

فعلى الأفغانيين أن يرتفعوا بأبصارهم ويستقبلوا حظهم بفكر سديد وعقل رشيد، ويتقدمو للاتفاق مع إخوانهم الإيرانيين، فليس بينهم وبينهم ما يصح عليه الاختلاف في المصالح العمومية، فالجميع من أصل واحد، وتجمعهم رابطة واحدة، وهي أشرف الرابط «رابطة الدين الإسلامي»، ولابد لهم أن استمرارهم على التخالف في مثل هذا الوقت ربما يجلب الضرر عليهم وعلى إخوانهم المسلمين من الهنديين، وعلى الفارسيين والأفغانيين أن يراعوا الكلمة الجامعة والصلة الجنسية ولا يجعلوا الاختلاف الفرعي في المذهب سبباً في خفض الكلمة الإسلامية، وقطع الصلة الحقيقة، فليس من العقل أن يُقام من خلاف جزئي علة لاضمحلال الكل.

أظن أن قد علم كل من القبليين أن الاختلاف بينهما هو الذي جلب على كلّ منهما ما جلب، هذا الخلاف الفرعيُّ بينهم استعمله بعض السياسيين في الأزمان السابقة آلة للشقاق والمناوئات، وربما جنوا من غرسهم ثماراً آتية، ولكنه الآن لا يثمر إلا الدمار والبوار، وهذا مما لا أخاله يخفى على عاقل.

لا يجوز للأفغانيين في هذا الوقت أن يقفوا عند هذا الخلاف الفرعي فليجذبوا إلى الوحدة الأصلية؛ فإن الأخطار حاطتهم من كل جانب، ولا منجاة لهم إلا بالاتفاق مع إخوانهم الفارسيين، هذا وقت التأخي، وهذه فرصة الالتفاف، ليس للأفغانيين عذر، ولا للتعلة عندهم محل، لا سيما وقد تولى الصدارة في الدولة الفارسية رجل عظيم القدر رفيع الشأن، واسع العرفان، لا تحجبه شئون الكثرة عن ذات الوحدة، ولا تتفق به أطوار التلوين دون منازل التمكين، ولا تشغله مظاهر الفرق عن مقامات الجمع، يتجلّى له الواحد في مراتب الكثير، وتنجلي له حقيقة الأحادية في المنازل العددية، فالاتحاد مشربه، والائتلاف مذهب، وعندني أنه الأب الرحيم لكل إيراني بدون استثناء، يسعى لجمع كلمتهم بلا ملاحظة اختلاف المذهب، ولا تفارق في الفروع، وإنما يراعي الجامعة الحَقَّة، فعلى الأفغانيين أن يمددوا سوادهم في هذه الأوقات لمحالفة إخوانهم ولا يضيّعوا هذه الفرصة، وعلى القبليين أن يجعلوا وفاقهم سياجاً لأوطانهم، وعدة لكافحة أعدائهم، ومنبعاً فنياً لخير بلادهم، فينالوا شرفاً رفيعاً، ويورثوا أعقابهم مجدًا مخلداً.

الفصل الثاني والعشرون

سُنن الله في الأمم وتطبيقاتها على المسلمين

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا يَقُولُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

(الرعد: ١١)

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ مُغَيِّرًا نَعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

(الأدفاف: ٥٣)

تلك آياتُ الكتاب الحكيم، تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، ولا يرتاب فيها إلا القومُ الضالون، هل يُخالف الله وعده ووعيده وهو أصدق من وعد وأقدر من أ وعد؟ هل كذب الله رسالته؟ هل وَدَعَ أنبياءه وَقَلَّاهُمْ؟ هل غش خلقه وسلك به طريق الضلال؟ نعود بالله! هل أنزل الآيات البينات لغواً وعبثًا؟ هل افترت عليه رسالته كذبًا؟ هل اختلقوا عليه إفكاً؟ هل خاطب الله عبيده برموز لا يفهمونها، وإشارات لا يدركونها؟ هل دعاهم إليه بما لا يعقلون؟ نستعفر الله! أليس قد أَنْزَلَ القرآن عربًّا غير ذي عوج، وفَصَّلَ فيه كل أمر وأودعه تبياناً لكل شيء؟ تقدَّست صفاتِه وتعالى عما يقول الظالمون عُلُوًّا كبيرًا، هو الصادق في وعده ووعيده، ما اتَّخذَ رسولاً كذابًا، ولا أتى شيئاً عبثًا، وما هدانا إلا سبيل الرشاد، ولا تبديل لآياته، تزول السماوات والأرض ولا يزول حُكْمُ من أحكام كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

يقول الله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الرَّبُّوْرِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُثَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥)، ويقول: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون: ٨)، وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: ٤٧)، وقال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (الفتح: ٢٨). هذا ما وعد الله في محكم الآيات مما لا يقبل تأويلاً، ولا ينال هذه الآيات بالتأويل إلا من ضلٍّ عن السبيل، ورام تحريف الكلم عن مواضعه، هذا عهده إلى تلك الأمة المرحومة، ولن يخلف الله عهده، وعدها بالنصر والعزة وعلو الكلمة، ومهد لها سبيل ما وعدها إلى يوم القيمة، وما جعل مجدها أمداً، ولا لعزتها حداً.

هذه أمة أنشأها الله عن قلة، ورفع شأنها إلى ذروة العلي، حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات، ودُكَت لعظمتها عوالي الراسيات، وانشققت لهيبتها مرائر الضاريات، وذابت للرعب منها أعشار القلوب، هال ظهورها الهائل كل نفس وتحير في سببه كل عقل، واهتدى إلى السبب أهل الحق فقالوا: قوم كانوا مع الله فكان الله معهم، جماعةً قاما بنصر الله واسترشدوا بسُنْتِهِ فأمدتهم بنصرٍ من عنده.

هذه أمة كانت في نشأتها فاقدة الذخائر، معوزة من الأسلحة وعدد القتال، فاخترقت صفوف الأمم واختلطت ديارها، ولا دفعتها أبراج المحوس وخدادُّهم، ولا صدَّتها قلائع الرومان ومعاقلُّهم، ولا عاقَّها صعوبةُ المسالك، ولا أثَرَ في هممتها اختلاف الأهوية، ولا فعل في نفوسها غزارة الثروة عند من سواها، ولا راعها جلالة ملوكهم، وقدم بيوتهم، ولا تنوع صنائعهم، ولا سعة دائرة فنونهم، ولا عاق سيرها أحكامُ القوانين، ولا تنظيم الشرائع، ولا تقلبُ غيرها من الأمم في فنون السياسة.

كانت تطرق ديار القوم فيحققون أمرها، ويستهينون بها، وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تزعزع أركان تلك الدول العظيمة، وتمحو أسماءها من لوح المجد، وما كان يختجل بصدر أن هذه العصابة الصغيرة تقهَّر تلك الأمم الكبيرة، وتُمْكِن في نفوسها عقائد دينها، وتُخْضِعُها لأوامرها وعاداتها وشرائعها؛ لكن كان كل ذلك، ونالت تلك الأمة المرحومة — على ضعفها — ما لم تتنله أمة سواها، نعمَ قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوفاهم أجورهم مجدًا في الدنيا، وسعادة في الآخرة.

هذه الأمة يبلغ عددها اليوم زهاء أربعين مليون من النُّفُوس، وأراضيها آخذة من المحيط الأطلسي إلى أحشاء بلاد الصين، تربة طيبة، ومنابتُّ خصبة، وديارُ رحبة، ومع ذلك نرى بلادها منهوبة، وأموالها مسلوبة، تتغلب الأجانب على شعوب هذه الأمة شعبيًا، ويتقاسمون أراضيها قطعة بعد قطعة، ولم يبق لها كلمة تسمع، ولا أمرٌ يطاع،

حتى إن الباقيين من ملوكها يصبحون كل يوم في ملمة، ويُمسون في كربة مدلهمة، ضاقتْ أوقاتُهم عن سعة الكوارث التي تلم بهم، وصار الخوف عليهم أشدّ من الرجاء لهم. هذه هي الأمة التي كانت الدول العظام يؤدون لها الجزية عن يد وهن صاغرات، استبقاءً لحياتها، وملوكها في هذه الأيام يرون بقاءهم في التزلف إلى تلك الدول الأجنبية، ويا للهيبة ويا للرزية!

أليس هذا بخطب جلل، أليس هذا ببلاء نزل؟ ما سبب هذا الهبوط، وما علة هذا الانحطاط؟ هل نسيء الظن بالوعود الإلهية؟ معاذ الله! هل تستبيس من رحمة الله ونظن أنْ قد كذب علينا؟ نعود بالله! هل نرتاب في وعده بنصرنا بعد أنْ أكده لنا؟ حشاد سبحانه، لا كان شيء من ذلك ولن يكون، فعلينا أن ننظر لأنفسنا ولا لوم لنا إلا عليها، إن الله تعالى برحمته قد وضع لسير الأمم سننا متبعة، ثم قال: ﴿وَلَن تَجِدُ لِسْنَةَ اللَّهِ تَبِدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦٢).

أرشدنا سبحانه في مُحكم آياته إلى أنَّ الأمم ما سقطت من عرش عزّها، ولا بادت ومحى اسمها من لوح الوجود؛ إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنَّها الله على أساس الحكمة البالغة، إن الله لا يغيِّر ما بقوم من نور العقل وصحة الفكر، وإشراق بصيرة الاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة والتذير في أحوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا وحلَّ بهم الدمار، ثم لعدولهم عن سنَّة العدل، وخروجهم عن طريق بصيرة والحكمة، حادوا عن الاستقامة في الرأي، والصدق في القول، والسلامة في الصدر، والعلفة عن الشهوات، والحمية على الحق، والقيام بنصره، والتعاون على حمايته، خذلوا العدل ولم يجمعوا همهم على إلقاء كلمته، واتبعوا الأهواء الباطلة، وانكبُوا على الشهوات الفانية، وأتوا عظامَ المنكرات، خارتْ عزائمُهم، فشحوا ببذل مهْجهم في حفظ السنن العادلة، واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق، فأخذهم الله بذنبِهم وجعلهم عبرة للمعتبرين.

هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماءها في التحبي بالفضائل التي أشرنا إليها، وجعل هلاكها ودمارها في التحلي عنها، سنَّة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم، ولا تتبدل بتبدل الأجيال، كُسْنَتِه تعالى في الخلق والإيجاد، وتقدير الأرزاق وتحديد الآجال، علينا أن نرجع إلى قلوبنا، ونختبر مداركنا، ونُسبر أخلاقنا، وتُلاحظ مسالك سيرنا؛ لتعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالإيمان، هل نحن نقتفي أثر السلف الصالح، هل غَيْر الله ما بنا

قبل أن نغِّير ما بِأَنفُسِنَا، وَخَالَفَ فِينَا حُكْمَهُ وَبَدَلَ فِي أَمْرِنَا سُنَّتَهُ — حاشَاهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصْفُونَ.

بِلْ صَدَقَنَا اللَّهُ وَعْدَهُ، حَتَّى إِذَا فَشَلَنَا وَتَنَازَعَنَا فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْنَاهُ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَى أَسْلَافُنَا مَا يَحْبُّونَ، وَأَعْجَبْنَا كُثْرَتُنَا فَلَمْ تُغْنِ عَنَّا شَيْئًا، فَبَدَلَ عَزْنَا بِالذَّلِّ، وَسُمُّونَا بِالْانْهَاطَاطِ، وَغَنَانَا بِالْفَقْرِ، وَسِيَادَتُنَا بِالْعَبُودِيَّةِ، نَبَذْنَا أَوْامِرَ اللَّهِ ظَهْرِيًّا، وَتَخَانَذْنَا عَنِ النَّصْرَهُ، فَجَازَانَا بِسُوءِ أَعْمَالِنَا، وَلَمْ يَبْقَ لَنَا سَبِيلٌ إِلَى النَّجَاهَةِ سُوءِ التَّوْبَةِ وَالْإِنْتَابَةِ إِلَيْهِ، كَيْفَ لَا نَلُومُ أَنفُسَنَا وَنَرَى نَرِيَ الأَجَانِبَ عَنَّا يَغْتَصِبُونَ دِيَارَنَا، وَيَسْتَدِلُّونَ أَهْلَهَا، وَيَسْفَكُونَ دَمَاءَ الْأَبْرِيَاءِ مِنْ إِخْوَانَنَا، وَلَا نَرَى فِي أَحَدٍ مِنَّا حِرَاكًا.

هَذَا الْعَدُُ الْوَافِرُ وَالسَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْمِلَّةِ لَا يَبْذَلُونَ فِي الدُّقَاعَعِ عَنِ أَوْطَانِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ شَيْئًا مِنْ فَضْوِلِ أَمْوَالِهِمْ، يَسْتَحْبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَوْدُدُ لَوْ يَعِيشُ أَلْفَ سَنَةً، وَإِنْ كَانَ غَذَاوَهُ الْذَّلَّةُ وَكَسَاؤُهُ الْمَسْكَنَةُ، وَمَسْكَنُهُ الْهُوَانُ، تَفَرَّقْتُمْ تَشْرِقَا وَغَرْبَاً، وَكَادَ يَتَقْطَعُ مَا بَيْنَنَا، لَا يَحْنَ أَخْ لِأَخِيهِ، وَلَا يَهْتَمُ جَارٌ بِشَأنِ جَارِهِ، وَلَا يَرْقَبُ أَحَدُنَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا وَلَا ذَمَّةً، وَلَا نَحْرَمُ شَعَائِرَ دِينَنَا، وَلَا نَدَافِعُ عَنْ حُوزَتِهِ، وَلَا نَعْزِزُهُ بِمَا نَبْذَلُ مِنْ أَمْوَالِنَا وَأَرْوَاحِنَا حَسْبِمَا أَمْرَنَا.

أَيْحَسِبُ الْلَّابِسُونَ لِبَاسَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ اللَّهَ يَرْضِي مِنْهُمْ بِمَا يَظْهِرُ عَلَى الْأَلْسُنَةِ وَلَا يَمْسُسُ سَوَادَ الْقُلُوبِ؟! هَلْ يَرْضِي اللَّهُ عَنْهُمْ بِأَنْ يَعْبُدُوهُ عَلَى حِرْفٍ، فَإِنْ أَصَابَهُمْ خَيْرٌ اطْمَأْنَوْا بِهِ، وَإِنْ أَصَابَهُمْ فَتْنَةً انْقَلَبُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ خَسِرُوا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟! هَلْ ظَنَّوْا أَنْ لَا يَبْتَلِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِهِمْ، وَلَا يَمْحُصُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ؟! أَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَذِرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمْيِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، هَلْ نَسَوْا أَنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ لِلْقِيَامِ بِنَصْرِهِ وَإِلَاعَاءِ كَلْمَتَهِ، لَا يَبْخَلُونَ فِي سَبِيلِهِ بِمَا لَهُ، وَلَا يَشْحُونَ بِنَفْسِهِ؟! فَهَلْ لَمْ يَرَنْ بَعْدَ هَذَا أَنْ يَزْعُمَ نَفْسَهُ مُؤْمِنًا وَهُوَ لَمْ يَحْكُمْ خَطْوَةً فِي سَبِيلِ الإِيمَانِ، لَا بِمَا لَهُ وَلَا بِرُوحِهِ؟!

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ هُمُ الَّذِينَ إِذَا قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشُوْهُمْ لَا يَزِيدُهُمْ ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَثِبَاتًا، وَيَقُولُونَ فِي إِقْدَامِهِمْ: حَسَبْنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الوَكِيلُ، كَيْفَ يَخْشِي الْمَوْتَ مُؤْمِنًا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَقْتُولَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حُيُّ يُرْزَقُ عِنْدَ رَبِّهِ، مَتَمْتَعُ بِالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ، فِي نَعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَرَضْوَانِ؟! كَيْفَ يَخَافُ مُؤْمِنٌ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَلَا خَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٧٥)؟!

فلينظر كلُّ إلى نفسه، ولا يَتَّبِعُ وساوس الشيطان، وليمتحنْ كُلُّ واحد قلبه قبل أن يأتي يوم لا تنفع فيه خُلَّةٌ ولا شفاعة، وليطبق بين صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين، وما جعله الله من خصائص الإيمان. فلو فعل كُلُّ منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا.

يا سبحان الله، إن هذه أمتنا أمّة واحدة، والعمل في صيانتها من الأعداء أهمُّ فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء، يُثبت ذلك نُصُّ الكتاب العزيز، وإجماع الأمة سلَّفاً وخلَّفاً، فما لنا نرى الأجانب يَصُولون على البلاد الإسلامية، صولةً بعد صولة، ويستولون عليها دولةً بعد دولةٍ، والمتسمون باسم الإيمان آهلوُن لكل أرض، متمنون بكل قطْر، ولا تأخذهم على الدين نغرة، ولا تستفزهم للدفاع عنه حمية.

ألا يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تُقيموا القرآن، وتعلموا بما فيه من الأوامر والنواهي، وتتخذوه إماماً لكم في جميع أعمالكم، مع مراعاة الحكمة في العمل، كما كان سلفكم الصالح، ألا يا أهل القرآن هذا كتابكم فاقرءوا منه: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً مُّحَكَّمَةً وَدُكَّنَ فِيهَا الْقِتَالُ لَرَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ نَظَرًا الْمُغْشِيٌّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ (محمد: ٢٠)، ألا تعلمون فيمن نزلت هذه الآية؟! نزلت في وصف من لا إيمان لهم، هل يسر مؤمناً أن يتناوله هذا الوصف المشار إليه بالآية الكريمة، أوغر كثيرين من المدعين للإيمان ما زُين لهم من سوء أعمالهم، وما حَسَنَتْهُ لدِيهم أهواوُهم ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤).

أقول، ولا أخسني نكيراً: لا يمس الإيمان قلب شخص إلا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه في سبيل الإيمان، لا يُراعي في ذلك عذرًا ولا تعلة، وكل اعتذار في القعود عن نصرة الله فهو آية النفاق وعلامةُ البعُد عن الله.

مع هذا كله نقول إن الخير في هذه الأمة إلى يوم القيمة كما جاءتنا به نبأ النبوة، وهذا الانحراف الذي نراهاليوم نرجو أن يكون عارضاً يزول، ولو قام العلماء الأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأحيوا روح القرآن، وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة، واستلتفوهم إلى عهد الله الذي لا يُخالف؛ لرأيت الحق يسمو، والباطل يسفل، ولرأيت نوراً يُبهر الأ بصار، وأعمالاً تحار فيها الأفكار.

وإن الحركة التي نحسها من نفوس المسلمين في أغلب الأقطار هذه الأيام تبشرنا بأن الله قد أعد النفوس لصيحة حق يجمع بها كلمة المسلمين، ويوحد بها بين جميع الموحدين، ونرجو أن يكون العمل قريباً؛ فإن فعل المسلمين وأجمعوا أمرهم للقيام بما

أوجب الله عليهم؛ صَحَّتْ لهم الأوبة، وصحت منهم التوبة، وعفا الله عنهم، والله ذو فضل على المؤمنين.

فعلى العلماء أن يسارعوا إلى هذا الخير، وهو الخير كله: جمع كلمة المسلمين، والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلُ فَلَأَنَّ اللَّهَ وَلِيًّا مُرْسِلًا﴾.

الفصل الثالث والعشرون

الوهم

(اللهم اكشف عن بصائرنا ستار الأوهام حتى نرى الحقائق كما هي كي لا نضل ونشقى).

أَلَا قاتل الله الوهم؛ الوهم طوراً يكون مرآة المزعجات، مجلٍّ المفزعات، وطوراً يكون ممثلاً للمسرات، حاكِيًّا للمنعشات، وهو في جميع أطواره حجابُ الحقيقة، غشاءً على عين البصيرة، لكن له سلطانٌ على الإرادة وحكمٌ على العزيمة، فهو مجلبة الشر، ومنفأة الخير. الوهم يمثل الضعيف قويًّا، والقريب بعيداً، والمأمن مخافةً، والموثق مهلاً، الوهم يذهب الواهم عن نفسه، ويصرفه عن حسه، يخيل الموجود معدوماً، والمعدوم موجوداً، الواهم في كونٍ غير موجود، وعالمٍ غير مشهود، يخبط فيه خبط المتصروع، لا يدري ماذا أدركه وماذا تركه، الوهم روحٌ خبيثٌ يُلبس الروح الإنسانية، وهي في ظلام الجهل، إذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام، وتسلطت على الإرادات، فتقود الواهمين إلى بيداء الضلال، فيخبطون في مجاهيل، لا يهتدون إلى سبيلٍ، ولا يستقيمون على طريق.

كان الإنجليز أمة مجتمعة القوى، مستكملة العدد مستعدة للفتحات، وذلك في زمان بُليتْ فيه الأُمم الشرقية بت分区 الكلمة، واختلاف الأهواء، وحُجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصناعِهم وعوائدهم، فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزةً، وكل بديع من الابتراع سحراً أو كرامة، فانتهز الإنجليز تلك الفرصة واندفعوا إلى

الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه، وما دهموا سكانه إلا ببعض غرائب الصنعة الأوروبيّة التي أثارت فيهم خواطر الأوهام.

ثم زاد الوهم قوّةً ما نصبه الإنجليز من حبائل الحيلة والمكر، حتى خلبا قلوب المساكين وأذلواهم عما في أيديهم، بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم، فسلبوا أموالهم، وانتزعوا منهم أراضيهم، وأجلوهم عن أملاكهم، فاستغفت الأمة الإنجليزية بما سلبت، وأثرت بما نهبت، وترفهت بما ملكت، واليوم تراها حاكمة على أقطار واسعة، وأنحاء شاسعة، وقوها منقسمة على تلك الأقطار، متوزعة فيها، فلا ترى في كل إٍيالة من إٍيالاتها الشرقيّة إلا نزراً من العدة والعدد، وهي في جميعها ضعيفة واهنة، لا تستطيع نوّداً ولا دفأعاً.

وإنَّ أخف حركة في تلك الأنحاء توجب زعزعة في تلك القوة أو هدمها بالمرة، وقد ظهر هذا الأمر على الأمة الإنجليزية، فهي دائمًا في رجفة على أملاكها، في خيفةٍ من تمزّقها وضياعها، تتوجّس من كل حادثةٍ في العالم، وتقلق لآية حركة تحدث في الوجود، وكل ملمة تلم بالشرق أو الغرب توجب بحدوثها زللاً في قوى الإنجليز المتوزعة في الأنحاء الضعيفة في جميع الأرجاء.

ومع هذا كله نرى الأمر لم يزل خفيًا على الشرقيين، محجوبًا عنهم بحجاب الوهم، يمثل الوهم لكل شرقي أن الإنجليز على ما كانوا عليه في ماضي زمانهم، فمَثُلَ الشرقيين مع الإنجليز كمَثُلَ مَارًّ في مفازة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريقه فاقدة الحياة عديمة الحراك، فيتوهمها سبعاً ضارياً ومفترساً قوياً فينكب عن الطريق وهما وربّه بدون تحقيق لما تخوّف منه، يرتعد ويسقط ويموت خوفاً أو يضل بعد ذلك عن الجادة، وتخالط عليه مسالك الوصول إلى غايته، وربما صادف مهلكة في ضلاله ومختلفة في غيه. بل لا نخطئ إن قلنا: إن هذا الوهم كان متسلطاً على الغربيين كما هو متسلط على الشرقيين، فال الأوروبيّون كانوا ينظرون إلى إنجلترا في أملاكها البعيدة كما ينظرون إليها في جزائر بريطانيا، وكانت حكومة إنجلترا متحصنة ممتنعة في هذه القبة الوهمية، متربعة على عرش هذه العظمة الخيالية، يحسُّ الإنجليز بضعف قوتهم فيجتهدون دائمًا في ستره ولا ستار أكثُر من الوهم.

ولهذا نراهم في كل حادثة يجلبون ويصيّحون ويزأرون ليثيروا بالضوضاء هواجس الأوهام، فتحول أنظار الناظرين، وتعشى بصائر المستبصرين، فتحول دون استطلاع الحقيقة، وإنْ فقليلاً من الالتفات يكشفها فتقوم قيامةُ الخراب على الإنجليز.

ذهب الإنجليز إلى الهند في قوى مجتمعة وتسابقوا مع فرنسا وهولندا والبرتغال في ميدان الأرضي الهندية الواسعة، فحازوا في هذه المبارزة قصب السبق بما امتازوا به من الدهاء والمكر، وبما ساعدتهم على ذلك من غفلة الهنديين لذاك العهد أو طيب قلوبهم، فمالت **النُّفُوس** إلى الإنجليز اغتراراً، وتغلبوا على تلك البلاد واستقلاوا بأمرها شيئاً فشيئاً، وما أبقوها لغيرهم من الدول إلا مضائق من الأرض لا تُذكر، وأول ما استمموا به القلوب السالمة قولهم: إننا نريد تخلصكم من هذه الدول الظالمة (فرنسا، وهولندا والبرتغال) فإنها تريد التسلط على ممالككم، أما نحن – الإنجليز – فلا نريد إلا تحريركم واستقلالكم.

ثم إننا نرى للإنجليز الآن في الهند والهند الصينية وبورما سلطةً على نحو مائتين وخمسين مليوناً من **النُّفُوس** جميعها كارهٌ لتلك السلطة الإنجليزية، طالبٌ للتخلص منها، يفضل **آية** سلطة سواها، ظالمٌ كانت أو عادلة، كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الأمم أنه لا توجد حكومة في العالم تبلغ في ظلمها مبلغ الإنجليز، ولا تصل إلى ما وصل إليه الإنجليز في الكربلاء والجبروت، ولكن مع هذه البغضاء الآخنة بقلوب أولئك الرعايا، ومع سعة ديارهم وتباعد أرجائها، وشدة ميلهم للتملص من تلك السلطة الظالمه؛ لا يوجد فيهم قوةٌ تقهرون على الخضوع لتلك الحكومة المبغوضة إلا خمسون ألف جندي إنجليزي، مع أنه يوجد من المالك الصغيرة التي لها نوعٌ من الاستقلال وتخشى زوال ما بقي لها، ما لو جمعت قواها لبلغت أكثر من ثلاثة ألف جندي، هذا فضلاً عنمن يمكنه حمل السلاح من أهالي البلاد التي دخلت في الحكومة الإنجليزية وزال استقلالها بالمرة. فلولا الوهم الذي استولى على المشاعر والحواس حتى أذهلها عما بين يديها، بل عما هو موجود فيها؛ ما بقيت هذه **النُّفُوس** الكثيرة العدد الفائقة القوة في قبضة قوم ضعاف يسومونهم عذاب الذل والهوان، ولو لمج أولئك المساكين أنفسهم لحمة اعتبار، وأدركوا ما آتاهم الله من القوة الطبيعية، ونظروا إلى ضعف الإنجليز في الحالة الحاضرة؛ لرأوا موئل الخلاص بين أيديهم، وملجاً النجاة تحت أرجلهم، وعلموا أن استقلالهم لأنفسهم وببلادهم لا يحتاج إلى تجشم تعب ولا تكلف مشقة، ولا يدعون إلى بذل أموال وافرة، ولا سفك دماء غزيرة.

يوجد في الدول الأوروبية من يهاب دولة الإنجليز اعتباراً لما في سلطتها من المالك الواسعة والأمم العظيمة مما لم يبلغ عدده رعيةً دولة من الدول، ويقيس شأنها وقوتها في تلك الأطراف القاسية بما يراه في جزائر بريطانيا، ويظن أن لها قدرة على الدفع

عن تلك الممالك تساوي قدرتها عليه في بريطانيا أو تقرب منها، ولم يلتفت إلى أن جسم الإنجليز قد مد في الطول والعرض إلى حدّ لو حصلت فيه أدنى هزة لقطعت أوصاله (رق حتى انقطع).

تفرقت قواهم في بسيط الأرض حتى لم تبق لهم في موضع قوة، ورعاياهم في كل صقع في ضجر لا مزيد عليه يتربون في كل آن زحفاً من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكبة بحكامهم الظالبين.

لو التقى تلك الدولة التي تهاب إنجلترا إلى حقيقة الأمر لـما احتجت في معارضتها ومنازلتها إلى تدبر ولا مشورة، فقد وصل الأمر من الظهور إلى حدّ لا يحتاج إلى بدقة الفكر لولا حجاب الوهم، قاتل الله الوهم!

إن العثمانيين ينظرون إلى دولة الإنجليز كما ينظرون إلى دولة الروس، مع ملاحظة أن دولة إنجلترا تحكم على مائتين وخمسين مليوناً من النّفوس، فيظنون، لهذا النظر، أن معارضته هذه الدولة ربما تجلب الضرر، ولি�تهم مددوا أنظارهم إلى ما وراء ذلك؛ ليتبين لهم قوتها العسكرية، وماذا يمكنها أن تسوق من الجنود إلى ميادين القتال، ويتبين لهم أن هذه الملالي الكثيرة لا اعتداد بها في قوة دولة إنجلترا، فإنما هي في الحقيقة قوة لأعدائها عليها، وهي في ارتقاب الفرص لخلع طاعتها، فمته ارتكتب دولة إنجلترا بالحرب مع دولة أخرى رأيت مائتين وخمسين مليوناً تقاتل عساكر الإنجليز، خصوصاً خمسين مليوناً من المسلمين في حكومة إنجلترا يعدون الدولة العثمانية قبلة لهم وملاذاً يلجهون إليه، وهم أول قوم حربين في البلاد الهندية.

ليت العثمانيين يعلمون أن دولة إنجلترا إنما تستميل المسلمين في الهند بكونها حليفة الدولة العثمانية ونصيرها لها ومدافعة عن حقوقها، أما والله لو علم العثمانيون ما لهم من السلطة المعنوية على رعايا الإنجليز، واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلاء؛ لـما تجرعوا مراة الصبر على تحكمات الإنجليز وحيفهم في أعمالهم، وتعديهم على حقوق السلطان في مثل المسألة المصرية، التي هي في الحقيقة أهم مسألة عثمانية أو إسلامية.

إن سكنا مصر كانوا أيام عربي على قسمين، قسم يروم حفظ الحالة القديمة والوقوف عند ما يرسم به توفيق باشا، وقسم كان يميل بأحد جانبيه إلى عربي، وبهاب بالجانب الآخر سلطة الرسم القديم، فكان هذا القسم الثاني في ريبة من أمره، ولا عزيمة من الريب، والقسم الأول مخلد إلى الفشل، فدخل الإنجليز بلا حرب حقيقة وإنما بنوع من الترهيب وقليل من الترغيب وخفيف من الدسائس، صادف قلوبًا مستعدة فأخذ منها

مقاماً، فانحلت الرابطة وتفرقَ النّاس عن عربي بزوالِ جانبِ الميل إليه من قلوبهم، ومع ذلك ما كان يعتقد واحدٌ منهم أنَّ الإنجليز يبتغون من البلاد شيئاً سوى أنَّهم يؤيدون توفيق باشا وينفذونه من التأثيرين عليه.

فتتساهل المصريون في الأمر بحسن ظنهم في حكومة الإنجليز مع ما جاءهم من الحجة القوية القائمة على أنَّ صاحب السيادة الشرعية في رضاء عن تصرفها، بهذا فاز الإنجليز واستقرت أقدامهم. أما وقد مضى الزمان الكافي لظهور غدرهم، وسوء نيتهم، فلا يوجد من الأهالي المصريين من يميل إليهم، بل لا يوجد إلا من يبغضهم ويتمنى فناءهم، ويجد لو يعمل عملاً لهلاكهم، ولكن الوهم يجسم المخافة ويُكَبِّح العزيمة. إنَّ أهالي مصر كأنهم ذهلاً عن الأسباب التي مكَّنت الإنجليز من بلادهم، كأنهم يظنون أنَّ المصريين كانوا على كلمة واحدة في مدافعة الإنجليز، ثم تغلبتُ عليهم القوة الإنجليزية وقهرتُهم جميعاً. لأنَّ المصريين نسوا ما كان بينهم وأنَّ الإنجليز ما دخلوا بلادهم إلا بمعونتهم، هذا هو الوهم العجيب.

إنَّ الذين كانوا من مدة سنتين سبباً في تغلُّبِ العساكر الإنجليزية وحلولها في وادي النيل وأنه لولهم ما استقر لها قدم فيه؛ يظنون الآن أنَّ تلك العساكر قادرةً على قهر الأهالي عموماً وإخضاعهم لحكومة بريطانيا، وبهذا الظن الباطل يستسلمون لأعدائهم كرهاً ويجارونهم في أهوائهم نفافاً.

هلا ينظر المصريون نظرة متأمل إلى القوة الإنجليزية؛ ليعلموا أنَّ ليس في طاقة بريطانيا، لو أفرغتُ جهدها، أن تبعث إلى مصر والسودان أزيد من عشرين ألف جندي! ألا يعلمون أنه إذا اشتعلَ الجنُّ الإنجليز بالسودان وحصلتْ حركة خفيفة في الشرقية والبحيرة والفيوم لارتباك الإنجليز وخارطُ عزائمُهم والتجئوا لتركِ البلاد لأهلهَا؟! ألا قاتل الله الوهم!

إنَّ للإنجليز قوةٌ بحرية لا تُنكر، ولكن مبلغ تلك القوة البحريَّة هو الذي ظهر أثره في سواكن لا يمكن أن تعمل عملاً فيما يبعد عن البحر أكثر من فرسخين، فلو فرضنا أنَّ الإنجليز أطلقاً قنابلهم على السواحل، فهل في استطاعتهم أن يقيموا تحت ظلالِ القنابل إلى أبدِ الآبدين؟! إذا كان الأهالي في داخلِ البلاد يناؤونهم وليس لهم من القوة العسكرية البرية ما يقهرهم على الطاعة، ليس في الأمر شيءٌ سوى الوهم، هذا الوهم تمزقتْ حُجْبُه عن بصائر الغربيين فعلموا من هم الإنجليز ... ضعيفٌ يسطو على حقوق الأقوياء، صوتٌ عالٌ وشبحٌ بال، قامت الدول على معارضتهم؛ لعلمها أنَّ الإنجليز

صاروا للأمم كالدودة الوحيدة على ضعفها تُفسد الصحة وتدمر البنية، لكن بقي أن يزول هذا الوهم عن الشرقيين؛ حتى يستفيدوا من هذه الحركات ويستقلوا بأمورهم ولا ينتقلوا من عبودية إلى أخرى، ولا يستبدلوا سيداً أجنبياً بسيد آخر، اللهم ارفع عنّا حُجب الأوهام، وهب لنا الرشد في أمورنا، واحفظنا من الغواية، واهدنا إلى خير نهاية.

الفصل الرابع والعشرون

الجبن

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَأَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةً﴾.

(النساء: ٧٨)

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِكُمْ﴾.

(الجمعة: ٨)

شهد العيان ودللت الآثار على ما صدر من بعض أفراد الإنسان من أعمال تحير الألباب، وتدھش الأفكار، ينظر إليها ضعفاء العقول فيعدونها معجزات وإن لم تكن في أزمنة النبوات، ويحسبونها خوارق عادات وإن لم تكن من تحدي الرسالات، وقد ينسبها الغفل إلى حركات الأفلاك وأرواح الكواكب وموافقة الطوالع، ومن القاصرين من يظنهما من أحكام الصدف وقدفات الاتفاق؛ عجزاً عن إدراك الأسباب، وفهم الصواب.

وأما من آتاه الله الحكمة ومنحه الهدایة، فيعلم أن الحكيم الخير - جل شأنه وعظمت قدرته - أ Anat كل حادث بسبب وكل مكسوب بعمل، وأنه قد اختص الإنسان من بين الكائنات بموهبة عقلية ومقدرة روحانية، يكون بهما مُظهراً لعجائب الأمور، وبهذه المقدرة وتلك الموهبة مَنَاطُ التكاليف الشرعية، وبهما استحقاق المدح أو الذم عند العقلاة، والثواب أو العقاب عند واسع الكرم سريع الحساب.

إذا رجع البصيرُ إلى القياس الصحيح رأى في تشابهِ القوى الإنسانية وتماثلِ الفطرة البشرية ما يدل على تقاربِ العقول، بل على استواءِ المدارك، وأرشدهِ الفكرُ السليمُ إلى أنَّ فضلَ الله قد أعدَ كلَّ إنسانٍ للكمال، ومنحه ما يكونُ به مصدرًا لفضائلِ الأعمال، على تفاوتٍ لا يظهرُ به الاختلافُ بينها إلا للنظرِ الدقيق. هنا وقفةُ الحيرة ... استعدادٌ فطريٌ للكمال في خلقةِ الإنسان، ميلٌ كليٌ في كلِ فردٍ لأنَّ ينفردُ بالفخار، ويمتازُ بجلالِ الآثار، وفضلُ عامٍ من الجوابِ المطلق — سبحانه وتعالى — لا يخيب طالبًا، ولا يرد سائلًا، إذا صدقَ القاصِدُ في قصده، وأخلصَ السالكُ في جده، فما العلةُ في إخلادِ الجمهور الأعظم من بنيِ الإنسان إلى دَنَيَّاتِ المنازلِ وقصورِهم عن الوصولِ إلى ما أَعْدَتْ لهم العنايةُ ويستفزُهم إليهِ الميلُ الغريزي، خصوصًا إنَّ كانتُ النُّفوسُ مؤمنةً بعدلِ الله، مصدقةً بوعدهِ ووعيدهِ، ترجو ثوابًا على الباقياتِ الصالحاتِ، وتخشى عقابًا على ارتكابِ الخطيباتِ، وتعترفُ بيومِ العرضِ الأكبير، يومٌ تُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبتَ **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ حَيًّا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾** (الزلزلة: ٨-٧)، ماذا يُقعد بالنُّفوسِ عنِ العملِ؟! ماذا يُنحدرُ بها في مزالقِ الزلزلِ؟! إذا ردتِ المسئياتُ إلى أسبابِها، وطلبتِ الحقائقَ من حدودِها ورسومِها وجدناً لهذا علةٌ هي أَمُّ العللِ ومنشأُ يُقُرِّنُ به كلُّ خللٍ: «الجبن».

الجبنُ هو الذي أَوْهَى دعائِمَ المالكِ فهدمَ بناءِها، هو الذي قطعَ روابطَ الأمَّ فحلَّ نظامها، هو الذي أَوْهَنَ عزائمَ الملوكِ فانقلبَ عروشُهم، وأضعفَ قلوبَ العالمينِ فسقطَ صروحُهم، هو الذي يُغلقُ أبوابَ الخيرِ في وجوهِ الطالبيِّنِ، ويطمسُ معالمَ الهدایةِ عنَّ أنظارِ السائرينِ، يسهلُ على النُّفوسِ احتمالَ الذلةِ، ويخففُ عليها مغضِّ المسكنةِ، ويهونُ عليها حملِ نيرِ العبوديةِ الثقيلِ، يوطنُ النَّفْسَ على تلقِي الإهانةِ بالصبرِ والتذليلِ بالجلدِ، ويوطّئُ الظُّهورَ الجاسيةَ لأحتمالِ من المصاعبِ أثقلَ مما كانَ، يتوهمُ عروضهِ عندِ التحلِي بالشجاعةِ والإقدامِ، الجبنُ يُلْبِسُ النَّفْسَ عارًا دونِ القربِ منهِ موتُ أحمرٍ عندَ كلِّ روحٍ زكيةٍ وهمةٍ علَيَّهَا، يرىِ الجبانُ وعِرِ المذلاتِ سهلاً، وشظفُ العيشِ في المسكناتِ رفَّهَا ونعيماً.

من يهْنِ يسهلُ الهوانَ عليهِ ما لجرحِ بميتهِ إيلام

لا، بل يتجرعُ مراتاتِ الموتِ في كلِ لحظة، ولكنه راضٌ بكلِ حالٍ وإنْ لم يبقْ له إلا عينُ تُبصرُ الأعداءَ، ولا ترىُ الأحياءَ، ونفْسٌ لا يصعدُ لا بالصعداءِ، وإنْ حسَسَ لا يلمُ به إلا

ألم الألواء. هذه حياته: أضاع كل شيء في القناعة بلا شيء، وهو يظن أنه أدرك البغية، وحصلَ المنية.

ما هو الجن؟ انخدالٌ في النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائمُ حالها، وهو مرض من الأمراض الروحية، يذهب بالقوة الحافظة للوجود التي جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعية، وله أسبابٌ كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع إلى الخوف من الموت، الموت مآل كل حي ومصير كل ذي روح، ليس للموت وقتٌ يُعرف، ولا ساعةٌ تعلم، ولكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر يُنتظر في كل لحظة، ولا يعلمه إلا مقدر الآجال – جلَّ شأنه: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًاٰ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (القمان: ٣٤).

يشتد الخوف من الموت إلى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم، والذهول عما أعدَ الله للإنسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة إذا صرف قواه المهووبة فيما خلقت لأجله، نعم يغفل الإنسان عن نفسه فيظن ما جعله الله واقياً للحياة – وهو الشجاعة والإقدام – سبباً في الفناء، يحسب الجاهل أن في كل خطوة حتفاً، ويتوهم أن في كل خطوة خطراً، مع أن نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الإنسانية، وما ناله طلاب المعالي من الفوز بآمالهم، وما ذلّلوا من المصابع في سيرهم؛ تكشف له أن تلك المخاوف إنما هي أوهام وأصواتٌ غيلان، ووسوس شياطين، غشيتها فأدهشتُه، وعن سبيل الله صدَّته، ومن كل خير حرمه.

الجُنُون فُخٌ تتصبه صروفُ الدَّهْر وغوائل الأيام؛ لتعتال به نفوس الإنسان، وتلتهم به الأمم والشعوب. هو حالة الشيطان يصيده بها عباد الله ويصدّهم عن سبيله، هو علة لكل رذيلة، ومنشأ لكل خصلة ذميمة، لا شقاء إلا وهو مبدؤه، ولا فساد إلا وهو جرثومته، ولا كفر إلا وهو باعثه وموجبه، ممزق الجماعات، وقطع روابط الصلات، هازم الجيوش، ومنكس الأعلام، ومهبّط السلاطين من سماء الجلالة إلى أرض المهانة، ماذا يحمل الخائنين على الخيانة في الحروب الوطيسة، أليس هو الجن؟ ماذا يبسط أيدي الأدneys لدنيئة الارتشاء، أليس هو الجن؟ ربما تتوهم بُعد المثال، فتأمل، فإن الخوف من الفقر يرجع بالحقيقة إلى الخوف من الموت، وهو علة الجن، سهل عليك أن تعتبر هذا في الكذب والنفاق وسائر أنواع الأمراض المفسدة لعيشة الإنسان، الجن عارٌ وشنارٌ على كل ذي فطرة إنسانية خصوصاً الذين يؤمنون بالله ورُسله واليوم الآخر، ويؤمنون أن ينالوا جزاءً لأعمالهم أجرًا حسناً ومقاماً كريماً.

ينبغي أن يكون أبناء الملة الإسلامية — بمقتضى أصول دينهم — أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبن)؛ فإنها أشد الموانع عن أداء ما يرضي الله وإنهم لا يبتغون إلا رضاه، يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت علامة الإيمان، وامتحن الله به قلوب المعاندين، ويقول في ذم من ليسوا بمؤمنين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُوا أَيْدِيهِمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَحْشِيَّةً اللَّهُ أَوْ أَشَدَّ حَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لَمْ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخْرَجْنَا إِلَى أَجْلٍ فَرِيقٍ﴾ (النساء: ٧٧). الإقدام في سبيل الحق، وبذل الأموال والأرواح في إلقاء كلمته أوسمةً يتسم بها المؤمنون، لم يكتف الكتاب الإلهي بأن تُقام الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتكف الأيدي، وعد ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون والمنافقون، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح في إلقاء كلمة الحق والعدل الإلهي، بل عده الركن الوحيد الذي لا يُعتدُّ بغيره عند فقده. لا يظن ظانٌ أنه يمكن الجمع بين الدين الإسلامي وبين الجبن في قلب واحد، كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الإقدام، وإن عماده الإخلاص لله والتخلي عن جميع ما سواه لاستحسان رضاه؟!

المؤمن من يوقن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء ولا يفيده التباطؤ عن أداء الفروض زيادةً في الأجل، ولا ينقصه الإقدام دقّيقه منه، المؤمن من لا ينتظر بنفسه إلا إحدى الحسنيين: إما أن يعيش سيداً عزيزاً، وإما أن يموت مقرباً سعيداً، وتصعد روحه إلى أعلى علية، ويلتحق بالكربيدين والملائكة المقربين.

من يتوهם أنه يجمع بين الجبن وبين الإيمان بما جاء به محمد ﷺ، فقد غش نفسه وغمر بعقله ولعب به هوّسه وهو ليس من الإيمان في شيء، كل آية من القرآن تشهد على الجبان بحسبه في دعوى الإيمان؛ لهذا نؤمل من ورثة الأنبياء أن يصدعوا بالحق، ويدركوا بآيات الله، وما أودع الله فيها من الأمر بالإقدام لإلقاء كلمته، والنهي عن التباطؤ والتقادع في أداء ما أوجب الله من ذلك، وفي الظن أنَّ العلماء لو قاموا بهذه الفريضة (الأمر بذلك المعروف والنهي عن هذا المنكر) زماناً قليلاً، ووعظوا الكافة بتبيين معاني القرآن الشريف وإحیائها في أنفس المؤمنين؛ رأينا لذلك أثراً في هذه الملة يبقى ذكره أبداً الدّهر، وشهادنا لها يوماً تسترجع فيه مجدها في هذه الدنيا وهو مجد الله الأكبر، فالمؤمنون بما ورثوا عن أسلافهم وبما تمكّن في أفضتهم من آثار العقائد؛ لا يحتاجون إلا لقليلٍ من التنبية، ويسيّر من التذكير، فينهضون نهضةً الأسود فيستردوا مفقوداً ويحفظوا موجداً، وينالوا عند الله مقاماً مموداً.

الفصل الخامس والعشرون

زلزال الإنجليز في السودان

نقلت الجرائد الإنجليزية برقيةً وردت إلى جريدة أستندراد من دونقلا، ثم كررت ذكره وثبتت مفاده أيامًا متتاليات، ومحصله: أن الألسن تلهج في مدينة دونقلا وفيما بين الجيوش الإنجليزية بقدوم جيش محمد أحمد، والحديث مستفيض في جميع المعسكرات بأنه زاحف إليهم بجيشين أحدهما يأتي من الصحراء والآخر على شطوط النيل، وأنهم لا بد أن يلاقوا منه صدمةً شديدة لا قبل لهم باحتمالها.

وقد استولى بذلك الإضراب والتشویش على أفكار العساكر خصوصاً عساكر مدير دونقلا؛ خوفاً وفزعًا، ولكن لما أيقنوا به واطمأنوا إليه من أن السلطان راض عن أعمال محمد أحمد، بل صدرت منه التنبیهات إلى جميع المؤمنين في تلك الأطراف بأن يتجنبوها محاربة هذا القائم، وأن يعتبروا الإنجليز في منزلة العدو الأكيد ويقاوموهم مقاومة الآيسين.

ا.هـ

كنا نعلم أن جميع المسلمين وعموم الوطنيين يرون من فروض ذمتهم السعي في معاكسة سير الإنجليز وإقامة الموانع في طريقهم بقدر الطاقة والإمكان؛ قياماً بما يوجبه الدين والوطن، ولا يحتاجون في الانبعاث لهذا العمل الشرييف إلى أمير سلطاني؛ فإن الشريعة الإلهية والنوميس الطبيعية في كل ملة وكل قطر من أقطار الأرض تطالب كلَّ شخص بصيانة وطنه والذود عن حوزته وتبيح الموت دونه، بل توجبه في مدافعة الباغين عليه، وتدعو كل ذي عقل لأنذن الحذر من حيل المحتالين، والتوقّي من الأرواح

الشريعة الخبيثة التي تتجلى في أشكال من الصور، منها ما يخطف بِرُونقِه الظاهر لِبِالألباب ويهدب بهوه الصوري بنور الأ بصار، وهي منابع الشر ومصادر الفساد ومهبُّ رياح الفتنة والاحتلال، تلك أرواح الأجانب ونفوس الأبعد الذين يهتكون حرم البلاد ويخصضون شؤون العباد ويفغمطون الحقوق ويفسدون الأخلاق ويدلون التفوس.

المدافعة عن الوطن أمرٌ طبيعيٌّ، وفرضٌ معاشيٌ يكاثف في دعوة الطبيعة إليه الميل إلى الطعام والشراب، فليس يمدح القائمون به ولا يثنى عليهم في أدائه. نعم، تتجلى صورُهم الجميلة محلة بأوصافها الفاضلة في مزايا التواريХ عندما يمر النظر إليها على تماثيل الخائنين الذين جاوزوا تخوم الطبيعة وصيغت لهم هيأكل من اللعن الأبدي مسريلة بالخزي والعار السرمدي، هكذا يُعرف الشيء بضده.

لسنا نعني بالخائن مَن يبيع بلاده بالنقد ويسلمها للعدو بثمنٍ بخس أو بغير بخس — وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس — بل خائن الوطن مَن يكون سبباً في خطوة يخطوها العدو في أرض الوطن، بل مَن يدع قدماً لعدوٍ تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها، ذاك هو الخائن، في أيٍ لباس ظهر وعلى أي وجه انقلب.

القادر على فكر بيديه، أو تدبير يأتيه، لتعطيل حركات الأعداء ثم يقصر فيه؛ فهو الخائن، من لم يستطع عملاً وأمكنته أن يرشد العامل وتهانون في النصيحة؛ فقد خان، من سُوفَ عمل اليوم إلى الغد وتوانى في تضليل كيد الأعداء بقول أو فعل؛ فقد ارتكب خطيئة الخيانة. وكل خائن لوطنه أو ملته فهو ملعونٌ على ألسنة الأنبياء والمرسلين وممقوٌ في نظر العالم أجمعين.

ما أعظم جريمة الخيانة (المساهلة في شئون الأوطان) يأتي الزمان ببطوله على كل شيء فيمحو أثره ويطمس رسمه إلا وصمة الخيانة، فلا تطويها الأدهار، ولا يخفيها تطاول الأعصار، مُحيت أسماء العظماء والملوك والسلطانين، ولكن لم تمح أسماء الخائنين، لوث على وجه الزمان ودرن في صفحة الإمكان مكتنفة باللعنة محفوفة بالمقت إلى أبد الآبدية، لا يحيط القلم بوصف الخائن وما يتبعه من الشنائ، ولكن التفوس مهما تدانت في الإدراك تشعر بعظم جرمه، فلنرجع إلى موضوع كلامنا.

كُننا على يقين ولا نزال عليه، أن الذات الشاهانية وهي الأُب الأَكْبَر لعموم المسلمين، وهي الكافلة للشريعة الحافظة للدين؛ هي أجرُ النَّاس بالالتفات إلى حركة الأعداء في البلاد الإِسلامية، وهي لا تألو جهداً في تعويق سيرهم وإحباط أعمالهم، ولا يمكن أن يطمئن للسلطان قلبٌ وهو يرى أن أمة عظيمة من أخلص الأمم في الولاء له والخضوع

لشوكته سقطت تحت السلطة الأجنبية، وإنه لحرج الصدر من أعمال الحكومة الإنجليزية وعدوانها على الحقوق العثمانية والإسلامية والمصرية بلغت غشمرة الإنجليز إلى حد لا يحتمل، فليس من الغريب أن تضيق بها الصدور وتفيض بالغيظ منها القلوب وتبل من هنا دروعُ الصبر وتذوبُ سابغات الجلد.

في أيها المصريون، هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم وشريعتكم، قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلاً واحتلاساً، زحف العدو إليكم تحت راية الحبة، ثم قلب لكم ظهر المجنّ، وتناول بيده الظالمة شئونكم العامة، من عسكرية ومالية وإدارية وقضاء، ولم يبق لكم شيئاً إلا الحرمان من خدمة أوطانكم، وأنتم أحقُّ بها وطالما دافعتم عنها في الأيام السابقة.

هذا، وهو لم يأمن طوارق السياسة الخارجية ولم يمح القوى الداخلية، يطلب استمالة القلوب إليه، وجمع النُّفوس عليه، فكيف به إذا رسخت أقدامه، وارتكتز أعلامه، وخلا له الجو من المعارضين؟! ماذا ترجون من مطاولته، وماذا تؤملون في إرخاء العنان له، وماذا تهابون في معارضته والأخذ على يده؟!

أما رجاءُ الخير منه فهوُ فاسدٌ وخياطٌ باطلٌ؛ فقد رأيتم أنه أفسد شئونكم، وأقلق راحتكم، وحرم رجالكم من الخدم، وأفقر الآفًا مؤلفةً من العائلات، ووهب من بلادكم لأعدائكم، وأضرَّ بمنافعكم العامة من زراعة وتجارة وصناعة، فأغلق أبواب الكسب في وجوهكم، وقصد إلى التدخل فيما يختص بأمور دينكم (كالأوقاف)، وعمد إلى خرق سياجكم وإزالة قوتكم بطرد جنودكم، وهذه أوائل أعماله، فكيف تكون نهايتها؟! فماذا تخشون منه؟

هل تخشون أن تنقص أموالكم، وثمرات كسبكم إذا أديتم حقوق وطنكم وحاربتم عدوكم؟! ربما يختلج هذا بخاطر بعضكم، وهو من عجيب الخواطر، أنتم واقعون بسكونكم فيما تخافون منه، انتقصت الأموال والثمرات، وفاضت العبرات وزادت الحسرات، وإن زدتم في الخضوع زادكم عدوكم خساراً وأوسعكم خراباً ودماراً، إن رسخت قدم العدو بينكم لا يبقى منكم غنيٌ إلا افتقر، ولا عظيمٌ إلا احترق، وإن شئتم فانظروا مستقبلكم في مرآة حاضركم، واقرءوا حالكم في توارييخ من سبقكم.

هل تخشون إذا قدمت بفروعكم أن يأتي الخطر على حياتكم؟! يمكن أن يعرض هذا الوهم بخيال طائفة منكم، ولكن فلتعلموا أن عدوكم في هذا الوقت ضعيفُ العزيمة خائِر القوة، الدول مُتَّالِبة عليه يتربّع منها في كل آنٍ مُطالبته بنتائج أعماله ومحاسبته

على عواقب تصرفه، ثم هو يخشى الدول أو أشد خشية، إنه مسرع في سيره منطلق إلى مقصده بغاية ما يمكنه، ليتخذ لنفسه قراراً مكيناً، ومقرراً أميناً، ولا يخفي عليكم أن المسرع في جريه يكتبه على وجهه عثرة في مدرة، فلو ظهرت منكم في هذا الوقت مقاومة خفيفة، أو مؤاخذة طفيفة، أو تظاهرتم بالنفرة وعدم الرضاء عن سيره فيكم، وجهيرتم بذلك، لرأيتم أن ماءه سراب، وسحابه جهام، وسيفه كهام، وأوقفتم سيره واستعليتكم بقوتكم على ضعفه، وأقمتم للدول حجة قوية في كبحه ورد جماحه، وإلزامه باحترام الحقوق العامة والخاصة، ونزع قوة العمل من يد استبداده، وتحويلها لسلطة تحفظ بها الموازنة بين حقوقكم وحقوق أوروبا كافة.

أما لو تركتم عدوكم حتى ينتهي لمقره، ويقوى على أمره، ويدوخ السودان، ويحيط بجيشه أعلى البلاد المصرية — لا أناله الله ذلك — صعب بعد هذا تعريفه بقدره، وإيقافه عند حده، وضعفت حجة الدول في معارضته، إن أقوم حجة للدول عليه هي عجزه عن القيام بما كتب على نفسه من تقرير الراحة وإصلاح ما كان يظن من الخلل في مصر، فلو تمكن عدوكم بسكنونكم من إظهار قدرته وإقامة الدليل على كفاءته للولاية عليكم، فقد فاز بالسيادة فيكم وأصبحت دماءكم وأموالكم وجميع شئون حياتكم في قبضة جوره.

في إمكانكم الآن أن تضروا بعدوكم وليس في إمكانه أن يضرّ بكم، فإذا مضى زمنٌ انعكست القضية وأصبحت في عجز عن مقاومته وأصبح وفي يده عصا الجبروت لإذلّكم.

إن كنتم تخافون من الموت أو التذليل فهل هو الآن على بُعد منكم؟! أليس يؤخذ منكم الأبرياء بالشبه الباطلة، ويهانون ويذلون وكثير منهم يقتلون؟! إن عدوكم هذا سيحاسبكم على خطرات قلوبكم وحركات دمائكم في أبدانكم، ويفعل بإخوانكم في ديار غير دياركم، ثم لا يُبقي على أحد منكم، فأنتم اليوم أصحاب أمركم وهذا قصده إليكم، وفي إمكانكم أن تستعينوا الله في التحصن من خطرٍ آجلٍ، بدون ضرر عاجل، فإن شئتم فارحمو أنفسكم، وإلا فأنتم ساقطون، فيما منه تخافون.

يا قوم يؤثر في كتبكم من كلام سلفكم: الشجاع محب حتى لعدوه، والجبان مبغض حتى لأبيه وأمه، تعلمون أنه ما عَزَّ قوم بالخصوص، ولا استهين شعب بالإباء، لماذا تعدون أنفسكم في الدَّرَجَة الدنيا عَمَّن سواكم؟! ألسنتم تتشابهون في الخلقة مع أعدائكم؟! ألسنتم تمتازون عنهم بالإيمان الصادق، والعقائد الصحيحة؟! ألسنتم تنتسبون إلى أولئك الأبطال

الذى دخوا البلاد وسادوا العباد؟! ألستم تَدَعُونَ أنكم أشرف عنصراً وأكرم جوهراً،
فإن قمتم بطلب حقوقكم فهل يصيّبكم أكثر مما يصيّب أعداءكم؟ إن كان الموت فهم
يخشونه، إن كان الخسار فهم يرعبونه، إنهم يأملون كما تأملون، وترجون من الله ما لا
يرجون.

لأي شيء يخاطر عدوكم بماله ودمه للتغلب على ما ليس له؟ ولأي سبب لا تقدمون
بشيء من شهامتكم في حفظ ما هو لكم؟! إن هذا شيء عجاب! هل نذكركم بقول
شاعركم:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يُراق على جوانبه الدم

ليس هذا مقام التذكير، وليس المكان مكان المبارزة في المجد والمسابقة إلى معالي
الأمور، إنما الكلام الآن في الدّفاع عن الحياة وصيانته ضروريات المعيشة، فإن لم يستفزكم
طلب العُلَا وسموُّ الهم فليستفزكم تصور الشقاء المنتظر، الذي رأيتم بوادره ونوعه
بالله أن تدرككم أواخره، أستغفر الله، لا تزال ترجى فيكم النجدة والشمم والرفة، لا
يزال دينكم يترقب منكم حمية عليه وغيره لدفع الغائلة عنه.

إن صاحب الدين ﷺ ينتظر فيما يعرض عليه من أعمالكم نهضةً لإعلاء كلمة الحق
وإنقاذه من مخالب أعدائه، وإن الله في عزة جبروته لن يدعكم على ما أنتم عليه حتى
يعلم الصادقين منكم ويعلم الصابرين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ (الصف:
١٤)، ﴿وَلَا تَهُنُوا وَلَا تَحْرَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩).

باب النتف والأخبار

الفصل الأول

سياسة إنجلترا في الشرق

هلع على ما في البيت فهلوع لإغلاق الباب، فانخلع المصراع وانقض الجدار من ورائه. هذا شأن دولة بريطانيا في الهند، وقناة السويس، قصارى بغيتها أن تكون في أمن على هذا الباب، وكان سهلاً عليها أن تخلص النية في مسالة أرباب الولاية عليه، فيقونه بأرواحهم وأموالهم، ثم هي تفوز بفوائده إلى الأبد. إلا أن جيشان الأوهام، وموحشات الأحلام، دفعتها ل مباشرة حمايتها بنفسها، فإذا الأمر أصعب من أن ينال، وأساس البيت أوهى من أن يدوم.

أرادت دولة إنجلترا بعد تبوئها أرض مصر، أن تدخلها تحت حمايتها، وأن تبدل العساكر الوطنية بإنجليزية، وأن تقيم في السودان سلطنة مستقلة، وحاولت في ذلك إرضاء المصريين بأنه من الضرورات لتنظيم أحوالهم وإقرار الراحة بينهم، وتسكين روع العثمانيين بحفظ الحق وتخفيف الوزر، وكان لكلٍّ أن يستبشر بهذه الخدمة الجليلة إن تمت، ولو لا ما لدولة إنجلترا من تقسيم الممالك التيمورية في الهند، وإقامتها لكل قسم حامية من قبلها، وكان هذا أكبر الأسباب وأصغرها لاستيلائهما على الأقطار الهندية، وإننا لئن أسف على التفاوت بين الزمانين، والتباين بين المكانين، فلا الإحسان الإنجلزي يمكن تتميمه، ولا العثمانيون والمصريون يستبشرون بنوله، وخطر الأمرين غير يسير.

ظهرتْ دعوى المهدوية في السودان، واشتد أثرُ القائم بها بمسارعة الإنجلزي إلى التداخل في مصر بحجة حفظ باب الهند، وعَظُم خطب الداعي بعدما أراق دماءً غزيرةً،

وَدَبَّتْ رُوحُ دعوته إلى سواحل البحر الأحمر وحدود مصر الطبيعية، وأمالت القلوب إليه نفرتها من السلطة الإنجليزية.

يقرب من الظن أن نفثاته مازجتْ أفتئدة العرب في فيافي طرابلس، أو قاربتْ، وأن هذه النيران التي يُشعّلها بالبكاء على الدين والنوح على امتهانه، لا تلبث أن تنقض شرارة منها على جزيرة العرب، وفيها يصعد عوبل الدين ونحبيه إلى عنان السماء، وعند ذلك يمسي باب الهند بين السنة النيران من جهتين بل من ثلاثة جهات، أبيعد عند العقل وبريطانيا لاهية بإنقاذ الباب أن تتقى النيران في البيت؟! إن الخطر اليوم أشدُّ مما اهتمت بدفعه سابقاً، ماذا أخذت من الوسائل لدفع هذه الغائلة؟

أرسلت جوردون باشا إلى السودان لتفريغ كلمة المغاربين ورقية محمد أحمد الحمداني، السودانيون لم تلتئم جراحهم من ظلم جوردون أيام كان حاكماً مستبداً عليهم، وفي علمهم أنه أعدى أعداء الديانة الإسلامية؛ فقد طلب وهو فيهم قسساً من السويس لنشر المذهب البروتستانتي بين مسلميهم، فهل تمكّنه الفصاحة الإنجليزية أن يمحص صدور العرب من الضغينة الدينية والدينوية، بعدما رسخت أعواماً، ويمحوها في بضعة أيام، وهل يسهل عليه إرضاء محمد أحمد، بعدما قام بدعوة عظيمة كهذه بمنحه لقب أمير كوردافان، أو هل يقنع صاحب هذه الدعوى بمثل هذا اللقب بعدما تسنى له من الفتوحات واستولى على تلك البلاد بدون إذن جوردون، قد يظن هذه الظنون مَنْ لا وقوف له على حقيقة دعوى المهدوية وموقعها من قلوب المسلمين، ويكتفي لكشف بعض ما في الغيب ما اتفقت عليه الجرائد الإنجليزية والفرنسية وأثبتته المخابرات الرسمية من إخفاق جوردون في سعيه كما تراه في غير هذا المقام.

ساقت خمسة آلاف، وعلى بعض الروايات: أربعة آلاف جندي تحت قيادة الجنرال جراهام إلى سواحل البحر الأحمر لاسترجاع شرف بيكر باشا، وثار ضباطه من الإنجليز (أما هكس باشا وضباطه جيشه فلبعدهم عن البحر لا شرف لهم ولا ثأر)، وغلب هذا الجيش، المدرب الكامل العدة الشاكي السلاح من أجود طرز، ثلاثة آلاف من عراة العرب السودانيين (بمعنى أنه قتل منهم ثمانمائة بدوي) والقبائل على عصبيتها لم تَحن بعد، هل بهذا تدفع الغواص؟! أيظن ذو عقل أن فاتحاً فتك بعشرة آلاف جندي مرة وألفين وخمسمائة مرة أخرى جميعها تحت إمرة مشاهير من جيش إنجلترا يخور عزمه لانهزام شرذمة من المنسبين إليه، وهل يؤثر هذا وهنّا في اعتقاد المذعدين لدعوته؟! سبحانه الله! كان لغلبة هذا الجيش رجة في إنجلترا، وخُلّ لحكومتها أنه نجاح في العمل، وربما نشأ

هذا الخيال من التهنئات التي وردت إليها من الدول وسفرائها مما لم ينله نابليون الأول وغليوم الألماني.

أقول، وحق ما أقول، إن الضريم شديد، فإن ترك امتد وأخاف الدانية والقاصية، وليس في إمكان جوردون ولا أحذق سياسي في إنجلترا أن يُخمد لبه والمناوشات البريطانية تحضره فتزيده اشتعالاً، وإنما يتيسر إطفاؤه لأولى العزم من العثمانيين والمصريين؛ لكونهم على شاكلة صاحب الدعاوى وبيدهم عنانها.

كان من حذق الإنجليز لو اكتفوا في حفظ باب الهند بعهد العثمانيين وحضوره المصريين مع القوة البريطانية، والتفتوا إلى ترميم سياج الهند من الجهة الشمالية، ماذا يفديهم سد الباب إذا وَهَيَ الأساس فتداعت الجدران وَخَرَّ السقف، إن قبائل التركمان في «مرُو» مع شرس طباعهم لحقوا بدولة الروس اختياراً بعدهما كانوا مستقلين في أمورهم لا يدينون لسلطة أجنبية عنهم، فأي مانع يمنع تركمان سَرَّخْس، وهم سُنُّيون، من الاقتداء بهم؛ تخلصاً من حكومة فارس المخالفة لهم في المذهب، فإن تم هذا فتح للروس طريق فراه إلى قاين إلى سجستان، وأي قوة تتصدّها عن طمعها، وإن حلّت في سجستان أو فراه فأية عقبة بينها وبين الهند؟

إن قبائل أزبك من سكان «ميمنة» و«أندخو» و«شيورغان» و«سربيول» وسائر بلاد بلخ إلى «وبليمان» في ضجر من الحكومة الأفغانية، أفلأ يتبع هؤلاء أثر أبناء أعمامهم التركمان، فإن غفلوا فتحت لهم روسيا باباً من الملاطفة، وذهبوا بهم في طرق من سياسة الذين لتشويقهم إلى الدخول في حمايتها والتملّص من نير الأفغانين، وليس في قوة حكومة الأفغان كبحهم إن أرادوا لضعفها فيهم.

إن قبائل هزارنة من الشيعة الساكنين في الجبال الممتدة من هراة إلى كابول ينتظرون الأسباب للخروج على حكومة الأفغان نفرة من سلطة السنّيين، وقد كانوا في الحرب الأخيرة بين الإنجليز والأفغان متفقين مع الإنجليز، فهم بعدهما يرون جيرانهم انحازوا إلى الروس، أفلأ ينزعون إلى مغارتهم خصوصاً إذ لمعت لهم بوارق الوعود الروسية، هذه كله يكون، فتشرف روسيا بعد على الميدان المتسع المتند من هراة إلى قندهار إلى غزنة بل إلى كابول من جهات كثيرة، فهل بعد هذا يبقى للهند سياج؟ وهل يمكن أن يُقام في وجه روسيا مانع من المسير إليه؟ وهل ينفع عند ذلك الوقوف على نافذتي «قناة السويس»؟ أليس يسهل على الروس عند إشرافهم على تلك الواقع الإيقاعُ بين قبائل الأفغان وبين المرشحين للإمارة، ويتخذون منهم أحزاياً كما فعلوا بخوانين القرم؟

تقرّبَتْ دولة روسيا إلى ألمانيا والنمسا في هذه الأيام، وانعقدتْ بينهم معاهدةٌ على حفظ السلام في أوروبا إلى زمن غير قصير، ولم يكن هذا التقرّب مبنياً على ما يخيّله السياسيون في كل دولة على حسب مصالحهم، وإنما رأى رأيُ روسيا أن الوقت وقتُ العمل في آسيا، فطلبتُ الراحة من جهة حدودها الأوروبيَّة لتتفرّغ لإجراء مقاصدها في أطراف الهند، وإن الفزع من هذا الانتقال الفجائيٌّ قد ظهر أثُرُهُ في جميع الجرائد الإنجليزية. ليمض الإنجليز صرفاً قوتهم ووجهوا عزيمتهم لدفع ما يلم بهم من الخطر القريب ولم يقعوا في شرك المسألة المصرية، فإن ما كانوا يخافونه من مصر كان وهما صرفاً، فلما طرقوها أودعوا فتنَّة ما كانت تخطر ببال أحد، ثم هم في عجز عن علاجها، وإننا نظن كما يزعم الوزراء العثمانيون أن الإنجليز ليس في إمكانهم أن يكسرُوا سورتها بأنفسهم، ولا بد لهم من يوم يلجهُون فيه إلى ذوي العزيمة من العثمانيين والمصريين — وإلى الله عاقبةُ الأمور.

الفصل الثاني

مصر

كانت حكومة هذه البلاد في الربع الأول من القرن الماضي (الهجري) تُعدُّ من نوع حكومة الأشراف، ويحسبها المؤرخون في تلك الأوقات بدرجة لا تعرف هيئتها، ولا يصل بحث الباحث إلى كُنهها، وإذا عبروا عنها بالتقريب قالوا: طرز قديم كان معروفاً في أغلب أنحاء المسكونة.

ثم أُعجب الدَّهُر فيها بغرائبِه بعدها فوضت أمورها لحمد علي باشا، فلم يمض قليلٌ من الزمن حتى دخلت في طور جديد من أطوار المدنية، وظهر فيها شكلٌ بسيطٌ من الحكومة النظمية وتقدمت فيه على جميع المالك الشرقي بلا استثناء، وعُدَّ هذا التقدم السريع من عجائب الأمور.^١

هل كان في حسبان أحدٍ أن يستلم زمام الحكومة في مصر رجلٌ من بعض قرى الرومليلي لم يتربع في دروس العلم ولم يجلب في مصانع السياسة، إلا أن طبيعته الفطرية كانت فائضه بحب الحضارة، وبث العلوم، وتأسيس قواعد العمران، مع تدفق همته لبلوغ الغاية مما يميل إليه؟!

^١ ترى ماذا كان يقول الأفغاني لو بُعث من قبره ليتحدث عن الماسي التي خلفها خلفاء محمد علي باشا، وما كان من مهازل بلاط فاروق الأول؟!

تقدمت بعد ذلك فيها الزراعة تقدماً غريباً، واتسعت دائرة التجارة، وعمرت معاهد العلم، وانتشرت في أرجائها مبادئ المعارف الصحيحة، وتقربت أنحاؤها، واتصلت أطراها بما أنشئ فيها من سك الحديد وخطوط التلغراف، وتعارفت أهاليها، وائتلت الجنوبي بالشمالي، والغربي بالشرقي، وقوى فيهم معنى الأخوة الوطنية، بعد أن كانوا لبعد الشقة بين بُلدانهم كأنهم أبناء أقطار مختلفة، وتواصلوا في المعاملات، وتشاركوا في المนาفع، واعتدلت المشارب المذهبية، حتى كان لهم زمن أحسن فيه كل واحد بنسبيه من الآخر، وارتفعت بذلك أصواتهم، بعدما جالت فيه أفكارهم.

تفجرت من أرض مصر ينابيع الثروة، وعمدت بقاعها وطفحت ففاض خيرها على ما يجاورها من الأقطار الشرقية، بل وصل مذهبها إلى أراضي البلد الغربية، وتوارد إليها الغرباء، وقصدوا الكسب من كل مكان، وما خاب لها قاصد، ولا أخفق فيها سعىٌ ساعٍ، فأثرى في مغانها الفقراء، وعز بها الأذلاء، وصارت قبلة لآمال كثير من الغربيين، ومحط رحال الراجين من الشرقيين، وكل وافد إليها يجد أهلاً خيراً من أهله، وسكنى خيراً من سكنه، وتكاثرت فيها العناصر الغربية، حتى كان الداخل إليها يخيل له أنه تحت برج بابل يوم تبليلت الألسن.

وساد بها الأمن وعمت الراحة، وضارعت في كل أحوالها نوع ما عليه المالك الأوروبيّة العظيمة، وكان المتأمل في سيرها هذا يحكم حكمه ربما لم يكن بعيداً من الواقع، أن عاصمتها لا بد أن تصير في وقت قريب أو بعيد كرسى مدينة لأعظم المالك الشرقيّة، بل كان ذلك أمراً مقرراً في أنفس جيانتها من سُكّان البلدان المتاخمة لها، وهو أملهم الكبير، كلما ألم خطأ أو عرّض خطر، غير أن الأيام كأنها حستها على ما منحته، فغثر العاقل، وفرط المالك، وأعثر المعجب، وتهور الغبي، وخار الأفني، فتقرب البعيد، وبعُد القريب، ونزل بمصر ما لم يكن له أثرٌ إلا حواشي طوامير الأوهام — ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الحمت إدارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها، وانتفضت منها أصول على وجهٍ غير مأله، ففتحت للدسايّس أبوابُ وأنساب، بين طبقات النّاس، دهاء سياسة، وطلاب غaiات، فتفرق اتصال، وتقطعتُّ أوصال، فضعف السلطة الوازعة، ونبذت الطاعة، والتهبّت نيران الفتنة.

قضاء حل بتلك البلد، فاحتاجت في إعادة شأنها الأول إلى رأي قويم، وعزم ثابتٍ، ووازع قويٍّ، تدين لسطوته النفوس، وإن من ذوي الحقوق فيها من يجمع هذه

الأوصاف، وله من القلوب المكانة العليا، وكان يسهل عليها القيام بما يعهد إليه، لكن تحكم طمعٌ وأخطأ ظنٌ، فتختلفت النتيجة، واشتدت الحاجة.

أشفقت دولة الإنجليز على طريق الهند، كما يقال، أو ظنت أن آن التقدم بعض خطوات قد آن، فرأيت أن إعادة الأمن وتبسيط الراحة في مصر من فرائض دمتها، فكان من التحرير والتدمير والقتل والشنق والحبس والإبعاد والتعريض، وما شاكل ذلك مما لا حاجة لبيانه، وعمَّ بعض أنواع الهون، حتى لم يبق من يعرف اسمه أحدٌ إلا مسه ضرمه، ما خلا أشخاصاً قلائل، وهذه المرهبات على ما بها من القوة لم تبلغ الغرض من تأمين طريق الهند لإشرافه على الخطر من وجه آخر، ولم تأتِ بما كان يؤمل منها لنظام البلاد.

أليست المالية هي مرمى أنظار دول أوروبا، وما وضع نظام في البلاد ولا أحدث تغيير بمشورتهم إلا لوقاية الخزينة من العجز عن أداء ما يتعلق بها من الحقوق الأوروبية؟ اليوم رزئت بالنقص في الإيراد، وحُمِّلت من تعويضات متالف الحرب أربعة ملايين من الجنيهات، ورميت بنفقات جيش الحلول، وحرب السودان، ومصاريف إخلائه، وما يضاف إلى كل هذا مما يُظهره المستقبل، فاختلت الموازنُ، وبطل قانون الجبايات، وأي مصيبة على المالية أعظمُ من نوازلها الحاضرة؟!

عقد العزم على إلغاء الجيش الوطني، وهو قوة البلاد وبه فخارها، وكأنه لم توجد وسيلة لتنظيم جنود مصر، وقصر الجهد عن مُجارة محمد علي باشا، وإبراهيم باشا، اللذين دعوا كثيراً من الأقطار بجنود مصرية.

إن كان كل ما تقدم من الشدائِد والخطوب وزيادة النفقات وإلغاء العساكر الوطنية إنما يُتخذ سبيلاً لراحة الأهالي، وتحسين أحوالها، فنعمت الوسائل إذا أدت إلى غياتها، لكن أين السبيل من المقصد، وأين هذه المعدات من تلك الغيات؟

وأسفًا على حالة الأهالي بعد هذا! حكم من لا دافع لحكمه بطردآلاف من الوطنيين الموظفين في دوائر الحكومة، وما منهم أحدٌ إلا ويتبعه عائلة وأولاد، ولا قوت لهم إلا من مرتب عائلهم، وما من على عمل للكسب سوى ما نشأ فيه من خدمة الحكومة، ألم يمس هؤلاء ضر الفقر؟! ألم يغضبهم ناب الجوع؟! ألم يهتك مستورهم؟! ألم يضيق ذرعهم؟! ألم يصبحوا كساة بسراويل الكابة، عراة من أكسية المسرة؟! إن لم يكن كل هذا فقد كان جله، وإن صدَّ أنيفهم يتل في صفحات الجرائد الوطنية العربية والإفرنجية وسيتبع السابقين منهم اللاحقون، حتى لا يجد وطني في البلاد من المهن إلا ما لا يليق بالإنجليزي تعاطيه من سفاسف الأمور — كما هو في البلاد الهندية.

اضطرب ميزان السلطة العامة لتعاكُس قواها المختلفة فاشتبه الأمر على العمال، وظنوا أن لا تبعه عليهم فيما يعملون، فانطلق ما عُلَّ من أيديهم، وحكموا أهواهم في أداء وظائفهم، فخبطوا وخلطوا، أفعمت السجون بأعيان الرعية، ورفعت أذناب الكرايج لتشريح أبدانهم، واستعملت آلات التعذيب، وامتدت مخالب الجور لتجريدهم من بقایا أموالهم، وثمرات كسبهم، وحدث نوع من الحكم المطلق عزيز المثال، بُعث عليهم عذابٌ من فوقهم أو من تحت أرجلهم، ولبسوا شيئاً وأذيق بعضهم بأس بعض. وما الله بغافل عما يفعل الطالدون.

غلقت أبواب العمل من وجوهه الرسمية في الإدارات، وتعطلت أشغال المحاكم، وشحنت الأ Bias لعاقبة هذا التنازع بين القوى الحاكمة، فاتسع نطاق الفوضى وارتفع حجاب المنعة، فإذا الفلاح لا يبالي بعمدته، والعمدة لا يبالي ب瞖 مرکزه، والمأمور لا يحترم مديره، وسرى التهاون إلى الدوائر العليا، وعاد الأمر لقوة الساعد وكثرة الأعوان فعاثت اللصوص، وكثُر قطع الطرق في كل ناحية.

وارتفعت الأصوات بالشكوى منهم في عموم الجرائد الوطنية، فوقفت حركة الأعمال العمومية، وبدت للناس شئونٌ عدلت بهم عن ضرورات معاشهم، وامتنع المدينون من أداء ما عليهم لدائنيهم من التجار والربويين؛ فقبض المقرضون أيديهم واحتكروا نقودهم لفقد ثقتهم وإشفاقةهم من الضياع على رعوس أموالهم، وإن أصيروا بالحرمان من الربح وابتلوا بالخسارة في رأس المال من قبيل آخر.

واشتدت الحاجة بالفلاحين إلى ما يعوض عليهم من ماشية في الحراثة بعدما اغتالها التيفوس، وما يجدون أو يصلحون به آلاتهم الزراعية، ويستعينون به على نجاحها حسب العادة التي أَلْفُوها، فعميت عليهم من السبل، وضاقت بهم المسالك، ولم يجدوا لسد حاجتهم سبيلاً؛ ففسدت الزراعة وانتصبت ثمراتها، وانحطت أسعار الحاصلات لارتفاع الأحوال إلى حد ما كان يسمع إلا في القصص وروايات القدماء قبل محمد على باشا، وطالب الحكومة في ضرائبها ورسومها على حالها الأول مع الإغلاق في اقتضائها، فعمَّ العُسرُ وأحاط الضنك، وتقوضت آلاف من البيوت التجارية، وأتركت أيدي ملابين من عمال الصناعة، وأعدم المزارعون قاطبة إلا نذر يسير من حفظة الكنوز أو المستأذنين بأموال الكافة نهباً وسلباً.

باع الفلاح أثاث بيته، بل وما أبقيه التيفوس من عاملة أرضه، بعدما ذهبت الحاجة بحلي حرميه وبناته ليؤدي ما عليه لحكومته، ولم يتب من نضارة العيش ما يقوم بحفظ

حياته، وعاد إلى الفطرة الأولى يقتات بأقوات البهائم ويُسرح مسارح الحيوانات إلا قليلاً منهم الله يعلمهم.

وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية، والأخذ بالشبه وإنْ ضعفتْ، واتباع بواطل التهم وإنْ بعثْ، أو استحالٍ، حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذَه، وبلغ منها مبلغه، فلا ترى ماراً بطريق إلا وهو يستلتفت خلفه لينظر؛ هل تعلق بأثوابه شرطٌ يقوده إلى السجن، أو يقتضي منه فدًا. وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر في كل خطوة عثرة، وفي كل نهضة سقطة، وله من كل شاخص دهشةٌ ومن كل طارق لبابةٍ غشيةٌ، أي شقاء ينتظره الحي في حياته أشنع من هذا؟!

هذا ما تنشقُ له المأثر من أحوال سُكَان القطر المصري، هذا بعض ما يضيق به الصدر، وتتنبض له الأنفُس، مما رزئوا به بعدما تَكَفَّلَ أهباوهم الأولون بالدُّفاع عنهم وتحلِّيَّهم من الفوضوية السابقة، هذه طلائع الإصلاح المبشر به من زمان بعيد على ألسنة رسله، أصبح الأهالي حيارى في أموالهم، تائهين عن رشادهم، لا يعلمون ماذا يحل بهم، يذكرون من أحوالهم السابقة ما كانت الدول الأوروبية تسميه ضيقاً وعناً وتمنيهم بالإنقاذ منه **فيَجِنُون إِلَيْهِ وَيَوْدُونَ لَوْ رَجَعُوا إِلَيْهِ**، ويحسبونه غاية سعادتهم، بعد هذه **الحالة التي هم فيها**.

أبعد هذا يصح لمصريٍّ أن يظن أن تلك الرزایا التي حَلَّتْ ببلاده من نحو عشرين شهراً كانت مقدمة لإصلاحها وتنظيم شئونها؟! نعم يمكن أن يخطر بالبال أنها تمهدٌ لعمل صناعيٍّ في الأراضي المصرية كتقسيم طرقها، وإقامة جسورها، وتكثير جداولها، وتقوية مواد الخصب فيها، حتى تعود بعد مدة جنة من جنات الدنيا، أو روضة من رياض الآخرة، أما الأهالي فليسوا بموضع النظر فإنهم إن هلكوا ورث الأرض بعدهم قومٌ آخرون.

فإن لم يكن هذا فليكن تمام الإصلاح الذي لا يمثُلُ الخاطر، في وقتنا الحاضر، ولا يكفي للبداية فيه سُنون معدودة على قياس الإصلاح المنتظر في بلاد بنجاب (من المالك الهندية)، فإن الدولة التي تولت إصلاح الشئون المصرية في هذه الأيام، دخلت بلاد بنجاب بهذه **الحجَّة**، واستولت عليها من مدة أربعين سنة، ولم تزل إلى الآن حكومتها عسكرية، ولم يشرع فيها بتنظيم مدنٍ، فلينتظر إخواننا المصريون فإننا معهم من المنظرين.

الفصل الثالث

أعجوبة

ظهر لراسل التايمس بالإسكندرية في هذه الأيام ما كان ظاهراً عند الكافة عامتهم وخاصتهم، ولم يخف على غبي ولا ذكي ولا أعمى ولا بصير، بل لم يحصل فيه أدنى شبهة في زمِن من الأزمان الماضية، فأبرق إلى جريدة التايمس يثبت فيه ما يأتي: إنه يوجد بين طبقات الأهالي جمهورٌ كثير ينفر من سلطة الإنجليز (وخلج أن يقول جميع الأهالي)، كذلك وأنهم لا يسررون بإرسال العساكر إلى توکار، بل بلغ الأسف منهم غايتها عندما سمعوا بانتصار جراهام على العربان.

ويقرب من هذه الأعجوبة ما أجاب به جرانفيل موزورس باشا عندما بين له لزوم التداخل العثماني في حوادث السودان، حيث قال: إن العساكر التركية تُلقي من معارضه المصريين مثل ما تُلقي العساcker الإنجليزية، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

الفصل الرابع

غريبة

روتْ جريدة الثان، عن الجرائد الإنجليزية: أن الخديو الحالي عقد عزمه على الاستعفاء من منصبه، إلا أنَّ حرمته (زوجته) عارضته فيما عزم عليه كل المعارضة، وعندما أشار إليها بما في نيته تناولتْ مقراضاً وجَرَّتْ شعرها؛ علامة على الحداد وأقسمتْ أن لا تلبس الجوارب والأحذية حتى توقن بعدوله عن مقصده هذا، وهي من ذاك الوقت تمشي حافية وتنتظر آخر عزيمة من زوجها الخديو.

ولعل هذا من مبالغات الجرائد الإنجليزية، أو يكون منشئُه إلحاد السير بارين عليه بطلب حماية إنجلترا – كما رواه كثُرُّ من الجرائد، أو إجباره على التنازل، كما روتْه جرائدُ أخرى.

الفصل الخامس

جوردون باشا

إن جوردون باشا بعدما نصب نفسه للمدافعة عن حرية السودانيين زماناً طويلاً، وكثير ما توسل بذلك لعودته حاكماً للسودان؛ نال في هذه الحوادث بغيته، وأرسل من قبل دولته لعمل سوداني فوصل الخرطوم وافتتح أعماله بمخالفة مشربه، فأعلن إباحة بيع الرقيق وإلغاء معاهدة سنتي 1879-1877، ثم تَعَدَّى على حقوق السلطان بدعوى مختلفة، منها أنه جاء نائباً عنه، وتضاربَتْ أقواله في مأموريته، فادعى أنه حاكم عامٌ على الأقطار السودانية بأمر دولته والحكومة المصرية، مع تصريحه بأن الحكومة المصرية لا دخل لها من الآن في إدارة السودان رأساً واعترافه بإماراة الشيخ محمد أحمد على كوردفان.

هذه كل وسائله لامتلاك قلوب السودانيين، ولم يلبث أن ظهر ضعفُ سياسته عند جميعهم؛ لعلهم السابق بأطواره، فكان ما أجمعُتْ عليه الجرائد الإنجليزية والفرنسية من عدم نجاحه في مأموريته، فإن الأخبار الخصوصية الواردة من الخرطوم متقدمة في أن ما أُشيع من البهجة بقدوم جوردون مُحي أثره وتحول إلى اضطراب وقلق وتشويش في الأفكار، وأن القبائل فيما وراء الخرطوم تسخر بمنشوره وتهزأ بوعده ووعيده. وهذا الضرب من السياسة ربما يستغربُه من لا يعرف حال جوردون، أما المصريون جميعاً والسودانيون خصوصاً فلا يعجبون منه لوقوفهم على أحواله من قبل، وإنما

العجب من كون الحكومة الإنجليزية ذهلت عن أن ثورة دينية لا يمكن إطفاؤها بيد من يخالف الثائرين دينًا وشكلاً ولغة وإن كان عاقلاً سياسياً.

يثبت هذا الذي قلناه ما ورد إلى «الديلي نيوز» من أن الجنرال جوردون بعث برقية أثبتت فيها أنه عاجز عن مساعدة الحامية المصرية في السودان ما لم يكن تحت إمرته جيوش على النيل الأبيض والنيل الأزرق، وما جاء من مكالمة لراسل التايمز حيث صرح له أنه لم يعد في إمكانه أن يفعل أزيد مما فعل (وما فعل شيئاً) لتقرير الراحة بين السكان، وأن العزم على إخلاء السودان فتح للشيخ محمد أحمد سبيلاً لإثارة القبائل بين ببر والخرطوم، وفي أثناء المحادثة أظهر احتياجه لفرقتين من العساكر ترسل إليه من جيش الجنرال جراهام، ومما قاله: إنه من الضروري تعيين زبير باشا خلفاً له في الخرطوم ويفوض إليه إعادة الراحة ومقاومة الثائرين، وهذا من عجيب تدبيره؛ فإن هذا البasha إن لم يكن معتقداً بصاحب دعوة المهدوية، فعندئله أعظم باعث للاتفاق معه، فإنه لم ينس ما حل بأولاده وأقاربه من القتل صبراً، وما سلب من أمواله نهباً وغصباً، فكيف يميل لمساعدة الحكومة المصرية على إخضاع الثائرين عليها؟!

الفصل السادس

جراهام وعثمان دجمة

بعث الجنرال جراهام قائد جيش الإنجليز في جهة سواكن، بمنشورات إلى رؤساء القبائل يُعدُّهم ويُمَنِّيهِم ويهددهم ويتوعدُهم لينفصلوا عن عثمان دجمة، وإلى عثمان يرعد له ويبرق، ويرغبُ ويزبد، ويطلب منه التسليم، فوردَ الجواب من عثمان برفضِ الطلب والاستعداد للحرب، وردت الرسائل من واحد وعشرين شيخاً من مشايخ القبائل ناطقةً بأنه لا واسطة بين الإنجليز ومساعديهم، وبين القبائل السودانية إلا السيف، ثم قالوا: إن كل من لا يصدق بدعوى المهدى فإنه سيكون لا محالة فريسة للموت وطعمة للهلاك. فاضطر الجنرال جراهام لإعادة التهديد مرة أخرى على النحو الأول، ويغلب على الظن أنَّ الجواب يكُونُ الجواب.

وجاء في جرائد الإنجليز أنَّ الشیخ المرغنى (وهو شیخ طریقة من المسلمين) بعث إلى عثمان دجمة رقیماً یستدعيه للطاعة، ویُحذّره من مقاومة العساکر الإنجليزیة، فأجابه عثمان دجمة بأنَّ في عزمه شرب دماء الإنجليز وكل من یساعدُهم فإنه یحارب بسيف الإسلام، وفي ختام جوابه نصَّ للمرغنى، وطلب منه أن یقوم بإرشاد الإنجليز إلى ترك الحرب ووضع السلاح، وهو أولى له من نصَّ مشايخ القبائل العربية والإسلامية.

الفصل السابع

المسألة المصرية

إن المسألة المصرية صُبِغت في إنجلترا عدة صبغات من يوم نشأتها، وكلما عرضت على العقول في لون خُيُلٍ لها أنه أجود ما في الدن، حتى إذا مضى عليه زمانٌ خفي وأعقبه لون جديد، وهي في انتقالاتها هذه لا تزداد إلا أشكالاً، ولا تزيد إنجلترا في إنهائها إلا ارتباكاً. كان بود مسْتَر جلادستون أن ينْهُج في سياسته منهج سلفائه من الإنجليز، يحبُّ إلى مقصده بالأثابة والتوءة، ويلتُوي في مسيره إلى معاطف متخالفة، ويرى أن سلوك الجادة مما لا تقتضيه الحكمة، ولا يسوغه الحدق، حتى يبلغ الغاية ويقطع الخلال (الطريق بين الرمال) ولا يظهر له أثر يُقتفي، أو كان كما يزعمون أو كما يدعى، ونادى به على عهد بيكونسفيلد من أنه لا يميل إلى الفتوحات، وهمه البعد بإنجلترا عن المدخلات في الأمور الأجنبية بالقوة الحربية، إلا أن الحوادث المصرية أُجْأَتَه إلى العدول عن مشربه، والتطور بغير طوره، فتضاربت آراؤه وتردد في أعماله، وسار سيرة المتخبط، ونشأ من طلبه في السياسة توعر السبيل على حكومته في بلوغ ما تريده، وحدث عنه النزاع بينه وبين بقية الوزراء فيما يجب اتباعه من بعد، وهو الآن في حيرة بين التمسك بمذهبه السياسي، والاستقالة من المنصب، وبين الانفلات منه والتعرض للوم العقلاء والسقوط من منزلته في قلوب أحزابه، وهذه الحيرة مَهَدَّتْ لعارضيه من الحزب المحافظ طريقاً للسعى في إسقاطه من مكانته السياسية وإهباطه من كُرسيِّ الوزارة. الذي أباح لمسْتَر جلادستون أن يركب غير طريقه، ويتدخل في مصر بقوة السلاح؛ ما زعمه من احتياج تلك البلاد إلى إقرار الراحة، وتخليصها من خلل الفوضى، ومن

مصلحة إنجلترا أن تتولى إغاثتها مما وقعت فيه، فمديده لوضع قواعد العدالة، وتخليص الحكومة من الضعف وإعادة الأمان إلى البلاد، وكان يظن أن هذا المطلوب يتم بهدم طوابي الإسكندرية، والحلول في ثكن القاهرة، فيكون قد كسب أجرًا أو نال ملگًا جديداً أو حفظ مصلحة مهمة، بأعمال خفية، ونفقات قليلة، وكلمات غير طويلة، ولكن مع الأسف لم يساعدُه التوفيق على نوال البغية.

تتابعت الفتن وعلا لياقها حتى لذعه فنبهه لما لم يخطر له على بال، فاضطر لسوق العساكر، ومداومة الحروب، ومع هذا لم تؤيد الحكومة التي انتصر لها، ولم يكفل محمد أحمد عن دعوته، ولم يهُن عزم عثمان دجمة بهذه الصدمات المتالية، وأجمعت الجرائد على أنه نادى بالحرب الدينية وهو يجمع متفرقة العرب ليزيدها إلى قبيله، وبهاجم الإنجليز مرة ثالثة، وأكد رواة الأخبار أن محمد أحمد أَنْبَأَ من قبل أنه سيهزم مرتين قبل تمام ظفره بالإنجليز، فكانت هذه الهزيمات مما يقوّي الاعتقاد به ويجمع الكلمةً عليه — ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فهذه المصاعبُ شوَّشتُ أفكار البرلان، وحركت الخواطر على الوزارة الجلاستونية، وتحوَّفَ رئيسُ الوزارة من عواقب المداولات في المسائل المصرية، فتأخر عن حضور الجلسات من مدة أيام، وقام وزير الحرب مقامه في التعبير عن أفكار الوزارة، وفُهم من بعض خطاباته أنَّ من نية الحكومة أن تحفظ التغور المصرية بعساكرها، وأن تحل في شرق السودان، وأن تتولى إدارة الحكومة المصرية كما تراه في غير هذا محل، فقامت الحجة بكلامه هذا في حزب المحافظين، ووبخوا الحكومة على ضعفها السابق والتجاهل للعدول عن سياستها في هذه الأوقات.

ولم يكن من رأي جلاستون أن تصرح الحكومة بمقاصدها، وتُظهر مشرعها بوجه جليٍّ، وقع الخلاف بينه وبين وزير الحرب، وكثير من أعضاء الوزارة، على جملة مواضيع في المسألة المصرية، وزاد الخلاف شدة ميلُ جلاستون لمرضى الأيرلنديين وتجافي بقية الوزراء عن رغبته، وثبت الرئيس في آرائه وهو يفضل الاستعفاء على التساهيل في شيء منها، ومن هذا غالب على الظن أنه سيحصل انقلاب في الوزارة أو فض البرلان، وأكَّدت قربَ ذلك جريدةُ التايمز وجريدةِ الديلي نيوز، وهي نصف رسمية، وجاءت الأخبار الأخيرة متقدة على أن وزارة جلاستون في خطر.

فإذا انقلبت الوزارة الإنجليزية، وخَلَفتُها أخرى، من أي حزب كان، فما عساها تفعل لحل المسألة المصرية والتخلص من الورطة، أقبل الصيفُ وصعب على عساكر الإنجليز أن

تأتي بحركات عسكرية في أطراف السودان الشرقية مدة أشهر، ويتعذر حفظ المواصلة بين سواكن وبيرير والخرطوم، فإن طلبوا عساكر هندية كما أنيات به البرقية انكشف للهنديين بتكرر طلب العساكر من الهند ضعف القوة البريطانية، واجتربوا على حامية الهند وهناك الهول الأكبر.

في هذه المدة وهي غير قصيرة يتيسر لمحمد أحمد ودعاته أن يجمعوا قواهم وينالوا من المنعة ما يتعرّض على عساكر الهند مقاومته، بل هم الآن على القرب مما نقول، ففي الأخبار الصحيحة أن حالة النيل الأعلى لا ترضي الحكومة الإنجليزية، والبلاد المجاورة للخرطوم في ثوران شديد، وقد انقطع الأمل من فتح الطريق بين بيرير وعاصمة نوبيا، ومحمد أحمد مهم من نحو شهر بجمع قوة عظيمة يساعده على تنظيمها ضباط من أركان الحرب فيهم اثنا عشر أوروبياً وستون ضابطاً مصرياً نجوا من عساكر هكس. ذكرت جميع ذلك جريدة الديلي نيوز واعترف مستشار خارجية إنجلترا أن المواصلة بين شندي والخرطوم منقطعة، ولم يصله خبر عن جوردون من حادى عشر هذا الشهر، فإذا ترك هذا الخطب الجلل للقوة الإنجليزية فلا نظنه إلا يتصدّع جدار الهند كما بينا في العد الماضي، ويذهب بكل ما يعبر عنه بالصالح الأوروبي في مصر (وليكن ذلك).

ولا نظن أن دول أوروبا تسمح بضياع مصالحها في الأقطار المصرية، خصوصاً بعض الدول التي كانت تسابق إنجلترا في وادي النيل وانحصاراً مقامها فيه بالتدخل الإنجليزي الذي ليست له حدود معروفة، ولا غaiات معلومة، وإلى هذا تشير جريدة الثان الفرنسية الوزارية حيث تقول: إن إنجلترا لا يمكنها أن تضع مصر تحت حمايتها حتى تناقض الحساب بين أيدي أوروبا، وتنهي به جريدة سان بترسبورج حيث تقول: إن روسيا ليس في عزّها أن تفتتح بعمل في مصر، فإن إنجلترا اعترفت في جميع الأوقات بأن المسائل المصرية لها هيئه دولية، وبناءً على هذا لا يمكن القطع في شيء منها إلا باتفاق أوروبا، هذا إذا تمكنت إنجلترا أن تأخذ على نفسها إطفاء الفتنة وإجهاض الثورات، واستطاعت القيام بما تكتب على ذاتها، فهي نهايتها تطلب عند أوروبا بما تقتضيه مصلحة كل دولة منها.

فإن عجزت – كما هو الحال على الظن – أو طال عليها الزمان، وهي بين ظفر وانهزم ولا تتجاوز في حركاتها العسكرية شواطئ البحر؛ فلا ريب أن القلق يستفز الدول لطلب وسائل أخرى سوى ما تهيئه دولة إنجلترا، وإنما نرى، وسيحكم الزمان لنا إن شاء الله، أن حفظ حقوق الأوروبيين، وضبط البلاد المصرية وإخراج نيران الفتنة فيها لا يتم إلا على أيدي أهلها – ويفعل الله ما يشاء.

الفصل الثامن

الإنجليز في السودان

إن البرقيات التي وردت من سواكن جمِيعُها متفقةً على أن العساكر الإنجليزية هاجمتَ معسَكَرَ عثمان دجمة في ثمانية منقسمة إلى مربعين، وبعد أن فارقت زفرياً غارت عليهما العرب بعد وافر مع بسالة الأيس ودخلت في المربع الأول وهو المقدمة وكانت فيه مذبحة هائلة، وتقهقرت العساكر الإنجليزية وتركَت مدافعتها بعدما قُتِلَ منها جُمُّ غير بأسنة العرب وحرابهم.

إلا أن فرقة من مشاة البحرية جاءت من القلب وسَدَّتُ الخل الذي وقع في صفوف العساكر من هجمات العرب ودفعت قوة المهاجم، ولم تكِن المربعات الإنجليزية تلتئم وتعود إلى الانتقام حتى هاجمتها جيوش عثمان مرة أخرى ببأس شديد وانقضَتْ عليها من الجناحين، والتحمَتْ مقتلة عنيفة وترامى العرب على الموت واستهانوا بالحياة مفضِّلين الشهادة على التقهُّر والتسليم.

وتضافرت الأخبار على أن العرب أظهروا من البسالة والشجاعة ما لا يوصف، حتى قال الرواية: إن ما شاهدوه منهم يُؤْدِي من غرائبِ الأفعال البشرية، إلا أنَّ الروايات اختلفت في عدد من قتل منهم ومن عساكر الإنجليز، فبعضها أوصل قتلى العرب إلى ثلاثة آلاف وبعضها إلى أقلَّ، ثم جاءت الأخبار الرسمية (وما أدرك ما الأخبار الرسمية وما تُبَالَغُ في قتل أعدائهم) مصريحةً بأنها ألفان، أما قتلى الإنجليز فقد بالغوا في قتلها حتى أوصلواها إلى مائتين أو ثلاثة، بعدما اعترفوا بأنَّ العرب فتكوا فيهم فتكًا ذريعاً.

وعلى أي حال قد انتهت الواقعةُ بانسحاب العرب إلى جبالهم ورجعت العسكر الإنجليزية بغاية السرعة إلى سواكن، وتركت المواقع التي استولت عليها، وتواجدت إليها العرب مع قائدتهم عثمان واجتمعت له في الموقع الذي هوجم فيه قوّة حملته على الشموخ بأنفه والنداء باستعداده لهاجمة العساكر الإنجليزية وأنه لا يقبل التسليم.

إذا لregunta كما يعجب سائرُ الجرائد الأوروبيَّة من هذه الرجعة العربيَّة بعد الطنطنة بالنصر والظفر والإعلان بأن العساكر الإنجليزية نالت من الشرف أعلى ما يناله جيش في قتال، فإن سرعة الرجوع شاهدُّ بَينَ على أن هذا الجيش المنظم يقتدر على حفظ مركزه في ساحة الحرب وأنه خشي التلف لو بقي فيه فعاد راجعاً إلى شواطئ البحر. فكان المقتلة لم تكن إلا كرَّةً أعقبتها قوة حتى عَدَّتها بعض الجرائد هزيمة وحسبتها من الخطأ العظيم؛ لأنها تجرَّئ العرب على البقاء في الطريق الذي يصل سواكن ببربر وقطع الطريق على سالكيه، وإنما لا نوافقهم على ذلك لَكِنَّا نعدها عجزاً ظاهراً عن مقاومة العريان في جبالهم.

وما أشبه فعلة الإنجليز هذه بفعلتهم من نحو عشرين سنة عندما كان يحارب في حدود الهند سرايا الأمير عبد الله الوهابي وخوندسوات، فإنه بعدهما انهزم في جبال «سوات وبنير» شر هزيمة وترك مدافعه وذخائره رجع ثانية ودخل قرية صغيرة من قرى تلك الجبال، وفاجأها ليلاً على غفلة وأحرقها فقتل أهلها جميعاً وانقلب راجعاً إلى بلاده في الهند من ليلته، وأعلن بأنه قتل وسلب ونهب وظفر وانتصر! فليعتبر المعتبرون. وكأن الجنرال جراهام بعمله هذا لم يُرِدْ إطفاء الفتنة في الأراضي المصرية، وإنما قصد رَدَّ شرف العساكر الإنجليزية والأخذ بثأر بعض مَنْ قُتل منها سابقاً، وإقامة البرهان لأوروبا على أن العساcker الإنجليز يقدرون على محاربة العريان ويستطيعون الهجوم عليهم، نعم، إنه لم يغفل التدبير بالكلية، فإن الجرائد أخبرت أنه وضع رأس عثمان دجمة في المساومة وجعل من يأتي به ألف ليرا إنجليزية، ونَعَمْ ما ذَبَرَ ولكن يخاف أن عثمان عندما يبلغه الخبر يضع رأس الجنرال في المزايدة، ويجعل من يأتي به مائة قنطرار من سن الفيل، ويكون الخطر على الجنرال أعظم!

ثم إن الجرائد الإنجليزية – على عادتها من ترويج سياسة حكومتها في الحروب – أشاعت أن الجنرال جراهام بعد رجوعه إلى سواكن دعا بعض رؤساء القبائل وذكرهم في إقرار الراحة بين سكان البلاد السودانية ورغم إليهم أن يتعهدوا به، فأجاب بأنه غيرُ ممكِن لهم إلا بمساعدة العساcker الإنجليزية، وأنهم استصوبوا ما نشره الجنرال من

تعيين الجعالة على جز رأس عثمان بمبلغ ألف لира إنجليزية، وهذا مما لا نظنه بالعرب؛ لخالفة طباعهم وبنوا أخلاقهم على الخضوع للأجنبى عنهم وما عهد ذلك فيهم من يوم نشأتهم العربية إلى اليوم، وبعد إنهاء الكلام معهم أخذ في ذم عثمان على ما روتة تلك الجرائد؛ حيث لم يظفر به بأنه كذاب وخائن لبلاده وأبناء جلدته، فإنه الذي عرضهم لسفك الدم وإتلاف الأرواح.

وقد ذكرنا هذا بقصة أحد القواد الأفغانيين؛ حيث عرض نفسه لخدمة الإنجليز في الحرب الأفغانية الأخيرة، فأمدوه بمبالغ وافرة لإنعاشه على العمل، فأخذ ما أخذ ونثره في قومه وهياههم به للكر على الإنجليز والنكاية بهم ونال منهم ما نال، وبعدما ذاقوا منه الويل أخذوا في نشر المنشورات وتحرير الإعلانات بأن هذا الرجل قليل الوفاء خائن للهود لا يثبت على قوله ولا يفي بوعده، مع أن الوفاء هو أداء حق الوطن والمدافعة عنه والقيام بذمامه، وكل عهد يخالفه فالذمة تنكره والصدق يأبه كائناً ما كان.

هذه أسطورة أمر الجنرال جراهام، وأما الجنرال جوردون فقد أخبرت بعض الجرائد الإنجليزية أنه في خطر وأنه يوجد قلق عظيم في مصر من جهته، ويُثبت هذا الخبر امتناع وزير الحرب في إنجلترا من عرض المخابرات التي جرت بينه وبين الجنرال خوفاً من تأثيرها في الأذهان.

وروت جريدة الدليل نيوز، بناءً على تلغراف ورد إليها: أن زبير باشا صرّح باستعداده لأن يخلف جوردون باشا في السودان، وهو يظن أنه لا يمكن إعادة الأمن إلى تلك البلاد إلا بطرق سلمية، ولا يستطيع أن يبدي فكره في شأن المهدى قبل أن يخابرته وهو في ريب من اعتقاد السودانيين بنبوته (كذا)، ومما قال: إن تجارة الرقيق يمكن إلغاؤها بالتدريج عندما يشرع سكان السودان في معرفة فوائد التمدن ومنافعه، ثم كذب ما أشيع عنه من البغض للجنرال جوردون.

نعم إن زبير باشا لا يبغض الجنرال في هذه الأوقات ما دام في القاهرة، أما إذا وصل إلى السودان فيمكن أن تعود إليه الضغينة التي مازجت قلبه سنتين عديدة.

الفصل التاسع

صدى دعوة السودان

وردت برقيّةٌ من تاشكند إلى جريدة الساندر الإنجليزية مفادها أنه حصل اضطرابٌ عظيم في أفكار المسلمين سكناً بخارى عندما سمعوا بانتصار أعراب السودان وظفرهم الأول، وظهر فيهم داعٍ جديد يحثُّ على الحرب ومقاتلة الذين ينتهبون الأراضي الإسلامية لتوسيع مملكتهم، ويهدد صاحب السلطة العامة بين المسلمين بخلعه من مغرسه إذا لم ينشر اللواء الأخضر (المغالبة ومصاومة المعتدى عليهم).

هذا برهان جلي على ما أذنر به سابقًا من أن دعوى المهدوية في السودان لهذه الأوقات التي صدم المسلمين فيها أشباح الحوادث الماضية في القرن الخامس والستادس من الهجرة، ستدعوا إلى حركة عامة يصبح فيها الشرقي بالغربي، ويصعب على الإنجليز وهو في مجريها أن يتذكّر عنها دون أن تعروه هزةً من مفزعاتها، خصوصًا والمظاهرة الدينية في البلاد المحكومة بسلطة أقوى وأظهر.

إن بلاد بخارى بينها وبين السودان مسافاتٌ متراوحة وأبعادٌ متناثرة، ويفطن الناظر في لوح الجغرافيا أن المواصلات بينها منقطعة، ومع ذلك سرّى التنافُس بين القطرين في الغيرة بغاية السرعة، فما ظنك ببلاد هي أقرب إلى مبعث الدعوى وأدنى منها مملاً؟! يغلب على الظن أن الروح هبّت إليها ولكن تتحرّك بحركة العقل وتتنمّى على القوانين الطبيعية والشرائع السياسية والاعتقادية، فلا يشعر الأقوياء إلا وقد بات بحلقهم المستضعفون، والأرض أرض الله يورثها من يشاء من عباده الصالحين.

إذا سهّلت الحوادث ظهور الكوامن ومهدت بروز المغيبات ماذا يمكن أن يؤخذ به من الوسائل لوقاية العد القليل من غيلة الجمهور الأغلب الذي لا يقاوم، وما أمكنْ مقاومته في الأزمان الخالية؟!

نظن أن لا وسيلة لهذا إلا بتسليم الأمر لأربابه والدخول إليه من بابه، وتركه للMuslimين يرضي بعضهم بعضاً ويدافع بأسمهم بأس بعض، فإن كان هذا هو نهاية السير، فمن الخطأ السياسي أن لا يبدأ به قبل اشتداد الكرب، وعظيم الخطب — والله الهادي إلى طريق الرشاد.

الفصل العاشر

اضطراب سياسة الإنجليز في مصر

تشاكلت أفكار السياسيين من الإنجليز في لوم الحكومة على سياستها المصرية، قال اللورد سالسبري في بعض الاجتماعات العظيمة: إن الحكومة الإنجليزية بالتواء سياستها وتذبذبها وضعت من شرف إنجلترا وخفضت اسمها، وعرضت أجل المصالح الإمبراطورية «الهند» للخطر، ثم تكلم في منشور جوردون باشا المبيح لبيع الرقيق فقال: ليس من الممكن لسيو جلادستون أن يبيع تجارة الرقيق على حفافي النيل وهو يحظرها على سواحل البحر الأحمر (والأولى أن يبيحها في جمعية البقاع لاستحالة منعها مطلقاً)، وذكرت جريدة «البال مال جازيت» أن مستشار جمعية منع الرق في لندن أرسل إلى اللورد جرافيل خطاباً بالنيابة عن أعضاء الجمعية يلقي عليه التبعة في تسمية زبير باشا واليًّا على السودان الشرقي، وأن الجمعية اتفقت آراؤها على أن مساعدة الحكومة الإنجليزية لرجل كزبير باشا تكسبها عاراً وحطة في نظر أوروبا.

وقالت جريدة الديلي نيوز: «الصحيح أن الارتكاك الواقع في مالية مصر أفلق وزارة إنجلترا وبعثها على البحث في إيجاد وسيلة لإدخال النقود إلى مصر؛ فإنها في غاية الحاجة إليها، ويؤكد أن الحكومة الإنجليزية ستعرض أفكارها على البرلمان في هذا الشأن، وفي الظن أن ما تعرضه عليه يكون متعلقاً بضمانة القرض المصري (دخول مصر في حماية إنجلترا

رسمياً). إلا أن عدداً عديداً من الأحرار في البرلمان صرحاً بعدم قبولهم أي فكر يُعرض عليهم في هذه المسألة، ومع هذا فقد كذّبت هذه الجريدة ما أشيع في الدوائر المالية من أن في عزم الحكومة الإنجليزية أن تعد قرضاً للبلاد المصرية مبلغه ثمانية ملايين بفائدة ثلاثة ونصف في المائة.

الفصل الحادي عشر

برلان إنجلترا

انعقدتْ له جلسة من أيام لم يحضرها المستر جلادستون؛ لأنَّه كان مريضاً (أو متمنراً) لخوفه من عاقبة المادولة فيها) فناب عنه في الكلام هرنتكتون وزير الحرب، وابتداً يطلب نقوداً لنفقات حلول الجيش الإنجليزي في الأقطار المصرية وبَيْن الدواعي إلى ما طلب، فعارضه المسيو لابوشير (وهو من الحزب الحر الذي يأبى أن تدخل إنجلترا في أي حرب كانت) وطلب تنقيص المبلغ الذي طلبه وزير الحرب، ثم دارت المباحثة في المسألة المصرية وحمي وطيس الجدال فيها، وتكلم الخطباء عن ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وبينوا الأغلاط التي ارتكبْتُها الحكومة في سياستها وماذا يجب الآن إعداده من وسائل الخلاص، وقال اللورد نورثكوت (وهو رئيس حزب المعارضين لسياسة الحكومة): إن خطاب وزير الحرب دل على تغيير عظيم في أفكار الوزارة، فقد علمنا من كلامه أنها جارت الرأي العمومي في البلاد وأذعنَت لافتضيَات الحوادث، وعدلت عن السياسة المرتجة المتزعزعة، واعترفتْ بما تعهدتْ به، وقبلتْ أن تقوم بوفائه بعد أن كانت تحاول التملُّص منه، وفهم منه أيضاً أنَّ بلاد السودان إذا تُرُكت لصغار السلاطين القدماء الذين يحاولون استعادة ممالكهم ليقيموا فيها إماراتٍ صغيرة، فإنَّ الخرطوم تكون مستثنَةً لأهميتها في راحة البلاد المصرية.

إنَّ البحر الأحمر لما كان تابعاً لقناة السويس ومرتبطاً بطريق الهند، فمصالح إنجلترا تقضي بأن تكون التغور المصرية (من الإسكندرية إلى ما وراء عدن فتدخل رشيد ودمياط وبور سعيد وسوakin ومصوع) بيد الإنجليز ما دام المصريون عاجزين عن الدُّفاع

عنها، ووضح في خطابه (وزير الحرب) أن أفكار الوزارة في هذه الأوقات متوجهة لأن تحمل عساكرها في مسافات طويلة من السودان الشرقي لعلمهها بنزول اتصال شواطئ البحر الأحمر بالمراکز التي تبقى في السودان، وأن توصل سواكن ببربر بخرطوم، وهذا الرأي الذي أبداه وزير الحرب يستدعي الحلول في مصر إلى مدة أطول من المدة التي صرخ بها سابقاً.

كانوا بدأوا في استدعاء قسم من العساكر وضمّمُوا على استدعاء قسم آخر منها، لكنهم الآن لا يريدون إلا تقرير حكومة أهلية (كذا) قادرة أن تقوم بنفسها وتأتي أعمالاً مفيدة لبلادها، وبعدها كانوا يستعملون الألفاظ المبهمة في شأنهم مع مصر، صرحاً بالحالة التي يجب أن تكون عليها مصر حتى تتركها إنجلترا وشأنها، ويريد وزير الحرب بحكومة ثابتة قادرة ما تكون موضع الثقة لرعاياها والأوروبيين المستوطنين في البلاد ومحل من النقود التي تحمل إليها (ديننا وقرضاً).

قالت جريدة الثان بعد ذِكرِها هذه المباحثة: إن الوزارة الإنجليزية حادث عن منهجها الأول، وصرحت بقبول التبعية في مُداخلاتها التي كانت تؤمل التخلص منها متى أرادت، إلا أنها الآن حملت حملاً ثقيلاً على ماليتها وسياساتها الخارجية، إنها لم تصرح بكلمة حماية حتى اليوم ولكنها المراد من عبارتها، وتزعم أنها مُنسقة إليها قهراً لغرض أن تمنح مصر إدارة قوية وجهادية منظمة وقضاءً عادلاً، وهذه الحماية تتمتد من شمال الدلتا إلى الخرطوم ومن الخرطوم إلى البحر الأحمر، ولكن يصعب على إنجلترا أن تتنازل هذه الحماية ما لم تناوش في الحساب بين يدي أوروبا، وإنها لذئاف على فقد اللورد بيكونسفيلد، ونتمنى لو كان حياً حتى يذَكُرَ المسيو جلادستون بخطِّيه المشتعلة غيظاً، المفعمة لوماً وتقريراً على من يميل لسياسة الحروب والفتورات.

قالت صحيفة الديلي نيوز – وهي شبه رسمية: إن الوزارة الحالية (الإنجليزية) في خطر، وإنه في يوم الخميس الماضي كان الكلام دائراً في مجلس البرلمان على تغيير وزيري وعلى حل المجلس، وإنه لا يمنع من ذلك رفض اللائحة التي قدمها لابوشير في لوم الحكومة، ثم قالت: إن البلاد (الإنجليزية) لا بد لها أن تتهيأ لإبداء أفكارها في شأن الوزارة وتصرفها داخل البلاد وخارجها.

ويقال في الدوائر السياسية: إن تأخر مستر جلادستون عن الحضور في جلسات المجلس يومي السبت والأحد لم يكن ناشئاً عن انحراف الصحة وإنما كان تعللاً ومراوغةً^١. ليس إلا.

^١ ادعاء المرض أو التمارض الدبلوماسي أصبح معروفاً في مصر ... فلتبحث بريطانيا عن سلاح آخر!

الفصل الثاني عشر

الباب العالى

إنْ كان البرهان يدفع غارة أو يهزم عسكراً أو يفتح بلاداً؛ فهذا أقوى ما يكون من البرهان على أوضح حقٍ يوجد.

كتب مراسل التان في الأستانة كتاباً مفصلاً عن أفكار أعظم العثمانيين في المسألة المصرية وما للباب العالى من الحقوق، فما أثبته أن العثمانيين في ضجر من إجحاف إنجلترا وجورها عن العدل في معاملة السلطان وعدم الافتراض بما له من الحق الثابت، وتصرفها في مصر بدون مراعاة رضاه، وأن بعض الرجال العظام بَيْنَ له حيف إنجلترا وتعديها على المعاهدات الدولية والفرمانات الشاهانية، وأثبتته بأدلة منها ما أجبت به إنجلترا عن بلاغ الباب العالى إلى الدول من نحو سنتين في بداية الارتباكات المصرية، حيث قالت: إنها ترغب حفظ الحالة المقررة في مصر (الاستاتو كو)^١ على مقتضى الفرمانات السلطانية والعقود الدولية، وإنه لا يسوغ التغيير فيها بوجه ما إلا باتفاق الدول.

ومنها نص الفرمان الصادر بتولية توفيق باشا؛ فإنه صريحٌ في أن مصر بحدودها الطبيعية وملحقاتها تُعد من الأملاك العثمانية وإنه لا يسمح للخديو أن يتنازل عن قطعة أرض منها — صغرت أو كبرت — لأجنبي، كائناً من كان لأي سبب ولا بأي وجه، ولا يسوغ له أن يتخل عن شيء من الامتيازات المنوحة لمصر مهما كانت الأسباب

^١ Status quo معناها الوضع الراهن.

والحوادث، ولا يجوز له عَقْد شرط أو عَهْد إِلَّا بعد عرضه على الدولة ورضاهما، ويُحظر عليه تجديد قرض مالي إِلَّا فيما يتعلق بتسوية المسائل المالية التي كانت لذاك العهد. ومنها أن قنال السويس لم يفتح إِلَّا بعد استئذان الباب العالى، فكيف ساغ لإنجلترا الآن أن تتولى فصل السودان عن مصر، وأن تتدالو في فتح قنال آخر، وأن تتدبر في قرض جديد تحمله على عواتق الحكومة المصرية، وأن تتناول حماية التغور بعساكرها بدون الاتفاق مع الباب العالى ولا مشاورة الدول العظيمة؟!

وأنا في حيرة مما أراد هذا العظيم في إقامة الحجج! هل أراد إظهار ما كان خافياً على دول أوروبا وهم يعلمونه حق العلم، أو بيان أن إنجلترا أخطأـت في فهم هذه الفرمانات وتلك المعاهدات، أو حاول إقناعها بالدليل والبرهان؟! ولـكـنـا نـعـلـمـ أنـ حـكـوـمـةـ بـرـيـطـانـيـاـ لـاـ تـفـزـعـ مـنـ الـاحـتـاجـاجـ وـلـاـ تـرـهـبـ الـجـدـالـ؛ـ فـإـنـهـاـ تـمـرـنـتـ عـلـىـ ذـلـكـ مـنـ أـزـمـانـ طـوـيـلـةـ مـعـ الـمـلـوـكـ وـالـأـمـرـاءـ الشـرـقـيـنـ،ـ وـأـمـكـنـهـاـ —ـ فـيـ أـحـوـالـ كـثـيـرـةـ —ـ أـنـ تـجـبـ عـمـاـ يـرـدـ عـلـيـهـ مـنـ الـاعـتـراضـاتـ،ـ وـإـنـ بـلـغـ مـقـدـمـاتـهـ مـنـ الـظـهـورـ حـدـ الـبـدـاهـةـ.

ولولا هذا لـمـ اـحـتـدـتـ جـرـيـدـةـ التـايـمـسـ عـنـدـمـاـ بـلـغـهـاـ نـبـأـ مـؤـدـاهـ أـنـ جـرـانـفـيلـ طـلـبـ منـ السـلـطـانـ أـنـ يـرـسـلـ حـامـيـةـ تـرـكـيـةـ إـلـىـ سـوـاـكـنـ،ـ وـبـالـفـتـحـ فـيـ إـنـكـارـ ذـلـكـ بـقـوـلـهـاـ:ـ إـنـهـ مـاـ لـاـ يـخـطـرـ بـالـبـالـ،ـ ثـمـ تـعـلـلـتـ بـمـاـ لـاـ يـدـهـبـ عـلـىـ فـطـنـةـ أـحـدـ حـيـثـ قـالـتـ:ـ إـنـ إـنـجـلـنـتـرـاـ لـاـ تـرـيـدـ أـنـ تـحـامـيـ عـنـ حـقـوقـ السـلـطـانـ بـعـدـمـاـ صـارـتـ بـضـعـفـهـ نـسـيـاـ مـنـسـيـاـ.

الفصل الثالث عشر

أيرلندا

في كل يوم يقيم الإنجليزي برهاناً منطقياً ودللياً جديلاً على أنه ما ذهب إلى مصر إلا بقصد إقرار الراحة ووضع قواعد العدالة، ولكنه كلما رتب مقدماته لإقناع السذج بقضايا المشهورة عارضه الأيرلنديون ببراهين عملية تنقض ترتيبه وتبطل نتيجته، فإنه لا يمضي وقت من الأوقات إلا ولهم فيه عمل لكسر شوكة الحكومة الإنجليزية في أيرلندا، يضعون الديناميت لتدمير الأبنية وهدم الجسور وتعطيل السكك الحديدية، ويقتلون برجال الحكومة ويتصحررون من ظلمها ويطلبون كل وسيلة للتملص من سلطتها، وهم في سيرهم لا يهونون ولا يفترون.

هُيئت وليمة للمستر بارنل رئيس حزب الأيرلنديين، حضرها جمُّ غير منهم؛ احتفالاً بعيد سان بتريس، وفيهم كثيرٌ من أعضاء البرلمان، فألقى عليهم خطاباً أظهر فيه مَسْرَّته من تقديم الحركة الجنسية في أيرلندا وأوصى الأيرلنديين أن لا يعتمدوا على حزب من الأحزاب الإنجليزية وإنما يكون اعتمادهم على نشاطهم واجتهادهم، ثم قال: إن له في المستقبل أملاً حسناً، وختم كلامه بقوله: إن اليوم الذي يجتمع فيه الأيرلنديون على اختلاف أحزابهم في بسيطة أرضهم هو قريبٌ وسيكونون عما قليل تحت حكم برمان أيرلندي، وفي ذلك الوقت لا قبله ترسل أيرلندا إلى إنجلترا رسالةً سلمية، وعند رفع

كتوس الشراب أبي الحاضرون ذِكْر الملة وإنما رفع بارنل أول كأس ونادي باسم الأمة
الأيرلندية، وطلب من الحاضرين ذلك.
هكذا يطلب الإنجليز ضمًّا أراضٍ إلى أملاكهم فتنفصل عنهم أراضٍ أخرى، وإلى الله
علمُ العاقبة.

الفصل الرابع عشر

الفرنسيون في التونكين

مضت عدة أشهر والفرنسيون ينتظرون ما تؤدي إليه حركات عساكرهم في بلاد تونكين، وكادوا يرتابون من حسن العاقبة حتى وردت البرقية إلى وزير الحرب في باريس من القائد العام: بأن العساكر الفرنسية دخلت باكين من طريق يوصل إلى لانسون، وأن الصينيين انهزوا إلى نواحي نكبين حيث اشتدت عليهم المهاجمات الفرنسية من جهتي الشمال والشرق وخسروا خسائر جسيمة، ولم يجرح من الفرنسيين سوى سبعين رجلاً، وحاز العساكر الفرنسية كميات وافرة من الذخائر وبطارية من مدافع الكروب وجدواها في قلعة باكين، يظن كثيرون من رجال السياسة الفرنسية أن فرنسا قد أتمت عملها بالاستيلاء على هذا الموقع المهم.

وأكَّدَ هذا الظن ما ورد بالبرقية من بكين إلى جريدة أستاندرد أن ملكة الصين عندما بلغها استيلاء الفرنسيين على باكين عقدت مجلساً حربياً لدراسة الموقف في الأمور الصينية الحاضرة، فقرر الأعضاء وبينهم الأمير كونج على أنه يلزم الاتفاق مع الحكومة الفرنسية بطرق ودية.

وفي حسباننا أن مثل هذه الفتوحات لا تسلي أحزان الفرنسيين، ولا تعزّزُهم على ما خسروه في مصر، وأن ذاك الضماد لا يقطب هذه الجراح.

الفصل الخامس عشر

منشورات

روتْ جريدة التان عن جريدة سان بترسبورج أن إمبراطور روسيا أظهر رغبته في السفر إلى برلين في الصيف القادم مع الإمبراطورة، ولم يعلم تاريخ توجهه بالتحديد إلى الآن، ويظن أن سفره هذا يكون قبل سفر إمبراطور ألمانيا (أمس) حسب عادته. وتُعد هذه الزيارات من مؤكّدات المواصلات بين دولتي الروس وألمانيا، وهو مما يوسع لروسيا ميدان الجولان في آسيا – كما ببنا سابقاً.

وردت إلى الديلي نيوز برقية من القاهرة مفادها أن قبيلة تراشي في بريبر انضمت إلى قبائل كوردفان المعتقدين بمحمد أحمد ... وهذا مما يقنع الناظرين في الحركات السودانية بأنَّ هذه المبالغات التي يُذيعها الإنجليز في انتصارهم لم تؤثر شيئاً في نفوس القبائل، ولم توهن اعتقادهم بذلك المدعى السوداني، ويقيّم دليلاً على ما قلناه من أن هذه النيران الملتّبة لا يطفئها إلا رجلٌ من عظماء المسلمين.

نشرت في عدة مدن من أيرلندا إعلانات ثورية وجدها أعوان الشرطة ملصقة على جُدران الشوارع والأماكن العمومية، مكتوب فيها هذه الكلمات: «حرب أهلية في شهر مارس ١٨٨٤»، وهو الشهر الحالي فتناول الشرطيون تمزيقها بغاية السرعة، وكان الأيرلنديون من قبل وضعوا الديناميت في محطات السكك الحديدية من جملة جهات، وهذا الاضطراب الداخلي الشديد ثالثة الأثافي للمسألة المصرية ودخول مرو في حوزة الروس، وهذه الثلاثة،

إن لم يكن لها رابعة، فهي كافيةٌ للمتبصر في تقدير الارتكاب الذي ألمَ بالحكومة الإنجليزية في هذه الأيام.

إنما الله وإنما إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ورد تغرايف من القاهرة أن جريدة ألسندرد نشرت ما يفيد أن السجون ضاقت بالمسجونين حتى اضطرت الحكومة (المصرية أو الإنجليزية) إلى إطلاق ألف ومائتين منهم من أرباب الجنایات الخفیفة، وسبب هذه البلبلة عدم قدرة المجالس على محاكمة جميع المتهمين! لهذا تذوب المُقلُّ بكاءً وتتفتت الأكباد حزناً.

ورد من سواكن إلى ألسندرد

أن النشور الذي نشره هفت الأميرال الثاني بتعيين جعالة لن يأتي برأس عثمان دجمة وصل إلى مشايخ عرب ثمانية، فأحرقوه؛ علامةً على رفضه وعدم قبوله.

برلين في ١٨ مارس

أن جريدة البوست، وهي جريدةٌ لها علاقاتٌ مع السفارات في برلين، من فكرها أن استعفاء توفيق باشا وهو قريبُ الواقع يفتح للدول الأوروبية باباً لإعادة المراقبة المشتركة في مصر؛ لأن إنجلترا لم تنجح كل النجاح في مأموريتها لإقرار الراحة في تلك البلاد.

باريس في ٢٧ مارس

اشتدت خطوبُ المسائل المصرية، واحتسبت مناهجُها، وعظمتُ أخطارها، والتبيّن وجوهُها على ذوي الشئون وأرباب المصالح فيها، حتى على السياسيين من رجال حكومة إنجلترا. كلُّ يتصور غايةً ويطلب حظاً يناله منها وقد شد رحاله للوصول إليه، ولكن ضلَّ أعلام الجادة وتاه في مجاهيل، وليل المشكلات مظلم وديجورها مُدلهُمْ، وتعاكست مذاهب السالكين، هذا يشُّرق والآخر يغُرب، وكلُّ في وحشة يطلب المعين ويختلف العادي، وكلما فرح لنباً رمى بسهمه من الجزع لا يدرى أصاب خصمًا أو قتل منجداً.

إن دولة عظيمة كان لها من القوة ما اعترف به دول العالم أجمع، ولها من الحقوق في مصر ما لا ينزع عنها فيه أحد، ترى رجالها اليوم يهتزون لدهشة الرعواد الإنجليزية، وإن كان سحابها جهاماً، ويفزعون من هزيم تلك الأصوات فيحارون ماذا يفعلون، وربما يأتون ما لا يريدون.

ادعْتُ دُولَةً واسعَةً المطامعُ أَنْهَا نَائِبَةً عَنْهُمْ فِي إِلْصَافِ الْأَقْطَارِ الْمُصْرِيَّةِ وَإِنْقَادِهَا مِنِ الْأَخْتِلَالِ، فَتَبَوَّأْتُهَا بِقُوَّاهَا الْعَسْكَرِيَّةِ وَأَخْذَتْ بِزَمَانِ الْأَحْكَامِ فِيهَا، تَعْزَلُ وَتَوْلِيُّ، وَتُعْطَى وَتَمْنَعُ، وَتَعْاهِدُ وَتَنْقَضُ، وَتَنْقَصُ مِنْ أَطْرَافِهَا مَا أَرَادَتْ، وَتَحْلُّ بِعَسَاكِرِهَا مِنْ بَقَاعِهَا مَا شَاءَتْ، وَأَصْحَابُ الْمَلْكِ الشَّرِيعِيِّ شَاهِصَةً أَبْصَارُهُمْ، مُشَرِّبَةً رَقَابَهُمْ، يَبْصُرُونَ مَا لَا يَسِرُ لَهُمْ خَاطِرًا، وَلَا يَشْرُحُ لَهَا صَدْرًا، مَعَ خَفْقَانِ الْقَلْبِ وَاضْطِرَابِ الْفَوَادِ، وَالتَّهَابِ فِي الْأَحْشَاءِ؛ فَزَعَّا مِنْ سَوَءِ الْعَاقِبَةِ.

يحسون بما تقتضيه موقع الأقطار، والنسبة بين بلد وما يجاوره من البلدان، وما يلزم لحمايتها من وسائل الدّفاع، فيحكمون بأنه إن دامت الحال على ما يرون، أصبحت الأقطار السورية والجazzية واليمنية، على خطر عظيم في زمان قريب أو بعيد، وأن تاريخ مصر من عهد الفراعنة إلى الآن ينادي عليهم نداء الناصح، بل ينفث فيهم ذفاثات الحق، بل يزعجهم إزعاج الحاكم القاهر بأن المحافظة على مصر، من أهم واجباتهم، إن لم يكن لذاتها فلما يتسلط عليه موقعها من الأقطار.

أما ولادة الأمر من المصريين وأولو الرأي فيهم فقد غشி�هم من هذه الدهاء ما أذهلهم عن علم حاضرهم، والفكر في مستقبلهم، طلبو لهم عوناً قوياً، ورکنوا إليه في دفع ما ظنوه غائلاً، وتوهموه نازلةً، فاستبد بالأمر عليهم، وسلبهم ما طلبو المحافظة عليه، وهم بين نوم تطيب لهم أوائله، بما يلين لجنوبهم من الوعود الإنجليزية، وبين أحلام مدهشة وخیالات مزعجة، تمثل لهم ما سیُحْبَبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَمِيمِ العَذَابِ، وَمَا يُؤَخْذُونَ بِهِ مِنْ عَذَابِ الْهُوَانِ، وَإِنْ قَلِيلًا مِمَّا يَشَهُدُونَهُ حَاضِرُ الْعَنْوَانِ، عَلَى كَثِيرٍ مَا يَرَاهُ بَعْضُهُمْ بَعِيدًا وَنَرَاهُ، وَالْعَاكِلُونَ مِنْهُمْ، قَرِيبًا.

أما الإنجليز، فليسوا في حلٍّ مَا كسبوا ولم يهأْ لهم ما طمعوا، بل دافعْتُهم الحوادث وطاردتهم إلى مشكلاتٍ لم تكن في حسبانهم، وهم الآن بين أمور ثلاثة لا يتيسر واحدها إلا بما ينفي الآخر وهو يريدونها مجتمعة، ولن يقدروا عليه إلا بقدر يأتِيهِمْ بما يخرق العادة ويفوق الإمكان: إنهاء مسألة محمد أَحْمَدَ، والوفاء بعهودهم لأوروبا، وما يضمروننه لأنفسهم في مصر.

ثم هم يتسبّبون لكل منها بوسيلة تضارب ما يتمسّكون به في الأخرى، تارة يُظهرون عزّهم على مبارحة مصر جنوحًا إلى الوفاء بالعهد، لكن يتبعون ما يقولون في ذلك بأنّ أجل الجلاء غير محدود، وتارة تنادي بأنّ ذمة إنجلترا توجب عليها أن تدخل مصر تحت حمايتها وتتولى إدارتها بصفة سيد حاكم لا مستشار ناصح، ويشير بل يصرّح وزير حربّيتهم بأنّ الضرورة تلجمّهم إلى مثل هذا العمل ويعبّر عنه أحياناً باسم الحماية وأخرى بما لا اسم له سواها.

وطوراً يلقبون محمد أَحمد كورفان ويطلبون من الخديو، كما روتته جريدة «ميموريال دبلوماتيك»، أن يكتب لهم صَّاغاً بأنّه يفْوَضُ الأمر لهم في شأن المدعى، يتفقون معه كما يريدون، وأنّه يسمح لهم باحتلال عساكرهم في سواحل البحر الأحمر، وأنّه لا يتولّ ولاية الخرطوم بعد جوردون إلا شيخ يضمن لهم حسن الاتفاق مع محمد أَحمد، فلا الوفاء يرُوق لهم لمناقضته للغرض، ولا الحماية تسهل عليهم؛ لأنّ دول أوروبا بالمرصاد، وبين هذا يأخذ محمد أَحمد ما يهيه له الإمكان من القوة ويثبت دعوته إلى سائر الأقطار ويجيّش الجيوش ويزحف إلى الخرطوم، وهواليوم يحاصرها وعلى شرف افتتاحها.

ومع حرص الحكومة الإنجليزية على كتم الأخبار وتلطيف الإشاعات من جهة الخرطوم؛ اضطُرَّ وزير حربّيتها أن يعترف في مجلس النواب أنّ المخابرات منقطعة بين الخرطوم ومصر السفلى (إلى الإسكندرية)، وأنّ الحكومة الإنجليزية في مخابراتها مع الجنرال جوردون إنما تعتمد على الصدفة في وجود من يقطع البراري إلى عاصمة نوبيا وكورسوكو حتى يوصل الخبر إليه، وأنّه لا علم للحكومة بشيء من أحوال النيل إلا على من خامس عشر الشهر، ولا تدري ماذا حلّ بجوردون.

وأثبتت جريدة التايمز أن الجنرال في خطر عظيم، وزاد الهول عليهم أن عثمان دجمة لم يتزعزع عزّمه بما أصابه في الهزيمتين، بل لم يزل خصماً قوياً للحكومة الإنجليزية، ويدل على ذلك أن الجنرال جراهام يتّهَب لمنازلته، كما ذكرته جريدة التان، وفي أهمّ الجرائد الفرنسية أنّ وقوع الخرطوم في قبضة محمد أَحمد يكون له رجة هائلة وأثر عظيم في تغيير الأحوال الحاضرة في البلاد الشرقيّة.

نعم، إذا حلّ محمد أَحمد في الخرطوم سهل عليه جمع كلمة القبائل النازلة ما بين الخرطوم وأسوان، وتتّصل أطّراف جيشه ببلاد مصر العليا ولا يعدّمون من العرب في جهات الصعيد، بل وفي الدلتا من يلتّحق بهم وتكون الطامة الكبّرى، يغلب على ظنّنا أن

هذه النار ليستْ مما يطفئه رذاذ السياسة الإنجليزية، ولا مما تخمده حركات عساكرها البطيئة، خصوصاً وقد وقع الخلاف بين حكومة بريطانيا وبين قواد جيشها في سواحل البحر الأحمر، فمن رأي الحكومة أن تداوم الحرب وتسرع في إنهائها، ومن رأي الأميرال هفت توقيف الحرب إلى شهر أكتوبر (بعد ستة أشهر) لثلا تهلك العساكر من الحر، وأن في ستة أشهر لسعة لما لا يه jes الآن في خاطر أحد، فلو وكل الأمر في تسكين الثورة وحسم الفتنة إلى القوة الإنجليزية وبروتها الخلب لم نك نفكر فيما يكون منها حتى تلتهب النيران في أنحاء أخرى ويصعب على أرباب الشأن فيما بعد ذلك تداركها، وليس لكشف هذه الخطوب إلا عزائم المسلمين، يلقى إليهم زمام العمل فيها خالصاً من المداخيلات الأجنبية التي توغر الصدور وتثير الأحقاد.

وأحسست الجرائد الفرنسية بما في نية إنجلترا أن تفعله من التصرف في الأراضي المصرية ومنها جريدة «الريبيبليك فرانسيز» وجريدة «الديبيا» وغيرها، فطلبت من الحكومة الفرنسية أن تحل بعساكرها في جزيرة ديسى المتسلطة على سواحل البحر الأحمر مما يلي مصوع، متحججة على ذلك بقولها: إن صح ما ادعاه وزير حربية إنجلترا من كون شطوط البحر الأحمر تعد من طريق الهند، فلنا أن نقول: إنها أيضاً طريق تونكين وكوشينشين ومدغشقر، بل إن الحلول في تلك الجزيرة من أهم الضروريات لمراقبة منع التجارة في العبيد كما تقضي به المعاهدة بيننا وبين إنجلترا.

هذا بعض ما أنتجه سياسة جلادستون في مصر، وربما يسكن روع أمهه ويخفف انزعاجها من هذه المبارة الجديدة بينها وبين فرنسا على سواحل البحر الأحمر بتذكر ما أعقبته المبارة بين الأمةين في الهند من أزمان ماضية، ولكن شتان بين الزمانين، فتلك أوقاتٌ كانت سياسة إنجلترا خافيةٌ على أهالي الهند وكانتا ينخدعون لها، أما اليوم فلم يبقَ فيها خفاءٌ على أحدٍ من سكان الممالك الشرقية، ولعل الغيب يوافيها عن قريب بما يكون لفرنسا مع إنجلترا في هذه المسائل – وإلى الله المصير.

الفصل السادس عشر

الشيخ الميرغني

وردت برقية من سواكن في ٢١ مارس مفادها أن الشيخ الميرغني ومعه شيخ آخر يقال: إنه من مكة المكرمة ذهبا في ذلك اليوم إلى المعسكر الإنجليزي ليحضر خصوصاً كثيرة من مشايخ القبائل الذين جنحوا إلى السلم مع الإنجليز، وفي حين آخر أن هذا الميرغني صاحب فرقة إنجليزية تسير إلى بيرهندوك ليكون على يديه طاعة بعض القبائل في تلك النواحي، ويقال: إن إداتها لم تزل متربدة في قبول الطاعة وعدمها.

هذا مما يعجب منه؛ أن شيئاً يظهر بين المسلمين بمظاهر العلم والإرشاد، ثم يقود جيشاً إنجليزياً لإذلال أبناء ملته وإخوان دينه وجنسه، وهو يعلم أن شرفه شرفهم، وسيادته بسيادتهم، ولو لهم ما نال الإكرام والإجلال، وما أقدت عليه النعمة، وتتوفرت لديه دواعي الترف والنعيم، وتمتع بكل لذاته وشهواته! كيف يسوغ له أن يقدم جيوش الإنجليز، قبل الوقوف على مقاصدهم، وماذا يريدون من تذليل جيش العرب وإخضاعهم، هل يصح له أن يأتي مثل هذا وهو يعلم ما يحذره الشرع وما يبيحه اغتراراً ببعض الأوهام التي لا أساس لها؟!

وكتب إلينا من مصر والجهاز أن جماعة من العلماء في القطرتين حكموا بمروره وقالوا: إن هذا من أعظم الزلات التي لم يرتكب نظيرها في الإسلام، على أنه ليس من العلماء ولا من العارفين بطرق الإرشاد، وإنما نال الاعتقاد عند بعض السودانيين وراثةً عن أبيه، وأنه لم يتميز عن العامة الأميين في شيء، وإن كان هذا لا يدفع العجب من فعله.^١

^١ هذا النص كما ورد في الأصل، ويبدو أن ما كتبه السيد جمال الدين الأفغاني، وهو في عنفه، يمثل صورة من صور الرأي العام حينذاك. ومما لا شك فيه أنه قد بني حكمه هذا مما تجمع لديه من المعلومات، ولا يخفى أنه كان موجوداً في باريس عام ١٨٨٤م، فإذا قدرنا الظروف التي كانت تحيط بال موقف، وبعد الشقة، واستحالة الوصول إلى مصادر ثقة يعول عليها لما يجعل الأخذ بهذا الرأي في موضع الحذر والحيطة، ولا ننسى أن الخلافات الطائفية كانت على أشدتها في شرق السودان في ذلك الوقت.

الفصل السابع عشر

الخرطوم

في الجرائد الفرنسية نقلًا عن الإنجليزية أن أشياع محمد أحمد كانوا في مساء الثالث عشر من شهر مارس ثلاثة آلاف على القرب من الخرطوم، وفي صباح الرابع عشر وصلوا إلى ستة آلاف، وهو يدل عن أن الجنرال جوردون عنده شيء من قوة الدفع حيث لم تقدم تلك القوة على مهاجمة المدينة، لكن ماذا يجب من طوعه أن يفعل مع هذه الآلاف المؤلفة التي تتضاعف يومًا بعد يوم وهم يحدقون بمحل إقامته من جميع الجوانب؟ وما يدل على أنه في أصعب المضائق، بل على شفير الخطر، اتفاقُ الجرائد الإنجليزية على دعوة حكومتها لإنقاذه بغاية السرعة، وفي أخبار الخامس عشر من الشهر أن فرقاً من التأثيريين متخصصون على شواطئ النيل بمقرّبة من حلفاً، على مسافة بضعة أميال من شمال الخرطوم، وأنهم أطلقوا النيران على مركبٍ كانت تسيرُ في النيل حاملة ثلاثة رجال استقدمهم الجنرال جوردون وقتلوا منهم نحو مائة، إلا أنه تيسّر للجنرال استخلاص باقيهم، واستبشرتُ التايمز بهذا الظفر الذي تَسَنَّى للجنرال بتحلیص بقية القادمين إليه وإن أظهرت غاية الكدر من كونه في خطر عظيم وثائرة السودان تحيط بجميع أطرافه، وتستحث حكومتها على إنقاذه ما استطاعتْ (والله يعلم كم بين ذاك الاستبشار وهذا الإنذار وهمَا في فصل واحد).

وفي برقية إلى الديلي نيوز أن طُرُق الخرطوم منقطعة، وأن القبائل المذعنة لحمد أحمد محدقة بجميع جهاتها، وأن ثلاثة من تلك القبائل وافرة العدد، وعلى مقدمتها جَمْ غفيرٌ من المشايخ والدراويش؛ يزحفون قصد الاستيلاء عليها، ويظن عموم الناس أن لا سبيل لدافعتهم عنها أو تخلصها منهم إلا بإنجاد عساكر إنجلزية، وقال مراسل التايمز في ٢١ من الشهر: إن من الواجب على الحكومة الإنجليزية إغاثة الجنرال جوردون، فإنها قد ألقته في فم الأسد، وسيكون فريسة المنية إن لم ترسل العساكر إليه بغاية السرعة. وجاءت الأخبار مؤكدة أن حصن كسلا تحت محاصرة التائرين، وأن القبائل في جنوب ببر جمِيعها في هيجان وثورة شديدة. وهذا كله يؤيد ما قلناه مراً، من أن المدعي يخشى من قوة بأسه وسريان دعوته إلى جهات بعيدة، فإنه إذا استقرَ قَدَمُه في الخرطوم لم تلبث أن نسمع بظهور دعواه في أسوان.

الفصل الثامن عشر

تحكم اللورد دوفرين

نهجت دولة الإنجлиз في معاملتها للدولة العثمانية منهًا جديًا بعد حرب الروس، تأخذها بالتهديد والتهويل في كل ما تروم قصاءه من أغراضها في المالك العثمانية، ولا تراعي فيما تفعل قانونًا دوليًّا، ولا عهداً سياسيًّا، وتحكم بجبروتها في تحديد المواعيد وتعيين الأوقات، وأعظم ما يكون من مرهباتها الوعيد بتغيير قلبه عن وداد تلك الدولة أو اشمتاز نفسها منها، ولا تفرق في نهجها هذا بين صغار المسائل وكبارها.

ومن ذلك ما روتُهُ جميعُ الجرائد من اشتداد اللورد دوفرين سفير إنجلترا في الأستانة على سعيد باشا الصدر الأعظم، وإغلاظه له في القول عند التكلُّم في شأن شركة عثمانية تحت رعاية دولة لوبهرام أغا، منحها الباب العالي امتيازًا بتسيير سُفن النقل على شطوط البحر الأبيض، وكان هذا العمل في يد شركة إنجليزية (لم تأخذ به امتيازًا)، فامتنع اللورد دوفرين وطلب من الباب العالي استرداده منحه فلم يُجب طلبه، فذهب يوم الخميس الماضي إلى الصدر الأعظم وخشَن له المقال، ونُسب إلى الباب العالي تعمُّد المراوغة.

ولما توصل له الصدر بأن هذا ليس من خصائصه بل يتعلق بوزير الخارجية، قال: إنه لا يخابر فيه وزارة الخارجية (وإن كان من خصائصها) وإنه يُلقي التبعة على الصدر الأعظم إذا تأخر الجواب بقبول حُجَّته، وأن لا بد من تعويض من أصابته

خسارةً بسبب هذا الامتياز من الإنجлиз، مع تحرير اعتذارٍ رسميٍّ وعزل والي أزمير، فإذا بلغ أمرنا إلى الخضوع بكل تهديد والانقياد بأي إرهاب، وصارت مسائلنا الداخلية تحت اختيارِ من يستطيع أن يُلقي التبعة، ويبالغ في الخشونة، فإننا لله وإننا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفصل التاسع عشر

مقاصد إنجليزية في مصر

في كل يوم تُلْحُ جريدة التايمز على حكومة إنجلترا بوجوب طرد العساكر المصرية الوطنية، زاعمة أنه يحل من الأهالي محل القبول، ويسيرون عنه غاية السرور، وتشير على الحكومة أيضاً أن تجهر بحمايتها لمصر وتظهر للدول أنها تتحمل كل تبعه تحصل من مداخلتها في تلك البلاد، وأن ذلك من مقتضى الحزم، فإن الإدارة المصرية وفروعها في حاجة إلى إصلاح حقيقيٍ ولن يقوم به إلا رجال الإنجليز.

وهذا من تلك الجريدة وغيرها سوق للحكومة إلى إظهار ما تُكْنُه من السلطة على البلاد المصرية، وضمها إلى ممالكها الشرقية، وما كان ذلك خافياً على أحد، وإن كان بعض المصريين غالطوا فيه أنفسهم عن علم أو جهل — والله أعلم.

ما تطلبه الجرائد من طرد العساكر الوطنية إنما هو مقدمة التملك ورسوخ القدم، ثم هي تموه في تحسين ذلك بدعواها أن أهالي مصر يفرحون منه، مع أن أول ثورة عسكرية سر بها المصريون على عهد وزارة ولسون إنما كان منشؤها العزم على تقليل عدد العساكر وإغفال المدارس العسكرية، فالمصريون وهم المسلمون لا تُعقل مسْرَّتهم من طرد حاميتها الوطنية، بل ينزعجون منه غاية الانزعاج.

الفصل العشرون

حجـة نوبـار باـشا

في برقـية من القـاهرـة بتاريخ ٢٢ مـارـس أـن نوبـار باـشا أـقامـ الحـجـةـ علىـ المسـترـ كـلـيفـورـدـ
لوـيدـ (وكـيلـ الدـاخـلـيةـ المـصـرـيـةـ) وـرـفـعـ حـجـتـهـ إـلـىـ الـمـاـجـورـ بـارـنـجـ.

هـذـاـ الـذـيـ بـقـيـ لـأـوـلـيـ الـأـمـرـ مـنـ الشـرـقـيـيـنـ، يـقـيمـونـ الـحـجـجـ وـالـبـرـاهـيـنـ وـيـقـنـعـونـ بـأـنـ بـرـهـانـهـمـ
سـالـمـ الـمـقـدـمـاتـ صـحـيـحـ النـتـيـجـةـ عـنـ التـعـقـلـ، إـلـاـ أـنـ بـعـضـهـمـ يـقـيمـ حـجـتـهـ عـلـىـ بـعـضـ الـدـوـلـ
عـنـدـ بـعـضـ آـخـرـ مـنـهـاـ، وـبـعـضـهـمـ يـقـيمـهـاـ عـنـ أـوـلـيـائـهـ مـنـ الـأـجـانـبـ وـهـوـ مـنـهـمـ وـفـيـهـمـ، إـنـ
هـذـاـ لـشـيـءـ عـجـابـ!

الفصل الحادي والعشرون

عثمان دجمة^١

في البرقيات الأخيرة أن فرقة إنجليزية ستفارق هندوك وتتوجه إلى نواحي ثمانية (محل المعركة الماضية) لتعسكر في تلك الجهات، أيةطنون أن إقامتهم بها تكفي لخُضُوع القبائل، غير أن عثمان وعد قومه بأنه سيأتيه أمرٌ إلهي بعد ستة أيام ليبيد بقوته عساكر الإنجليز، وأشيع أن محمد أحمد سيعث إليه بمدد.

^١ وصحة هذا الاسم كما ينطق به أهله عثمان دقنة — دقنة — وهو من قبيلة الدجناب غرب السودان.

الفصل الثاني والعشرون

معاملة محمد أحمد للرسل المسيحيين

جاء إلى الخرطوم ضابطُ مصرى كان في عبيد، وأخبر أن رسل الكاثوليك في تلك المدينة تحت كنف محمد أحمد على حرية تامة تجربى عليهم الأرزاق من طرفه للواحد منهم في كل شهر خمس تليرات (ريالات) ونصف، وأن كنيستهم مُفَتَّحة الأبواب وإنْ كانت المدارس معطلة للضَّرورة.

هذا العمل منه يرشد إلى أن له دهاء وذكاء وخبرة بما يجب الأخذ به في معاملة أرباب المذاهب والأديان المخالفة لدینه ومذهبه، وهذا يزيدنا خوفاً من استفحال أمره وانتشار دعوته.

الفصل الثالث والعشرون

أخبار أخيرة

- كتب مراسل дилиي نيوز المرافق للجيش الإنجليزي في سواحل البحر الأحمر أن الجيش الإنجليزي تُقاسي مصاعبً ومشاقً شديدةً في قطع الطريق إلى حيث تلتقي مع جيوش عثمان دجمة لتلتجم معها في القتال مرة ثالثة، فإن البحر شديدُ والمسالك وعرة والمياه مضرّة بالصحة، مع قلتها، ولم يجروا إلى أول مرحلة إلا وقد أجهدتهم التعبُ، واستولى عليهم الوهنُ، فأعجزوا أربعينات منهم عن المسير.
- قالت جريدة الثان إن هذا الهجوم لم تتبين غايتهُ، ولما سئل عنه مستشار خارجية إنجلترا في البرلَان لَبَس في الجواب وراوغ في بيان الحقيقة، كأنه يريد التملُّص مما عساه أن يرد عليه من بعد وإخفاء المقصد، حتى إذا لم ينجوا فيه سترموا ما يلتحقهم من خجل الإخفاق في السعي، ومَوْهُوا على ما يمسهم من الشين، ويغلب على الخن أن القصد منه فتح الطريق بين برب وسوakin لتمكن حكومة الإنجليز من مخابرة الجنرال جوردون من جهة سواكن (حيث تعثرت عليها من طريق الخرطوم بعد محاصرتها بجيوش محمد أحمد من أطرافها المتصلة بالنيل).
- ويقول مراسل дилиي نيوز: إن الشدة لو دامت بالعساكر الإنجليزية على حالتها الحاضرة؛ فلا بد أن تصير غنيمة باردة لعثمان دجمة وفريسة ناجزة لأشياعه.

- وفي جريدة التايمز أن القلق في لندن شديد، والاضطراب بالغ فيها حدة، وعموم الناس يتطلعون إلى الأخبار المصرية دقيقة بعد دقيقة، وأتبعت ذلك تلك الجريدة بقولها: لم يتيسر لحكومة إنجلترا فتح طريق بربر بهذا الزحف الجديد، ضعف الأمل من فتح هذا الطريق في وقت آخر، وعز على إنجلترا إجراء فرضته على نفسها في الأقطار المصرية، وقل الرجاء في تسوية المسألة السودانية بطريق محمودة.
- عزمت حكومة روسيا بعد حلولها في مرو على أن تجعل وراء بحر الخزر من البلاد الداخلة تحت سلطتها حكومة خاصة بها، لها مركز معين وقاعدة ترد إليها أحكام تلك النواحي، حتى تسهل المواصلة بينها وبين مرو، وهذه حركة جديدة لدولة روسيا في أطراف آسيا، وهي وإن كانت لا تسر المحبين لإنجلترا ولكنها لا تحزن أعداءها.

الفصل الرابع والعشرون

نصيحة

أشد ما كانت هيبة الإنجلiz وملكتها على الشرقيين قبل تكتيب الكتائب وعقد الألوية وسوق العساكر لمقاتلة عثمان دجمة على أميال من سواحل البحر الأحمر، وكان يخيل للسودانيين — بل يلابس اعتقادهم — أن القوة الإنجلizية مما فوق الطبيعة وعن مثلها تصدر خوارق العادات، وكان من ظنون الشرقيين في أقطار آخر أن غرائب القدرة البريطانية بلغت مقالع السحر، تدهش الألباب وتحير العقول، وإذا خلج في صدور أمة من الأمم صغيرة أو كبيرة لبعدها عن مركزها أن تغالبها على حق أو تناوئها في مرغوب؛ انشقت الأرض وانفطرت السماء، عن كمامة من الإنجلiz يصرون عليها أصوات العذاب، ويديقونها أليم الوبال، ويخلبون الأرواح من الأجساد، فيغليون ولا يُغلبون، خصوصاً إن كان مغالبوهم لا يحملون من السلاح إلا نوعاً من الصناع القديم، مما كان يستعمله أبناء نوح بعضهم في مادفعه بعض.

إلا أن هذه الدولة العظيمة أجالتها حوادث السودان أن تسوق جيشاً للإيقاع ببعض العرب في نواحي سواكن، فتحركت الجيوش المنظمة لملاقاة عثمان ورجاله، وبني القواد في الزحف قلاغاً (مربيعات) من العساكر الباسلة، مدرعة بلوامع من حراب البنادق (السنج) مسيّجة بالآلات الجديدة، ومن صنع «رمتون وهنري مارتين»، على أجود طراز يكون منه، وحصنهما بأبراج من المدافع لا تُدانيها من سكان تلك القفار قوّة، ولا تسمو إليها منهم قدرة، ولكن قوة اليقين أو تحكم الجهل دفع على الصفوف الإنجلizية جماعة

من عِرَادَةِ الْعَرَبِ وَحُفَّاتِهِمْ، فَهَدَمُوا قَلَاعَهَا وَنَقْضُوا بُنْيَانَهَا، وَقَوَّضُوا أَبْرَاجَهَا، وَبَعْدِ تَدَافُعٍ وَتَضَامٍ وَتَقْدِمٍ وَتَأْخِرٍ، فِي مَوْقِعَتِينْ عَظِيمَتِينْ، كَرَّ الإِنْجِلِيزَ إِلَى سَوَاقِنْ (سَاحِلِ الْبَحْرِ) وَأَخْلَوْا سَاحَاتِ الْقَتَالِ، وَتَقْهِيرُ الْعَرَبِ إِلَى الْجَبَالِ، وَعِجَاجِ الإِنْجِلِيزِ: غَلَبْنَا وَانْتَقَمْنَا.

مَاذَا أَثْرَتْ هَذِهِ الْغَلْبَةِ الْعَجِيْبَةِ فِي نُفُوسِ السُّودَانِيْنِ؟ ثَبَّتْ أَقْدَامَهُمْ وَقَوَّتْ جَائِشَهُمْ، وَجَمَعَتْ كَلْمَتَهُمْ، وَذَهَبَتْ بِمَا كَانَ يَخْامِرُ قُلُوبَهُمْ مِنَ الْهَبَّةِ وَالرَّعْبِ، فَجَمَعُوا قُواهُمْ وَاسْتَعْدَوْا لِلْقَتَالِ مَرَةِ ثَالِثَةٍ، فَحُرْمُوا لِسُوءِ الْبَخْتِ أَوْ حَسْنِ الْحَظِّ مِنْ مَلَاقَةِ خَصْوَمِهِمْ؛ لِأَنْ شَدَّةَ الْحَرَّ كَانَتْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ أَوْ نَصْرَائِهِمْ، حِيثُ الْجَأْنَاتِ الْعَسَاكِرِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ لِلْجَلَاءِ عَنْ تِلْكَ الْدِيَارِ، فَأَسْرَعَتْ إِلَى الْبَحْرِ لَا يَسْتَقِرُ لَهَا قَدْمٌ إِلَّا فِي مَصْرٍ أَوْ إِنْجِلِيزِرَا.

وَمَا أَثَارَتْهُ هَذِهِ الْغَلْبَةِ فِي قُلُوبِ السُّودَانِيْنِ مِنْ ثَأْرَةِ التَّهُوْرِ دَعَاهُمْ لِتَضْيِيقِ الْحَصْرِ عَلَى الْخَرْطُومِ، لَا عَلِمُوا أَنْ لِيْسَ فِي قَدْرِهِمْ أَنْ يَقْتَفُوا أَثْرَ الإِنْجِلِيزِ فِي الْبَحْرِ، وَلَا يَسْتَطِيْعُونَ إِلَيْغَالَ فِي طَلَبِهِمْ وَهُمْ عَلَى غُواَرِبِ الْمَوْجِ، وَلَا اشْتَدَ الضَّيْقُ بِمَنْ فِي الْخَرْطُومِ نَهْضَ الْجَنَّرَالِ جُورْدُونَ بِشَجَاعَةِ الْأَبْطَالِ لِرَفْعِ الْحَصَارِ، فَلَمْ تَكُنْ إِلَّا كَرَّةٌ تَبَدَّلُ فِيهَا جِيَوْشَهُ وَأَعْقَبُتْهَا فَرَّةً إِلَى دَاخِلِ الْمَدِيْنَةِ لِيَنْتَظِرَ مَا يَأْتِيَ بِهِ الْقَضَاءِ.

وَلَكِنْ لِيْسَتِ وَجْهَ الْهَزِيْمَةِ رَمِيَّ ضَابَطِيْنِ عَظِيمَيْنِ مِنْ ضَبَاطِ الْمَصْرِيِّينِ بِالْخِيَانَةِ، وَأَمْرَ أَنْ يُضْرِبَا بِالرَّصَاصِ فَضُرِبَا وَمَاتَا، وَهُمَا: حَسْنُ باشا وَسَعِيدُ باشا (فِي أَخْبَارِ الْبَرْقِيَّاتِ)، أَمَّا هَذِهِ الْغَلْبَةِ فِي السَّواحِلِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ الْبَدِيْعَةِ، وَمَا حَلَّ بِجُورْدُونَ فَقَدْ أَسْقَطَ مِنْ شَانِ إِنْجِلِيزِرَا وَقُوَّتْهَا فِي أَقْطَارِ السُّودَانِ عُمُومًا، وَجَعَلَ كَلْمَتَهَا هِيَ السَّفَلِيَّةِ وَبَعَثَ السُّودَانِيَّينَ عَلَى الاعْتِقَادِ بِأَنَّهُ إِحْدَى كَرَامَاتِ مُحَمَّدِ أَحْمَدَ — لَا حُولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

خَطْبٌ يَعْقِبُ خَطْبًا، وَكَرْبٌ يَحْدُثُ كَرْبًا، هَذِهِ الصَّدَمَاتِ الْمُتَتَالِيَّةِ كَشَفَتْ بَعْضَ السَّتَّارِ، وَشَفَتْ بِهَا الْحِجَابَ، وَأَحَدَثَتْ هَزَّةً فِي قُلُوبِ الْهَنْدِيَّينِ، فَكَشَرَ النَّوَابُونَ وَالرَّجَاوَاتِ عَنْ أَنْيَابِهِمْ، وَمَدُوا سَوَاعِدَهُمْ يَنْظَرُونَ إِلَى مَا تَطُولُ، وَيَرَاجِعُ كُلُّ وَاحِدٍ نَفْسَهُ وَيَمْنِيَّهَا بِقَرْبِ الْخَلَاصِ مِنْ ضَيْقِ الْاِسْتَعْبَادِ، وَيَلْمِحُ الْفَرَصَ مِنْ خَلَالِ هَذِهِ الْحَوَادِثِ، اِنْتَشَرَتْ أَخْبَارُ الْمَصَابِ الَّتِي حَلَّتْ بِالْجَيُوشِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ مِنْ مَصِيَّبَةِ هَكْسِ إِلَى مَا بَعْدِهَا فِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ الْهَنْدِ، وَتَرَى النَّاسُ زَرَافَاتٍ وَفَرَادِيَ يَتَنَاجِحُونَ فِي هَذِهِ الْمَسَأَلَةِ وَيَرْجِعُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِاللَّائِمَةِ فِيمَا فَرَطُوا مِنْ قَبْلِ وَهُمْ عَلَى رِبْوَةِ الْأَمْلِ، يَسْتَطِلُّونَ سَوَانِحَ الْفَرَصِ خَصْوَصًا الْمُسْلِمِيِّينَ فِيهِمْ، كَمَا أَنْبَأْنَا بِهِ الرَّسَائِلِ الْوَارِدَةِ إِلَيْنَا مِنْ أَقْطَارِ مُخْتَلَفَةِ مِنَ الْبَلَادِ الْهَنْدِيَّةِ، وَنَظَنَ أَنَّ الدُّولَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ وَعِمَادِ قُوَّتِهِ إِلَيْهِمْ وَالْتَّغْرِيرِ يَصْعُبُ عَلَيْهَا بَعْدِ الْآنِ

أن تُعيد منزلتها الأولى في نفوس الشرقيين، خصوصاً إذا أفضتْ حوادث الخرطوم إلى قتل جوردون أو أسره وافتتاح تلك المدينة وهي عاصمة السودان. يزيد الطين بلة أن يشتد العثمانيون ويأخذوا بالحرز وقوية العزم في صيانة حقوقهم بأي وسيلة كانت، وربما نراه واقعاً: فإن العقلاة منهم لا يغفلون عن حاجة الإنجليز لسلامتهم؛ لأن الإنجليز يحكمون على خمسين مليوناً من المسلمين جميعهم يعترفون بحقوق السلطان ويجيرون داعيه إذا دعا، وهم له أطوع من الترك أنفسهم، والحاديَّ من العثمانيين وإن كانوا يرون أن إنجلترا لا تعامل الدولة إلا بالتهديد والإرهاب، وجعلت هذا طريقةً لنيل أغراضها منها، إلا أنهم يعلمون أنَّ من المحال على إنجلترا أن تنشر على الدولة حرباً، فإن سياسيي بريطانيا وهم أشد الناس خبرة بدقائق الأمور فضلاً عن جلائلها؛ لا يخفى عليهم ما تكنته قلوب الهنديين من محبة صاحب السلطة الإسلامية، بل هم على يقين بأنهم لو جهروا بالحرب للعثمانيين لتقوَّضت سلطتهم في الهند لأول وهلة، لا على المسلمين خاصة ولكن يتبعهم الوثنيون، وهذا ظاهر عند كل إنجليزي وإنْ خَفِيَ على بعض العثمانيين ورَام ستره عن باقيهم.

الاعتقاد بمحمد أحمد أخذ سبلاً في قلوب الهنديين حتى كتب إلينا أحد أصدقائنا في لاهور أنَّ محمدَ أحمدَ لو كان دجالاً لأوجبت علينا الضرورة أن نعتقدَ مهدياً وأنَّ لا نُفْرِطُ في شيءٍ مما يُؤيدُه.

بعد هذا كيف يمكن للإنجليز دفع غالةَ محمدَ أحمدَ، حرَّ السودان منع وسيمعن من جولان العساكر فيه، وطلب العساكر من كوركوسيك بعد شیوع هذه الدعوة في الهند مما لا تجوازه الحكمة، ولا نظن أنَّ إنجلترا تثير حرباً صلبيَّةً بحكومةِ الحبش على مسلميِّ السودان؛ لأنَّه يفسدُ عليها أمرَ الهند ويخالفُ أحكامَ المدنيةِ الحاضرة.

فما هي آخرِ الحيل؟ أُكْفِي بحفظِ القنال مع تركِ الفتنة يسري لهبُّها إلى مصر العليا بل السفل؟ إني أخشى كما يخشى العقلاة من شیوع هذه الدعوى، وكثرة المعتقدين بها أن يلم منها ضررُّ بدولة إنجلترا وبكل من له حق في مصر، فعلى الإنجليز – كما نصحتنا مراراً – أن يصونوا بلادهم، ويحفظوا طريقَ الهند بتفويضِ الأمر للعثمانيين، وأُولى العزم من المصريين قبل فواتِ الوقت، وإلى الله تُرجعُ الأمور.

الفصل الخامس والعشرون

الدولة العثمانية

قالت جريدة «الميموريال دبلوماتيك» إنه لم يؤخذ عن الباب العالي خبر إلى الآن عن المنشور الذي عزم على إرساله للمصريين، إلا أنه محرر تام وفيه أن الدول ستدعى إلى المادولة التي قطعها إطلاق المدافع على الإسكندرية (المؤتمر)، ولن يعدل الباب العالي عن نشره إلا إذا قبلت إنجلترا أن تكون مخابرتها معه في تسوية المسائل السودانية المصرية بطريقٍ جديٍ (لا هزيلة)، ولم نزدد يقيناً بما ذكرته هذه الجريدة في أن الدولة العثمانية لا تتساهل في حقوقها على مصر وأنها تبذل ما في وسعها للمدافعة عنها، وكانت لنا ثقة تامة بعزم العثمانيين وأنهم لا بد أن يقدموا لصون بلادهم المصرية من استبداد غيرهم فيها.

ولهذا نجم بأنه لا يروق للدولة العثمانية ما ذكرته جريدة «الديلي تلغراف» من أن المستر جلادستون سيهجر عن قريب بحماية حكومته للأقطار المصرية، وأنه سيخابر الدول في تحديد أمد الحماية ولا يكون أقل من خمس سنوات، وفي أمله أن الدول لا تمانعه فيما يريد الاتفاق معها عليه في هذا الشأن، بل تعتبره حقاً قانونياً أو جبه بذل الأموال الإنجليزية وإراقة الدماء البريطانية.

وفصلت هذا الخبر بعض الجرائد الفرنسية وبوبته وأشارت إلى ما أجاب به بعض الدول.

فليس مما يخطر ببالنا أن الدولة العثمانية تُوافق على ما تطلب إنجلترا لو فرضنا أن الدول سمحت للإنجليز بحمايتهم لمصر مدة محدودة أو غير محدودة، فإن الحوادث

لا تؤمن وتقُّلُّبات الأيام لا ثقة بها، فيمكن في خمس سنوات بل في أقل منها أن تتبدل القواعد السياسية، بل ينقلب وجه السياسة انقلاباً لا يُعرف، والسياسيون لهم في كل حادث علةً لمحو المعاهدات وتأويل الوثائق.

الفصل السادس والعشرون

إنجلترا في سواحل البحر الأحمر

وقع ما أنبأْت به الجرائد الإنجليزية من بضعة أيام، فإن الجيوش البريطانية زحفت مللاقة عثمان دجمة بعد أن قاستُ أليم العذاب من وهج الحر ولهيب الشمس، وأُصيب منها عدد وافر بالوهن والضعف، حتى عجزوا عن مداومة السير، وصابر بقيةُ العسكر في زحفه وانتظموا على أشكال مربعات تُشكل ما انتظموا عليه في الموقعة الماضية، إلا أنهم لم يتلاقو مع خصمهم، وأفاد التقرير الإنجليزي أن السبب في عدم الالتحام أنه وصلت العساكر إلى قرية ثمانية ولم تجد عنها مدافعاً فأحرقتها ورجعت إلى سواكن. ولا يخفى أن جميع أخبارهم قبل هذا الزحف كانت متفقة على أن عثمان يبعد عن ثمانية بستة أميال، وأن مسيرهم هذا كان مللاقاته حيث يعتصم فلم يكن هناك داع لحرق قرية ثمانية ولا الإخبار بأنه لم يوجد مُدافع عنها، إلا ما توعّد عليه الإنجليز في حروبهم إذا لم يصادفوا ظفراً يحرقون ويخرّبون وإن لم يكن من يصيّبونه بأعمالهم مُحارباً لهم، حتى يقولوا: ظفرنا وأحرقنا وأتلفنا.

وورد إلى الجرائد الفرنسية أن تقهقر عثمان إنما كان ليحشرهم بين شعاب الجبال ثم يغیر عليهم ويفتك بهم كما فعل رئيسه «محمد أحمد» بعساكر الجنرال هكس، ويظهر أنهم لَمَّا أحسوا بهذه المكيدة ووجدوا من أنفسهم ضعفاً عن مقاومة العرب في جبالهم گرّوا راجعين إلى سواكن ومحتجّين بشدّة الحر ستراً للعجز وتقديماً لبارد العذر، والجرائد الإنجليزية في قلق واضطراب شديد ولهج أغلبها يحث حكومتها على استدعاء

العساكر من سواحل البحر الأحمر، متعللة بأنها وإن كانت من حامية الهند ولها جد على احتمال الحرارة، إلا أن أثر الحر السوداني ظهر فيها بسرعة شديدة ويُخشى عليها من التلف الكلي، وأحرى أن يُخاف على سواها ممن لم يفارقوا إنجلترا إلا لحرب السودان. ويغلب على الظن أنهم شعروا بقوة محمد أحمد وثبات عثمان والتهاب الحمية في قلوب المسلمين بتلك الأطراف، فاستفزهم ذلك إلى إخلاء وجههم، وخوفاً من أن يحل بجيوش السودان الشرقي ما حل بعساكر الجنرال هكس وتسروا بالشکوى من شدة الحر واحتدام نار القبيط، مع أن وهج الحرارة في جنوب الهند، حيث كانت تحل هذه العساcker كما ذكرتُه جرائدهم أشد منه في سواحل البحر الأحمر.

وما قاله الجنرال جراهام والأميرال هفت أن الحركات العسكرية قد انتهت على شطوط البحر الأحمر؛ يثبت اعترافَ هذين القائدين بعجزهما عن فتح الطريق ما بين البحر الأحمر وبربر، ومساعدة جوردون من هذا الطريق، وبناءً على ما أبدياه من الأساس صدرت الأوامر إلى الجنرال جراهام بإخلاء المواقع الحربية وإجلاء العساكر عنها والخروج من سواكن بما يُمكِّنه من السرعة، وأعقب الأمر اجتماع العساكر بأسرها في تلك المدينة، ويقال: إن فرقة منها تসافر في التاسع والعشرين من مارس إلى مصر وإنجلترا، وهذا الأمر لا ريب يعود أشياع محمد أحمد والمذعنون لدعوته فتحاً إلهاً وتأييدها ربانياً، فيقوى اعتقاد المخلصين له ويقطع شكوك المترددين في قبول دعواه، ولربما يذهب الوهم بالسذج منهم إلى أن الله أَيَّدَهُمْ بالملائكة المسمومين فكشفوا عنهم عدوهم، وبعد هذا تجتمع كلمة القبائل وتثبت أقدامهم في مواقف القتال ويزداد حرصهم على تعليم دعوى محمد أحمد، ومحاولة من لم يذعن لها، ويكون هذا الظفرُ الغريبُ أقوى برهان لهم على صدق دعواهم.

هذا ما أدُتُ إليه سياسة الدولة الإنجليزية التي وطئت بأقدامها أرض مصر لإخمام الفتن، لم تجلب مداخلها إلا تعالي اللهب وقوة الضرام، وبعدما أُسقط في يديها وخابت في سياستها تجافتُ عن تسليم الأمر لأربابه القادرين على تلافيه من المسلمين، حتى يحصل الأمان للأجانب والوطنيين، وتحقن الدماء وتحفظ الأموال، وعمدت إلى الاستنجاد بحكومة الجيش لحرب السودان، ولم يأخذها خجلٌ في ذلك وهي تدعي أنها حاملة لواء التمدن والقائمة بنصرة الإنسانية وتتلنّ آيات الإنجيل آناء الليل وأطراف النهار، ثم تستدعي حكومة خشنة غير مهذبة لحكومة الجيش لمقاتلة قوم آخرين – وإن كانوا ليس بأقل منهم خشونة – لتشتبك حرب ببرية تحرق فيها المدن والقرى، وتسفك الدماء الغزيرة

ويفتك فيها بالأولاد والنساء والشيوخ ومن لا جريمة لهم حتى يُفني بعضهم بعضاً، ولم تبال في التماس هذه المساعدة أن تصرح للحكومة الحبشية أنَّ الغرض منها كبح المسلمين في السودان وإضعاف قوتهم لتثير بذلك حرباً دينية تذكر العالم بالحروب الصليبية.

فقد جاءت الأخبار إلى الجرائد الفرنسية: إن دولة إنجلترا تلتمس من يوحنا ملك الحبشة أن يمدّها بجيوش للدفاع عن سواحل البحر الأحمر لعجزها عن حمايتها بنفسها وإطفاء ثورة المسلمين وإخضاعهم، وبعثت إليه قائد أسطولها لينتفق معه على شروط هذه المساعدة وما يغنمها بعد القيام بها، وفي جريدة «الميموريال دبلوماتيك» أن من جملة ما تطلبه إنجلترا من الحبش فضلاً عن الإنجاد الحربي أن يتخلّ لها عن جزيرتين في البحر الأحمر لتحل فيها بعضاً من عساكرها، وله من العوض ما يكافئ الأمررين جميعاً. يريد مُحِبُّنا الصادق أن يقدم للحبش جُزءاً من أراضينا مكافأة له على ما يُريد منه، ولم يغفل عن مراعاة المراقبة التجارية حسب عادته ترحب إلى الحبش أن يتنازل له عن أملاك في البحر الأحمر، فليعتبر المعتبرون.

الفصل السابع والعشرون

عودة إلى الخرطوم

نوهنا مراراً للمسلمين عموماً، والمصريين خصوصاً، من الانقباض عن حرب إخوانهم وإراقة دماء أبناء ملتهم بمجرد أوامر تصدر إليهم من مخالفهم في الجنس والاعتقاد، لا يعلمون لها عاقبة، ولا يدركون من يجتني ثمرتها، بل يوقنون أنهم إنما يقتلون إخوانهم ليورثوا أرضهم لقوم آخرين، ربما كانوا أعداءهم أو يكونون أعداءهم، ولهذا لم يأخذنا عجب من خذلانهم لهكس في السودان الغربي ولا لباكر في السودان الشرقي، ولا مما بلغنا في هذه الأيام من خذلان جوردون في الخرطوم، ولم يختلف في صدرنا ولا في خطرات أنفسنا أن انهزامهم في هذه المواقع منشؤه الجبن والخور، أو الاختلال والنقص في الآداب العسكرية، ولكن نعلم أنهم يفضلون الموت بيد إخوانهم على الظفر بهم لتكون أموالهم وديارُهُم غنيمة لصاحب أمرهم من الأجانب، أما الجرائد الإنجليزية وقُواد الإنجليز فهم يُبالغون في جبن العساكر المصرية واختلالها؛ ليتطرقوا بذلك إلى ما في عزم حكومتهم من طرد الجيش المصري الوطني وإقامة جيش إنجليزي مقامه، حتى يتمكنوا بجيشهم أن ينالوا ما تطمح إليه أنظارُهُم في المستقبل.

ومن هنا لا يستغرب عارف بحقيقة الأمر ما ذكره مراسل التايمز في الخرطوم، من أن جوردون باشا عندما اشتد عليه الحصر من أشیاع محمد أحمد، خرج بألفي جندي من الجنود المصرية وبعض العساكر غير المنظمة «الباшибوزق» ليفرق المحاصرين ويُبعدهم عن أبواب المدينة، فلم تثبت الجنود لأول الملاقاء وانحاز منهم خمسة ضباط

إلى قبائل العرب وعمد اثنان من أمرائهم «بشاوات» إلى قتل من كان على المدافع منهم ليطلقها على إخوانهم التابعين لـ محمد أحمد.

ويقال: إن جوردون قبض على الأمراء ووضعهما تحت المحاكمة العسكرية، وأخر الأمر اضطر جوردون إلى الدخول وراء الحصون بعد أن تبدد جيشه وقتل منه مائتان على ما رواه، ولم يقتل من التأثرين إلا أربعة وغنم العرب من ذخائر جيش جوردون مقداراً وافراً، مع أن المهاجمين منهم كانوا فئة قليلة لا سلاح لهم إلا الرماح والحراب، وجيش جوردون كان ألفي رجل شاكي السلاح من الطرز الأوروبي الجديد.

هذا يكون من المصريين؛ لأنهم تحت قيادة أجنبي يأمرهم بأوامر دولة أجنبية، ولو كانوا في إمرة أمير مسلم مصري ولهم ثقة بعاقبة ظفرهم أن تكون بلادهم وملتهم، لرأينا منهم ما رأى العالم وشهد به الكون لهم من الشجاعة والإقدام أيام محمد علي وإبراهيم باشا.

وبالجملة: فقد أرجع جوردون بعد تغلب التأثرين حاميته إلى مأمه في الخرطوم يوم السادس عشر من شهر مارس (الماضي)، ويقول مراسل التايمز: إنه يمكنه التمنُّ في الحصون بعض أيام إلا أنه لم يجرؤ على الخروج مرة ثانية.

الجرائم الإنجليزية تحكي ما هال أهل بريطانيا من مصيبة جوردون، وتذذر بخطر عظيم يحل به، وفي جريدة «الديلي تلغراف»: أن هلاك جوردون أو وقوفه في أسر محمد أحمد يذهب بالأعمال الحربية التي قامت بها تلك العساكر الإنجليزية في السودان، و يجعلها هباءً لأن لم تكن، ويزيل أثر تلك الواقع الدموية ف تكون نسيًا منسيًا، وقالت جريدة «الستاندرد»: ليس من الممكن لنا أن نتأخر دقيقة واحدة إلا إذا أردنا أن نلقى بجوردون إلى هاوية الهلاك، وبالسودان إلى الفوضى (نعم، لا بد أن يخافوا على السودان من الفوضى كما خافوا على مصر منها)، وفي التايمز: لا بد لإنجلترا أن تُظهر عزيمتها في الأحوال الحاضرة، وتأخذ في عملها بالشدة حتى يُعلم ذلك منها عند الكافة من الإنجليز، ومن آمالها أنَّ الأمة الإنجليزية تؤيد الحكومة فيما تعزم عليه وأنه لاسبيل لإنقاذ جوردون إلا تصميم الحكومة الإنجليزية على ما تريده، (ولم تفصح التايمز عن تلك العزيمة ما هي ولا ما تصمم عليه الحكومة ما هو لعل كل ذلك هو هذا، لا بد أن نفعل ولا بد أن نترك ولا بد أن نكون ولا بد أن لا نكون).

قالت جريدة الثان الفرنسية: إن هذا الخطاب الجديد أحدث من القلق في إنجلترا ما لا مزيد عليه، وعموم الناس فيها يعتقدون أنه إن لم تُرسل الحكومة جنوداً لإنجاد

جوردون فهو هالك لا محالة، وجميعهم يعلمون مقدار التبعة التي تحملها الوزارة (الإنجليزية) إذا مات أو أُسر جوردون، فإنها هي التي ألقت به في هذه التهلكة، والجرائم عموماً – على اختلاف مشاربها – متفقة على القول بأن موت جوردون باشا يكون وصمة في شرف إنجلترا لا تمحوها الأيام.

إن وزير الحربة الإنجليزية يحاور سائليه من الحزب المضاد في مجلس النواب ويُراوغُهم في الجواب، ويتعلّل بأن الحكومة لم تَعدَ المجلس وعداً صريحاً بأن تبين مقاصدها في السياسة المصرية، ويزعم أنه لا يمكن أن يفيده بتفاصيل عن أحوال الخرطوم لانقطاع الأخبار، لكنه يعترف بهزيمة الجنرال جوردون وبما هو فيه من الشدة والضيق، إلا أن اللورد نورثبورك لم يزل مُصرّاً على طلبه من الحكومة بيان سياستها في المسائل المصرية والسودانية بالتفصيل، وقال للورد جرانفيل في مجلس اللوردات: إنه لا يرى من السهل في هذه الأوقات أن تُفتح الطريق بين سواكن وبربر، وخطأ القائلين بسهولته، وأفاد المجلس بالفشل الذي حل بالجنرال جوردون.

الفصل الثامن والعشرون

أمانى إنجلترا في حركات محمد أحمد

صرح اللورد جرانفيل في مجلس اللوردات بأنَّ المقاومة الشديدة التي لاقوها من قبائل العرب ورئيسهم عثمان في سواحل البحر الأحمر لم يكنقصد منها إلا الرغبة في تمكن سلطة محمد أحمد في البلاد السودانية، يريد من هذا أنه لم يحملهم على الثبات والتراخي على الموت عدواً لهم للإنجليز ولا طمعُهم في توسيع الفتح، وإنما كان الحامل هو الدُّفاع عن شوكة محمد أحمد في السودان خاصة، وهذا من اللورد إما غفلة أو تَغْفُلُ عن لواحق دعوى المهدوية، بل لوازماها التي لا تنفكُ عنها؛ فإنَّ القائم بهذه الدعوى لا يقف في سيره عند غاية، ولا يقنع بملك، وإنما يريد بسط دعوته في أقطار العالم وإحياء الأوامر الإلهية التي جاء بها صاحبُ شريعته الذي يَدْعُى النيابة عنه في تبليغها وصيانتها في نفوس النَّاس كافية.

وسواء كان صادقاً في دعوah أو كاذبًا، فلن يتم له أمر ولن تتمكن له سلطة في بقعة من بقاع الأرض — السودان كانت أو مصر أو غيرها من البلدان — إلا بتقدمه إلى ما وراءها حتى يعلى كلمة دينه، ويرد إلى الحق من انحرف عنه، ويكون له التصرُّف التامُ في قلوب المسلمين، ويأخذ منها مكاناً علياً يُشرف منه على مطامح دعوah في غيرهم من الأمم، وسواء يَسَّرَ الله له النجاحُ في ذلك أو باءَ بضده، هذا لا كلام لنا فيه الآن، ولكنَّا نتكلُّم في الخصائص الطبيعية لهذه الدعوى العظيمة.

وبعد الوقوف على ما بيننا يسقط من النظر قولُ اللورد جرانفيل في مجلس اللوردات إن حكومته لم يرد لها خبرٌ يحملها على الظن باستعداد محمد أحمد لقبول إمارة كوردفان والاكتفاء بها، ولا يعلم هل قبولُ محمد أحمد لتلك الولاية يكون حجاً بينه وبين التقدُّم إلى سواه؟ فقد علمت أن محمد أحمد لم يقم بدعوى الملك، ولا طلب حقاً له في الإمارة كان يرثه عن آبائه، وإنما قام بدعوى لا نهاية لأطرافها إلا عند حدود السلطة الإسلامية، فليس يكفيه قوة دعوة إسلامية إلا عزُّ إسلاميٌّ، ولن يكفيه هذا المدعى ويرده إلى قدره إلا رجالُ مسلمون، يُدافعون عن الدعوى بما يقوى على إضعافها أو محوها، فإن لم يرد لحكومة اللورد خبرٌ إلى الآن عما ذكره فليطمئنْ قلبهُ لعدم وروده في المستقبل، ولا نظن خبراً يأتيه إلا بنتيجة ما توهمه — نسأل الله حُسْن العاقبة.

بعد تحرير هذه الأحرف جاءت الأخبارُ مصدقة لما قلنا؛ ففي برقية من مكاتب التايمس في الخرطوم أن ثلاثة دراويش جاءوا مرسلين من قبل محمد أحمد إلى الجنرال جوردون، وأرجعوا إليه علاماتِ الشرف التي كان بعث بها إلى مرسلهم، وبلغوه أن محمد أحمد يرفض لقب أمير كوردفان، وينصح الجنرال أن يدخل في دين الإسلام؛ فهو خير له.

الفصل التاسع والعشرون

الحزم والعزم

إن أبناء الأمم الغربية إذا عمدوا إلى قصد لا يفترون في طلبه، وعلو الهم فيهم يجعل لديهم كلّ صعب سهلاً، وكلّ بعيد قريباً، يقتلون المخاطر لاكتساب الشرف، ويتجشّمون المصاعب للوصول إليه، وبلغوا من محبة المجد حداً لا يرونه غذاءً لأرواحهم فقط، بل عدوه مادة النماء لأبدانهم؛ فهم يفرّقون خوفاً إذا عرض لهم لفواته، خشيةً منْ هلاكهم وذهاب حياتهم؛ لهذا ترى الرجل منهم يجوبُ فيافي إفريقيا، ويتسنم جبال سيريريا، ويُخالط قبائل وشعوبًا لا يعرف لهم لغة، ولا يألف لهم عادة ولا أخلاقاً، ويتكبد مشاق الحر والبرد والجوع والعطش، وينازل الموت مع من يخالطه من تلك القبائل البعيدة عنه في جميع أوصافهم، وهو في كل وقت يقعُ بين أننياب المنية منهم، ثم يخلص بما يقتدر عليه من الوسائل، كلّ هذا ما يحتمله طلباً لشرف يكسبه لذاته، أو ابتغاء مجده يحصله لأمته.

ومن هؤلاء الرجال، بل من أحزمهم وأجلّهم، صديقنا الهمام البطل الشهير المستر أوكيي أحد نواب البرلمان الأيرلنديين، جاء إلينا من أشهر على عزيمة السفر إلى عبيد، وسألنا أن نقدم له ما يسهل له الوصول من الأمان على حياته، فأجبناه بتحرير رقائق إلى من لهم اليد الطولى في مساعدته، ووردت منه المكاتيبُ تبشرنا بنوال مبتغاها. وفي هذه الأيام جاءتنا برقائق بوصوله، ومنهم رجال من عظاماء الفرنسيين الأحرار ذهبوا إلى

مثل مقصده وتوسلوا بمثل وسائله، وهماليوم يتوسطون **الطريق** – ونرجو لهم سلامة الوصول.

ورجاؤنا أن يكون في هؤلاء أسوة للشرقيين، لا تُتعدهم الأوهام الباطلة، ولا تنيهم الأحلام الكاذبة، ولقد كان لهم في أسلافهم أسوة حسنة، ولكن من الأسف نحتاج في تذكيرهم بما لهم من سابق المجد إلى ذكر أحوال الحاضرين من غيرهم – والله الأمر من قبل ومن بعد.

الفصل الثالثون

أسطورة

ذكروا في أساطير الأولين أن هيكلًا عظيمًا كان خارج مدينة إصطخر، وربما أوى إليه بعض سراة الليل إذا اشتدت بهم وحشة الظلام، وما أوى إليه أحد إلا غالته المنية، فيأتي طلاب أثره لفحص خبره فيدخلون الهيكل في ضوء النهار فيجدونه به ميتًا، ثم لا يهتدون لسبب موته لسلامة بدنه من كل ما يعهد سببًا للموت، و Ashton أمر الهيكل بين السابلة والقطان وأخذ كل قاصد حذره من المبيت به، حتى ضاقت الدنيا برجل، فاختار الموت على الحياة، وصعب عليه انتحار نفسه بيده فذهب إلى الهيكل لعله يصادف منيته، فإذا بالقرب منه رجال نصحوه وحذروه عاقبة الهاك فلم يُصْنِعْ إليهم، وقال: إنما أتيت لتلك العاقبة، وانفلت من نصائحه إلى حيث يظن مهلكه.

فلما توسط الهيكل فاجأته أصواتٌ مزعجةٌ هائلةٌ كأن جمًا عظيمًا يخاطبه: ها نحن قد أتينا لإتلافك، ها نحن قد أتينا لإزهاق روحك، ها نحن وصلنا لتمزيق بدنك وسحق عظامك، فصاح البائس ألا فأقدموا فقد سئمت الحياة، ولم يتم كلامه إلا وقد حدثت فرقة شديدة وانحل الطسلام وانشق الجدار وتناثرت منه الدرام والدنانير وتفتحت أبواب الكنوز، فاطمأنَّ الخائف ونام حتى أصبح، ولما أضحي النهار، وجاء الواقفون على خبره ليحلموا جنازته، وجدوه فرحاً مستبشرًا يسألهم بعض الأوعية لحمل ما وجده من الذهب والفضة، فاستخبروه قصته ... فبعد البيان علموا أن هلاك من هلك إنما كان بالفزع من تلك المزعجات التي لا حقيقة لها.

بريطانيا العظمى هيكلٌ عظيم يأوي إليه المغرورون إذا أوحشت مظلمات السياسة،
فتدركهم المنية بمزعجات الأوهام، وكم هلك بين جدرانه من لا مريرة لهم، ولا ثبات
لجأشهم، وأخشى أنْ يسوق اليأس إليه قوي المريدة، ضاقت الحياة، فما يكون إلا هنีهة
يصعد فيها صوت اليأس، فينقض الجدار، وينحلُّ الظلسم الأعظم.

الفصل الحادي والثلاثون

القوة للحق

أخذت دولة بريطانيا في معاملة الشرقيين لهذه الأيام طریقاً غير طريقها المعروف، وهي تعلم أن نجاحها في أعمالها لديهم، وبساطة ملکها فيهم، واقتطف ثمرات جنانهم؛ إنما كان بذلك الطريق المعهود، كأنی أراهااليوم اكتنعت حقائقهم، وسبرت خلائقهم، ووصلت إلى مكنونات صدورهم، تجاوزت من ظواهرهم إلى ضمائرهم، وأدلت بخراطيمها إلى قلوبهم، فأحسست سكوتاً، فحسبت يسراً من شدة الجبن، وسرت بدقتها في أوعية دمائهم، فشعرت منها بفتور ظنّته وقوفاً من شدة الضعف، فكان من حسبانها أنهم في نهاية العجز عن أعمالهم، والقيام بشؤونهم.

أو أنسَتْ منهم الركونَ إلى المراتب التي نقلت عن معانيها الأصلية، وجُردت عن مدلولاتها: كناظر، ووزير، ووالٍ، وأمير، وهي أشبه بباب عاليٌ، إلا أنها خاويةٌ خاليةٌ، فكان من زعمها أنَّ أَمْرَاءَ الشَّرْقِ شغَلُوكُمْ بِهِرْجَهُ هَذِهِ الصُّورُ الظَّاهِرِيَّةَ حَتَّى أَنْسَتُمْ مَنَافِعَهُمُ الْحَقِيقِيَّةَ، وَضَرُورَاتِ حَيَاتِهِمُ الْجَنْسِيَّةَ أَوِ الْمَلِيَّةَ، وَقَنَعْتُمْ بِمَا يُشِيدُهُ الْوَهْمُ وَيُزِينُهُ الْخِيَالُ، هَكُذا ظنْتُ كَمَا تَدَلُّ عَلَيْهِ أَعْمَالُهُمَا، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَعْهُودًا مِنْهُمَا.

دخلت دولة الإنجليز بلاد الهنديين، ومَدَّتْ عينها إلى ما مَتَّعْهُمُ اللهُ بِهِ مِنْ أَرَاضِيهِمْ، وَطَمَحَتْ إِلَى اخْتِطافِهَا مِنْ أَيْدِيِّ الْمُسْلِمِينَ، إِلَّا أَنَّهَا ذَهَبَتْ مَذْهَبَ الْلَّيْنِ وَاللَّطْفِ، وَخَفَضَ جَنَاحَ الذَّلِّ، وَالظَّهُورَ فِي أَلْبَسِ الْخُضُوعِ وَالْخُشْيَةِ، وَصَابَرَتْ عَلَى هَذَا السَّيْرِ أَزْمَانًا تَقْطَعُ مَسَافَاتٍ كَثِيرَةٍ فِي مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ.

نعم، كانت تتدرّج في نقض أساس السلطنة التيمورية حجراً حجراً، وتتمكّن أراضيها قطعة بعد قطعة، لكن بدون تعرُّض للسلطنة الظاهرية ولا مَسْ لنفوذها، كانت تغري الولاة من النوابيين والرجوّات بالخروج على السلطان التيموري، ثم تنبُّ عنّه بالعساكر الإنجليزية والصينية للتغلُّب على الخارجين تحت اسم الملك، ولا تمس رسومه الملكية بل تقلب نفسها خادمة مأمورة، هكذا كان سيرها، وهو المأثور من عوائدها.

أما في مصر فقد أظهرت مصادها لأول خطوة، باكورة أعمالها بعد دخول تلك البلاد غل أيدي الحكومة، وعارضتها في جميع أعمالها، وتصدّرها عن تعاطي شؤونها، وربما كان يُخيّل للناظر في حركات تلك الدولة أيام كانت تهيئ أسباب الفتنة السابقة ومساعيها لتفوّي ثورة السودان، أنها تسلي سبيلاً في الهند، ولكن يرى منها السلطان العثماني عن الداخلة في إصلاح بلاده المصرية والسودانية، مع ما له فيها من الحقوق الشرعية والقانونية منعاً صريحاً، وفي معارضه ولاة مصر وحكامها في كليات الأمور وجزئياتها أنها انحرفت عن مشربها وأخذت مذهبًا غير مذهبها.

كليفور لويد مستشار الداخلية في مصر، وهو بحكم وظيفته من الطبقة الوسطى في مأمورى الحكومة، يتحكم على جميع الوزراء المصريين، ويُعارضهم في تصرُّفهم، ويُضيّع للبلاد شرائع وقوانينٍ منْ تلقاء نفسه، ويُخالف توفيق باشا في أوامره (إلا أنه لا يحسب عاصيًا حتى أجهوا نوبار باشا رئيس النظار^١ إلى تقديم استعفائه بعد العجز عن مقاومته)، وضاق صدرُ توفيق باشا من صلابته في آرائه، ولم تر الحكومة الإنجليزية عزله وإبداله بغيره، وزعمت أنها لو عزلته لأهانَتْ تاج بريطانيا العظمى، ثم عالجتْ هذا الارتباك بتوجيه أوامرهما إلى كليفور لويد بأنْ يقف عند حدود وظيفته ولا يتجاوز دائرة أعماله، التي تسمح له بها طبيعة الوظيفة وخصائصها المحدودة.

وكان للظنون مجالٌ لحسن الظن بدولة بريطانيا، غير أن جريدة التايميس كشفت القناع، ولم تبال بما يخداش خواطر الأمراء الشرقيين ازدراً وامتهاً، ومزّقت الستار الذي أقامته حكومتها حجاً لمقصدها في إلزام كليفور لويد بما ألمَته، فقالت: إن وزارة نوبار باشا مؤلفةٌ من دمى (صور وتماثيل) نُظمت في أسلاك، أطراافُها بيد الحكومة الإنجليزية تحركها كيّفما شاءت، فعلى كليفور لويد أن يُدير الشؤون المصرية بواسطة

^١ رئيس الوزراء.

هذه الألاغيب، ت يريد أن الحل والعقد في جميع الأحوال إنما هو للوزارة الإنجليزية لكن من وراء الحجاب ... ثم اعترضت هذه الجريدة على إقامة هذا الحجاب فقالت: إنه وإن كان مفيداً إلا أنه يضر بمصالح إنجلترا ومصر معًا (وكان على الحكومة الإنجليزية أن تجهر بولالية الأحكام في مصر كما صرحت بذلك مراراً).

أسرعت دولة إنجلترا في سيرها إلى ما تروم في الأقطار المصرية، بل تهورت على خلاف عادتها، وقد يكون مع المستعجل الزلل، لا نظن من الحكمة ما أتته من الأعمال في مصر وربما وجب عليها تدارك ما فرط منها، إن محمد أحمد شمخ أمره وعظام خطره وهو من ورائها لا عائق له في سيره، والقوى تجتمع إليه يوماً بعد يوم، وبعدهما تراه في غير هذا المحل من أخباره جاءت أواخر الأخبار بأن المواصلات انقطعت بين القاهرة وبين بربير بالمرة، وأن جماهير التأثيرين يزيد عددهم حول مدينة بربير وقتاً بعد وقت لقصد محاصرتها، ويغلب على ظن الكافة أنهم لا بد أن يغيروا على المدينة بعد قليل ويلتحموا مع حاميتها بموقعة يكون فيها الفصل، وأن مدير بربير أعياد الإلحاح على الحكومة لتنجده بعساكر إنجليزية ليفرجوا عن المدينة وينقذوا حاميتها، وإلا هلكوا.

فما ركبته إنجلترا من طريق التصرف في الإدارات المصرية يخلف ظن المصريين فيها ويقطع أملهم من وفاء وعودها، ويُوجَدُ عليها نفوس الأمراء منهم ويُوغر صدورهم، ويُحقّقُ لدى العلماء أن من قصدها التصرف في ولاية بلادهم كما يتصرف المالك، فيلتجئون بحكمضرورة إلى تلبية محمد أحمد في دعوته أو مساعدته على بعض أعماله، أو تخانلهم بين يديه وفتح الأبواب له.

ولما نظن أن إنجلترا يخفي عليها أن علماء مصر هم أساتذة لعلماء المسلمين شرقاً وغرباً، وأن الجامع الأَزَهَرَ معهد العلوم الشرعية تسيرُ إليه الركاب من جميع الأقطار، ويقصده المسلمون من كل ناحية لدراسة الدين وروايته، فلو حزبهم الأمر وأعوزهم الصبر ورأوا ولاية الدين في قبضة مَنْ ليس منهم، فبمجرد إشارة خفيفة وإيماء إلى موافقة محمد أحمد، سَرَّاً كان أو جهراً؛ كافٍ لإيقاد نار الفتنة في جميع أرجاء البلاد الإسلامية، وتسابق القلوب إلى الاعتقاد بالمدعى والتفاني تحت رايته، وليس في استطاعة دولة إنجلترا أن تتصرف في أهواء القلوب ولا حركات الأفكار، وإن أسلحتها الجديدة لا تبد جحافل الخواطر، وشتان بين هذه الفتنة وبين التي يسمونها فتنة عربية — نسأل الله العافية وحسن العاقبة.

الفصل الثاني والثلاثون

الجرائد الإنجليزية والعروة الوثقى

لو نادينا الغافلين: أن انتبهوا، والنائمين: أن استيقظوا، واللاهين بحظوظهم أو أماناتهم أو أوهامهم: أن التفتوا، ولو أندرنا أهل مصر بأن الإنجليز لو ثبتت أقدامهم في ديارهم لحاسبوا الناس على هوا جس أنفسهم، وخطرات قلوبهم، بل على استعداد عقولهم، ولما عساه يخطر ببالهم؛ لقال الناس إننا نبالغ في الإنذار، ونغرق في التحذير.

ولو بینا لهم أن الإنجليز يواخذون الأبناء بذنب الآباء، والأحفاد بجرائم الأجداد، ويطالبون الذراري بدفعات أسلفهم، وإن لم يكن للخلف علم بما ترك السلف؛ لعدوا هذا البيان منا شطأً في المقال، وميلاً عن الاعتدال.

ولو روينا لهم أن في قلوب الإنجليز حقداً وضغينةً على كل إيراني سواءً كان من الأفراد أو الوجوه، ويسيئون معاملتهم حيثما وجدوا من بلاد الهند، ويمقتوthem مقتاً شديداً؛ لأن نادر شاه — من ملوك العجم — جاء إلى الهند فاتحاً على عهد السلطنة التيمورية، واستولى على خزائن الأموال في دلهي، وأخذها إلى بلاده قبل استيلاء الإنجليز على تلك المملكة بما ينفي عن قرن، ويعضون الآمال من الغيط، ويحرقون الأرم من الأسف على ما أخذه نادر من أموال دلهي، وحرمانهم من تلك الأموال، ويحملون هذا الوزر على عاتق كل إيراني؛ لحسبوا ذلك مناً تعالىً.

ولو قصصنا عليهم ما يعامل به الإنجليز رعاياهم في الهند عموماً وال المسلمين خصوصاً، وأنه يكفي لنفي عالم من علماء المسلمين إلى جزائر أندومان أن يعترف بأنه

معتقد ببعض آيات من القرآن؛ لأنكروا علينا ما نقول، لبعدهم عن تلك الأقطار وعدم وقوفهم على أحوالها.

ولسنا الآن بصدده إقناع المصريين بما نعلم من أحوال الإنجليز ولا نريد إقامة الدليل على ما نعرفه من أحكام سلطتهم، فلا نذكر ولا نبين ولا نحكي ولا نقص، ولكن نعرض عليهم نموذجاً من المعاملة لعله يكون للمتبرسين مرآة تحكي ما غيب عنهم من لوازم السلطة الإنجليزية.

عزمنا على إنشاء جريتنا هذه فعلمَ بعضُ مُحرّري الجرائد الفرنسية، فكتبوا عنها قبل صدورها غير مبينين لشربها، ولا كاشفين عن حقيقة سيرها، فلما وقف على الخبر محررو الجرائد الإنجليزية المهمة أخذتهم الحدة، واحتدمتْ فيهم نارُ الحمية، وأنذروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة في سياسة الإنجليز ونفوذها في البلاد الشرقية، ولجأوا في إغرائها بها، وألحوا عليها أن تعد كل وسيلة لمنع الجريدة عن الدخول في البلاد الهندية والبلاد المصرية، بل تطرّقوا فنصحوها أن تلزم الدولة العثمانية بالحجر عليها.

كل هذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريتنا، وقبل أن يقف ولا واحدٌ منهم على مذهبها السياسي، مع أن هذه الجريدة لم تنشأ لإثارة الخواطر ولا لإيقاد الفتنة، وإنما أنشئت للدافعة عن حقوق الشرقيين عموماً، والمسلمين خصوصاً، وتنبيه أفكار بعض الغافلين منهم لما فيه خير لهم، ولقد صدرت سالكَةً جادة الاعتدال، ذاهبةً مذهب الاستقامة والعدل، كما يظهر لكل من اطلع عليها، فليعتبر المعتبرون بهذا الإجحاف والاعتداء والقصاص قبل الجناية، ومن كان سمندري الطبع فليهناً له العيش في ظلٍ ذي ثلات شعب لا ظليل ولا يُغنى عن اللهب. ولكن فلتعلم الحكومة الإنجليزية أننا لا يعجزنا بث أفكارنا في البلاد الشرقية، سواء كان بهذه الجريدة أو بوسيلة أخرى، إذا دعا الحال؛ فإن أنصار الحق كثيرون.

الفصل الثالث والثلاثون

عجز ومراوغة

طنطنت الجرائد الإنجليزية ورجال السياسة في بريطانيا بنجاح الجنرال جوردون في مأموريته بعدها وصل الخرطوم بأيام، ثم انعكس الأمر عليها وأظهرت الجزء مما حل به من الخيبة في أعماله، والإشفاقي والارتياح مما يتوقع نزوله من الخطر، وأجمعوا على أن ما يصيب جوردون من قتل أو أسر يكون وصمة في شرف إنجلترا إلى الأبد وعاراً عليها لا يمحى، ولا مداركة لهذا الخطب العظيم إلا بإرسال العساكر الإنجليزية إلى الخرطوم. إلا أنه في هذه الأيام بعد العجز عن إرسال العساكر لم يعد لوزراء إنجلترا أو رجال حكومتها عذر للتملص من هذا العار الذي يلحق بهم، فقال الميسو جلاستون وزير الحرب الإنجليزية إن الجنرال جوردون لم يؤمر بالإقامة في الخرطوم إلى أجل غير محدود حتى يحتاج نجدة عسكرية تخلصه مما عساه يقع فيه، بل كان فيما أمر به أن يخرج من المدينة عندما يرى لزوماً لذلك، على أن الجنرال لم يطلب إعانةً عسكرية، فالوزارة الإنجليزية لا تتحمل تبعية ما نزل بجوردون إلا بعد أن تقف على أفكاره ومطامح أنظاره، ولا وقوف لها إلى الآن على شيء منها، والأوامر التي أصدرتها إليه في الأيام الأخيرة لم يرد لها خبر عن وصولها.

ومن كلام وزير الحرب أن الحكومة الإنجليزية تدبرت من أيام في إرسال فرقة عسكرية إلى برب، وبعد إمعان النظر في لزوم ذلك رأتْ عدم الإرسال أولى، وأنهى كلامه بقوله: إن حكومته لم تأخذ على نفسها إعادة السلطة المصرية في السودان، ولا تقرير أي

حكومة فيها، وإنها تلقياليوم على نفسها كل تبعة توجه إليها في شئون السودان، وأما سواكن فسيقام بها حامية قليلة العدد إلى أن يبرم اتفاق (بينهم وبين مصر). وكلام هؤلاء الوزراء قد لا يخلو من غرابة؛ فإن منشورات جوردون التي نشرها بعد دخوله الخرطوم على قبائل العربان ورسالته إلى المهدى لم تذكرها الحكومة الإنجليزية، بل دافعت عنها ودفعت الاعتراضات التي وجهت إليها، وكان فيها أنه والى على السودان (بل سلطان) من قبل دولته والحكومة المصرية، وأنه بما له من حق الولاية يمنحك محمد أحمد لقب أمير كوردفان، ويبعث بيع الرقيق، ويدعو العرب إلى الطاعة، فتلك المنشورات صريحة في أن بعثته كانت لإقرار حكومة في السودان، والمدافعة عن بعض الولايات فيه، وأنه فيما يعمل مؤتمر حكومته، وإلا كان كاذباً والحكومة دافعت عن كذبه رجاء أن ينجح فيه، فلما أخفق لم تجد بُدًّا من البراءة منه.

وقالت جريدة التان الفرنسية: إن وزير الحربة الإنجليزية يدعى في مجلس العموم أن الجنرال جوردون لم يطلب نجدة عسكرية إلى الخرطوم، مع أن الأخبار التي وردت إلى جريدة التايمز من مصدر يكاد يكون رسمياً ونشرناها من قبل؛ تكذب ما قاله الوزير، وتؤكد أن والي الخرطوم (الجنرال) كانت متطرفةً ورود العساكر الإنجليزية إليه وقتاً بعد وقت، وتحقق حاجته لذلك عند الكافة من أهالى لندن، حتى كان تدبّر الحكومة في إرسال فرقة إلى ببر مبنياً على هذا؛ لتفتح طريق مصر العليا، لكن أقعدها تصوّر ما تكابده الجنود من المشاق والمتابع، بل ما يحل بها من التلف.

وقد عرضت جريدة «البال مال جازيت» بالطعن على حكومة إنجلترا، ولوحت بلومها على ما أظهرته من العجز واللراغة، حيث قالت: فليعلم الجنرال جوردون أن الحكومة الإنجليزية بعد إضرابها عن إرسال العساكر إلى ببر ي stitching عليها أن ترسل عساكر إلى الخرطوم، وقالت: إن الميسو بوير قنصل الإنجليز في الخرطوم كان ينتظر المدد العسكري يوماً بعد يوم وفي ظنه أن حكومته تسعفه بذلك، لكنه يجب عليه الآن أن يعلم أنها تركته وأصحابه ووكلتهم إلى أنفسهم.

فعليه أن يتبرأ في أمره بنفسه، موقناً أن الحكومة الإنجليزية تفضل إخلاء السودان وتعرض حامية المدن ومن فيها من رجالها لدى أشاعي محمد أحمد تفتكم بهم على إعداد أي وسيلة لإنقاذهن، وأتبعت قولها هذا بتهكم على الوزراء فقالت: من زعم أن إرسال جوردون إلى السودان لم يأت بفائدة فقد أخطأ خطأً عظيماً؛ فإن أعظم فائدة ترتب علىه بقاء الوزارة الإنجليزية وصيانتها من السقوط، فإن حياتها كانت موقوفةً

على سفره من لندن، ولو لاه ما خلصتْ من الخطر الذي كان مُحِبِّقاً بها، ولمَّا بقيتْ في قيد الحياة إلى الآن، وأنعم بها من فائدة جليلة لصر وإنجلترا، فكفى الأمتين سعادةً أن تهدر شقاشق الوزارة فوق المنابر.

هكذا تعنِّي المستر جلادستون وزملاؤه في الكلام على المسألة السودانية، وسلكوا طريق المواربة وتبرعوا منْ تبعتها بعدما ساقوا إليها الجيوش والقوّاد؛ بقصد إخماد الثورة وتغريب الراحة، وهو قرارٌ سياسٌ تبع الانهزام العسكري، يكشف لنا عن قُوَّةِ محمد أحمد ومَنْعِته و Yasins الدولة البريطانية عن ملافة أمره، وأن نيتها الاقتصار على التحصُّن فيما دُون حدود مصر الطبيعية، بل على الحلول في مصر السفلى حتى تحفظ القناة، وتتصرف في أراضيها الخصبة، وتقف على أبواب التجارة، ترقب حركات المارة، وتشيّع الذاهبين والآتيبين ما بين الشرق والغرب، وتقنع بالتحكم في بعض الضعفاء من المصريين.

إِنَّا لَا نعْلَم مَاذا تكون العاقبة إِذَا أَصْبَحَ السُّودان بِأَسْرِهِ فِي حُوزَةِ مُحَمَّدِ أَحْمَدِ، واعتصم في قاعدة تلك الأقطار الشاسعة، ولا عاصم له إِلَّا بِالْإِيْغَالِ فِي سِيرِهِ وَبِثَدِ دُعْوَتِهِ بَيْنَ جَمِيعِ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ، بِمَا يُسْتَطِعُ مِنَ الْحِيلَ أوَّلَ الْقُوَّةِ، أَفَلَا يَنْتَهِي بَعْدَ هَذَا إِلَى سُوقِ جِبُوْشِهِ الْكَثِيفَةِ إِلَى حدود مصر العلَيَا؟! ربما، بل يُغلِّبُ عَلَى الظُّنُونِ أَنَّهُ يَفْعُلُ ذَلِكَ، فَإِنْ لَمْ يَفْعُلْ فَهُنَّ شَعْلَةً لِلثُّورَةِ تُسْرِي بِطْبُعِهَا وَتُضْطَرُّ إِلَى اقْتِفَاءِ أَثْرِهَا.

جاءتُ الأخبارُ مِنْ أَيَّامِ قَطْعِ الْثَّائِرِينِ لِخُطُوطِ التَّلْفَارِ بَيْنَ أَسْوَانَ وَكُورُسْكُو، وَأَيْنَ كُورُسْكُو مِنْ أَسْوَانِ؟! هِيَ عَلَى مَقْرَبَةِ مَنْهَا وَالْمَسَافَةِ بَيْنِهَا كَمَا بَيْنَ قَنَا وَأَسْوَانَ، وَفِي أَخْبَارِ أُخْرَى أَنَّ لِلْهِيْجَانِ وَالْتَّحْرُشِ لِلْخُرُوجِ أَثْرًا ظَاهِرًا فِي أَطْرَافِ مَصْرِ الْعَلَيَا، فَإِنَّا قَدْ رَأَيْنَا وَصَارَتْ حَدُودُ مَصْرِ الْعَلَيَا مَعَارِّا لِلْحَرَكَاتِ الْحَرَبِيَّةِ، وَهُوَ مَا لَا تَعْدُهُ الْحَوَادِثُ، فَهُلْ يَبْقَى الْمَصْرِيُّونَ وَقَبَائِلُ الْعَرَبِيَّانَ فِي الْفَيَوَمِ وَالْبَحِيرَةِ وَالشَّرْقِيَّةِ وَجَمِيعِ أَنْهَاءِ الْقَطْرِ الْمَصْرِيِّ عَلَى سُكُونِهِمْ بَعْدَمَا رَأَوْا مِنْ ضَعْفِ الْإِنْجِلِيزِ وَعَجْزِهِمْ مَا رَأَوْا، وَبَعْدَمَا يَشَهُدُونَ سِيَّلًا قَوِيًّا مَأْوَهَ مِنْ مَائِهِمْ يَنْصُبُ إِلَيْهِمْ، وَبَعْدَمَا حَرَجَتْ صَدْرُوْهُمْ وَضَاقُوا ذِرْعًا مِنْ تَصْرِفِ الْإِنْجِلِيزِ فِي حُكْمِهِمْ؟

يُغلِّبُ عَلَى الظُّنُونِ أَنَّ مَا لَهُمْ مِنْ سُرْعَةِ الْاعْتِقَادِ بِالظَّافِرِ خَصْوَصًا إِنَّ كَانَ قَائِمًا بِدُعْوَةِ دِينِيَّةِ، وَمَا ضَاقَتْ بِهِ صَدُورُهُمْ مِنِ الْاسْتِبْدَادِ الْإِنْجِلِيزِيِّ، وَمَا ذاقُوهُ مِنْ آلَمِ الْفَقْرِ وَالْفَاقَةِ وَالذُّلِّ وَالْهُوَانِ مِنْ نَحْوِ سَنْتِينِ، وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ رِزَايَا دِينِهِمْ وَدُنْيَايِهِمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِذَا رَسَخَتْ قَدْمُ الْإِنْجِلِيزِ فِي مَصْرٍ؛ كُلُّ هَذَا يَبْعَثُهُمْ عَلَى تَقْبِيلِ دُعْوَةِ الدَّاعِيِّ بِقَبْوِلِ حَسْنِ وَانْحِيَازِهِمْ إِلَيْهِ.

إذا جاء هذا الوقت — وهو ليس ببعيد — فربما تجد إنجلترا في مصر أفعاناً أخرى، وتخشى من ظهور عجزها فتوارى خلف بعض من الحيل والتسللات، و تستدعي من المسلمين من يكون قويّ الشكيمة شديّد البأس؛ لتقرير السلم وتمكين الراحة، وتعود إلى جزائرها راضية من السلامة بالإياب، ولعل ذلك غيرُ بعيد عن العقل، وإلى الله المأب.

الفصل الرابع والثلاثون

إنجلترا والجيش

وردت الأخبار أنَّ الأميرال هفت وصل إلى مصوع حاملاً هدايا ثمينة إلى ملك الحبشة، وكنا في العدد السابق بينَنا ماذا يريد الأميرال من مواصلة الملك يوحنا، وأنَّ الدولة الإنجليزية بعدما فشلت عساكرُها في سواحل البحر الأحمر، وعجزت عن تجهيز جنوى جديدة تسوقها إلى أوسط السودان؛ التجأت للاستنجاد بملك الحبشة واستمداد مساعدته على مسلمي السودان، وكان حُسْن ظلتنا بدولة متمدنة كدولة بريطانيا يمنعنا من التصديق بعزمها على إثارة حرب خشنة، لكن من الأسف أن الإفادات التي وردتْ هذا الأسبوع تؤكد أن إنجلترا عازمة على النكأة بالمسلمين في السودان، من حيث هم مسلمون لا لإطفاء ثورة، ولا لترويج مدينة.

وفيظن أن هذا هو الذي بسط يدها بالهدايا الثمينة تُتحف بها ملك الحبش، وإلا فخلائقها من حيث هي دولة تجارية لا تسمح لها بهذا السخاء، وتنهاها عن البذل إلا أن ينقد لها الربح أضعافاً مضاعفة، أي ربح لها أعظم من تَوَدِّدها إلى دولة خشنة ترمي بها طائفة من المسلمين بغية الفتك والنكأة حتى تُخْيِفَ بذلك بعضَ مَنْ تخشى بأسهم من أبناءِ ملَّتهم.

على أنَّا لا نزال في ريب من نجاح مسعاهما، ولو أنها نجحت في إقناع ملك الحبشة بالتهور في حرب مع السودانيين فما عساها تسمى هذه الحرب؟ لا نرتاب في أنها ليست لكسر شوكة التوحُّش ووضع قواعد المدينة؛ فإنَّ أحد المتراربين لا يمتاز عن الآخر في أخلاقه وعوائده وأفكاره، بل ربما كان السودانيون بما استفادوا من الحكومة المصرية

مدة سنين؛ أقرب إلى المدنية من الحبشيين، ولا يمكن أن تكون حرّبًا للفتح وتوسيع الملك؛ فإن الحبشة لا مطمع لها في توسيع ممالكها إلى الجهات الغربية من السودان ولم يعهد لها ذلك في التاريخ، وغاية ما كانت تتبعيه أن تكون حدودها الطبيعية محفوظة من تبعدي جيرانها عليها.

فلا اسم لهذه إلا الحرب الدينية، تذكر الملل بما كاد يُمحى أثره من المغاربات الصليبية، وتُوقد في الأئمدة نار التعصب الديني، فلو فتحت دولة إنجلترا باب هذه الفتنة أفلأ تحرق قلوب المصريين بهذه النار؟ وهل ترجو هذه الدولة من بعد ذلك أن يستقر لها قدم بينهم، وهل تأمن أن يثور سكان جزيرة العرب تحت هذا العلم الذي يُظلل ملايينَ كثيرة تعلم عددها وتحسُّ بحاجتها إلى مسامتها، نظن أن حكومة بريطانيا تسعى بتخبطها هذا إلى ما لا محيد لها عنه، وتجتهد في تقريب البعيد وما كان أغناها عن هذا كله.

الفصل الخامس والثلاثون

رأي المستر بلونت في المسألة المصرية (إنجليزي حر ينصف المصريين)

على الحكومة الإنجليزية أن تتفق معسائر الدول على جَعلِ البلاد المصرية مستقلةً في إدارتها (يريد بذلك أن يكون حُكَّامها منها لا من دولة أجنبية) ويكون الكافل لهذا الاستقلال جميع الدول بدون امتياز قوانين التصفيية، واحتياطات الأجانب يجب تعديليها، كل مسألة يقع فيها اختلاف فلا يكون إنهاوها إلا باتفاق الدول الأوروبية، تحكم فيها بما تشاء، لا ينبغي أن يكون في الجندية ضباط من الأجانب، وقناة السويس يلزم أن يعتبر طريقاً عاماً يشترك فيه جميع الأمم ويكون تحت رعاية الدول جميعاً، يجب أن تكون إدارة البلاد بيد حكومة يقيمهها الأهالي بانتخابهم.

الفصل السادس والثلاثون

بريطانيا تمسح ظهر توفيق باشا

قالوا: إن زنجيًّا أسود، هائل المنظر، غليظ الشفتين مقلوب المشفرين، جاحظ العينين أحمر الحدقتين، بشع الوجه، أفطس الأنف، منكر الصورة، وكان يحمل ولدًا في ليلة مظلمة يسير به في زقاق من أزقة بغداد، والولدُ كلما نظر إليه يفزع ويبكي وينتحب ويصبح ويعول، وكلما اشتد به الفزع مسح الزنجي ظهره وقال له: لا تخف يا ولدي فإني معك وأنيسك وحافظك من كل شر، وبعد تكرير هذه الملاطفات من الزنجي للصبي قال الصبي: يا سيدِي إنما خوفي وفزعِي منك لا من وحشة الظلام!

هذا شأن حكومة إنجلترا مع المصريين، كلما اشتدت الخطوب وعظمت المصائب وزاد الخل في البلاد المصرية، مسحت حكومة بريطانيا على ظهر توفيق باشا ووزرائه بيدها الناعمة (وإنما هي نعومة الثعبان)، وأقبلت على الأهالي تمنيهم بوعودها المروقة، وتقول لهم: لا تحزنوا؛ فإني معكم، وجميع المصريين من توفيق باشا إلى وزرائه إلى عامة الأهالي يجئون وينادون: إنما خوفنا وجزعنا منك، وراحتنا واطمئناننا بتتنحّيك عنّا وتركنا وشأننا.

الفصل السابع والثلاثون

أضحوكة

قال مستشار خارجية إنجلترا لبعض سائليه في مجلس البرلان: إن الجنرال جوردون عندما أجاب محمد أحمد على بлагه الأخير لم يخاطبه بلقب سلطان كوردافان، بل عَنْونَ الجواب بلفظ شيخ، وبناء على هذا فقد صار لقب سلطان كوردافان الذي منحه له الجنرال جوردون لاغيًّا، يعني أن محمد أحمد خلع من سلطنته كوردافان عندما طمح نظره إلى الخرطوم وطلب من الجنرال أن يدخل في دين الإسلام، لكن محمد أحمد لم يتمتع بتلك السلطنة اللفظية؛ لأنه لم يقبلها عند عرضها عليه، فلا يحزن من هذا الخلع الجديد، أليس بعجيب أن يسمع من أفواه رجال سياسة بريطانيا مثل هذه المهملات، بعدها قيل فيهم إنهم من أدهى رجال العالم؟! ولعل الأضاحيك من أساليب السياسة عندهم.

الفصل الثامن والثلاثون

المسألة المصرية والإنجليزية

إن للحكومة الإنجليزية شأنًا في المسألة المصرية، يحال للناظر فيه أنها في تردد بين إحجام وإقدام، وأن مقارعة الآراء واختلاف الأهواء يزداد بين سكان بريطانيا كلما ازدادت الخطوب شدة في مصر، نعم، إن أرباب الرأي في الأمة الإنجليزية فريقان: فريق منهم يدفع حكومته إلى الإعلان بسيادتها على الديار المصرية واستلام إدارتها، وبعبارة أخرى إلى ضمها لأملاكها، ويحملها بذلك على غمط حقوق الدولة العثمانية وأهالي القطر المصري والاستهانة بحقوق الدول جميعاً، وهذا فريق الجمعيات والشركات المالية، ويدرك مذهبهم بعض الوزراء، وينصر آراءهم عدّة من الجرائد أشهرها جريدة التايمز. و Ashton them في صخبهم ونعيهم نبأ الأفكار وأطلق الخواطر في الأمة الفرنسية، فانطلق لسان جرائهم بالوعيد والتهديد، وصرحت الجرائد الوزارية منها وجرائد الأحزاب الجمهورية، وهي ذات السلطة في البلاد الفرنسية، بأن حكومة فرنسا وإن كانت غضّت طرفها عن أعمال إنجلترا في القطر المصري من يوم حملتها عليه إلى الآن، ولكنها لا تهمل شيئاً من مصالحها وحقوقها وجميع الدول الأوروبية تعزّزها.

وليس إنجلترا في مصر ما تمتاز به عن بقية الدول، ومن الجهل أن يظن سياسي في المسألة المصرية أنها مصرية أو إنجليزية أو فرنسية، فإنما هي مسألة أوروبية، وقد اقتربت الساعة التي تجهر فيها الدول في المدافعة عن حقوقها في الأقطار المصرية، إن للدول حقاً في التدخل لحل هذه المشكلات بعدها عجز إنجلترا عن القيام بما تعهدت به

من إقرار الراحة في مصر، فإن الفوضى في هذه الأيام أشد منها في زمن الحركة المعروفة بالعسكرية، وفتنة السودان تلطمْتُ أمواجها على حدود مصر، والهواء الأصفر (الكولييرا) أن تكون له رجعة إلى تلك البلاد السيئة الحظ.

وما هذا كله إلا من آثار الحلول الإنجليزية في وادي النيل، أما إن أرادت دولة إنجلترا أن ترسم سيادتها أو ترفع أعلام حمایتها على القطر المصري، فما للدول من حق التداخل يصير فرضاً لازماً وضربة لازب لا محيس عنها، إلا أن كل هذه التهويلات لم تعدل بذلك الفريق الإنجليزي عن مقصده ولم تتحول به عن مشربه، فلا تزال جرائدهم تتنعّق بطلب الحماية على مصر، وهم في عَمَّ عن العوائق والموانع التي تصد حكومتهم عن الانصياع إليهم.

أما الفريق الآخر من الأمة الإنجليزية، ومنهم وزير داخلية إنجلترا ومستر جلادستون — فيما يقال، فيظهورون التعفُّف والزاهة، بل يصرحون في خطبهم بأن حكومة بريطانيا لا تستطيع احتمال إدارة البلاد المصرية، وليس في إمكانها ضمُّها إلى أملاكها، ولو همَّت بذلك لرأت من الدول أشد المانعة، وربما رجعت بالخيبة، على أنها تكون قد سنت سنة سيئة في نقض العهود، وإخلال الوعود، وفتحت للدول هذا الباب، باب الشر والعدوان، هذا ما ينطقون به على منابرهم ويزعمونه نبأً عما في خواطرهم.

ولكن هؤلاء المتعفِّفين لهم في كل وقت عملٌ لتمكين أقدامهم في مصر، ولا يخالفون الفريق الأول إلا في شقاوش الألسن. هؤلاء هم الذين حَوَّلُوا الإدارات المصرية ودوائر حُكْمها العليا إلى السيرية، واستلموا زمام العسكرية والمالية وإدارة الداخلية والمحاكم القضائية وتصرّفوا في أعمالهم تصرُّف الملك، فاستبدُّوا على الموظفين من المصريين، وَغَلُّوا أيديهم عن تعاطي أشغال وظائفهم، حتى آل بهم الأمرُ إلى ما صرحت به الجرائد الإنجليزية من أنهم أشباحٌ ورسومٌ تلوح بين جدران الدواوين غدوةً وعشياً.

هؤلاء هم الذين يحاول نوابُهم وماموروهم في القطر المصري أن يُلزمو أهاليه بتحرير محضر يلتمسون فيه حماية إنجلترا وسيادتها عليهم وإن لم تنجح الحيلة، هؤلاء هم الذين همّوا الآن بتبديل نظام المالية المصرية ورغمبوا إلى الدول في عقد مؤتمر بلندن لتغيير قانون التصفية، ويريدون أن يجعلوا ذلك ذريعة للاتفاق مع الدول، على أن تكون الديون المصرية بأسراها تحت ضمانتهم، لتقوم لهم الحجة في الاستيلاء على مصر بعد زمن قصير أو طويل، أو ليهدوا به طريقاً لمن يخلفهم في الوزارات الإنجليزية

ينتهي بالسير فيه إلى تلك الغاية بعينها، وما طلبوا الماجور بارين وَكِيَاهُمُ الْسِيَاسِيُّ في القطر المصري إلا ليحضر هذا المؤتمر.

هذا ما يهيئه الإنجليز لأنفسهم ولكن ماذا تعد الحوادث لهم، وكتبوا على أنفسهم تخفيف مصائب الحكومة المصرية في السودان، وعقدوا لقوادهم الألوية، وأعدوا لهم العدد، وكتبوا الكتائب؛ فسفكت دمائهم عندما ضلّ سعيهم، ظنوا أن بعض رزياهم في سواحل البحر الأحمر فرصة للاستيلاء على السودان الشرقية، وبعد الجهد ومعاناة الكفاح من عراة العرب تَمَكَّنُوا من الرجوع بالخيبة، قنعوا بالاعتصام في حصن القاهرة وما يليها فأزعجهم دوي السيل المندفع عليهم من الجهة الجنوبية، وإغارة ثائرة السودان على شندي وافتتاحها، واشتداد الحملة منهم على بيرير والخرطوم.

وزادهم خوفاً ورعباً انتقاصُ كثير من القبائل على مقربة من وادي حلفا وأبي حمد، وأوشكت طائفة الفتنة أن تأخذ بقلوب الأهالي فيما تحت أسوان، وأفزعهم ما أَحَسُّوا من أهالي القاهرة ومصر السفلية من تحول القلوب وضيق الأنفس، حتى اضطروا لزيادة الحرس فيها، مع أن زيادة المعهود في المصريين أنهم أهل السلم والراحة. قصدوا بكل هذه حماية طريق الهند خوفاً على الهند، فبعدما ورد إلينا من أصدقائنا في لاهور أن لدعوة محمد أحمد في قلوب الهنديين منزلة، وأنه لو لم يكن مهدياً فالضرورة قاضية عليهم باعتقاده كذلك عسى أن يكون في هذا الاعتقاد جمُّ لكلمتهم على التخلُّص من رق الإنجليز، جاءت البرقيات شاهدةً على صدق ما كتب إلينا.

ففي الأخبار البرقية أن رجال الشرطة في سمنا وجدوا إعلانات ملصقة على جدران المدينة مما كتب فيها إغراء المسلمين بإجابة دعوة محمد أحمد والقيام بنصرته، وسمنا هي في آخر المالك الهندية الإنجليزية من جهة الشمال الشرقي على القرب من لاهور، وهذا ما كَنَّا نخشاه ونبهنا عنه مراراً، وربما تكون هذه الصدمات الشديدة التي صدعت إنجلترا بعد استفحال أمر محمد أحمد كافيةً في إذعانها بأن عاقبة الثورة السودانية أشد خطراً عليها من عاقبة الحركة التي سموها عربية.

رام الإنجليز بكل هذه الاحتياطات المقيدة أنْ يُقرروا الراحة في مصر فإذا الأموال تُنهب، والحقوق تُضيَّع، والإدارات في فساد والتجارة في كساد، والزراعة في بوار، والظلم في اشتداد، والأمن مسلوبٌ حتى الأرواح والأعراض، كل هذا باعتراف جرائدهم ووزرائهم وشهادة الجرائد المصرية الوطنية وإجماع السياسيين في أوروبا على أن الشقاء الذي ألم بأهل مصر بعد تداخل الإنجليز - ناشئاً عن هذا التداخل - لم يرزعوا به في زمان من

الأزمان من عهد محمد على إلى الآن، فأنعم بهذه الوسائل التي أعدها الإنجليز لتقرير الراحة في مصر! وأجمل بالوسائل التي استعملوها لحماية الهند!

هذه بدايات القلاقل وبوادر المخاطر التي نشأت من شدة احتراس الإنجليز وحرصهم على وقاية أملاكهم أو توسيعها، يظهر من جعجعتهم إذا صاح بهم داعي الحرب وحيرتهم من أين يجندون الجنود هل من الهند أم من إنجلترا؟ ومن موازينهم العسكرية أن ليس لهم قوة برية لحفظ المالك الواسعة، فكيف يستطيعون التصرف في مصر لو سادوا عليها، وهي كما قال وزير داخليتهم: تحسب مملكة أوروبية لا تسود فيها الأوهام ولا تدوم فيها سلطة الحيل، إن لم يكن من المصريين فمن الأوروبيين، وأي قوة تصون لهم الهند من فتنة إذا امتد زمن الاضطراب في مصر؟ وقد جاءنا من أخبار الهند أن عموم المسلمين في هياج شديد ويخشى أن تثور فيهم ثائرة عندما يتقدم محمد أحمد خطوة أخرى.

هذه العاقب السيئة وما يُتوقع من مثلاها أو أسوأ منها لدولة إنجلترا إنما هي حلقات في سلسلة أغلاطها من استيلائها على قبرص، فإنها اختلست تلك الجزيرة لمراقبة طريق الهند، فنافستها فرنسا، واستولت على تونس، فتخوفت على قنال السويس أن يُساق إليها جيش بري من إفريقيا الغربية، فسعت في الإيقاع بين الجند والحاكم في مصر وتدبرت بذلك للغارة عليها، فنزل بها في تلك ما نزل.

وبعث ذلك دولة فرنسا على ما بلغنا من مصدر يوثق به إلى السعي في طريق يوصلها إلى مناكبة الإنجليز في مصر على الحدود الغربية، وربما جرَّت هذه المنافسات إلى فتح المسألة الشرقية، وليس بقليل ما يُصيِّب إنجلترا من مضارٍ هذه المسألة، فأي ثمرة جنَّتها إنجلترا مما غرسته في هذه السنين الأخيرة، لا هي صارت بباب الهند من الخطر كما تروم، ولا هي سكنت قولب الهنديةين، وإنما طرقت أبواباً كانت مغلقة ويوشك أن تفتح، ولئن فتحت فإنها تُحدث زلزالاً في أركان العالم بأسره، هذا شأن الإنجليز وما يفعلون.

ويوجَدُ أناس لهم مداخلٌ في تقلب الأحوال المصرية، ولهم مذاهبٌ مختلفةٌ في ترويج مقاصدهم لدى المصريين، يُمنوُنَّهم بالخلاص من أيدي الإنجليز إذا آل إليهم السلطان في مصر، بل يؤكدون لهم أنه لو ثبتت أقدامهم في الديار المصرية لأحبطوا مساعي إنجلترا في عموم البلاد الشرقية، وسعوا في تقليص ظلها من الشرق بأسره، أخذًا بثارهم منها، فهؤلاء سنأتي على أحوالهم، ونبين طرق سيرهم في أعمالهم، حتى يكون ذروة الآمال فيهم على بصيرة من أمرهم.

الفصل التاسع والثلاثون

هول الأمر على جوردون

أُخْبَرَ مَرَاسِلَ التَّايِمِسِ فِي الْخَرْطُومَ أَنَّ تَلْكَ الْمَدِينَةَ أَصَبَّتْ مَعْسِكَرًا لِأَعْوَانِ الثُّوْرَةِ، وَمُضَارِبِهِمْ مَحِيطَةُ بَهَا مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ، وَالْمَقْذُوفَاتِ مِنْ نَيْرَانِ أَسْلَحَتِهِمْ تَنْقُضُ عَلَى دَارِ الْحُكُومَةِ بِلَا اِنْقَطَاعٍ، وَالْمَلَوْنَةِ فِي نَقْصَانِ، وَالْخَطَرِ يَشْتَدُ يَوْمًا بَعْدِ يَوْمٍ، وَبَعْدِ إِفْرَاغِ الْوَسْعِ فِي اِخْتِرَاقِ صَفَوْفِ التَّائِرِيْنِ بِالْمَرَاكِبِ تَسِيرُ إِلَى بِرْبِرِ لَفْتَحِ طَرِيقِ الْمَخَابِرِ مَعَ حَامِيَتِهَا، حَبْطَ الْعَمَلِ وَخَابَ السَّعْيُ؛ فَإِنْ قَوْةُ الْعَرَبَانِ عَلَى شَوَاطِئِ النَّيلِ تَصُولُ عَلَى الْمَرَاكِبِ بِأَسْلَحَتِهَا الْقَاتِلَةِ وَتَفْتَكُ بِمَنْ فِيهَا.

وَأَتَبَعَ هَذَا الْكَلَامَ بِقُولِهِ: إِنَّ الْجَنْزَالَ جَوْرَدُونَ عَقَدَ الْعَزِيمَةَ عَلَى أَنْ يَنْجُو بِنَفْسِهِ مِنْ طَرِيقِ إِفْرِيقِيَا الْوَسْطَى حِيثُ تَحَقَّقَ أَنَّ حُكُومَتَهُ غَيْرُ مَهْتَمَةٍ بِإِنْقَاذِهِ، وَيَرِى أَنَّهُ لَا سَبِيلٌ إِلَى الْاِتْفَاقِ مَعَ الْقَبَائِلِ الَّتِي أَخْذَتْ عَلَيْهِ طَرِيقَ بِرْبِرٍ إِلَّا بِمَسَاعِدَةِ زَبِيرِ باشا (الْيَوْمِ يَضْطَرُ لِمَسَاعِدَةِ زَبِيرِ باشا) وَهُوَ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَلَا نَرِى الزَّبِيرَ إِلَّا مُسْلِمًا لَوْ سَمِحَتْ ذَمَّتَهُ بِإِنْقَاذِ حَيَاةِ جَوْرَدُونَ فَلَا تَسْمِحُ أَنْ يَكُونَ السُّودَانُ وَلَيْاَةً إِنْجِلِيزِيَّةً، وَفِي جَرِيدَةِ «الْأَكْسِتَرِبَلَاتِ» أَنَّ الْحُكُومَةَ الإِنْجِلِيزِيَّةَ وَرَدَ إِلَيْهَا كِتَابٌ مِنْ جَوْرَدُونَ مَفَادِهِ:

«لَيْسَ فِي طَاقَةِ أَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ أَنْ يُنْجِيَنَا مِنَ الْخَطَرِ؛ لَأَنَّا مَحَاطُونَ مِنْ جَمِيعِ الْأَطْرَافِ بِالْقَبَائِلِ التَّائِرَةِ، فَلَمْ يَبْقِ لَنَا سُوَى التَّضَرُّعِ إِلَى اللهِ بِتَبَدِيدِ شَمْلَهُمْ، فَإِنْ لَمْ تَسْعِنَا الْعِنَاءُ الْإِلَهِيَّةُ بِإِجَابَةِ دُعَوْتَنَا فَلَا رِيبُ أَنَّ تَلْكَ الْقَبَائِلَ تَنْهَبُ وَتَفْتَكُ بِجَمِيعِ سُكَّانِ الْخَرْطُومِ قَبْلِ وَصُولِ نَجْدَةِ إِنْجِلِيزِيَّةِ إِلَيْنَا». (وَلِيَتِهِ سَأَلَ اللهُ تَعَالَى حَلَّ الْمَسَأَةَ السُّودَانِيَّةَ وَفَوَّضَ إِلَيْهِ الْأَمْرَ فِيهَا وَأَرَاحَ نَفْسَهُ مِنِ السَّفَرِ إِلَى الْخَرْطُومِ).

وجاءت الأخبار الأخيرة بأن مدينة شندي، وهي على النيل في منتصف الطريق بين بربير والخرطوم، وقعت في أيدي رجال محمد أحمد، هذا بعد أن طلب الجنرال جوردون من حكومته أن ترسل فريقاً من الجيوش لتخليص حامية تلك المدينة وموظفي إدارتها، ورأى الحكومة من الصواب أن لا ترسل، فلما ضاق الأمر على الحامية ويسروا من القدرة على الدِّفاع؛ ركن فريق منهم يبلغ ثلاثة عشر شخص إلى الفرار واندفعوا على صفوف محاصريهم لعلهم يجدون من بينها سبيلاً، فلم يستطعوا ونزل بهم من أمر الله ما لا محيد عنه، بعث الجنرال جوردون ببرقية إلى القاهرة يشكوا فيها عدم وصول الأخبار إليه من السير بارين (وكيل إنجلترا السياسي في مصر).

قالت التايمز: «ولعل البرقيات التي بعث بها بارين إليه تناولها **التأثيرون**»، ومن كلام هذه الجريدة أن الحكومة الإنجليزية أرسلت الجنرال إلى السودان وفوضت إليه الأمر فيما يفعله ليصيّب بتدبره غاية حسنة، ونرى أن هذه الحكومة غلت يديها بترك الجنرال و شأنه مما يلحق بها عاراً عظيماً.

اشتدت حملة القبائل على بربير وخارط عزائم حاميتها وسكانها وأخذ اليس بقلوبهم، ووردت برقية من مدير بربير إلى الوزارة المصرية يشكوا بها تلك الحالة، ويقول: إنه لا يمضي بضعة أيام حتى يفتحها **التأثيرون** ويحل بها من أيديهم ما حل بمدينة شندي، وبعد هذا جاءت برقية من القاهرة مفادها أن نوبار باشا يخشى أن يمتد لسان الفتنة إلى أسوان في وقت قريب، وإنما نشاركه في هذا الخوف ونزيد عليه الإشراق من التهاب النيران في القاهرة وأطراف القطر المصري — ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

الفصل الأربعون

محاولة في مصر

كل يوم يظهر من إنجلترا شأنٌ جديدٌ في معاملة الشرقيين والطرق التي تأخذهم بها لقضاء أوطارها من بلادهم، وتلاعبهم وتدعىهم وتُجاملهم وتُلطفهم، وتعدهم وتمنيهم وتخيفهم وتؤمنهم، حتى تشبه عليهم مسالك الفكر، وتتبس مسارح النظر، ثم تحملهم بعد الدهشة على قبول سلطتها والرضا بوليتها، بل على طلب ذلك منها، والتماسه من كرمها، وهي في كل أعمالها تهزاً بهم وتحسبهم في عداد الصبيان القاصرين، أو من قبيل البهائم التي لا تعقل، سلكت مسلكها هذا على بعض من أوروبا وانفردت في الأقطار الهندية النائية، وليس لدولةٍ من الدول إحاطةٌ بما تُجريه في حكومتها لتلك البلاد.

ثم تطرفت في هذا المشرب فعمدت إلى استعماله في مصر تحت أنظار أوروبا، وقصدت أن تدعى المصريين للإقرار بحمایتها، ورفع التماسهم إليها لعل كرمها يسمح بمنهم شرف سيادتها عليهم، لكن الحيلة لم تذهب على المصريين ولم تختلس عقولهم تلك الشعوذات؛ فقد جاء في خبر مؤكّد أن مأمورى الحكومة الإنجليزية في مصر حاولوا تكليف الأهالي بتحرير محضر يلتمسون فيه حماية دولة إنجلترا ليكون التماسُ الأهالي حجة لديها عند الدول تقييم بها عذرًا في إخلف وعودها، حتى إذا حاسبوها على تصرُّفها في أرض مصر وضمنها إلى أملاكها تدعى أنها مضطّرّة فيما تصنع والأهالي هم الذين

رَغَبُوا إِلَيْهَا ذَلِكَ، وَهِيَ لَا تَأْبِي قَبْوِلِ رَغْبَتِهِمْ رَحْمَةً بِهِمْ وَرَأْفَةً، هَكُذَا تُحَاوِلُ أَنْ تَفْعَلُ فِي مَصْرِ وَهِيَ مَتَّاخِمَةُ لِأُورُوبَا وَفِيهَا مِنَ الْأَوْرُوبِيِّينَ الْمُخْتَلِفِيِّ الْأَجْنَاسِ مَا يَرِيدُ عَلَى مَائَةِ أَلْفِ، وَلَا تَخْشِي لَائِمَةً وَلَا تَخَافُ عَاقِبَةً، وَإِنْ ظَنَّتَا بِالْمُصْرِيِّينَ عَلَى اخْتِلَافِ طَبَقَاتِهِمْ أَنَّهُمْ لَنْ يَفْعُلُوا ذَلِكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَبْدَانِهِمْ.

الفصل الحادي والأربعون

رأي الجرائد الفرنسية في الإنجليز

ارتَّفع الستار وانتَهَكَ الحِجاب عن ضعف الحكومة الإِنجلِيزية ووهن عزيمتها في المسألة المصرية، ولم تبقَ فيه ريبة لمرتب بين الدول الأوروپية، وانطلقت عليها الألسن وسُلّت سيف الملام، من ذلك ما هزَّت به جريدة «الريبيوبليك فرانسيز» وسخرت فيه بدولة إنجلترا عند كلامها على فصل نشر في جريدة «البَال مال جازيت».

قالت: إن ما تهدَّنا به الجرائد الإِنجلِيزية لا تأخذنا منه رهبة ولا ترعدنا منه خيفة، بعد أن رأى الفرنسيون عجز حكومة بريطانيا عن حماية جوردون، وعلموا أن عدداً من عرب السودان اخترق صفوف الجيوش الإِنجلِيزية المنظمة، وما كان لهم سلاح إلا العصي والخناجر، وأن فرنسا لا تزال تطلب من إنجلترا أن تعيد إليها ما فقدته من حظ السلطة في شواطئ النيل، وما ظهر من عجز إنجلترا وضعفها القاضي بالحيرة والعجب لا يخفف سوء تأثيره إلا بمساعدة فرنسا.

قعد كليفورلويド من المصريين مصاعد الأنفاس، وختقهم بخناق من الجور، وصار فيهم خللاً لعرابي (كذا) ونعمَ الخلف، إلى القوة الفرنسية فك هذا الخناق الضيق الذي كاد يقطع أنفاس المصريين، أما أوروبا فتسريجُ خواطُرُها ويسكن اضطرابها بعدما ألقَّها ضعف الإِنجلِيز الذي لا دواء له ومطامعهم التي لا حَدَّ لها ... اهـ.
فهل انكشف للشَّرقيين ما وضح لدى الأوروپيين أو لا يزالون عنه غافلين؟

الفصل الثاني والأربعون

خديعةٌ جديدة

أقبل الإنجليز أيام الحركة السابقة على بعض المصريين، وزخرفوا لهم الألماني وزينوا لهم المwayne، حتى استعملوها لتذليل المصاعب بين أيديهم، لدخول مصر والاستقرار فيها بعساكرهم، وتم لهم ما أرادوا، ثم قلبو لهم ظهر المجن تحت أستار الحجج والتعلّلات، وقبضوا على زمام الحكومة المصرية يصرفونها كيف يشاءون، ولما أرادت الدولة العثمانية بما لها من الحق القانوني على تلك البلاد أن تتولى حل المسألة التي كان يعبر عنها بالعسكرية، وأن ترسل بعض جيوشها لإقرار الراحة في بلادها طبقاً لرغبة رعاياها؛ مانعها الإنجليز وگفوا يدها عن العمل وسَبَقُوها إليه بدون حقٍ شرعيٍ ولا أصل سياسي ولا رغبة عامة من أهالي القطر المصري، واليوم عند اشتداد الخطب على الجنرال جوردون الإنجليزي وعجر حكومته عن إنقاذه وتوفيق حركة محمد أحمد، الجائمون الضرورة إلى الرجوع لما نبهنا عليه مراراً من أن هذه الفتنة لا يطفئ شعلتها رذاذ السياسة الإنجليزية.

تَمَنَّوا لو تتدخل الدولة العثمانية ببعض عساكرها في السودان لتنفذ الجنرال جوردون وتأخذ بناصية محمد أحمد وتبدل شمل أحزابه، هكذا رأى الجنرال في هذه الأيام أن أنجع الوسائل لحل المشكلات تحسين جيش عثماني وسوقه إلى تلك الأقطار، فكتب إلى صديقه صامويل بيكر يرحب إليه أن يتقدم لأرباب الثروة في إنجلترا وأمريكا ويحملهم على بذل مائتي ألف جنيه ليعرضوها على السلطان العثماني حتى يُنفقها على

ألفين أو ثلاثة آلاف من العساكر التركية، ويسيرها إلى نواحي بربير وشندي، ويكون بهذا إنتهاء المسألة السودانية وهدم سلطة محمد أحمد، وقال: إنه مما يعود نفعه على السلطان أيضاً.

يريد الجنرال أن يخدع العثمانيين بتمثيل منافعهم، كما خدع أمثاله بعض المصريين وحاشاهم أن يخدعوا مثل هذه التخيلات الوهمية، ومن العار عليهم أن يقبلوا ما يتکففه الجنرال جوردون من صدقات أهل الثروة في بلاده للنفقة على عساكرهم، وأشد العار أن يذهبوا بجيوشهم لتدويخ بلادهم وإخضاعها لسلطة الإنجليز والعساكر الإنجليزية حالة^١ بحصون مصر، نعم لو أذعن الإنجليز بما للدولة العثمانية من الحق، وتركوا لها بلادها وفُوضوا إليها إعادة الراحة فيها وإهماد فتنة السودان؛ فلا تخال الدولة تتأخر عن القيام بما يفوض إليها بل هو ما تتمناه وتسعى إليها، ولعل الحوادث تلجم دولة بريطانيا إلى مثل ما لجأ إليه جوردون فتسلم الأمر لمالكه،^٢ ما ذلك على الله بعزيز.

^١ مُراقبة في مراكز مصر الإستراتيجية.

^٢ يظهر الأفغاني نواياه هنا بجلاء ... فهو يطلب الخلاص من بريطانيا واحتلالها مصر ...

الفصل الثالث والأربعون

دسيسة أخرى

هَيَّا الإنجليز فتنة فكانت، وأغاروا على مصر بحجة إهمادها، وأوثقوا الدول على أن تكون إقامتهم في الديار المصرية إلى أن تستقر الراحة فيها ثم يخرجون، لكنهم بعدها حلوا لا يزالون يسعون من يوم وطئوها إلى اليوم في إيقاظ الفتنة ويجهدون لإطلاق الخواطر، ليقدموا ما يكون من هذا عذرًا لدى الدول في تطويل مدة إقامتهم بالقطر المصري، لعلهم يَجِدُون من تقلبات السياسة الأوروبية فرصةً للحلول الأبدى، ومن ذلك ما سَوَّلُوا للأروام أن يحتفلوا بعيد استقلالهم على نمط لم يسبق له نظيرٌ في الأقطار المصرية من قبل، وزينوا لهم ما فعلوا بما يقدرون عليه من الطرق الخفية، حتى انخدع الأروام لوسائلهم مع أنهم أَحَقُّ النَّاس برعاية الأدب، وما كان مثل ذلك من مأمورى الإنجليز في مصر إلا ليقلبوا أفكار المصريين ويحرکوا الضغائن في نفوسهم ويدركوهم بما كان بينهم وبين اليونانيين أيام إبراهيم باشا، فييقظوا بذلك الفتنة بين سكان القاهرة وبعض المُدن المصرية وبين من يساكنهم من الملل الأجنبية، ويعيدوا تاريخ بعض الحوادث المشئومة التي كادت تُمحى دواعيها بعد ما حدث من نحو سنتين، ثم يجعلوا ما يحدث من اختلال علةً لدوام الاحتلال أو التسويف في الجلاء.

الفصل الرابع والأربعون

الورطة الجديدة

القوى سير السياسة الإنجليزية في المسألة المصرية، وقذلت^١ الوزارةُ الجلاستونية في المُضيِّ إلى نهايتها فسقطتْ مراراً ونهضتْ مراراً، وأآل بها الأمرُ بعد هذا إلى عجز عن أداء ما تعهدتْ به للدول وللدولة العثمانية من إصلاح الأحوال المصرية، وفزع شديد من عُقبى هذه الفتنة التي تداعتْ لها أركان النظام المصري، فلجأتْ إلى الدول الأوروبية تستعين بها على تخفيف الوزر، والتمسك منها عقد مؤتمر في لندن وتعللتْ في دعوتها إلى الاشتراك معها في الأمر بفراغ الخزينة المصرية لكثرة النفقات والنقص في الإيراد، فلا يمكن بقانون التصفيه الذي وضع باتفاق من الدول العظام، إلا أنها شرطتْ على الدول أن تكون المداولة في المؤتمر منحصرةً في المسائل المالية ولا يجوز لهم أن يتعدوها إلى ذِكر شيءٍ آخر في الأحوال المصرية الحاضرة أو الماضية.

أما الدول فقد قبلت الدخول في المؤتمر على شرط مبهم وهو أن نوابهم يبحثون فيما يبحث فيه المؤتمر، إلا دولة ألمانيا فإنها لم تُجب إلى الآن جواباً رسمياً، ويفلغ على الظن في الدوائر السياسية أنها تتبع في جوابها دولة فرنسا واتفاق على ذلك أغلبُ الجرائد الألمانية، وزادتْ دولة فرنسا في جوابها أن طبيعة المسائل التي يجري فيها البحثُ ربما

^١ قذلت بمعنى سارت كما يمشي الأعرج ... أي تدهورت سياستها ...

لا تقف بالباحثين عند حِدُّ النظر في المالية، بل تنجر بهم إلى ذكر كثير من المشكلات المصرية الحاضرة.

أما هذا فلم يكن خافياً على إنجلترا، فإن النظر في المالية مع الاضطراب الواقع في الديار المصرية وتزعزع أركان السلم فيها لا تخلو نتيجته من أحد أمرين:

إما تقدير الإيراد والمنصرف بمبالغ محدودة وتخصيص شيء معين من الإيراد لوفاء فائدة الدين، مع تخفيض الفائدة مثلاً، ثم يوضع قانون تمضي عليه الدول كما فعل قانون التصفية، وهذا مما لا يتصوره العقل؛ فإن عساكر الحلول الإنجليزية لم تزل في أرض مصر ومصاريفها على الخزينة المصرية، ولم يعلم أجل إقامتها ولا مبلغ عددها، والفتن قائمة في الجهات السودانية والحكومة المصرية مكلفة بتوفيقها عند حد لا يدخل براحة البلاد، ولهذا العمل مصاريف ونفقات لا يمكن تحديدها ولا تقديرها، فكيف يمكن للوصول إلى تعيين النفقات وإحصائها على وجه منضبط والاضطراب الداخلي والاحتلال المتفرض في الإدارات ودوائر الحكومة العليا والدنيا الذي حدث بتخل الإنجليز فيها وقف حركة الأعمال النافعة من زراعة وتجارة وصناعة، فكيف يمكن ضبط الإيراد على نمط يعرف ويؤلف، فلم يكن غرض إنجلترا من الدعوة إلى المؤتمر أن يصل إلى مثل هذه الغاية التي لا أهمية لها مع بعدها.

الأمر الثاني أن ينساق البحث في المسائل المالية والنظر في الإيراد والمنصرف إلى ما يلزم لاستقرار الراحة في مصر من العساكر وتطلبه من النفقات، وما يستدعيه إطفاء فتنة السودان، وما تحتاج إليه المحاكم الجديدة، وغير ذلك مما تعرضه إنجلترا وتبيّن للدول أن مالية مصر ليس في طاقتها أن تفي بجميع هذه النفقات الواسعة، ولو كلفت بأداء بعضها فضلاً عن كلها، لحق الضرر بأرباب الديون، فأحسن وسيلة للتحفيظ عن المالية المصرية مع حفظ الحقوق لأربابها أن تكون الديون المصرية تحت ضمانة إنجلترا وهي تؤدي فوائدها في أزمانها، تطلب من الدول بعد هذا أن تفوض إليها التصرف في الأقطار المصرية، وتأخذ التبعة على نفسها في بذل الأموال وقتل الأرواح، وهذا الذي يمكن أن تفعله إنجلترا بعد عجزها وربما مست حقوق الدولة العثمانية في مطالبها هذه.

إلا أن التلغرافات نقلت إلينا ما يتحدث به في الدوائر السياسية بالأسنانة، وهو أن الدولة العثمانية ستشرط لقبول انتظامها في المؤتمر شرطًا صعبه يعز على إنجلترا قبولها لينكشف الستار عن مقاصدها في مصر، ومن جملة تلك الشروط أن تُستبدل العساكر الإنجليزية المحتلة في مصر بعساكر عثمانية؛ لأن نفقات الجيوش العثمانية أقل

من نفقات الجيوش الإنجليزية، وهذا هو ما يُؤمل في الدولة العثمانية في هذه الأوقات وإنها فرصة لو فاتتْ فَقَلَّ أن يأتي مثلاً، وللدولة العثمانية بسلطتها على قلوب المسلمين شرقاً وغرباً قوة ترتعد منها فرائص الإنجليز، فأمل أوليائها اليوم أن تَسْتَعْمِلَ تلك القوة الفائقة وتجعل لها أثراً في استرداد حقوقها، وعندنا أن رجال الدولة العثمانية لا يغفلون عن هذا.

أما الحكومة الفرنسية فقد عقدت عزيمتها على مطالبة إنجلترا بإعادة نفوذ الفرنسيين في مصر كما كان قبل المراقبة، والجرائم الفرنسية على اتفاق في تبيين خلل السياسة الإنجليزية وبيان سوء مقاصد الإنجليز، والإلحاح على حكومتهم ألا تُعترف بأدني امتياز بسبب ما فعلته في واقعة التل الكبير، وهذا ما ترتفج من الجرائد الإنجليزية عموماً وتخشى عاقبتها، ونظنها أسوأ عاقبة عليهم.

هذا ما يتعلّق بورطتهم الجديدة التي يظنون فيها خلاصهم، وبقي عليهم ما لا يظنون ولا يظنون لهم منه نجا، دخل الثائرون مدينة ببربر كما أنبأْتُ به أواخرُ الأخبار، ولعبتْ عواصف الفتنة بأطراف مصر العليا، وأكَدَتْ أخبار البرقيات أنها لم توقف عند حدتها، بل حركت السواكن في مصر السفلى، ووراء ذلك من الوليل ما وراءه، فأين الخلاص لدولة إنجلترا؟ نعم لمعتْ بارقةُ حَقٌّ في عقول بعض ذوي الرأي من عثمانية وإنجلزية، وهو نوع تقرب لما تكون العساكر التي تُبَعَّثُ إلى مصر مؤلفة من عثمانية وإنجلزية، ولكن عليهم أن يُخَلِّصُوا قلناه مراراً من أن هذه الفتنة لا يدفع غائلتها إلا المسلمين، ولكن عليهم أن يُخَلِّصُوا آراءهم من الشائبة الإنجلزية وإلا فلا نجاح، والله يفعل ما يشاء.

الفصل الخامس والأربعون

العروة الوثقى توزع مجاناً!

تأتي في فصولها على أهم ما له أثر في أحوال الشرقيين عموماً وال المسلمين خصوصاً، فلا تُلام إذا أطنبت في مسألة شرقية عامة ولا إذا أغلقت ذِكْر بعض أخبار من أمريكا وجابونيا.

تَبَهَّنَا في أول عدد صدر منها على أن القائم بها رجالٌ من أهل الغيرة في الشرق هُمُوا بِأعمالٍ تُقيِّدُ أوطانهم وملتهم، مع رعاية جانب العدل والسير على وفق الحكمة، ومن ظن أن توزيعها مجاناً يقتضي أن تكون منسوبةً لدولة من الدول أو شخص من ذوي المطامع في إمارة أو ملك فإنما نشأ ظُنْهُ هذا من اليأس المستحكم في نفسه والقنوط من نهوض هم بعض المسلمين بعمل صغير كهذا، ولا يقنت من روح الله إلا القوم الكافرون.

هذه جريدة لا سعة فيها للتنابذ والتقادُف، ولا يذكر فيها اسمُ شخص أو لقبه إلا إذا كان له قولٌ أو عملٌ يُفيد البحث فيه فائدة عامة.

الفصل السادس والأربعون

رياض باشا والسياسة الإنجليزية

نُقل إلينا وذكرت الجرائدُ خبر مجلس انعقد في سراي توفيق باشا بالقاهرة، حضره وزراء الحكومة المصرية، وُدعى إليه شريف باشا ورياض وسلطان باشا وعمر باشا ولطفي باشا وخيري باشا وثبتت باشا. وأغلب الجرائد الفرنسية المهمة أتبَعَت رواية الخبر بالثناء على رياض باشا وأتَت من وصفه على أفضل ما يوصف به رجل في أُمته، ومما ذكرت من صفاتِه أنه أَقْوَمُ أميرٍ في الديار المصرية وأشدَّهم حرصاً على الاستقامة، وأنه أَبْصَرُ أهل بلاده بعواقب الحوادث التي أَلْمَتْ بمصر وما تَوَلَّ إِلَيْهِ، وكان يرى من بداية تلك الحوادث أنه سيكون مصيرُها إلى ما لا خير فيه للبلاد، وسكتَّ تلك الجرائدُ عما يتعلَّق ببقية أعضاء المجلس، وإننا نذكُرُ الخبر أولاً ثم نعقبه بما تدعو خدمة الحق لذكره.

بعد انعقاد المجلس قام نوبار باشا وافتتح الكلام بخطابٍ وجَهَهُ إلى الحاضرين فقال: ماذا ترون من التدبير إذا فرضنا أن مدينة الخرطوم وبربر ودنقلا دخلت في حوزة محمد أحمد وأشياعه؟ وأي طريقة يُمْكِن الأخذُ بها لحفظ الأمانة وتقرير الراحة في مصر العليا (الصعيد)؟ فأعجب الحاضرون بالسؤال وظهرت على وجوههم علامات الاستغراب لفاجأته لهم بما لم يكونوا يتوقعونه، ثم أجابوه بصوتٍ واحد: أن لا سبييل إلى تأمين البلاد من خطر الفتنة إلا باستعمال القوة، فقال نوبار باشا: إننا نرُوُم منكم التصريحُ بنوع القوة التي يجب استخدامُها (أي قوة إنجليزية أو مصرية)؟

فأجابه رياض باشا: إن تعين القوة من خصائصكم وليس من شأننا أن نتكلّم فيه، فأبى في الجواب بعض الحاضرين (لا نعرفه وربما يكون من محبّي أوطانهم) وأحسن في التشبيه حيث قال: الذي نعرفه أن العجة لا تكون بدون بيض (العجة طعام يُصنع من البيض مع بعض النبات يُعرف اسمه عند المصريين وأغلب العرب، فمادّة هذا الطعام إنما هي البيض)، فأراد العضو المحترم أنه لو أريد استخدام قوة فلا بد أن يكون جوهّرها عساكر إنجليزية ولا بأس بإضافة بعض من الجنود المصرية لتكون ترساً يدفع به في وجوه المغاربيين وتنصب إليه قوته، فإن حصل العجز ودعت الضرورة للفرار أمكّن للجيوش الإنجليزية أن تعود سالمة، أو إذا أضيف مصريون فلا بد أن يكونوا حمالين وخدّاماً أو حرّاساً وحفظةً لمن يكون معهم من ساداتهم (هذا ما أراد جناب العضو من تشبيهه البليغ).

بعد هذا قال رياض باشا: إنكم تسألوننا تعين القوة ولكنني أسألكم: ما هي القوة الموجودة عندكم وبأي حق يؤدي لكم ٤٨ ألف جنيه في كل شهر، أنتم حكومة أم لا؟! أما شريف باشا فقال: إنه بذل جهده مدة طويلة في إرضاء الحكومة الإنجليزية بأن تُرسل جيشاً إنجليزياً إلى السودان (وهذا مما يقضي بالعجب) ولكنه علم أنّ نوبار باشا أراد أن ينهي المسألة بـإخلاء الأقطار السودانية، فقال نوبار باشا: إن المباحثة خرجت عن موضوعها وتحولت عن وجهها، ولكنني أذكر بالأعضاء المجتمعين بأنّهم ما طالبوا إلا لإبداء آرائهم فيما يجب العمل به.

فأجابه رياض باشا: إن لكم مجلس شورى فكان أحق أن تذكروه، وإن للآن لا نعرف سبباً لاستدعائنا مع وجود ذلك المجلس، فحاول نوبار باشا دفع ذلك بقوله: إن مجلس الشورى ليس من خصائصه النظر في مثل هذه المسائل، فقال رياض باشا: إنه لا يُرجى إصلاح ما دام العمل جارياً على ما وضعه اللورد دوفرين مما سماه نظاماً، وإنه لا ثقة له بأصل من أصول ذلك النظام وليس في الإمكان إجراءً ولا واحد منها، وإن الأغلاط التي كانت منشأً للضعف والاختلال لم يرتكبها إلا دولة الإنجليز، وإن ما نراه من الفوضوية وارتكاب المنكرات وكثرة التعدي والسرقات لم تكن له علة إلا السياسة الإنجليزية، فعلى إنجلترا أن تعالج هذا الداء وليس ذلك علينا، ولقد قُلْتُ هذا ماراً وبلغته اللورد دوفرين وشريف باشا، و كنت أؤدّي أن أرى اللورد دوفرين مرة أخرى لأذكره بما جرى من الحديث بيننا وأعرض عليه مصره المنتظمة، إلا أن شريف باشا أتى بما لم يكن يرجى منه، حيث دافع عن نظام دوفرين بقوله: إن الإصلاح يحصل تدريجياً، كأنه

يريد بما يقول أن ما حوتة شريعة اللورد دوفرين يصلح أن يكون شريعة يعود من العمل بها على أهالي القطر المصري شيء من الفائدة، وما كانَ نظن أن مثل شريف باشا يرى مثل هذا الرأي بعد وصول الأمر إلى ما وصل إليه.

بعد هذا قال رياض باشا: إنني لا أفهم لفظ بروتكتور¹ (حماية) ولا أعلم ماذا يراد منه، ولكنني لا أرى وسطاً بين أمرين، إما ضم البلاد إلى الحكومة الإنجليزية فتستلم إدارة أمورها وتتولى شئونها كلية كانت أو جزئية، وهذا هو الذي أفهمه من تلك العبارات، وإما ترك البلاد لأهلها ليأخذ بزمام السلطة فيها رجالٌ من أهلها وإليهم الحلُّ والعقد في إدارتها، فانتحلوا مذهبًا من المذهبين فإنَّ القول بحلٍّ وسط بينهما ضربٌ من الجنون.

ا.ه.

وليس بعجيبٍ أنْ يصدر مثلُ هذا الكلام من رياض باشا، فعَهْدُنا به رجلٌ ذو حياة وطنية وإحساس بما يلزم لحفظ حياته هذه، وهي أشرف أنواع الحياة، فإنَّ تكلم فإنما ينثر الكلام منه إرادة ناشئة عن فكرٍ ثثيره قوَّةُ حيوية، وكانَ أملُنا أنْ يوجد من طرازه كثيرٌ في الأقطار المصرية يصدعون بما يصدع به خُصُوصًا بعدما نزلتهم هذه الحوادث المُرِيَّة ومثلُ لهم مستقبلٍ بِلادهم في حاضرها، ولقد أدى الرجل حقًا واجبًا عليه والقائم بأداء الفريضة قد يُشكِّر إذا أهملها المكلفوُن بها حتى صارت عندهم من نوافل الأعمال أو في منابذ المكاره، ولكن يأخذنا العجب من بقية أعضاء هذا المجلس الموقر كيف مجحوا أو تلکئوا أو سكنوا، وكيف وسَعْتُمُ القدرة على إمساك ألسنتهم عن التعبير بما في ضمائِرِهم.

إنَّا لا نعلم أحدًا منهم تَجَنَّسَ بالجنسية الإنجليزية وحاشا جمِيعهم من ذلك، ولا يختل في صدورنا أنَّ مصريًا أو تركيًّا أو شرقيًّا — أيًّا كان — يميل ميلًا صادقًا إلى تسلُّط الأمم الأجنبية على بلاده، أو يخلص في خدمة الإنجليز ومحاراة رغائبهم إخلاصًا صحيحًا، خصوصًا أولئك الأُمَّاء المُرَح بأسماهم، بل لو كُشف الحجاب عن قلب كل واحد منهم لرأيناه ذاتيًّا من الأسف في ما حل بيبلاده وفانِيًّا من الحزن على ما نزل بوطنه من تردد جيوش الأجانب بين أطرافه، ومضمحلًّا من الكدر على ما عَقَبَه حلولُ القوة الأجنبية من انقباض الأنفُس وانقطاع الآمال وعموم الاحتلال وشمول الفقر والفاقة وبطْلَان حركة الأعمال.

.Protectorat¹

بل لو شاء القلم أن يعبر عن حالة الأمير منهم عندما يطرق آذانه أخبارُ التصرف الإنجليزي في إدارات حكومته وكف أيدي الموظفين من أبناء ملته من أداء ما يجب عليهم لبلادهم، وبساطة أيدي أولئك الأجانب في الإنفاق من ماله ومال عياله وأقاربه وأحبائه وجميع مواطنه بدون حق شرعي ولا مصلحة وطنية، أو عندما يرى غنياً أعدم وعزيزاً ذل وكاسياً عري وحجاً أشرف على الهلاك من ضغط المظالم، ولو نهضت قوة البيان لشرح ما يظهر على وجهه من ألوان الكمودة، وفي أعضائه من أنواع الرعدة، وما ينبع به قلبه وما يُحدثه فكره من هواجس الهموم وخواطير الغموم؛ لاماً استطاع القلم تعبيراً، ولوقفت قوة البيان دون الإتيان على قليل من كثير.

هذا هو الذي لا يبرأ منه أحدٌ منهم ولو أقام على البراءة ألف برهان، كيف لا وهم يعلمون أن عزتهم وسيادتهم وما بلغوا من مراتب الشرف والرفة؛ إنما كان بوصف قيامهم على أعمال البلاد، وأهليتهم لاستلام مهامها واستعدادهم لإدارة شؤون الرعية؟ وهم على يقين بأنه لو ساد في ديارهم أجنبٌ فلا داعي يبعثه إلى حفظ ما لهم من الشرف والسيادة، بل له من البواعث القوية ما يحمله على تذليلهم وإهباطهم إلى أحيط المنازل ليختلفهم على مثل ما كانوا عليه.

فما الذي أمسك بأسنتهم عن الكلام؟! هل الخوف؟ فمن أي شيء يخافون؟ وما الذي يخسونه على أرواحهم أو على بلادهم إذا قالوا حقاً وثبتوا عليه؟ ماذما يصنع بهم الإنجليز إذا علموا صدقهم في محبة أوطانهم واتفاق كلمتهم على الرغبة في إنقاذها؟ هل علموا من عدل الإنجليز أنهم يؤخذون الناس على إبداء آرائهم إذا دعوا إلى المشورة؟ إن كان هذا فما يبتغون من الحياة؟ هل ظنوا أن الإنجليز إذا أحسوا باتفاق في الآراء على مصلحة من مصالح البلاد وإن كانت في خروجهم من مصر يستطيعون تحت أعين أوروبا أن يوصلوا ضرراً إلى المتفقين وهم أمراء البلاد وأعيانها؟

إن رياض باشا وحده لم يخش من إظهار فكره، فماذا كان يضر الأمراء الوطنين لو عزّزوه أو كاتفوه على مثل رأيه؟ قد علم العقلاة من كل أمة أن أشباه هذه الحوادث تكون سبباً في اجتماع الكلمة واتحاد الرأي على مصادمتها وما نراه اليوم من سعادة الأمم العظيمة، إنما كان منشأه ملمات الشقاء التي أنسنتهم الضغائن والأحقاد وحملتهم على ترك المنافرات الخصوصية، وأخذ كل بيد أخيه لدفع ما يخشى منه على بناء الأمة أن ينخدع وأساس الملة أن ينفلع، وما سمعنا من أمة اتفقت فاختت ولا ملة افترقت فنجحت.

ألا يعلم أمراؤنا أن أوروبا واقفةٌ بالمرصاد لإنجلترا، تترقب لها الزلل وتتمنى لها الغلط، وأن جميع الأسماع في المالك الأوروبيية مُضْغَفةٌ لكلمة يتفق عليها وجهاء المصريين وهي: إننا قادرون على إصلاح شئوننا ولا نريد قوة أجنبية تحل في ديارنا. امتدت أعناق السياسيين في أوروبا وانحنت إلى المصريين ليسمعوا منهم كلمة حتى كَلَّتْ رقابُهم والتوتُ أعصابهم والمصريون يشحون بها عليهم، ماذَا ينتظر الأمراء المصريين في قول الحق؟ إن الأمم لا تطلب منهم إشهار السلاح ولا بذل الأرواح، ولكن تطلب منهم قولهً صريحاً لا يجلب إليهم ضرراً ولا يقرب منهم خطراً، لا حول ولا قوة إلا بالله.

الفصل السابع والأربعون

السودان

قدَّمنَا في العدد الماضي أنَّ مدينة بربَر في حالةٍ يُخشى عليها من السقوط في أيدي الثَّائرين، وجاءتُ أخبارُ هذا الأسبوع أنَّ حاكم المدينة، بعد إلحاحٍ طويَّل على الحكومة المصرية في إرسال نجدة عسكريةٍ إليه، لم يُحَرِّز طلبه قبولاً، فإنَّ الوزارة الإنجليزية لم تر ذلك صواباً، وبناءً على ما رأتهُ الحكومة الإنجليزية صدرت الأوامر إلى الحاكم «حسن باشا خليفة» أن يخلي المدينة بما يمكنه من السرعة، فشرع في إخلائِها متقدِّماً بالحامية جهة الشمال إلى كوروسكو وبعث بفرقة من عساكره عددها مائة وخمسون جندياً لتسبيقه إلى حيث ينتهي في رجعته، وبعد أيامٍ يرسل ما بقي منها طبق الأوامر التي وردتُ إليه، وفي الظن أنَّ إخلاء المدينة لا يتم بدون كفاحٍ وقتلٍ وسفك دماءٍ، ومع هذا كله فمن أمل الحاكم أن يتم له إنقاذ الحامية جميعها وإرسالها إلى كوروسكو قبل وصول رسل محمد أحمد، تحقق أنَّ أربع فرقٍ من العساكر الاحتياطية «باشيزوق» مع خمسينَة عسكريٍّ مصريٍّ (كلُّهم من حامية بربَر) انحازوا إلى أشياع محمد أحمد، ويُخشى أنَّ الثَّائرين بعد استيلائهم على بربَر يحاصرُون جملةً مدنٍ في وقتٍ قريبٍ.

قالت جريدة التايمز الإنجليزية: ثارت جميع القبائل وأهالي البلاد فيما وراء بربَر، ولا يمكن أن يوجد رسل يجرؤون على المسير إلى الخرطوم لتوصيل المراسلات، وإن عرض عليهم من النقود أعلى ما يمكن من المبالغ، وقالت تلك الجريدة: إنَّ الأخبار الأخيرة الواردة من مصر تؤكِّد لنا أنَّ قُلُوبَ الأهالي (المصريين) طافحةٌ من الغيظ والحنق على الإنجلizين، وإنَّه لا يوجد في مصر من يحب أن يرى إنجليزياً يخطو في بلاده (هذا الذي

قلناه مراراً، فالحمد لله أقره الخصم وارتفاع النزاع)، ثم أتبعت كلامها هذا بأنه لا يوجد في مصر الآن شيء يصح أن يُخبر عنه سوى (احتلال واضطراب)، فما عليه مصر اليوم يمكن أن تعبر عنه بهاتين اللفظتين، وإن المخابرات مع الخرطوم أصبحت من قبيل المستحيلات، ثم قالت: نعم، إن الحكومة الإنجليزية صرحت بأنه لا يمكنها إرسال عساكر إلى السودان قبل مُضي أربعة أشهر، ولكن عليها أن تنظر في واسطة أخرى لإزالة ما جلبته على مصر من الفوضى.

أنجح الوسائل ترك البلاد لأهلها وتفويض الأمر فيها لصاحب الحق القانوني على تلك البلاد ومن له المنزلة العليا في قلوب جميع الأهالي، فتسكن له القلوب وتحمد نيران الفتنة، ولعل التاييس بعد أيام قلائل ترجع إلى موافقتنا على تأكيد بغض المصريين للإنجليز، وقد تذكره علينا من خمسة وعشرين يوماً وتبالغ في ميل الأهالي لسيادة الإنجليز عليهم.

ذكرت الجرائد أن جاسوساً وقف على عزيمة عثمان دجمة في جهة سواكن، فجاء وأخبر بأنه مستعد أن يزحف بألقى مقاتل إلى هنوب لقطع الطريق، وأنه بعد ذلك لا يقف دون الهجوم على حدود سواكن بشدة عنيفة.

جاء في جريدة الثان أن دخول التأثيريين في مدينة بربير وإن لم يتحقق الآن بطريقة رسمية، إلا أن ما أخبر به وكيل إنجلترا السياسي في تلك المدينة يقطع كل ريب ويزيل كل شك في أن الخطر نازل بها لا محالة، فإن قسماً من حاميتها فر لطلب النجاة، والباقي انضموا إلى صفوف التأثيريين جهراً، وإن نرى حلول أشياع محمد أحمد بمدينة بربير يهيء لهم أن يطئوا قلب مصر العليا، ولি�تهم يكتفون بهذا، ولكن ستطمح أنظارهم إلى مصر السُّفلِي، وإن ضباط الحامية المصرية في أسوان وردت إليهم مكاتب من أحد زعماء الثورة بناءً على أمر محمد أحمد، ينذرهم فيها بسوء العاقبة، ويتوعدهم بالقتل والذبح إن لم يتركوا المدينة قبل عشرة أيام، ثم قالت تلك الجريدة: إذا اجتمعت قوة محمد أحمد عند الشلال الأول فلا بد حينئذ أن ينظر في كيفية الدُّفاع عن القاهرة!

هذا الذي كُنّا نتوقعه ونخشاه من قبل وأشارنا إليه مراراً، جلته الحوادث ونطقت به الجرائد الفرنسية والإنجليزية، ولم يبق إلا التفات تلك الجرائد إلى دواء هذه العلة وعلاج هذا الداء الذي كاد يكون عضلاً، وتنبه حكوماتها للنظر في ذلك بعين الدقة والتبصر، وترشيدها إلى أن العلاج الذي ليس وراءه علاج إنما هو تسليم الأمر لذوي الحق فيه والعارفين بطرق تصريفه من المسلمين، وستراها بعد أيام تتبع هذا السبيل المستقيم.

الفصل الثامن والأربعون

فرصةٌ سانحةٌ

دخل الإنجليز مصرَ فزعموا أن ما كان موجوداً من الجندي الأهلي نفخت فيه روح العصيان فلا يصلح للأعمال العسكرية فطردوه، ثم اختاروا من الأهالي جنداً جديداً في عدد قليل واستلم الرئاسة عليه ضباطهم البارعون، وبعد أشهر أثروا عليه بحسن النظام وسرعة النجاح وطنطنت بالإطراء عليه جرائدهم، ولم ثبت بعد هذا أن رأيناهم يسارعون إلى طرد الجندي الجديد، فهموا بذلك مراضاً مع العزم على عدم استبداله بأخر من أبناء الوطن، وكلما صدّتهم بعض الموانع السياسية عن همهم، كتموا أمرهم زمناً ثم عادوا للإشارة إليه تعللاً بما ينسبوه إلى بعض العساكر وهو من دسائسهم، وأخر الأمر خفتُ أصواتهم وأحسّوا بعجزهم عن الاستبداد بطرد الحامية الوطنية وعلموا أن لا بد فيه من مشورة الدول.

في هذه الأيام رغبوا إلى الدول في عقد مؤتمر للنظر في قانون التصفية وتحويره ووضع نظام لمالية مصرية يخفف عنها بعض أثقالها، فصرّحوا في لائحتهم المرسلة إلى حكومات أوروبا بضرورة طرد الجندي رعايةً للاقتصاد وبلزوم تخفيف فائدة الديون المصرية.

إن الإنجليز من ست سنوات جعلوا بعض الضيق في المالية المصرية ذريعةً للانقلاب العظيم الذي حصل في مصر، وألزموا الدولة العثمانية بمجاراتِهم في ذاك الانقلاب، ودافعوا عن الدائنين، وزعموا من المحال تتقىص شيء من الفوائد، وطلبوا من الحكومة

المصرية إذ ذاك تقليل عدد حاميتها ليتوفى من النقود ما يصرف لحقوق الدائنين، واليوم عطفوا على المصريين (عطفة الأب الرحيم) ويسطوا أيديهم إلى الدول يلتمسون مساعدتها لخفيف الفائدة مع حمو حاميتها الوطنية، أليست البلاد المصرية كسائر بلاد العالم تحتاج إلى حامية تحفظ حدودها من الخارج وتصون داخلها من الغوايل التي لا يأمن طرقوها حكومة من الحكومات، إن في تلك القسوة الأولى والرحمة الثانية لسرّاً عظيمًا.

لإنجليز في مصر مطامعٌ من زمن قدِيم يعدون سلطتهم عليها من ضروريات شوكتهم في الهند، وفي خدمتهم أن المصريين لو كانت لهم ثروة مالية وقوة عسكرية عظيمة فإنهم يمانعون فيما يريدون ببلادهم، فضيقوا على المالية في تلك الأوقات وألجهوا الحكومة لتمزيق قوتها العسكرية ليحصل الضعف في القوتين المالية والجندية، فتتم لهم طريق ما طمحوا إليه.

وكان هذا التدبير سببًا في الانقلاب الذي تبعته هذه الحوادث الهائلة، وبعدهما فتح لهم بضعف الحكومة سبيل المداخلة في مصر طفقو يسعون بما جُبلوا عليه من الهوينى في المضي إلى مقاصدهم لإيجاد عنوان غير التملُّك يعنون به إقامة عساكرهم وماموريهم في تلك البلاد زمنًا طويلاً، ويكون وضع ذلك العنوان برأي الدول تملصاً من الوعد الذي وعدوها به، مع ترقب حوادث السياسة في أوروبا لعل حادثة منها تساعدهم على إبدال العنوان بما هو المطلوب لهم، ورأوا من أحسن الوسائل لدعوة الدول إليهم عرض المسألة المالية.

ولمّا كان من المحتوم في آرائهم بقاء عساكرهم في الديار المصرية، فلا بد من طلب وسيلة لطرد الجندي المصري حتى تكون الحاجة إلى عساكرهم قائمةً، هذه طريقة ربما خفيت على المصريين وغفل عنها كثيرٌ من الأوروبيين إلا أنها من الطُّرق المتعارفة عند الإنجليز، وهي التي سلكوها في البلاد الهندية ونالوا بسلوكها السلطة المطلقة على تلك الأقطار الواسعة بدون سفك دماء غزيرة ولا مقاومة فتن شديدة.

دمر الإنجليز (دخلوا بلا استئذان) على الهنديين في أراضيهم وانبثروا بينهم، فتمكنوا من تفريغ كلمة الأمراء وإغراء كل نواب أوراجا بالاستقلال والانفصال عن السلطة التيمورية، فتمزقت الملكة إلى ممالك صغيرة، ثم أغروا كل أمير بآخر يطلب قهره والتغلب على ملكه فصارت الأراضي الهندية الواسعة ميادين للقتال، واضطر كل نواب أوراجا إلى المال والجند ليدافع بها عن حقه أو يتغلب بها على عدوه.

فعند ذلك تقدم الإنجليز بسعة الصدر وانبساط النفس ومدُوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين وبسطوا لهم إحدى الراحتين ببدر الذهب وقبضوا بالأخرى على سيف الغلب،

بدأوا قبل كل عمل بتنفيذ أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الأهلية ورمواها بالضعف والجبن والخيانة والاحتلال، ثم أخذوا في تعظيم شأن جيوشهم الإنجليزية وقوادها وما هم عليه من القوة والبسالة والنظام، حتى اقتنع كل نواب أوراجا بأن لا ناصر له على مغالبه إلا بالجنود الإنجليزية، فأقبل الإنجليز على أولئك السنج يضمون لكل صيانة ملكه وفوزه بالتغلب على عيره بجنود منتظمة تحت قيادة قواد من الإنجليز، ويكون بعض الجنود من الهنديين وبعضها من البريطانيين، وما على الحاكم إلا أن يؤدي نفقتها، ثم خلبو عقول أولئك الأمراء بدهائهم وبهرجة وعودهم ولبن مقالهم، حتى أرضوهما بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم فرقة من العساكر؛ لتدفع شر بعضهم عن بعض، وصار الإنجليز بذلك أولياء المتابغضين، وسموا كل فرقة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التي أعدوها للحماية عنها: ففرقة سموها «عمرية»، وأخرى سموها «جعفريّة»، وغيرها سموها «كشتية»، إرضاءً لأهل السنة والشيعة والوثنيين.

ولما فرغت خزائن الحكام وقصرت بهم الثروة عن أداء النفقات العسكرية؛ فتح الإنجليز خزائنهم وتساهلوا مع أولئك الحكام في القرض وأظهروا غاية السماحة، فبعضهم يقرضون بفائدة قليلة وبعضاهم بدون فائدة وينتظرون به الميسرة، حتى ظنَ كل أمير أن الله قد أمدَه بأعون من السماء، وبعد مضي زمانٍ كانوا يُؤمنون إلى طلب ديونهم بغاية الرفق ويُشieren إلى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية اللطف، فإذا عجز الأمير عن الأداء قالوا: إننا نعلم أن وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم، ونحن نتصحّكم أن تفوضوا إلينا العمل في قطعة كذا من الأرض نستغلّها ونستوفي منها ديوننا وننفق من غلاتها على الجيوش التي أقمناها لكم، ثم الأرض أرضكم نردها إليكم عند الاستيفاء والاستغناء، وإنما نحن خادمون لكم، فيضعون أيديهم على غضروات^١ الأرضي وفيحائها.

وفي أثناء استغلالها يؤسسون بها قلعاً حصينة وحصوناً منيعة كما يفعلون ذلك في ثكن (أماكن إقامة العساكر) عساكرهم على أبواب العواصم الهندية، وفي خلال هذا يفتحون للأمراء أبواباً من الإسراف والتبذير ويُقرضونهم ويقتضون قرضهم بالقيام على أراضٍ أخرى يضمونها إلى الأولى، ثم يحضون نار العداوة بين الحكام لتنشب بينهم

^١ معناها أخصب الأرضي.

حربٌ فيتداخلون في أمر الصلح فـيُجبرون أحد المتراربين على التنازل للأخر عن جزء من أملاكه ليتنازل لهم الثاني عن قطعةٍ من أراضيه، وهم في جميع أعمالهم موسومون بالخادم الصادق والناصح الأمين لـكـلـ من المغاربين.

وبعد هذا فلهم شئونٌ لا يهملونها في إيقاع الشقاق بين سائر الأهالى؛ لتضعف قوة الوحدة الداخلية ويُخرب بعضهم بيوت بعض، حتى إذا بلغ السيرُ نهايته واضمحلَّت جميع القوى من الحاكم والمحكوم وغلبت الأيدي فلا يستطيع أحدُ حراكاً؛ ساقوا الحاكم إلى المجزرة بسيوف تلك العساكر التي كانت حاميةً له واقيةً لبلاده، وكانت تشحذ لجز عنقه من سنين طويلة وينفق على صقالها من ماله ثم خلفوه على ملکه.

وكانوا يميلون بقوتهم إلى أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك فيخلعون الملك ويولون الطالب على شريطة أن يقطعهم أرضاً أو يمنحهم امتيازاً، فيحولون الملك من الأب للابن ومن الأخ لأخيه ومن العم لابن أخيه، وفي الكل هم الرابحون. هذا سيرهم في الهند وهو على بعد من مراقبة أوروبا، ما فاجئوا أحداً بحرب وما اخطفوا ملكاً بقوة مغالبة، بل ما أعلنوا سيادتهم على مملكة صغيرة ولا كبيرة إلا بعدما أيقنوا أنَّ لا قوة لحاكمها ولا أهلها ولا بما تطرف به أجيانُهم.

أولئك الإنجليز باقعة^٢ العالم وأحباب الحيل، يريدون اليوم طرداً العساكر المصرية وأرض مصر لا تحرسها الملائكة فلا تستغنى عن حامية، فإن تم ما أرادوا زَيَّنُوا البعض ذوي السلطة في مصر أن يطلب منهم جنداً إنجليزياً يكون خادماً له وحافظاً لملکه، فإن لم يقبل داروا بحيلتهم تحت أستار التمويه على كل من له حقٌ في الولاية على تلك البلاد يعرضونها عليه، حتى يعثروا بمن يقبل نصحهم أو غشهم ذهولاً عن حقيقة القصد، فيقييمونه حاكماً خلـفاً لـمن لم تسمحْ ذـمـته بالقبول، وتكون رغبة المغرور حجـةً لهم عند أوروبا، هذا سر انقلاب الإنجليز على الجنـدـ الوطني وـقـدـحـهمـ فيـ سـيـرـتـهـمـ بعدـ الثـنـاءـ علىـ حـسـنـ استـعـادـهـ، وـسـعـيـهـمـ إـلـىـ طـرـدـهـ بـالـأـدـلـةـ الـوـاهـيـةـ وـالـعـلـلـ الـوـاهـيـةـ.

أما المؤتمر فالداعي إليه أن العدوان في هذه الأزمان لا يأتيه المعتدون كما كان في الأحقب الخالية مشوه الوجه منكراً الصورة يعرفه الذكي والغبي، بل من أراد عدواً فلا بد أن يحـفـهـ بـمـواـكـبـ منـ الـأـدـلـةـ وـحـفـالـ (ـجـمـعـ)ـ منـ الـبـرـاهـينـ، وـهـوـ مـاـ يـعـبـرـونـ عنـهـ

^٢ باقعة بمعنى داهية من الدواهي.

بالحقوق والمصالح. وما أصعب الوقوف على كنه العدوان وهو في هذه الحيلة و تلك الهيئة الجميلة.

يريد الإنجليزُ عقد المؤتمر ويرغبون قصر المداولة فيه على المسألة المالية ليضمّنوا ديون القطر المصري ويكتفوا للدائنين أداء حقوقهم ويأخذوا على أنفسهم عهدة الإنفاق على الإدارات المصرية مدة من الزمان، لترخص لهم الدول الإقامة في وادي النيل إلى أبد، فيكون تفوّض الدول حجة لهم في التصرّف وإدارة شؤون الحكومة المصرية ما دام السلم مظلاً بلاد أوروبا، فإذا حدث حادثُ حرب في الدول الأوروبية – وما هو بعيد الوقع – تربعوا في تلك البلاد وأناخوا بكلّاكلهم وضربوا بجرانهم على أراضيها وألقوا عصاهم، هذا سر شفقة الإنجليز على المصريين وهو سر رغبتهم في وقوف المؤتمر عند شؤون المالية.

هذه المصيبة العظمى والداهية الدهماء التي تتحفّز لتنقضّ على المصريين، هل تمس بحقيقها جانب ألمانيا؟ كلا، فإن منافع ألمانيا الحقيقة لا تتعلق لها بالمسائل المصرية وهي في الشغل بما هو أهّم منها، وليس دولة أستراليا بأقرب المصائب المصرية من ألمانيا، على أن كلاً من الدولتين ليس في استطاعتهما تأييدهما بالعمل، لو مستّا الحوادث المصرية شيئاً من مصالحها؛ فإنّ موقع الدولتين لا تساعدهما على الإضرار بدولة الإنجليز، أما إيطاليا فهي ساكنة الجأش بما تؤمل نواله في إفريقيا بمساعدة إنجلترا، نعم، لهذا السيل الجارف تدفق على بيت محمد علي باشا، فيخشى على أركان ذلك البيت لو لم يتدارك أمره!

أما الدولة العثمانية، فلو حولنا النظر عن حقوقها الثابتة في الأراضي المصرية من وجوه كثيرة، فليس يخفى علينا أن الولاية على تلك الأرضي هي الركن الأعظم للسلطة العثمانية في سوريا، وقسم عظيم مما يتصل بها من آسيا الصغرى وفي الحجاز واليمن، فمن المفروض على العثمانيين أن يبذلوا وسعهم لصيانة مصر؛ دفاعاً عن حقوقهم المقررة وحفظاً لشوكتهم في معظم ممالكهم، ولا يسوغ لهم شرائع الملك أن يفرطوا في المسألة المصرية لا في جزئيّ منها ولا كلي، فإن مصر عقدت تتصل بها أطراف السلطنة العثمانية، فإذا انحلّت، فقد انحلت – والعياذ بالله – سائر العقد.

ليس لعثماني أن يتوسد وسادة السيادة البسماركية الناعمة؛ فإن الحاجات الطبيعية والداعي الجوهرية هي الحاكمة على الأمم، ولا اعتبار في السياسة بالأطوار العارضة، ربما يهم بسمارك أن يشتري بمصلحة العثمانيين وداد الإنجليز لتأييده سياساته وترك

فرنسا منفردةً بلا حليف، وله أن يلقي بمصلحة العثمانيين في أيدي الروس إذا مست الحاجة ليدفع عن نفسه شرًا يتوقعه، وليس لبسمارك أدنى غاية في الاتصال بالعثمانيين إلا بهذا المقدار يفدي بهم منفعةً من منافعه، ومن نظر إلى أحوال الأمم بما تقتضيه طبائعها؛ حكم بذلك حكمًا قاطعًا.

نعم، من الدول دولة فرنسا كانت لها مزايا في أرض مصر أشرفت على الزوال وليس بالسهل علينا ضياعها، ولها أملاكٌ واسعة فيما وراء البحر الأحمر ولا تُصان سلطتها على تلك الأماكن إذا نشبت أظافر الإنجليز في أحشاء مصر بأي اسم كان وتحت أي عنوان؛ فأصول السياسة الفرنسية لا تسمح للفرنسيين بالتساهل في المسائل المصرية.

ودولة الروس تسابق دولة إنجلترا في النصر والغيب بشرقي آسيا، وتُنافس الألمان في القوة بأوروبا، ولها مع ألمانيا مزاحماتٌ خفية ثابتة في عناصر الأمتين لا يزيلها هذا التالُف الظاهري؛ فقد يكون من أحكام سياستها الانضمام إلى دولة فرنسا لضيائقة إنجلترا في البلاد المصرية، بل النظر في طبيعة حال الأمتين يقضى بلزم اتحادهما في المشكلات الأوروبية أيضًا، وربما تكون هذه المسألة بداية الارتباط بين هاتين الدولتين.

ولعل هذه الفرصة لا تفوت العثمانيين ولا تحجبهم الحوادث الماضية عن إدراك هذه النكتة، وهي أن الروس ينهم هم أشدُّ الناس حاجة إلى الاتحاد مع الدولة العثمانية في هذه الأوقات؛ لما فتح لهم من أبواب اللغن في آسيا، ويرون الإلتف مع العثمانيين أعظم عضدًا لهم في نيل مطامحهم بتلك الأقطار، بما للسلطان من المنزلة العليا في قلوب مسلميها، ولا تأخذ العثمانيين رجفة من إرعاد الإنجليز وإبراقهم؛ فليس لهم سلاح يشهرونه على الدولة العثمانية سوى الترهيب، ومن الحال أن يفاتحونها بحرب وإلا تقلصت سلطتهم عن البلاد الشرقية بأسرها، فإذا ثبتت الدولة في مطالبيها واشتدت في إرجاع حقوقها لجأ الإنجليزُ للخضوع والاستكانة إليها، وهذا من البديهييات الجلية عند كل من وقف على أحوال الإنجليز في الهند وعلى مكانة السلطان العثماني في قلوب الهنديين عمومًا، والحكم الله يفعل ما يشاء.

الفصل التاسع الأربعون

العروة الوثقى

لا يظن أحدٌ من النّاس أن جريتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحياناً ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشّقاقَ بينهم وبين ما يجاورهم في أوطانهم ويتفق معهم في صالح بلادهم ويشاركهم في المنافع من أجيال طويلة؛ فليس هذا من شأننا ولا مما نميل إليه ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا، ولكن الغرض تحذيرُ الشرقيين عموماً وال المسلمين خصوصاً من تطاول الأجانب عليهم والإفساد في بلادهم، وقد نخص المسلمين بالذات؛ لأنهم العنصرُ الغالب في الأقطار التي غدر بها الأجانب وأذلوا أهلها أجمعين، واستأثروا بجمع خيراتها، وسنكتب مقالة مفردة في هذا الباب إن شاء الله.

الفصل الخمسون

إسماعيل باشا

لهج كثير من الجرائد الأوروبية في هذه الأيام بذكر إسماعيل باشا خديو مصر السابق، ومنها جريدة «البال مال جازيت» قالت: إما أن تستولى إنجلترا على مصر أو تسلم الإدراة فيها لإسماعيل باشا، ونقل أحد محرري هذه الجريدة عن مدام نوفيكوف، وهي صديقةُ شهيرةُ لMASTER جلادستون، أنها قالت له: «إن أحسن وسيلة لتقرير الراحلة في مصر وجعل مصر للمصريين هو إعادة إسماعيل باشا إليها»، وذكرت إحدى جرائد ألمانيا أن كلامها يكاد يكون رسميًّا.

أما نحن فستبين رأينا في هذه المسألة ونُبدي فكرنا فيما يتعلق منها بالسلطان العثماني والطريقة التي ينبغي أن يسلك فيها، وما يرتبط منها بمصلحة المصريين، وما يجب على إنجلترا أن تأخذ به لو كانت — كما تزعم — تريد التخلص من ورطة المسألة المصرية، ولا نظنها صادقة.

الفصل الحادي والخمسون

نجد

كتب إلينا أحد أهالي نجد رسالة طويلة، يحكي بها ما فعله قنصل الإنجليز مster «كورنل بيلي» الذي كان قنصلاً لدولته في خليج فارس ومقره ببندر بوشهر، وما توصل به للداخلة في بلاد نجد في سنة ١٢٨٠ أيام كان أمير نجد الأمير فيصل، وقصد برواية هذه الحادثة تنبية إخوانه المصريين لشدة المشابهة بين تلك الوسائل التي تشتت بها القنصل للتدخل في سواحل البلاد النجدية، وبين ما اتخذه الإنجليز وسيلة للهجوم على أرض مصر، إلا أننا لا نذكرها الآن لقدم عهدها، وسنفرد لها وأمثالها كتاباً مخصوصاً؛ نفصل فيه ما فعل الإنجليز في البلاد التي حاولوا الاستيلاء عليها ولم يستطيعوا مع استمرارهم في طلب ما يُمكّنهم من مقاصدهم، ونطبع هذا الكتاب ونوزعه مجاناً!

الفصل الثاني والخمسون

الصحف الهندية

جاءت إلينا الجرائد الهندية فسرّنا اعتدال سيرها في خدمة أوطانها، وزادنا سروراً عن أيتها بترجمة مقالاتنا المتعلقة بأحوال الشرقيين عموماً وال المسلمين خصوصاً، ونقلها من اللسان العربي إلى اللسان الهندي، فله شكرها على ما صنعت، ونخص من بينها جريدة «أخبار دار السلطنة» التي تطبع في كلكته، وجريدة «مشير قيصر» التي تطبع في لكونو، وهذا كان أملنا في أرباب تلك الجرائد، وليس بغرير على غيرتهم الدينية والوطنية.

هذا ما كان من مسلمي الهند وهم في قبضة الإنجليز من مدة تزيد على قرن، وإننا نأسف غاية الأسف مما بلغنا عن بعض المصريين من أنهم يمتنعون عن استلام ما يرسل بأسمائهم من أعداد هذه الجريدة خوفاً ورهبةً، مع أنهم أحق الناس بالإقدام على أمور عظام في هذه الأوقات، فإن الآمال في خلاصهم قوية والوسائل إليه قريبة، فكيف يصل بعضهم الخوف إلى الامتناع عن استلام جريدة هم أولى بها من غيرهم؛ إذ أهم ما فيها الدّفاع عنهم.

الفصل الثالث والخمسون

صفقةٌ خاسرة

كتب إلينا صديقٌ فاضلٌ من أخلص المؤمنين بالقطر المصري، قال:

إن مأمورى الإنجليز الآخذين بزمام بعض الوظائف المصرية لا يزالون يسعون في تغريب الأهالى والتحليل عليهم ودَسُّ الدَّسَائِسِ بينهم بطُرُق مختلفة من الترغيب والترهيب، كل ذلك لِرِضْوَهُم بطلب الحماية الإنجليزية، إلا أن أولئك الأبالسة لا يُلْقَوْنَ في سعيهم إلا خيبة؛ لأن العلماء وأعيانَ البلد قد أحاطوا بغايات الإنجليز ومقاصدهم، وعلموا أنهم لا يقصدون بالبلاد إلا الشر، كما لم ينلها من حلولهم إلا الضر، خصوصاً وأن روح الحمية والغيرة الدينية والوطنية صار لها السلطان الأعظم على نفوس أهالى القطر المصري، فاشتتد أنفقتهم من تسلُّط الإنجليز في ديارهم، وقاوموا مطالبَهم بعزمٍ ثابتٍ وقلوبٍ غير واجفة.

وهذا هو ظننا – بل يقيننا – في أبناء القطر المصري، علمائهم وأمرائهم وحكامهم وأعيانهم وأوساطهم بل وسائر طبقاتهم؛ لأن لا تسمح نفسُ واحدٍ منهم بمجاراة الإنجليز رغبتهم، وأن لا يطمئن قلبه بالدخول تحت سيادتهم، بل ببقاء شخصٍ منهم في بلاده وعلى مرمى نظره، فإن وُجُدَ بينهم شخصٌ يتخذ إلهه هواه ويميل مع الباطل فهو من يعرف المصريون سيرته في إفناه ليله وأطراف نهاره فلا يثقوون به، ومما أخبر به

الصادق أن كليفور لويد يجتهد لتسليم رئاسات البلد إلى أناس من طبقة يتوهם فيها سقوط الهمة وسخافة الرأي؛ ليتمكن بهم من إجراء بعض مقاصده، لكن لم يتمن له نجاح، ولئن نجح في تحويل الرئاسات من نصابها فلا يُلقي من يسلمونها إلا مثل ما لاقى من غيرهم، فإن الجميع مصريون يفضلون ظلم أبناء وطنهم على عَدْل الأجنبي، فكيف لو كان الأجنبي لا يُقاس بظلمه ظلم.

ثم قال صديقنا الفاضل: «زاد الويل أضعافاً على الأهالي بال المجالس المحلية؛ فإن الإنجليز لم يراعوا في تشكيلها مصلحة الرعية، وإنما وضعوا في جوهرها ما يضيق عليها سبل المعاملة إخماماً لنفوسها لينالوا حظهم من السيادة عليها ولم يعلموا أن بخس الحقوق من أشد موجبات العقوبة، وفي الأمثل العربية: «زر كلبك للطاق يأكلك» أي ضيق عليه، أما الفلاحون فأحوالهم سيئة، ضيق وضنك وفقر وإعدام مما يفتت الأكباد ويدبب القلوب ويفطر الجماد.»

الحكومة مضطربة لطلب الأموال وملجأة إلى تكليف الفلاحين بدفع ما عليهم، والأجانب قائمون على اقتضاء ديونهم منهم، والكساد ورخص أسعار الحبوب وثمرات الزراعة لم يجعل في المحصولات وفاء بضرورات المعيشة فضلاً عن أداء المطلوبات، فكيلة القمح بستة قروش والذرة بأربعة، وعلى هذا يقاس، ومن ثم تسمع كل يوم تنعاب أغربة الدلالين في فناء ديوان الحقانية على خراب بيوت الفلاحين، هذا ينادي على بيع أراضيه بأسرها وهذا ينبع عليه ببيع بعضها، والآخر بالحجر على أملاكه، والحكومة لا تبني في طلب ضرائبها قبل أوان المحصولات.

أما أحوال المدن فليس بأسعد من أحوال الأرياف، خصوصاً من تعديات الأجانب على سكانها، فالمزارعات والمخاصمات بين الأجانب والوطنيين يُقضى فيها على الوطني بالتعريض والجزاء ولا يؤخذ على الأجنبي في شيء، وإن كان هو المعتدي! وإن سأل الوطني: أين خصمي؟ فيقال له: إنه يحاكم في محل آخر مع أنه لم يذهب إلى مقام المحاكمة رأساً واكتفى في فصل الدعوى بأحد الخصمين، وهو طرز من الحكم جديد. هذا بعض آثار العدالة الإنجليزية.

وجاء في خبر صديقنا هذا رواية كثير من المظالم التي أصيب بها أهل القرى من جراء التداخل الإنجليزي في إدارات الحكومة، ضربنا عن ذكرها؛ رعايةً لجانب الاختصار بعد وضوحاً عن أولي الأمر من المصريين، أما الأمن فلم يبق له أثر، وأما النظام قد انقض بناؤه واقتلع أساسه واختزن الإنجليز أنقاذه في خزائن الآثار القديمة، فقويت

عصابات اللصوص وجاهروا بالنهب والسلب، وهذا خبر تؤكد له روايات الجرائد الوطنية المصرية عربية وإفرنجية؛ فإن جميعها يشتكى الملل والسامة من رواية أخبار السوء كل يوم.

إلا أن من غريب الواقع هجوم ل匪يف من السارقين على قرية نشرت ونواحيها من مديرية الغربية وقتلهم واحداً وأربعين رجلاً؛ فإن خبر هذه الواقعة – إن صح – كان دليلاً على بلوغ الاختلال إلى درجة فوق ما كنا نتصور – نسأل الله السلامة، كما نسأل إبدال عسر المصريين باليسر، وهو على كل شيء قادر.

الفصل الرابع والخمسون

أخبار سياسية

- قبلت الحكومة الفرنسية أن تدخل في المؤتمر لكن على شرط أن لا تذهب إليه مغلولة اليدين غضيضة الطرفين، وأن لا بد قبل ذهابها إليه من مخابرة بينها وبين إنجلترا فيما يلزم أن يكون موضوع البحث في ذلك المؤتمر، وقد أجمع السياسيون في فرنسا على ضرورة امتداد البحث إلى ما وراء المالية من إدارة البلاد المصرية وإقرار الراحة فيها.
- الجرائد الإنجليزية تُظهر خوفها من تشديد فرنسا و تستنجد أوروبا و ترى أن تدخل الدول جميعها في مصر وإقامة مراقبة دولية لحكومتها لا تمتاز فيها دولة من دولة؛ خيرٌ من مداخلة فرنسا وحدها مع إنجلترا، وإن عارضت ذلك جريدة التايمز وحدها، وفي بعض الجرائد الروسية أن إنجلترا لا يمكنها أن تضع حمایتها على مصر لظهور عجزها عن إدارة البلاد بعد احتلالها سنتين وهي مطلقة التصرف لا مُزاحِم لها، وبعد العجز لجأت إلى دول أوروبا، أما دولة فرنسا فلا يهمها إعادة المراقبة المشتركة بين الدولتين، ولكن يهمها أن لا تخص إنجلترا بالامتياز في مصر.
- ذكرت كثيُر من الجرائد الألمانية نقلاً عن مصدر يوثق به أن الباب العالي لم يقبل الاشتراك في المؤتمر إلا على شرط أن تكون المداولة فيه غير واقفة عند حد

المالية، بل من اللازم أن يكون موضوع نظره لائحة جرانفيل المرسلة إلى الدول في يناير سنة ١٨٨٣ (عندما كان دوفرين في القاهرة).

وعلى هذا فالدولتان العثمانية تطلب النظر في المسألة المصرية بجميع فروعها لاتصال بعض أجزائها ببعض، وفي جريدة التنان أن الباب العالي بعد مخابرة الدول والاتفاق معها، خصوصاً دولة فرنسا، أرسل تلغرافاً إلى موزوروس باشا السفير العثماني في لندن بأنه مستعدٌ لقبول المؤتمر على شرط أن يكون بحثه في الشؤون المالية والسياسية والإدارية.

في جريدة «جازيت ناسيونال» الألمانية أن سير فرنسا في المسألة المصرية موافقٌ لسير جميع الدول لا سيما ألمانيا، وقالت: إن إنجلترا أصبحت منفردة وهذا مما لا يسر ألمانيا. استفید من خطاب المستر جلادستون في مجلس البرلان أن لنواب الدول عند اجتماعهم أن يبحثوا فيما سوى المسألة المالية إن أرادت الدول ذلك، وإن كان هذا ينافي ما صرحت به جرانفيل في جلسة أخرى، ولما سُئل جرانفيل عن هذا التناقض أعرض عن الجواب وقال: إن الحكومة مستعدة لإنقاذ جوردون (هذا مما يضحك)!

أخبار السودان تشعر بالشدة؛ فقد أخبر الحاكم في دنقاً أن رسلاً بعثوا إلى الخرطوم فعادوا ولم يتمكنوا من الوصول، وقالوا: إن التأثيرين محققون بجوردون من جميع الجهات، في برقية من القاهرة إن التأثيرين مجتمعون في عيون أبي سعيد على قرب من أسوان وإن زعماء جيش محمد أحمد طلبوا من حامية دنقاً أن تسلم بعد ثلاثة أيام وإلا فتكوا بهم.

جرت مشاجرةٌ بين بعض العساكر الإنجليزية وبين العربان النازلين على شواطئ بحيرة مريوط، وقتل فيها عدة أشخاص.

الأخبار متواترةٌ بأن عثمان دجمة يحاول الهجوم على سواكن، وينازل بعض القبائل التي لم تُذعن لدعوة محمد أحمد على القرب من طمانب.

المستر جلادستون وَعَدَ بأن يرسل جيشاً إلى السودان، لكن لا بد من مراعاة الفصول والأهوية، ثم أظهر تجافيه عن حرب السودانيين الذين يدافعون عن حريةهم وبلادهم.

الفصل الخامس والخمسون

المسألة المصرية دولية

إنا أذرنا الإنجليز خطراً قريباً على الهند، ونبهنا في أول عدد صدر من جريدةتنا على أن تفيؤ التركمان في مرو لظل الحكومة الروسية باختيارهم ربما يحمل تركمان سرخس على الاقتداء بهم، وأشارنا إلى ما يتبع ذلك مما عاقبته نكال على الإنجليز، واليوم وقع ما توقعناه، فاستولت روسيا على سرخس وتأخمت بحدودها حكومة الأفغان، وارتعدت فرائص الإنجليز وغشיהם الفزع والقلق، وأعلنت جرائدهم نحيباً ورددت نشيجاً وأحسست بقرب الأجل، ولم يسكن روعهم ما ذكرته جريدة بترسبرج الشبيهة بالرسمية من أن سرخس اسم يشترك بين مدینتين، قديمة وحديثة، وإنما دخل في حوزة الروس أولاهما؛ فإن الإنجليز يعلمون أن المدینتين متصلتان لا يفصلهما إلا ترعة صغيرة «نهر تجند» عرضها عشرة أذرع بالتقريب.

على أن سرخس التي حكم مهندسو حرب الإنجليز أنها باب الهند من طرف الشمال، وأنها ممر فاتحية من زمان قديم ومن طريقها طرق الهند إسكندر الأكبر ونادر شاه الإيراني، وأن وصول الروس إليها مما يخرق سياج الهند؛ إنما هي سرخس القديمة. ومما زاد الإنجليز فزعاً واضطرباً أن التركمان النازلين بتلك المدينة وما يليها هم الذين عرضوا أنفسهم على حكومة الروس طوعاً و اختياراً، وبعثوا وفداً منهم؛ لينوب عنهم في عرض خصوصهم على البرنس دوندكوف حاكم ما وراء بحر الخزر من الولايات الروسية، ووصل الوفد إلى عشقاباد وأقام بها ينتظر قدوم البرنس إليها.

وقع الإنجليز الآن بين شَرَّين عظيمين: خطر عاجل وَحَتْفُ عاجل، أما الثاني، فهو أن روسيا إما أن تتحد مع الأفغانيين وتحالفهم على مطاردة الإنجليز، وهو الأقرب المتوقع، فتصير معهم يدًا واحدةً على هدم أركان الحكومة الهندية الإنجليزية، وليس بخافٍ ما يُضمره كل أفغاني لكل إنجليزي من الحقد والضغينة، والأفغانيون قوم حرب يُناطحون الموت بنواصيهم، فكيف إن وجدوا مُساعِدًا قويًا؟

وإما أن تميل حكومة الأفغان إلى الإنجليز، وهو من فرض الحال، فما أسرع أن تتشتت مقاتلاته بين القبائل المختلفة من تحت حكم حكومة الأفغان، مثل جمشيدي وفiroز كوهي وبين قبائل التركمان المتاخمين لهم، ويعقبها حرب بين الروس والإنجليز؛ لأن كلاً من الدولتين مضطَرٌ للمُدافعة عن حليفه، بل للروس حق المناضلة عن رعاياها التركمان، فإذا زحف الروس إلى الأراضي الأفغانية تقطعت حبال الإنجليز وامتنعت عليهم وسائل الدُّفاع، وهذا آخر حياتهم في الهند.

وأما الخطر العاجل فهو أن سماع الهنديين بخبر استيلاء الروس على سرخس يوقد فيهم نار ثورة عامة، يتمسون في أصواتها طريقةً للخلاص من الضيق والضنك الذي شملهم، وسبيلًا للنجاة من الويل الذي جلبه عليهم مظالم الإنجليز.

هذا يكون كما اشتعل لهيب الفتنة سنة ١٨٦٠ عندما وصل إلى الهنديين خبرُ استيلاء ناصر الدين شاه الإيراني على هراة، بل انتقاض الهند على الإنجليز في هذه الأيام أقرب؛ فإن خواطر المسلمين من سُكَّانه في هياج شديدٍ بما شاع بينهم من دعوة محمد أحمد السوداني، بل بما يُمكِن في أهواهم من الميل إلى تصديقه، وإنَّ لهذه الدعوة حملةً على الهند لا يُقاومها تدابيرُ دولة بريطانيا.

تريد دولة إنجلترا أن تصد المسلمين عن حج بيت الله الحرام في هذا العام وربما فيما بعده؛ حتى لا تصل أخبارُ محمد أحمد وتورط الإنجليز في مقاومته إلى مسامع الهنديين، ولكن سيحمل هذه الأخبار إلى تلك الأقطار حجاج الأفغانيين والبلوجيين الذين يسلكون إلى الحج طريق البصرة والكويت، بل يبلغونها على وجهٍ أبلغَ مما لو سمعوها بآذانهم.

هذا تأييدٌ إلهيٌ للدولة العثمانية، فعليها أن تنهض بعزيمة صادقة وجأش ثابت وهمة تليق بمكانتها في المغلوب، وعلى السلطان العثماني أنْ يتذكر أنه خلف لأولئك الأسلاف العظام الذين ما أضاعوا حقًا ولا أهملوا فرضاً، ويقتضي من الإنجليز حقه ويسترد مصر من أيديهم ويطهرها من جرائم الفساد، ولا يقنع بما دون الحق ولا يدع

لهم فيها شأنًا إلا بما يساوون فيه غيرهم من الدول، ولا تفوتنَّ العثمانيين فرصةً هذا الارتكاك الذي سقط فيه الإنجليزُ كما فات الإيرانيين الانتفاعُ بثورة الهند في الأيام الماضية لتأخرُ خبر الثورة عنهم، وإلا لكانوا أوقعوا بالإنجليز ونالوا الغاية من ضرهم. على العثمانيين أن يتلافوا الأمر قبل أن يشب الإنجليز حرباً صلبيّةً بين الحشيش والمسلمين على نفقة الحكومة المصرية، ليس للدولة العثمانية أن تتهاون في مطالبها أو تتحاشى الدّفاع عن حقوقها الثابتة، ولا أن تخشى في ذلك تهويل الإنجليز وجَلَبَّهم؛ فإنَّ كثيراً من الدول – على اختلاف مقاصدها السياسية – يواافقونها على تخلص مصر من مخالبِ الإنجليز كما دلت عليه منشوراتُ الجرائدِ ورواياتُها عن مقاصد السياسيين من كل دولة.

بل الذي يُفهم من جملة مقالاتهم أنه لا توجد دولة من الدول ترضى بأن يكون المؤتمر وسيلةً لاستيلاء الإنجليز على مصر أو وضعها تحت حمايتهم، خصوصاً دولة فرنسا ودولة الروس، وإليك طرفاً من آراءِ الجرائد وما تنقله عن السياسيين، قال مراسل التايمز في باريس: «إن فرنسا لم تقبل ولن تقبل أن يكون بحثُ المؤتمر منحصرًا في المسائل المالية»، وقد أصابت فرنسا في عدولها عن طلب المراقبة المشتركة بينها وبين إنجلترا ورغبتها في مراقبة يشترك فيها جميعُ الدول؛ فإنَّ في ذلك فوائد عظيمة لها ولغيرها ولا أظن أن حكومة إنجلترا وافقت على ما ترحب فرنسا، كما لا أظن أن فرنسا تتسامل فيما تريده، وعلى هذا، فإما أن ينعقد المؤتمر ولا تكون مداولاته مقصورةً على مشكلات المالية وإما لا يلتئم أصلًا.

ولا أمل لإنجلترا إلا في التستر تحت حيلتها، وهي أن ترحب إلى الدول عقد مؤتمرين متعاقبين، أولهما للمالية وبعده ينعقد الثاني؛ للنظر فيما لم ينظر فيه الأول، وقال مراسل الدبليو تلغراف في وبيان: «إن خطاب المستر جلادستون الذي ألقاه في مجلس النواب حرك دول ألمانيا والنمسا وإيطاليا للاتفاق في المسألة المصرية، فصرحت جميعها بأن مصالحها في مصر تقضي عليها العمل في حل هذه المسألة، وليس من سياسة واحدة منها أن تنتظر زمناً طويلاً بعد ما مضى من الحوادث مع ما يتوقع نزوله بمصر من النكبات، واستقر رأي الدول الثلاث على المُداخلة في وقتها المناسب، وقد انحلت ثقتها في مسلك الوزارة الإنجليزية».

وورد من فيينا إلى جريدة التان الفرنسية الشبيهة بالرسمية من مكاتبها برقيةً قال فيها: «إنه اجتمع مع رجال عظام في تلك المدينة واستطلع أفكارهم في المسألة المصرية،

فإذا هم متباهنون في الرأي، فمن ظن بعضهم أن الواجب على دولة النمسا أن تأخذ جانبًا عن هذه المسألة وتوسيع المجال لدولة إيطاليا؛ فإنها إن فعلت ذلك أرضت إيطاليا بدون أن يلحق ضرر بمصلحتها ووافقت رغائب ألمانيا، ومن رأي بعضهم أن حكومتهم لا يسوغ لها التخلّي عن رعاية مصالحها في مصر مرضًا لإيطاليا، بل لا يمكنها هذا. وقد أخطأ من يظن أن ليس للنمسا منافع في البلاد المصرية.»

ثم قال الكاتب: «تلاقيتُ مع رجل سياسي له شهرة بحرية الفكر وإصابة الرأي، فمن كلامه: إن دولة ألمانيا ربما تجعل المسألة المصرية وسيلة لراضخة الإيطاليين؛ بأن تعد لهم فيها مقامًا رفيعًا؛ لأن ألمانيا ليس لها قوّة بحرية ولا يهمها ما يجري في البحر الأبيض إلا بطريق العرض، أما النمسا فإن لها في ذلك البحر مركزًا مهمًا فحالها من هذه الجهة يُخالف حال ألمانيا، على أن حركات السياسة البرية لا بد أن تقتذف بها إلى ذاك البحر وهو مما يزيدوها حرصًا على تعزيز جانبها فيه، وليس المسألة المصرية إلا مسألة البحر الأبيض فمن له فيه شأن يراعيه فله الشأن في المسألة المصرية، وعلى حسب درجة الأول تكون درجة الثاني.»

ثم أطّال الكلام في بيان المنافسة السياسية بين دولة النمسا وإيطاليا، وما يطمح إليه نظر كلّ منهما، غير أن هذا ليس مما يمنع الدولتين عن الاتفاق في معارضتهما الإنجلiz وخفّض منزلتهم في مصر والبحر الأبيض.

أما جرائد فرنسا ورجال سياستها فعلى رأي واحد في وجوب تحويل المسألة المصرية عن وجه كونها إنجليزية إلى وجه كونها دولية أوروبية، وارتاحت لهذا نفوس الدول ومالت إليه أفكارُهم، نسأل الله حُسْن العاقبة، وإليه المصير.

الفصل السادس والخمسون

العروةُ الوثقى (مصادرتها في مصر والهند وفرض غرامة على قرائتها!)

انعقد مجلس الوزراء المصري في القاهرة، واهتم بالبحث في شأن «العروة الوثقى»، ثم أصدر قراره إلى وزارة الداخلية المصرية قاضياً عليها بأن تشتند في منع هذه الجريدة من دخول الأقطار المصرية وتراقب جولاتها في تلك الديار، فصدر أمر الداخلية إلى إدارة عموم البريد يلزمها بالدقابة في ذلك، وبلَغَنا أنَّ الجريدة الرسمية — بعد نشرها صورة الأوامر — أعلنتْ أنَّ كلَّ مَنْ تَوَجَّدُ عَنْهُ العروة الوثقى يغرم مبلغاً من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهاً (وهي غرامة جسيمة ربما دعا إليها عسر المالية المصرية ببركة تصرف الإنجليز في مصر)!

أما نحن فلا نظن أحداً من الوزراء المصريين له رأي اختياري في هذا القرار، بل لا نتوهُم في المستوى على كرسي الخديوية ميلًا إلى مثل هذا الحكم، ولا يَخْتَلِجُ في صدورنا أنَّ مصرياً من أي مشرب كان سواء المسلم أو غير المسلم منهم، بل ولا شرقياً من يسكن تلك البلاد يرى فيه جانباً من العدل.

هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجد بهم، ولها سعي — بل كل السعي — لخيبة آمال أعدائهم، ولا ترى من مشربها مدحَ زيد ولا القدح في عمرو؛ فإن المقصود أعلى وأرفع من هذا، وإنما عملها سَكَبَ مياه النصح على لهب الضغائن لتلاقي قلوب الشرقيين عموماً على الصفاء والوداد، تلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يُلْقُوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضواري التي فُغرت أفواهاً لاتهامهم،

ومن رأيها أن الأشغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمان من طرائق التأهُب، هذا منهاج العروة الوثقى عَلَمَهُ كل مُطَلَّعٍ على ما نُشر فيها من يوم نشأتها إلى الآن، فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقياً مسلماً أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره؟ ولكننا نعلم أن حركات الامرين في القُطْر المصري هذه الأيام قهريّة لا يُخالطها شيءٌ من الاختيار، والمدير لرَحْى القهر عليهم هم عمال الإنجلiz.

ولا نريد أن نقول للإنجلiz: إنهم ظلموا في الحكم؛ فإن الجريدة لم يوجد فيها إلى الآن ما يزيد على ما تنشره الجرائد الوطنية والأجنبية من كشف مساتيرِهم وبيان الرزایا التي أصيَّبت بها الديار المصرية من حُلُولِهم؛ لأنهم — الإنجلiz — الذين أحَسُوا بشهرة عالم من علماء المسلمين في الهند وإقبال النَّاس عليه بالاعتبار، أسرعوا بجلبه إلى ديوان الشرطة (الضبطية)، فعند وصوله إليها يفتح له الضابط مصحف قرآن أو كتاب حديث من الكُتب المشهورة ثم يشير إلى آية من آيات الجهاد أو حديث مما يدعوه إليه ويسأله: «هل أنت معتقد بهذه الآية أو الحديث؟» فإذا قال: نعم قال له: «فبناءً على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا»، فإذا أجابه: «إنني درويش مُلزِم العزلة عن النَّاس وليس اعتقادِي بهذا إلا لأنَّه كتاب ديني»، ضرب له الضابط أجل أربعة أيام أو أقل يبيّن فيها رأيه في الآية أو الحديث، فإن مضي الأجل ولم يحرف العالم دينه ولم يبدل عقيدته ولم يبادر بإرسال تحريفه وتبدلِيه وخروجه عن دينه إلى مطبعة من المطبع ليطبع وينشر، بعثت به الحكومة إلى جزيرة أندومان نفياً مُؤيداً، ولو رأيت تلك الجزيرة لرأيتها غاصبة بأمثال هؤلاء المظلومين.

دولة الإنجلiz التي تحاسب رعاياها المسلمين على خطرات قلوبهم وما يمكن أن يهجم في حديث نفوسهم؛ لا ريب أنها تعد وجود لفظ الإسلام في جريدة كافياً لمنعها عن الدخول إلى بلاد لها فيها قدم ثابتة أو تسعى في تثبيتها، بل تحسب أن من أَلَّه أعدائها شخصاً علق هذا الاسم من أي جنس كان، فلا غرابة في صدور مثل هذا الجور منها غير أننا نُعلن لها أنَّ هم الرجال لا تُقعدُها أمثالُ هذه المظالم، وليس يعجزنا إدخال هذه الجريدة في كل بقعة تحوطُها السلطة الإنجليزية الظالمُ، ذلك بعزم أولي العزم الذي قاموا بإنشاء العروة الوثقى.

بلغنا أن بعضَ من النَّاس يسل سيفه ويُشحذ سنانه لمناضلة الولي الحميم، ويقابل ثناءه بالذم ومدحه بالقدح وإحسانه بالإساءة، ويواجه نصيحته بالظن، ولا نظن أن هذا منه عن عمد ولا إغراء عدوه، وإنما هو لشبهة حجبُ نظره عن درك الحقيقة، فإذا

كشفت له الأيام عن الواقعِ رجع إلى الندم على ما صدر منه وكانت له مثابة إلى الحق ورکون إلى الصواب.

لا يحزنن أهل الحق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عن الحكومة المصرية من منع العروة الوثقى من دُخُول القُطر المصري، ولَيَعلَمُوا أنَّ الحكومة المصرية لا دخل لها في هذا المنع؛ فإنَّ حُكْمَة شرقية لا تسمح لها غيرُها بمنع جريدة لا شيء فيها سُوى الدُّفاع عن الشرقيين، وإنما منشأه حُكْمَة إنجلترا وشأنها معلوم عند كل عارف بأحوالها.

الفصل السابع والخمسون

تصرف الإنجليز في الهند

لا أريد بما أكتب في هذا المقال القصير تنفيّر قُلوب المصريين من سلطة الإنجليز، فإنّ لي يقينًا بأنّ المصريين الذين أُنْبَتُّهم أرض مصر لا يُدْعُونَ لولاية الإنجليز عليهم، بل يُعارضونها بأرواحهم وأموالهم، ولهم من الغيرة الدينية والوطنية ما يحملهم على ذلك، وإن رأوا من عدّلها ما لا يصل إليه إنصافُ أنوшуروان، ويُفضلون ولاية مواطنיהם وإن مَسَّهم منها أنكى ما يكون من الحَيْفِ، اللهم إلا قليلاً من فسدة أخلاقُهُم وانتكست طباعُهُمْ، وقليلٌ ما هم، وإنما القصد كشف ما تدعّيه هذه الدولة العظيمة من العدالة وما تختص به نفّسها من الوصاية على نوعِ الإنسان.

إذا أشرف السائرُ على أَيِّ بُقْعَةٍ من البقاع الهنديّة الواسعة شخص بصره ودهش له بما يراه من آثار عناية الله بتلك البقاع وما منحتها من الخصب الطبيعي، حتى إن الأحجار الصلدة لتنشق عن الأشجار الضخمة العالية الأغصان المورقة الأنفان، تُظل الواحدة منها امتداداً واسعاً من الأرض وكأن أديم الأرض بما استوى عليه من أنواع النباتات قد بُسط عليه بساطٌ من السنديس الأخضر، فيخيل للناظر أن سكناً هذه الأراضي في خضم من العيش وسعة من الرزق بل يظنهم أسعد من عمر الغراء.

ولكنه إذا تجاوز السهول والأودية إلى المدن والقرى ضاق صدره وتفطر قلبه من مناظر سكانها، يرى آلاً مُؤلَّفة يعبرون في الشوارع والأرقة جيئةً وذهاباً حفاة عراة بادية سواتُّهم، كاسفة أحوالهم، لا يجدون رمقة من العيش. يلتمس الواحد منهم عملاً

من الأعمال الشاقة يقضى فيه نهاره وبعض ليله ليصيّب من الأجر عليه ثلاثة فرنكات في الشهر بل فرنكين ونصفاً ولا يتيسر له.

ويرى هذه الحال عامة حتى في المدن التي بسواحل البحر على كثرة الأشغال التجارية فيها، ويشتد به العجب عند المقابلة بين خصب التربة وجودة المناجم وسوء حالة القائمين عليها، ويحكم حكماً لا ريبة فيه بأن إدارة الحكومة الإنجليزية (حامية النوع الإنساني) هي التي حرمت أولئك المساكين من التمتع بما آتاهن الله من فضله، إذا سأله سائل عن حال كثير من أولئك المعدمين الذين لا يملكون نقيراً ولا قطميرأ، فربما يقف على أنهم كانوا من أرباب الثروة الواسعة والمقدرة السامية وكانوا يسكنون القصور العالية ثم أصبحوا يأوون إلى خصاص بل أقفالاً.

إذا انتقل الفكر للبحث عن السبب أوصله النظر إلى أسباب كثيرة يرجع جميعها لتصريف الحكومة الإنجليزية، وأشدّها ظهوراً وفراً للإتاوات (خرج الأرضي) وشقّل الضرائب على كواهل الأهالي، فإن الحكومة قد فرضت على العاملين في زراعاتهم ولم تجعل الأداء على حسب ما تجود به الأرض كل عام بقدرها ولكنها خرقت (حررت) ما تأتي به كل أرض على درجتها من الخصب وقدرت مبلغاً معيناً تجبيه من العامل في الأرض سواء سلّم زرعة من الآفات أو اجتاحته الجوانح، وقد يستغرق مطلوب الحكومة جميع المحصول بل يزيد عنه، وأداؤه حتم لا تردد فيه على أي حال، هذا فضلاً عن الرسوم المختلفة التي لا حد لها ولا نهاية وتعرف عندهم (بالتكس) أي الرسوم غير الثابتة أو غير المحددة، وربما أتينا على بيانها مع بيان سائر الأعمال بالتفصيل فيما بعد.

في هذا المقام تذكرت شيئاً قد يخطر بالبال، رب غنيٌ في مصر يملك مزارع واسعة وإقطاعات كثيرة (أبعاديات وجفالك) فيرکن إلى ما تفيض عليه من الرزق ويطمئن قلبه من جهة معيشته ومعيشة أبنائه من بعده، فيستوي عنده أجناس الحاكمين ولا يبالي بولية الإنجليز على بلاده حيث سلم له قوته، وهذا أشير إلى طرف مما يعامل به الإنجليز أمثاله في الهند لتكون له عبرة.

أراد الإنجليز أن لا يكون لغيرهم يدٌ على ملك واسع فيما تحت سلطتهم، فضربوا على أرباب الإقطاعات رسوماً زائدة يؤدونها عن أراضيهم في أوقات محددة، ثم وضعوا في قانون الزراعة أنه لا يجوز للملك أن يقيم الدعوى على مزارعيه إذا تأخروا عن تأدية ما شرط عليهم إلا بعد مُضيٍّ ثلاثة سنوات من وقوع موضوع الدعوى، وإذا خان

المزارعون أو أهملوا في أعمالهم أو استأثروا بمحصولات الزراعة؛ فلا يمكن لصاحب الملك أن يخاصمه في مجالس القضاء إلا بعد مضي تلك المدة، إلا أنه يؤدي ما عليه للحكومة في أوقاته رغم أنفه، وإن لم يؤد إليه العاملون له شيئاً.

وفي قانون المرافعات عندهم أنه إذا مضى على موضوع الدعوى ثلاث سنوات لم تحصل في أثنائها إقامة الدعوى فلا تُسمع، فهذا يحمل العاملين في الزراعة على الإضرار بأرباب الأموال ولا سبيل لهؤلاء إلى استخلاص حقوقهم من أولئك، والحكومة لا تترك من فريضتها شيئاً ولا تتساهل في طلب أدائها بوجهٍ فـيـضـطـرـ المـلـاـكـ لـلـتـنـازـلـ عـنـ أـرـاضـيـهـمـ للحكومة الإنجليزية (العادلة)، هذه أعمال من تأخذه ريبة في خبرها، فليسأل الهنديين عنها.

وإن الجرائم الإنجليزية في الهند تنازي على حكومتها الهندية دائماً بوجوب التخفيف في الوطأة والرفق في السلطة، وتنذرها بأن الأعمال الإدارية والمالية لو دامت على نمطها هذا لا يمضي قليلاً من السنين حتى يشتت الضيق والضيق في عموم الأقطار الهندية، ويضطر الأهالي لإصلاح فتنة عمومية لا طاقة لدولة بريطانيا بإطفائها، ولكن لا يسمع الصم الدعاء.

الفصل الثامن والخمسون

نصيحةٌ في الأدب

إذا صادفتَ ظالماً أو قابلتْ فاجراً فلا تقل له أنت ظالم أو فاجر!
وردت إلينا من حضرة الفاضل مولوي عبد الغفور شهباذ بمدينة كلكتا وهذا
نصها:

«ليس الأدب كما يظن بعض الناس مجموعة قصص تُتلى للفكاهة أو أساطير
تنقل في المسامرات، أو منظوم من القريض يمتاز بحسن الاستعارة ورقة التشبيه، مع
مراجعة المحسنات اللفظية والمعنوية؛ من التورية والجnasات ونحوها من فنون البديع،
أو منشآت ورسائل تتضمن إطراءاً في المدح أو مغالاة في القدح، فإن جميع هذا بمجرده لا
يتصل بمعنى من معانٍ الأدب، وإنما الأدب في كل أمة هو الفن الذي يقصد به تهذيب
عاداتها وتلطيف إحساسها وتتببيتها إلى خيرها لتجتبه وإلى ما يخشى من الشر فتجتنبه.
فالآباء في الحقيقة هم ساسة أخلاق الأمم، بل هم أجنحتها، تطير بهم إلى ذروة
فلاحها، فإنهم بما يعلمون من طرق التفهيم يمكنهم أن يقربوا إلى العقول ما يبعد
عن إدراكاتها، ويسلّلوا على الأذهان ما يعسر عليها النظر فيه، ويعبروا عن المعنى الواحد
بالطرق المختلفة فتستفيد منه العامة ولا تنكره الخاصة، فيأخذون على الظالم ظلمه
ويَعْظُّونه بسوء عواقب الظلم، وينكرون على الفاجر فجوره ويحذرونه مغبة الفجور،
حتى يردوا كُلّاً عن غيه بما يرضون من طبعه بدون أن يقولوا له: إنك ظالم أو فاجر.

وإذا رأوا في أمتهم عوائد يأباهَا سليمُ الذوق أو وجدوا منها أخلاً وأعمالاً لا تنطبق على شريعة الفضل وقوانين الشرع؛ عمدوا إلى تغيير العوائد وتطهير الأعراق، وأخذوا في ذلك سُبُلاً متنوعة في إنشائهم: تارة بالقصص والحكايات التي تمثل شناعة الرذيلة وبهاء الفضيلة وما آل إليه أمرُ المتدنسين بالأولى وما ارتقى إليه حالُ المتحلّين بالثانية، وتارة بقريض الشعر يخيلون فيه ما يحرك الهمم ويبعث الأفكار وينبه خواطر الكمال وإحساسات الشرف الصحيح، لا ما يوّقّط الشهوة ويقوّي الغرور ويُخرج الأنفَس عن أطوارها، والأخذ به من وجده والدخول إليه من بابه هو الذي صعدت به الهند الأولى إلى أوج المجد، وبلغ به العرب أقصى غايات الرفعة، وهو الذي وصل بالأمم الأوروبية إلى ما وصلوا إليه مما لا يخفى على كل ذي بصيرة.

إينا نتأسف على ما نراه من أدباء المسلمين وشعرائهم، فإنهم يقصرون منشآتهم وأشعارهم على ما يكون عدّاً للصفات، إما مذمومة وإما محمودة ونسبتها إلى شخص يريد ذمه أو مدحه، ويحصرون رواياتهم في حكايات مضحكة وقصص هزلية وبعض تواريخ ماضية بدون أن يلاحظوا تأثير ما يكتبون وما ينقلون في أفكار الأمة وأطوارها. ورجأونا فيهم أن يسلّكوا مسالك أدباء الأمم المقدمة أو المعاصرة لهم؛ حتى يكون للأمة الإسلامية نصيبٌ من فوائد ذكائهم وفطنتهم وسعة بيانهم وطلقة ألسنتهم، وأن يأخذوا في منشآتهم وأشعارهم طريقاً يُنهضون فيه الهمم الخامدة ويحرّكون القلوب الجامدة، ويحيّون مكارم الشيم، ويوردون الأمة مورد سابقتها من الأمم، وإننا نرى بداية هذا المنهج الجديد في بلادنا، ونسأّل الله حسن خاتمه.»

الفصل التاسع والخمسون

أخبار سياسية

صرح اللورد جرانفيل في مجلس اللوردات بأنه ورد للحكومة الإنجليزية أخبارٌ عن الجنرال جوردون، إلا أنه كتمَها عن المجلس ولم يُطلعُ عليها، ومع هذا فإنها مهملةٌ من التاريخ، ولم يُعهد أن مأموراً سياسياً لدولةٍ عظيمةٍ يُخابر وزراء دولته بلا تاريخ، ولعل ما أله الوزراء البريطانيون من التمويه على الشرقيين أصبح فيهم عادةً تجري بينهم حتى على أبناء جنسهم وفي مجالسهم العالية.

وردت أخبارٌ إلى «الديلي نيوز» مفادها أن جميع القرى في شمال بربير إلى مراوى جاهرت بالثورة وانقطع الطريق إلى بربير، وفي خبرٍ آخر أن من الظنون ميلٌ مدير دنقا إلى مُنايَدة الحكومة، فقد كان يطلب من أيام مددًا يَستعين به على إخلاء المدينة وإنقاذ حاميتها، واليوم يأبى الخروج منها بل يطلب أن تُبعث إليه نجدةً يفتح بها البلاد السودانية فتحًا جديًّا.

ثم استبد بما لم يكن من حدود وظيفته، فأرسل بعض ضباط الباشيزوق^١ إلى وادي حلفاً ليأتيه ببعض الذخائر والآلات الحربية، ونال رسالته ألف بندقية وأربعون ألف فشك، ونهبوا مخازن الحكومة، وأحضاروا معهم عدداً من المدافع إلى دنقا.

^١ الباشيزوق: بمعنى الاحتياطي.

وربما يعب على المدير إتيانٌ مثل هذا العمل ويعد من باب الخيانة لحكومته المصرية، ولكن ماذا يصنع بعدما علم أن الحكومة المصرية خرجت عن كونها حكومة وطنية بتصرف الإنجليز فيها، وأن حكامها أصبحوا لا يملكون من الأمر شيئاً، فإن صدق هذا المأمور في خدمته فلا تكون فائدة الصدق إلا تثبت قدم الإنجليز في بلاده وتأييد ملكتهم عليها، فيكون في الحقيقة خيانة لوطنه وبخساً لحقوقه، فله العذر إذا انحاز إلى الفئة التأثرة ما دام الإنجليز حاكماً في مصر.

• يقال: إن محمد أحمد سار من الأبيض لفتح دكاشيا أو الخرطوم، ويغلب على الظن أن مسيرة لفتح الخرطوم، فإن حل بها ما حل ببربر وشندي مع هيجان القبائل في الجهات الشمالية ترقبنا عاقبة هائلة أذرنا بها وحضرنا منها مراراً عديدة.

• من رأى أحد المراسلين لجريدة «الديلي تلغراف» أن الجنرال جوردون سيقيم في الخرطوم إلى فيضان النيل، فإن لم تأته نجدة يقوى بها على الفوز بنجاح مأموريته، لزمه أن يصعد على النيل الأبيض إلى خط الاستواء، وأنه يمكنه بعد ذلك أن يعمل أعمالاً عظيمة في الأمم الإفريقية القاطنة فيما وراء خط الاستواء، ثم عقب كلامه بأمانٍ وأوهام لا تنقص عن أمانى جوردون عندما سار من القاهرة إلى الخرطوم.

• في برقية من أسوان إلى «الديلي نيوز» أن ابن أخي حسن باشا خليفة ومعه شخص آخر فرّا من ببربر وكانا منطلقين إلى جهة الشمال فاعتقلهما عرب روباتاب بالقرب من أبي حمد.

• يقال: إن الحكومة المصرية (أو الإنجليزية) تجتهد بوسعها للمحالفة مع قبائل العرب في جنوب مصر؛ ليكونوا لها عوناً على مدافعة سيل الفتنة إذا ارتفعت غواربها على حدود مصر الطبيعية، ولا نظن أن سعيها ينجح لدى العرب؛ فإن ذمتهم ودينهم لا تسمح لهم بمساعدة الإنجليز في تملك بلاد المسلمين.

• أبي اللورد جرانفيل أن يرخص لنوبار باشا بالسفر إلى أوروبا مدة غيبة السير بارين، فإن أصر نوبار باشا على طلب الرخصة فإن اللورد جرانفيل سيطلب من الخديو أن يستبدل به برياض باشا أو شريف باشا.

هذا كله والإنجليز لا يريدون أن تكون مصر تحت سيادتهم ولا يحبون أن يُرفع عليها علم حمایتهم، وليس يدرى ما الغرض من السيادة والحماية سوى التصرف في

الإدارات والتحكم في أولياء الأمور، هذا وزير مصر الأكبر لا ينال رخصة سفر إلا بإذن من جرانفيل، ولا يأذن له، ويرى أن له أمرًا على الخديو باستئزار فلان! فإن لم تكن هذه سيادة فما هي السيادة؟!

- في خبر أن الأميرال هفت وصل إلى أدوفا (من البلاد الحبشية)، وأسلفنا أنه كان في نيته إغراءً ملك الحبشة بإيقاد حرب صليبية يهلك بها أمم العالم فداءً لشهوات الإنجليز، إلا أنه جاءت الأخبار بعد هذا أن الأميرال لم يصادف سعة من صدور الحبشيين وأن الملك يوحنا وقف على خديعة دولة إنجلترا، ولم يُظهر عنایة بما أتى إليه الأميرال ولم يبعث لملاقاته أحدًا، بل أظهر الحبشيون غاية الخشونة في معاملة الوفد الإنجليزي حتى إنهم امتنعوا عن بيع المأكولات لهم، وقد ذكرت بعض الجرائد صورة المعاهدة التي يُراد عقدها مع ملك الحبشة — ولا يهمنا الآن ذكرها.
- هجم جماعة من التأثرين على سواكن في التاسع عشر من هذا الشهر، وزحفوا إلى المدينة حتى صاروا على خمسين متراً من أسوارها، ثم أطلقوا عليها النيران مدة ساعتين حتى أُثَرَ الرصاص في كثير من البيوت، ولم يتحرك جيش الحامية أدنى حركة لدافعة هذا الهجوم العنيف، ويظهر من هذا أن انتصار الجنرال جراهام في سواحل البحر الأحمر لم يكن له أثر وإنما هو قولٌ يذكر ورواية تؤثر وأن غزواته لم تزد التأثرين إلا إقداماً.
- كتب مراسل التنان في القاهرة أن لا صحة لما أشاعته الجرائد من القبض على مسيو أوكي، النائب الأيرلندي الذي حملته همته على السفر إلى الأبيض.

الفصل ستون

في التوانى الهلكة!

هذا ما ساقت إليه الحوادث المصرية، وهي مفتاح الكوارث الشرقية وفيها مغلقاتها، العظام من الدول في يقظة لا سِنَة معها، وحركة لا فتور فيها، مفاوضات متواصلة بينها قبل انعقاد المؤتمر، ومجادلات متلاحقة يدأب فيها السياسيون من كل أمة، بعضها بالراسلة، وشيء منها بالمشافهة، كثرت خلواتُ السفراء من كل دولة مع وزراء الخارجية من سواها، يتهمون ويتمازون، ويُسْرُون خلاف ما يعلنون، ويذهبون إلى ما لا يقصدون، وقد حمل كلُّ بصره للآخر؛ لعله يلمح مَنْ كان وجهه ما ينبع عن مضمرات سرٍ.

ويصوب كلُّ فكره إلى ما يريد الآخر من قوله، عسى أن لا يفوته شيء ربما يعتل به، وجل ما انصرفت إليه قواهم تمثيل الرغائب، وتخيل المطامع، في صور أبعدها عن الحقيقة أقربها إلى الخيال، يعظمون الحقير، ويحقرّون العظيم، ويجمّسون الموهوم، ويضلون عن المعلوم، ويقرّبون البعيد، ويبعدون القريب، يذهب كلُّ بصاحبه إلى رياض من الأماني باهرة الأنوار بزهور الآمال، وما نبهت بها رها إلا على حبائل من المكر، وفخاخ من الخديعة، حتى إذا راقدَ المنظر وخطا خطوة سقط من حيث لا يشعر، هذا يسهل صعباً، والآخر يُوعر سهلاً، وكل يتبع لحاظ رصيفه إذا أحس منه لحاماً لقصده أبرز له ألواناً من الفوائد الموهومة ليستلفته عن مرامه، وإذا شعر منه بفكر يوصله إلى ما يمسه، فتح عليه أبواباً من الفزع ليزعجه بما يطلب، ويشوش عليه سيره ويقطع سبيلاً فكره.

منهم مَن يَكْسِبُ الأَصْدِقَاء بِمَالِ غَيْرِهِ، وَمِنْهُم مَن يَسْتَفِدُ الرَّفِيقَاء بِكَفِ شَرِهِ، وَمِنَ النَّاسِ أَقْوَامٌ أَخْرُونَ عَلَى غَوَارِبِ أَمْوَالِ الْحَوَادِثِ نَائِمُونَ، تَقْدِفُهُمْ كَرِبَةٌ وَتَتَلَقَّهُمْ أُخْرَى، وَهُمْ عَنْهَا غَافِلُونَ، زَلَّلَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ زَلَّالَهَا، وَدَهْمَتْهُمُ الْخَطُوبُ بِأَرْزَائِهَا، وَتَوَالَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَزْعَجَاتُ، وَتَنَالُتْهُمْ عِوَاصِفُ الْمَفْزَعَاتِ، وَهُمْ فِي سَكَنَةٍ تَخِيلُ لَنَاظِرَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى بَسَاطِ الْرَّاحَةِ مَطْمَئِنُونَ، وَالْمُقْبِلُ عَلَى الْفَوْزِ مِنْ هُؤُلَاءِ وَأَوْلَئِكَ إِنَّمَا هُوَ أَحْرَمُهُمْ رَأْيًا وَأَثْبَتُهُمْ عَزِيمَةً وَأَشْدَهُمْ بَشَّوْنَهُ بَصِيرَةً.

يَقُولُ الْإِنْجِلِيزُ: إِنَا عَدَوْنَا عَلَى الْهَنْدِ مِنْ زَمَانٍ طَوِيلٍ فَاغْتَصَبْنَا وَحْقَّ لَنَا الْمَلْكَيَةُ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي شَرَائِعِ الْقُوَّةِ وَقَوَانِينِ التَّغْلِبِ، وَأَيْنَ دِيَارُنَا مِنْ هَذَا الْمَلْكِ الْعَظِيمِ فِي شَرْقِي آسِيَا.

الْمَسَافَاتُ طَوِيلَةٌ وَالشُّقَّةُ بَعِيْدَةٌ فَلَا بَدَ أَنْ يَكُونَ لَنَا فِي كُلِّ مَكَانٍ مُوطِئٌ لِأَقْدَامِنَا لِنَحْفَظَ بِأَمْلَاكِنَا، فَلَنَا حَقُّ فِي اغْتَصَابِ جُلُّ الْعَالَمِ لِأَجْلِ الْهَنْدِ، خَصْوَصًا الْقَطَرِ الْمَصْرِيِّ، فَإِنْ بِهِ السَّبِيلُ الَّتِي لَا يَمْأَلُهَا سَبِيلٌ، وَلَيْسَ لَنَا عَنْهَا غَنِّيٌّ، وَكَنَا فِي تَطْلُعٍ إِلَيْهَا مِنْ زَمَانٍ قَدِيمٍ وَكَثِيرًا مَا تَمْسَكْنَا بِحِبَالِ مِنَ الْوَسَائِلِ إِلَيْهَا فَرَرَّتْ فِي أَيَادِيْنَا بِقُوَّةٍ حُكَّامُ تَلْكَ الْبَلَادِ، حَتَّى هِيَاتُ لَنَا حَوَادِثُ السَّنِينِ الْأُخْرِيَّةِ مَا أَحْلَنَا دَارِهِمٍ وَأَقْرَنَا فِي قَرَارِهِمْ.

إِنَّا ذَهَبَنَا لِتَقْرِيرِ تَوْفِيقِ باشا وَتَبَثِيبِهِ عَلَى كَرْسِيِّ الْخَدِيُوْيَّةِ الْمَصْرِيَّةِ، إِلَّا أَنَّهُ بِقتَالِ وِنْزَالِ، فَلَا تَخْتَلِفُ صُورَتُهُ عَنْ صُورَةِ الْفَتْحِ، فَلَنَا حَقُّ التَّمْلُكِ فِي تَلْكَ الْأَقْطَارِ، وَقَدْ فَهِمَ النَّاسُ أَنَّ مَسِيرَنَا إِلَى مَصْرَ كَانَ لِغَايَةِ إِقْرَارِ الْرَّاحَةِ وَإِزَالَةِ الْاِخْتِلَافِ، وَكَانَنَا صَرَّحَنَا بِذَلِكَ عَنْدَ عَزْمِنَا عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ الْغَرْضَ الْحَقِيقِيَّ إِنَّمَا هُوَ تَأْمِينُ طَرِيقِ الْهَنْدِ. فَتَسْنِي لَنَا مَا قَصَدْنَا بِحَلْوِ عَسَكِرَنَا فِي وَادِيِ النَّيلِ، فَبَثَثْنَا فِيْمَا أَصْبَنَا وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَرَكَهُ بَعْدَ الْوَصْولِ.

وَحِيثُ إِنَّا عَقَدْنَا العَزْمَ عَلَى الْبَقَاءِ فِي مَصْرٍ وَأَضْرَبْنَا عَنْ إِخْلَائِهَا، لِزَمْنَا ضَمَانَةِ الْدِيُونِ الْمَصْرِيَّةِ وَحَمْلَهَا ثَقِيلٌ عَلَى كَوَاهِلَنَا، فَعَلَى جَمِيعِ الدُّولِ أَنْ تَمْدُنَا بِالْمَسَاعِدَةِ وَتَكُونَ لَنَا عَوْنَانَا عَلَى تَنْقِيْصِ الْفَوَائِدِ، وَلَا نُحْبِّ أَنْ تَكُونَ مَذَاكِرَاتِهَا مَعْنَا إِلَّا فِي الْمَالِيَّةِ خَاصَّةٍ؛ فَإِنَّا لَا نَرْجُو مِنْ مَفَاوِضَاتِهَا فَائِدَةً، أَمَّا سَائِرُ الشَّئُونِ فَعَلَيْنَا تَدْبِيرُهَا وَإِلَيْنَا مَصِيرُهَا.

هَذِهِ أَقْوَالٌ تَصْدُرُ عَنْ آمَالٍ يَمْدُونُ أَسْبَابَهَا إِلَى بَرْلِينِ، وَيَرْجُونَ أَنْ تَكُونَ مَوَاصِلُهَا وَمَعَاكِدُهَا فِي تَلْكَ الْمَدِينَةِ عَاصِمَةِ الْأَلَانِ.

أَمَا الْبِرْنَسُ بِسْمَارَكُ وَهُوَ مَدِيرُ السِّيَاسَةِ فِي أُورُوْبَا وَبِيَدِهِ زَمَانُهَا، فَيَرِي أَنَّ هَذِهِ فَرَصَّةٌ يَنْتَهِيَّهَا؛ لِيَسْتَفِدُ صَدِيقًا وَيَنْكِي عَدُوًا، وَلَيَسْتَ لَهُ عَلَائِقٌ سِيَاسِيَّةٌ تَحْمِلُهُ عَلَى

المدافعة عن مصر، ولا منافسة له مع الإنجليز تبعثره على معاكستهم، بل له إليهم حاجة في ضمهم إليه وابعادهم عن فرنسا لتكون منفردة بين الدول لا حليف لها، وقد تكون له من صلة الإنجليز ماربٌ أخرى سوى قطع فرنسا من الحلفاء ينالها يوم الحاجة إليها وما هو عنه بعيد.

فماذا يضره إذا ادخر عوناً وأساء عدواً والنفقة على خزينة غيره؟ نعم، ربما يظن أن بسمارك يمنعه عن مثل هذه المعاملة رعاية بجانب حلفائه من النمسا وإيطاليا لما لهم من المصالح في البحر الأبيض، ويصعب عليه أنْ يُصيّب بسياسته الجمعَ بين مراضاة إنجلترا لنيل مصالفاتها وبين التمسُّك بعهوده مع ذوي حلفه، إلا أنه قد يسهل عليه التخلُّص من هذا المضيق بالإشارة إلى طرابلس الغرب وبلاد الأرناؤوط والإيماء إلى الأرضي البلقانية وسالونيك و يجعلوها لأنظار معاهديه، فيسكن جأشهم ويطمئن خاطرهم فيستثبت بذلك موالة الدولتين، ويقلّم أظافر روسيا من أوروبا الشرقية، ويضيّع مصالح فرنسا في بلاد المشرق عموماً ومصر خصوصاً، وفي كل ذلك الربح له، والخسارة على غيره، وليسَت هذه أول فعلة فعلها بسمارك أو يفعلها فهي شرعته التي يرد إليها ويصدر عنها من يوم معاهدة برلين إلى هذا الوقت.

وفرنسا واقعةٌ بين مُراوغات الإنجليز ومكائد بسمارك، لها حقوقٌ سابقةٌ في البلاد المصرية كاد يُمحى أثرُها بداخلة الإنجليز، وبها حاجةٌ شديدة لُعلُّ الكلمة في طريق منشاتها ببلاد الصين والبحر الهندي ومدغشقر؛ لهذا تبذل الجهود لإجلاء العساكر الإنجليزية عن مصر وتخفيض سلطة الإنجليز فيها، ويوجد لها عونٌ من دولة روسيا، ولها من المتعة ما لو أيدتهُ أفكار المصريين وآراء ذوي العزيمة من رجالهم وميل أولئك لهم؛ لِمَكَّنَهَا من تخلص مصر وانتزاعها من أيدي الإنجليز، سعيًا في حفظ مصالحها ووقاية حقوقها، وهذا مما يؤيد سياسة الدولة العثمانية ويشد عضدها في مدافعة الإنجليز ومطاردتهم من بلادها.

للدولة العثمانية أن تُظهر عزماً في هذه الأوقات ل تستنفد مماليكها من طمع الطامعين وتعيد ولايتها على الأقطار المصرية خالصة لها من سلطة العتدين، وإن جميع المسلمين ينتظرون منها الحدق في هذه المسألة، ولهم فيها الأمل القويُّ والثقةُ الكاملةُ، ورجاؤهم أن لا تفوّتهم هذه الفرصةُ بدون أن ينالوا بها حظًّا من الغنيمة. وليس على الدولة مِنْ بأس إذا طالبت الإنجليز برد حقوقها كافة؛ فإنهم بالنسبة إليها أضعفُ من أن يجاهروها بالعدوان، وإنما نكر ما قلناه سابقًا من أن الإنجليز

يستحيل عليهم أن يُعلنوا على الدولة العثمانية حرباً، خصوصاً في هذه الأوقات التي أصبحت فيها دولة روسيا متأخمةً لملكة الأفغان، فإن أول إشاعة لهذه الحرب تُؤخذ لهيب الثورة في عموم المالك الهندية، وهذا جَلٌّ عند كل إنجليزي، أن التغافل والوهن ربما يوسعان مجال الطمع فيفتح باب المسألة الشرقية أو يكون لها استعدادٌ قريب.

وليس للمصريين في طورهم هذا أن يرکنوا إلى مَنْ ليس من أبناء جَلدتهم؛ فإن الثغرة التي تحمل على الحمية تكاد أن تكون منحصرة بِحُكْمِ الطبيعة في أبناء الوطن فلا تُرجى من غيرهم، فعَلَى العقلاةِ مِنْ أهالي مصر أن يُسَارِعوا إلى معاضدة الدولة العثمانية والاتحاد معها على تخلص بلادهم، مستعينين بأفكار الدولة التي تقضي عليها مصالحها بالسعي في إنقاذهما وإعادة شأنها الأول، وتحقيق ما يُقال من أن مصر للمصريين.

وبالجملة فاللطماع فغرت أفواهها، والأفكار في اضطراب شديد، وظنون الناس شتى، فمن قائل: إن المؤتمر لا ينعقد لتعسر الاتفاق بين فرنسا وإنجلترا على القواعد الأساسية للمداولة فيه، ومن قائل: إنه ينعقد على أن يضع مصر تحت حماية عُمُوم الدول ويقرر إنشاء مراقبة دولية مع بقاء العساكر الإنجليزية مدة سنتين.

وعلى أي حال فالر梓ية إنما تصيب الغافل، والسوء إنما يحيق بالمتسلل، والجبان محروم من حقوقه، والعامل بيد غيره خاسر، فعَلَى المصريين والدولة العثمانية أن يُظهروا الشهامة والإقدام، ويرفعوا علم الهمة؛ إبقاءً لحياتهم، وصوناً لشرفهم، والأمر للله يفعل ما يشاء.

الفصل الحادي والستون

منشورٌ إنجليزيٌ قديم

نشرت حكومة إنجلترا في الهند منشوراً منذ مائة وثمانين سنة وهذه ترجمته:
«إذا وجدت في دوائر الحكومة وظيفة لا يقوم بها إنجليزي (أي لا تليق أن تكون بيد أحد من الجنس الشريف)، وجب أن يعين فيها أحد الفارسيين الباقيين على دين زرادشت (المجوس)، فإن لم يكن منهم مقدر على القيام بها، أقيم فيها وثن (عبد صنم)، فإن لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء من يؤدي عملها كُلُّف بها مسلم؛ فليس المسلمين في الهند حظٌ من وظائف الحكومة إلا ما يعافه المجوسي والوثني.
وهذا هو عنوان محبة الإنجليز، وهو برهان دعواهم أنهم أولياء المسلمين وأنصارهم، لا أكثر الله من أمثال هؤلاء الأولياء والأنصار!»

الفصل الثاني والستون

إنَّ في ذلك لَعْبَةً لأُولى الأَبْصَارِ

كيف يمكن لقوة أجنبية تصول على أمة من الأمم أن تسود عليها وتستعبدها وتذلّلها للعمل في منافعها مع التحالف في الطياع والعوائد والأفكار، ووجود المقاومة الطبيعية، فضلاً عن الإرادية؟ إنَّ الوحشة المتمكّنة في نفس كل واحد من الأمة، وظن كل فرد أنَّه في خطر على روحه وماليه إذا غلبه الغالبون؛ تحمله على المدافعة كما يُدافع عن بيته وحريمه، فلا يتُسنى للقوة المُغيرة أن تذلّ الأمة إلا بإفنائِها عن آخرها، أو إفناء الأغلب حتى لا يبقى إلا العَجَزَةُ والزَّمْنِيَّ.^١

هذا أمرٌ طبيعيٌّ وحكم بدائيٌّ متى كانت الخارجة على الأمة، نعم يسهل للقوة الأجنبية أن تتغلب على أُمَّةٍ عظيمة بدون تناحر إن كان لهذه الأمة حاكمٌ أو رئيس روحيٌّ تجتمع عليه قلوبُها، وتدين له رقابها، لمنزلة له في أفئدَةِ أبنائِها، ولِمَكَانِ آبائِه من الكرامة في نفوسِهم، فلا تحتاج القوَّةُ الغالبةُ إِلَّا لِيُقْعَدُ الرُّعْبُ في قلبه، فيُجْنَبُ وَيُقْبَلُ مَا تَحْكُمُ بِهِ، أو نصب حبالة الحيل له فتخدعه بالأمانِي والأَمَالِ، فَيُذْعَنُ لِمَا تَقْضِيُّ بِهِ، فَإِذَا خَضَعَ للقوَّةِ الغَرِيبَةِ خَضَعَتِ الأُمَّةُ تَبَعًا لَهُ.

^١ شخصُ أَزْمَنْ، أي: أَتَى عليه الزمان.

ولهذا ترى طلاب الفتح وبُغاة الغلب ينصبون قبل سوق الجيوش وق沃اد الجنود على قلوب الأماء وأرباب السيادة في الأمة التي يريدون التغلب عليها فيخلعنها بالتهديد والتخويف، أو يملكونها بالخدعة وتزيين الأماني، فينالون بغيتهم ويأخذون أراضي الأمة. وهذا الطُّرِيق هو الذي سلكه الإنجليز مع السلطان التيموري في الهند، ولو لا ما كان للهنديين من عُقدة الارتباط بسلطانهم التيموري، وقبض الإنجليز أول الأمر على تلك العقدة؛ لما تيسر للبريطانيين أن يخضعوا الأمم الهندية في أحقاب طويلة.

هذه قبائل الأفغان عندما انحلت ثقُتها بأميرها، وصار الأمر إلى الأمة، قام كل عشيرة، بل كلُّ فرد للدفاع عن نفسه، بعدها تمكنت عساكر الإنجليز في قلاعهم وحصونهم، واستولت على قاعدة مُلِكِهم، وفتوا بالعساكر الإنجليزية وهزموا قواتها وأجلوها عن بلادهم، وهي ستون ألفاً من الجيوش المنتظمة، المسلحة بأحدث الأسلحة، وأضطر الإنجليز أن يتركوا تلك البلاد لأهلها.

لا ريب أنه يسهل على الإنسان أن يأخذ شخصاً واحداً وأشخاصاً محصورين بالترغيب والتهديد، ويتيسر له أن يقف على طباعهم، ويدخل عليهم من موقع أهوائهم، ويأتِيهم من أبواب رغائبِهم، لكن يتعرّض بل يتعرّض عليه أن يأخذ أمة بتمامها، وعقولها مختلَفةٌ عليه ونفوسها في وحشة منه، إلا بالإبادة والتدمير.

من هذا نجد الملوك العظام لا يرهبون الاشتباك في حرب مع أمثالهم بل ومنْ هو أشدُّ منهم قوة، ولكنهم يفرّقون، بل تذهب أفئدتهم هواءً، إذا أحسوا بميل الأمة عنهم، وما هذا إلا لأن قوة المغالبين داخلة تحت الضبط، وأما آحاد الأمم وقوتها فلا تُضبط ولا يمكن مقاومتها إذا تغاضت وشحت بنفسها عن الذل لسوها.

إن الأماء كما يكُونون في دور من أدوار الأمة قوى فَعَالَة لنموها وعلوها وعظمتها واستداد عضدها، كذلك يكُونون في بعض أطوارها علَّة فاعلة في سُقوطها وهبوطها وانحلالها، وإننا نخاف - ولا حول ولا قوة إلا بالله - أن يكون أمراؤنا والأعلون منا آللَّا لاضمحلالنا وفنائنا؛ لما غلب عليهم من الترف والانهمام في اللذائذ، والانكباب على الشهوات، مع سقوط الهمَّة، وتغلُّب الجبن، والحرص والطمع على طباعهم - إن الله وإنما إليه راجعون.

الفصل الثالث والستون

هجوم على السودان عبر النيل!

جاء من لندن لإحدى وكالات الأنباء ما ملخصه: لا يظن أحد من الناس هنا (في لندن) أن الجيوش التي عزمت حكومة إنجلترا على سوقها إلى السودان يقصد منها إنقاذ جوردون؛ فإن جوردون معزز ب الرجال من الوطنيين (المصريين أو السودانيين) أولي عزم وقوة، ولهم سطوة تدفع بأس الذين يبغون به الشر، وإذا مسست الحاجة إلى تخلية عن عمله وتركه لمركزه فلا يعدمون وسيلة لخلاصه.

أما القصد الحقيقي من بعث الجنود إلى السودان فإنما هو افتتاحه تحت العلم الإنجليزي، وهو وإن كان يحتاج إلى زمن طويل إلا أنه قليل الخطر، ولا توجد في سبيله عقبات سياسية؛ حيث تنازلت الحكومة المصرية عن سياستها في تلك الأقطار.

يسهل على العساكر الإنجليزية أن تسير إلى الخرطوم على طريق النيل وإن سلكت سبيلاً من الأرض اليابسة فلا تبعد عن شواطئ النهر؛ لتكون تحت حماية المراكب وترافقها في السير مراكب تعد لقطع النيل والصعود إلى الشلالات، فإذا وصلت العساكر والأساطيل النيلية إلى الخرطوم واستولت عليها اعتصمت فيها حكومة عسكرية تمد نفوذها إلى قلب السودان، ويكون في هذا عوض للإنجليز مما يخسرون في مصر لو أزمهم المؤتمر بالتنازل عن شيء مما يطمحون إليه فيها.

وقالت جريدة «الريبيوليكي فرانسيز»: إننا نذكر هذه الرسالة على أنها شبه حجة على مقاصد الإنجليز، وإلا فإننا نعد ما تحتويه من قبيل الأوهام والخيالات. ا.هـ.

أما نحن فنقول: مَنْ أَمَنَ النَّظَرَ فِي أَعْمَالِ الإِنْجِلِيزِ وَتَبَّعَ سِيرَهُمْ فِي افْتَاحِ الْمَالَكِ الْشَّرِقِيَّةِ، عَلِمَ صَحَّةَ مَا رَوْتُهُ وَكَالَّهُ الْأَبْيَاءُ؛ فَإِنَّهُ مُنْطَبِّقٌ عَلَى قَوَاعِدِ السِّيَاسَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ وَآتَى عَلَى أَسَاسِهَا الَّذِي بَنُوا عَلَيْهِ فُتُّوْحَهُمْ مِنْ أَزْمَانِ طُوْلِيَّةٍ، وَهُوَ أَصْلُ تَعَارِفِهِ الإِنْجِلِيزِ حَتَّى صَارَ كَخَاصِيَّةٍ لَازِمَةً لِطَبَاعِهِمْ، تَرَدَ إِلَيْهِ جَمِيعُ أَعْمَالِهِمْ مِنْ حِيثِ يَشْعُرُونَ وَلَا يَشْعُرُونَ، وَعَلَيْهِ كَانَ بَنَاءُ مَلْكُومَهُ فِي الْهَنْدِ.

إِنَّ الإِنْجِلِيزَ أَوْلُ مَا خَطَّوَا خَطْوَةً فِي الْهَنْدِ وَجَدُوا مُمْلَكَةً «أُود» مِنَ الْمَالِكِ الْوَاسِعَةِ وَأَغْلَبُ أَهْالِيَّهَا عَلَى مِذَهَبِ الشِّيَعَةِ وَلَهَا نَوَابٌ (حَاكِم) عَظِيمٌ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمِذَهَبِ، فَرَأُوا أَنَّ يَحْمِلُوهُ عَلَى الْاسْتِقْلَالِ وَزَيَّنُوا لَهُ الْطَّمْعَ فِي لَقْبِ شَاهِ لِيْنِفَصْلِ عَنِ الْمَلِكِ التِّيمُورِيِّ. وَفِي التَّنَازُعِ لِنَيلِ هَذَا الْمَطْعَمِ يَصِيبُ كَلَّا مِنَ الْطَّامِعِ وَصَاحِبِ الْمَلِكِ سَهْمَ مِنَ الْضَّعْفِ وَالْوَهْنِ، فَيَتَهِيَّأُ كُلُّ مِنْهُمَا لِلوقوعِ فِي مَخَالِبِ الإِنْجِلِيزِ، وَقَدْ حَصَّلَ.

وَأَوْلُ مَا حَلَّا مِصْرَ وَلَحْوا شَرَارَةُ فِي السُّودَانَ، أَدْنَوْا مِنْهَا وَقُودُهَا لِتَكُونَ نَازِّاً مَهْلَكَةً، فَبَعْدَمَا طَرَدُوا الْجَيُوشَ الْمَصْرِيَّةَ إِيْذَانًا بِالْغَضْبِ عَلَيْهِمْ، جَمَعُوهُمْ لِيَسْوُقُوهُمْ إِلَى السُّودَانَ تَحْتَ قِيَادَةِ أَعْدَاءِهِمْ مِنَ الإِنْجِلِيزِ، فَذَهَبُوا وَهُوَ مُوقَنُونَ أَنَّهُمْ يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ لِيَذْوَقُوا وَبَالِ الْإِنْتَقَامِ، فَقَلُوبُهُمْ مُنْكَسَرَةٌ وَعَزَّائِمُهُمْ وَاهْنَةٌ وَعَقَائِدُهُمْ لَا تَسْمَحُ لَهُمْ بِالْإِنْتِيَادِ لِرَؤْسَائِهِمُ الْأَجَانِبِ.

وَأَحَسَّ السُّودَانِيُّونَ وَهُمْ مُسْلِمُونَ أَنَّ قُوَّادَ الْغَارَةِ عَلَيْهِمْ لَيْسُوا عَلَى شَاكِلَتِهِمْ، فَزَادُهُمْ حَمِيَّةً وَإِقْدَامًا، فَكَانَ هَذَا وَذَاكَ سَبِّبًا فِي اسْتِفْحَالِ أَمْرِ السُّودَانِ بَعْدَمَا هَلَكَتْ رِجَالٌ وَأَنْفَقَتْ أَمْوَالٌ وَسَاعَاتٌ أَحْوَالٌ مِنَ السُّودَانِيِّينَ وَالْمَصْرِيِّينَ، كُلُّ هَذَا لِيَتَوَسَّلَ بِهِ الإِنْجِلِيزُ لِفَصْلِ السُّودَانَ عَنِ مِصْرَ بَعْدِ خَرَابِ الدَّارِينِ، وَكَانُوهُمْ عِنْدَمَا أُرْسَلُوا جَوَرِدُونَ بَاشَا وَأَدْنَوْهُ أَنْ يَمْنَحْ مُحَمَّدَ أَحْمَدَ لَقْبَ أَمِيرِ كُورْدَفَانَ قَصْدَوْا أَنْ يَتَمَمُّوا عَمَلَهُمْ، وَلَكِنْ لَمْ يَنْجُوْهُ.

وَعِنْدَمَا كَانَتِ الْحَرْبُ قَائِمَةً بَيْنَ دُوَسْتِ مُحَمَّدِ خَانِ أَمِيرِ أَفْغَانِسْتَانِ وَبَيْنَ «رَانِجِيبِ سَنَكَ» الْبَنْجَابِيِّ تَخَوَّفَ الإِنْجِلِيزُ مِنْ تَسْلُطِ الْأَفْغَانِيِّينَ عَلَى بَنْجَاب، فَتَدَخَّلُوا فِي الْصَّلْحِ وَسَحَرُوا قُلُوبَ الْأَفْغَانِيِّينَ بَلِينَ الْقَوْلِ وَلَطْفِ الْوَعْدِ حَتَّى أَرْضُوهُمْ بِتَرْكِ مَدِينَةِ بِيشَاوِرِ وَمَا يَلِيهَا لِرَانِجِيبِ سَنَكَ، وَانْعَدَدَ الْصَّلْحُ عَلَى هَذَا وَأَجْلِيِ الْأَفْغَانِيِّينَ مِنْ مَلِكَةِ بَنْجَابِ وَرَجَعُوا إِلَى بَلَادِهِمْ، وَبَعْدِ عَشَرِ سَنِينَ مِنْ تَارِيَخِ الْصَّلْحِ زَحْفَ الإِنْجِلِيزِ إِلَى بَنْجَابِ وَافْتَحُوهَا لِأَنْفُسِهِمْ وَاسْتَولُوا عَلَى مَدِينَةِ بِيشَاوِرِ، فَقَالَ بَعْضُ أَمْرَاءِ الْأَفْغَانِ: إِنَّ ذَاكَ الْصَّلْحَ كَانَ مَقْدِمَةً لِهَذَا الْفَتْحِ، وَإِنَّ الإِنْجِلِيزَ فِي تَعْيِينِهِمْ لِلْحَدُودِ إِنَّمَا كَانُوا يَحْدُدُونَ بَلَادِهِمْ، وَلَكِنْ كَانَ عَنْهُ غَافِلِينَ.

ومن نحو سنة ونصف أوما اللورد دوفرين في تقرير كتبه بالقاهرة، إلى أنه لا حاجة بالحكومة المصرية إلى السودان بل لا فائدة لها فيه، وفهم الغرض في ذلك الوقت من أصابه، وغفل عنه قوم آخرون اغتراراً بظواهر العبارات، ثم لم يلبث الإيماء أن صار تصريحاً رسمياً وإلزاماً للحكومة المصرية أن تتخلى عن السودان، فلم يكن التلميح والتصريح، ثم الإلحاح والإلزام إلا ليهياً البلاد السودانية للدخول تحت سلطتهم في وقت من الأوقات لسبب من الأسباب التي لا يعجزون في اختراعها متى شاءوا! هذا سير يعرفه من قرأ صفة من تاريخ الإنجليز في المالك الشرقي.

تريد حكومة إنجلترا إذا عارضتها الدول في السيادة على مصر أن تنشئ لها سلطة في الخرطوم يمتد حكمها إلى جميع أراضي السودان، وعساكرها الآن حالة في سواكن، وما أسرع أن تصل بين المدينتين بالسكة الحديد ف تكون القوة الإنجليزية بعد هذا محطة بمصر من جميع الجوانب.

وقفت على بابها من طرف الشمال في قبرص، وطوقت حدودها من الغرب إلى الشرق في السودان، وتحكمت في منابع النيل وتصرفت في أعلى، وأخذت كل طريق يمكن منه الاستيلاء على الديار المصرية. وهناك يرصد الإنجليز حركات الدول في أوروبا، فكلما أضاءت لهم بارقة فرصة مروا فيها، وإذا أظلمت عليهم قاماً فيتقدمن إلى مصر خطوة بعد خطوة ولا يُبالون، طال الزمان أو قصر، فإنهم يعرفونها لهم على أي حال، ولكنهم يتقوّن معارضته الدول في هذه الأوقات.

هذه غايات سير الإنجليز في الحوادث المصرية، وهي كما قالت «الريبوبليك فرانسيز» خيالات وأوهام إذا اشتدت الدولة العثمانية ورجال مصر في المطالبة بحقوقهم الشرعية والمحافظة على شؤونهم، وأخذوا بالحزم وعقدوا العزم على مقاومة سعي الإنجليز في أوطنهم وديارهم، بعدهما ظهر لهم ماذا يقصدون بهم، فإن تهاونت الدولة العثمانية أو تغافل المصريون حسبها الإنجليز طريقاً مطروقةً وسبيلًا مسلوكةً، وعدوا مطامحهم حقائق ثابتة ومطالب مقررة — لا نجح سعيهم، ولا صدق ظنهم.

الفصل الرابع والستون

السودان ومصر

نشرت جريدة البوسفور إجيبيسيان، التي تطبع في القاهرة، خبراً، مصدره توفيق باشا نفسه، وهو أن الجنرال جوردون أتذر حكومته الإنجليزية بأنها إن لم تمده بجيش ينقذه من الضيق الملم به فإنه يرفض الدين المسيحي ويدخل في دين الإسلام! وضمنت جريدة البوسفور صحة هذا الخبر العجيب (كذا وصفته الجريدة بالعجب).

وغرابة الخبر إن كانت من جهة أنه تهديد بما لا يهم الحكومة، فنحن نعلم أن الإنجليز يُفزعهم خروج أحد منهم عن دينهم، وإن كانوا يُرشدون الناس إلى ترك الدين ويعيّبون على المستمسكين به، لكنهم أشد الناس تعصباً فيه فلا محل للغرابة. وإن كانت من جهة أن جوردون، وهو من أشد قومه تمسكاً بدينه، كيف يجذب للإسلام، فهو إنجليزي الطبيعة كما هو إنجليزي الجنس يتلون ظاهره بأي لون ويبذر في أي ثوب لإصابة غرضه مع المحافظة على ما طبع الله على قلبه، فلا عجب إن قال وفعل!

في خبر أن محمد أحمد طلب إلى أعيانه المحاصرين للخرطوم أن يأتوا إليه بجوردون حياً، ولا يمسوه بسوء إذا وقع في أيديهم.

وفي برقية من أسيوط إلى جريدة التايمز أن مركباً من مراكب البريد وصلت إليه تحمل ثلاثة أشخاص مرسلين من طرف زبير باشا لاستكشاف حالة جوردون، وتوجهت في الحال بمن فيها إلى أسوان.

هكذا الدَّهْر أبو العجب؛ من سنين قليلة فتك جوردون بأولاد الزبير وذوي قرابته وأفسد عليه شئونه وأخرجه عن جميع أمواله، واليوم رأينا كدر الضغينة في صفاء المحبة يبعث الزبير على الرأفة بجوردون وتوجيهه الرسل للسؤال عن صحته والاستخار عن سلامة حاله.

جاء الخبر أنَّ أهالي جرجا (مدينة من مدن الصعيد مرکز مديرية في جنوب أسيوط) في هياج شديد يشبه أن يكون ثورة، وورد إلى تلك المدينة رجلٌ من أشياع محمد أحمد قادمًا من القاهرة ودعا الأهالي للأخذ بطريقته، فإذا بينهم جمْعٌ غير يجيب داعيه وينهُب مذهبة، وهو مما يدل على أنَّ القائم السوداني مهمٌّ بنشر دعوته محاط لنفسه حاذق في عمله، وله دُعاة في أرجاء الديار المصرية حتى في عاصمتها «القاهرة».

فإن ثبت في هذا السير حل بالحكومة المصرية منه ما كنا نخشى أن يقع بها ويشتد الخطب، ولربما صار له بقعة ميل الأهالي إليه منعَّةٌ يصعب على حكومة غير إسلامية أن تقارعها.

أما ما ذيل به خبر الهياج في جرجا من وجود عداوة بين المسلمين من أهاليها والمسيحيين فهو ما لا نصدقه ولا ينطبق على الواقع؛ لأنَّ الأيام السابقة شاهدةٌ على حفظ كلٌّ من الفريقين زمام الآخر في جميع الأحوال التي عرضت على بلاد مصر، المسلمين والمسيحيون فيها على وفاق تام في جميع نواحيها، والمقاتل التي وقعت أيام الحرب الماضية إنما كان منشؤها إفساد المفسدين، على أنه لم يُمس فيها قبطي بسوء، والأخبار الصحيحة تؤيد ما نقول.^١

وأرسلت الحكومة المصرية الآلائي السابع من المشاة إلى أسوان مع جملة من المدافع الجبلية وعدد وافر من الجمال.

وفي برقيةٍ من سواكن إلى جريدة الديلي تلغراف أنَّ مناورات وقعت من أتباع محمد أحمد بالقرب من سواكن، وفي جريدة التاييس أنَّ الثائرين أطلقوا مدافعهم على تلك المدينة في الساعة الثانية صباحًا من الثامن والعشرين من شهر مايو، إلا أنه لم يُصب أحدٌ من الحرس وتقهقر المهاجمون بسرعة.

^١ شكرًا لله، فما من زعيم أو مصلح شهدته أرضُ الكناة إلا وقد كانت رابطة محبة الأديان رائده، فالتعصب سلطان يفتَّ بآبناء الوطن الواحد ويُشَل نشاطُ أبنائه ... فتتفتح ثغور ... تتسلل منها نفوس عفنة تهدم في الظلام ما تبنيه الأمة في أجيال، وقد حذر الأفغاني مسلمي مصر ومسيحييها من شر هذه الفتنة وهو في باريس، فِيَعْنَم الرجال وَيَنْعَمُ الأخلاق.

عثمان دجمة — مع ألف من رجاله — نازلون على القرب من طمانيب ومعظم قوته حالة بتلك البلدة، ويقال: إن بنفوس عساكره كدرًا من قلة الأزواد^٢ وهو من أخبار العدو يسمع وقد لا يصدق.

وإن الأميرال هفت المبعوث من طرف إنجلترا لخديةة الملك يوحنا ملك الحبشة لم يحظ عند الملك بقبول.

أراد رجال الإنجلiz أن يخففوا على القلوب المنخلعة من أبناء أمتهم أهواه السودان وما يتوقعونه من مصائبها، فأشاعوا ظهور شخص يدعى المهدوية في دارفور، ويقول: إن محمد أحمد ليس إلا تلميذًا له من قدماء تلامذته، وكان الإنجلiz يستبشرون بتفرق كلمة السودانيين كما يسرّهم تخالف المسلمين أجمعين.

^٢ يقصد عدم زيادة المرتبات.

الفصل الخامس والستون

فرية دنيئة على الإسلام

في برقية وردت لجريدة الديلي تلغراف من القاهرة في ٢٧ مايو ١٨٨٤ أن زبير باشا طلب إلى سراي توفيق باشا، بناء على إشارة الحكومة الإنجليزية، والتمس منه المستر أجرتون أن يجد وسليمة لإرسال مندوب إلى جوردون باشا يأمره بالعوده حالاً، واتباعاً لأمر توفيق باشا بعث الزبير بأحد خدمه لأداء هذا العمل وكان فرصة انتهزتها حكومة فرنسا لاستدعاء قنصلها في الخرطوم، وقد ضمن الزبير وصول المندوب وعودته بالجواب في خمسين يوماً. ا.هـ.

إن صح هذا دلنا على أن جوردون ليس معززاً ب الرجال أولي بأس وشدة كما جاء في البرقيات، وأن الإنجليز عجزوا عن إنقاذه بقوة حربية، وإن كانوا ربما يقصدون الحرب لغاية أخرى.

ونقلت الجرائد الأوروبية ما يعجب من نسبته لزبير باشا، ذلك أنه أشخاص ثلاثة من أولاده إلى رؤساء التّائرين ومع كل واحد منهم كتاب إليهم وهذا مفاده نذكره ترجمةً من تلك الجرائد بلا تصرف في عباراته:

شكراً للخديو ولدولة بريطانيا العظمى وللجنرال جوردون. كل أملائنا التي انتزعت منا سردي إلينا، يا أحبابي ويا أهل وطني إني أبعث إليكم أولادي الثلاثة مصحوبين برقيم إلى الجنرال جوردون، فدعوهם يصلون إليه وسهلوا سبلهم، وأقسم عليكم باسم النبي وأسماء أجدادي الذي أكرموا الأسراء أن ترافقوا جوردون إلى كورسوك وأن تعاونوه حتى يعلو متن النيل. كل معاملة تسيء الجنرال فهي تكسر خاطري إلى الأبد، وأنا وعيالي

هنا رهن إلى أن يعود الجنرال جوردون، فإن عاد صحيحاً سالماً فمحمد يحفظكم أبداً
الآبدية. أهـ!

وأنا أتبرأ ما في هذا الرقيم^١ ونسبته لزبير باشا، فإننا نعرف الرجل مسلماً فقيهاً
في دينه عالماً بفروعه، وهو من سلالة العباس عم النبي ﷺ، وفي نفسه حزازات مما
نكا به الجنرال جوردون عندما كان حكمدار السودان، وليس من أحد يحفظ تاريخ
جوردون ويُحصي سيئاته كزبير باشا، علمنا ذلك منه وهو يتنفس الصعداء من ذكرى
مصادبه أيام كنا في مصر.

فكيف يمتحن الإنجليز ويشكرهم وكيف يقوم بعمل يعود بالمنفعة عليهم اغتراراً
بما وعده من رد أملاكه إليه وهو يعلم أن كل ما يفدهم لا يزيد قدمهم إلا رسوخاً في
أوطانه، ومن لاحظ أسلوب الرقيم تبين له أنه ليس بأسلوب عربي، خصوصاً ما جاء في
خاتمه من الدعاء، فإنه لم يعرف في عبارات المسلمين ما يشابهه، فمحمد لا يحفظ أحداً
بل الله على كل شيء حفيظ، فلا يبعد أن عدو الزبير أراد أن يشوه سيرته فرماه بهذه
النسبة أو أن يكون الرقيم من مخترعات بعض الجرائد الأوروبية للتلميح!

^١ الرقيم: الخطاب.

الفصل السادس والستون

صراع بشأن تثبيت الاحتلال!

وجاء في برقية من برلين إلى جريدة «جازيت دوكولوني»: ثبت أن من عزم دولتي فرنسا وإنجلترا أن تتفقا قبل انعقاد المؤتمر على موضوع البحث فيه، كما اتفقت دولتا روسيا وإنجلترا على مدار النظر في مؤتمر برلين قبل انعقاده بواسطة اللورد سالسبوري والكونت شوفالوف، كلُّ من الدولتين المقاوضتين تم نظرها إلى ما عسى أن تؤول إليه مداولات المؤتمر وتحده وتقدره (ثم تدخل فيه على أن تكون الغاية ما قدرت).

ربما حلت الدعوة إلى المؤتمر محل القبول عند بعض الدول إلا أن رباء الباب العالي شرط في قبول حُكمه والتسليم لقضائه، ولو أن دولتي النمسا وألمانيا أو الدول جميعها قضت بأن يكون من قواعده الأساسية إجابة جميع الدول التي دعيت إليه مؤقتاً لم يكن قاضياً بوجوب الإذعان لما يبرمه، وهذا هو شأن المؤتمر بالنسبة إلى الباب العالي على أية حال.

وقالت جريدة التايمز: تيسر لوزارة إنجلترا أن تتغلب على مجلس النواب، لكن ليس لها أن تعتمد على هذا الظرف البهين وعليها أن تستفيد في مدة البطالة لعيد العنصرة فتتجو بما تستفيده من الخطر العظيم الذي ربما يحيق بها من المفاوضات الجارية بينها وبين وزارة فرنسا، وتساهمت الوزارة في عقد عهدة تحالف مصالحنا مع شركة قناة السويس ثم نجحت في التملص من قيودها ومزقت المعاهدة وتركت مسيو ديلسبس على أرض قفراء.

وليس بالسَّهُل عليها أن تسلك اليوم ما سلكْتُ في تلك الأوقات، فلو رفض البرلمان ما انتهت إليه المفاوضاتُ في المسألة المصرية لَمَا أمكن للوزارة أن تبقى في مساندتها، وإذا تعذر الوصول من هذه المفاوضات إلى غاية صالحة أُمِكِن الوزارة أن تتنحى عن العمل. أما فرنسا وسائر الدول فليس لها أن تطالب مجلس العموم في إنجلترا بمنحة شَحَّتْ بها نفوسُ أهالي بريطانيا كافة ورفض السماح بها عموم الآراء في بلاد الإنجليز (يريد بالمنحة ما تفضل به وزراء إنجلترا على الدول من دعوتها للمباحثات في أحوال مصر).

الفصل السابع والستون

الثبات الثبات

حملت قوة التأرين على مدينة ببر بفتحها بعدها فتكت بجميع حاميتها ولم يبق موضع للريب في استيلاء أعون محمد أحمد على تلك المدينة، وبعد تمكنهم فيها زحف منهم ثلاثة ألفاً لهاجمة دنقا، وفي برقية من كورسوكو إلى التايميس بتاريخ ١٣ يونيو أن محمد أحمد يزحف بنفسه مع خمسة وثلاثين ألفاً لفتح دنقا وله أمل في الفوز قبل أن يهلي رمضان، وقد بعث برقيم إلى مديرها وسماه أميراً عليها سنة السلطنة فيها مع ما يليها.

وأنقطع الطريق بين دنقا ووادي حلفا وامتنع سلوكها، وأيست الحكومة المصرية من صيانة تلك المدينة فأصدرت أوامرها بتمهيد سبيل لرجوع حاميتها إلى مصر، وشعرت حكومة إنجلترا بتعاصي الفتنة فعملت على إرسال نجدة لإمداد حامية الخرطوم، كما أكدته جريدة «المورننج بوست» الإنجليزية قنوطاً من نجاحها، وعثمان دجمة يشتد عضده يوماً بعد يوم وله في كل ليلة هجمات على مدينة سواكن بل وعلى بعض المراكب في البحر.

أخبار ما نزل ببر وما يتوقع نزوله بدنقا وغارة التأرين على معسكرات الحكومة في وادي حلفا؛ كل ذلك أحدث اضطراباً شديداً في أسوان، وهيجاناً في خواطير الكافة من أهل الصعيد، وربما يخشى من وقوع ما لا تحمد عاقبته على الناكلين.

هذه مراكب الإنجليز في مصر، وهم في أحوالها لا يفرون عن السعي إلى ما يثبت قدمهم فيها، وجاء في برقية إلى وكالة هافاس أن الجندي المصري دخل بأسره تحت إمرة

الجنرال إستفانوس (قائد جيش الاحتلال الإنجليزي) فصار الجنرال كأنه وزير الحربية وتحوّل الجنд الوطني إلى إنجليزي وجيش الاحتلال إلى حامية مصرية.

ثم هم يسعون لإلزام توفيق باشا بنصب ثلاثة مفتشين من الإنجليز، أحدهم في القاهرة والثاني في مصر السفل (مفتش وجه بحري) والثالث في مصر العليا (مفتش وجه قبلي)، على أنهم لا يُعزلون إلا بأمر من إنجلترا، فتتقلب الإدارة إنجلizية محضة لا يبقى فيها لحكام مصر إلا نهاية حال الذليل الامثال والطاعة.

تصرفاً في الأراضي المصرية العثمانية تصرف المالك فمحوا منها بقائعاً وفرضوا على البحر لملك الحبشه، وحالفوه على أن يسوق جيشاً يُنازل المسلمين في أراضيهم، رجاء تذليلهم وإخمام أنفسهم، وفي أثناء هرولتهم إلى مطامعهم يثيرون في أعين الدول غباراً، ويرفعون جلبة، ويصيرون بأن لا غرض لنا إلا إقرار الراحة وإعادة النظام، ويقيمون الحجة على إخلاصهم برغبتهم إلى الدول في مساعدتهم على حل بعض المشكلات المالية، مع أنهم لا يرغبون عقد المؤتمر إلا لينالوا منه ما يزيد قدمهم رُسُوخاً في مصر.

وعلموا أن لفرنسا مصلحة في مناواتهم فطفقوا يهددونها بالتحالف مع ألمانيا أو التقرب إليها إن لم تتساهم معهم؛ ليحملوها بالتهديد على الرضاء بإبقاء عساكرهم في مصر إلى سنة ١٨٨٨ تحت اسم إقرار الراحة، على شرط أن لا يكون بعد مدة إلا بإجماع جميع الدول التي يكون لها نواب في المؤتمر، بحيث لو وافقهم إداهن على إطالة المدة فيما بعد لكافى في تمديد الأجل أو إطلاقه.

وليس بخاف ما يقصدون من هذا الشرط؛ فإنهم يعلمون في اختلاف مصالح الدول وتضارب السياسات ما لا يعدون معه وسيلة لإرضاء دولة واحدة في زمن من الأزمان بالموافقة على مَدَ الأمد، ولا نخل دولة فرنسا يقف نظرُها دون هذا الحجاب الرقيق وهو يشف عن ملم عظيم لا تسلم منه مملكة من ممالكها في المشرق، ولا نظنها تُذعن لقبول هذا الشرط، وإن قبلته دولة لا مصلحة لها في مصر ولا يهمها إلا معاكسة فرنسا.

فكانَما سلك تصرف الإنجليز من خمس سنوات في سلسلة من الألاعيب نهايتها للسلط على مصر في هذا المؤتمر بدعوى ثروة المالية المصرية، وإن عجزها من الخيانة فيها، وتوسلوا بذلك لانقلاب في هيئة الحكومة، ثم أجهزوا عرابي للدخول في العصيان ليعلنوا به في الزحف لتأييد الحاكم، ثم وسعوا دائرة الخلل؛ ليكون وسيلة لا تُحدُّ يُملون نيلها في هذا المؤتمر.

زینوا للدولة العثمانية أن تصول على السودان مع وجود عساكرهم في مصر، ثم تخرج وقد مهدت لهم مصر والسودان معاً، فلما لم تتخذ لهم وحْق لها أن لا ترضى،

شدوا عليها بالتهديد قاتلين: إنهم لا يسمحون ل العسكريي تركي أن يذهب إلى السودان من بعد، ولو لم تقبل الدولة العثمانية حضور نائب لها في المؤتمر على أنه منحصر في المالية فإنه سينعقد بدون رضاها.

ولئن كان الإنجليز صادقين في طلبهم إقرار الراحة في مصر لوكلاه إلى عساكر العثمانيين وفوضوا الأمر لحازم حاذق من أمراء المصريين؛ فإن في ذلك إطفاء ل الفتنة وتبثيتاً للسلم، ولا خوف من الدولة على الاستقلال المصري فليس من شأنها أن تنقض عهد دولة واحدة في هذا الوقت فضلاً عن عهود الدول.

ولكن لا يهولن الدولة هذا التهديد، فدعوهُ محمد أحمد بلغت في الهنديين وتغلغلت، وخبر قرب الروس منهم ملأ آذانهم، والإنجليز يتوقعون الفتنة فيهم ساعة بعد ساعة، والقوة الإنجليزية قاصرة عن مدافعة محمد أحمد، فلو ثبتت الدولة العثمانية لخضع الإنجليز لقوة الحوادث رغمَّا عنهم، فإنهم يفرقون من أن يشاع عنهم أنهم مضادون للدولة العثمانية، فالثبات الثبات والله المستعان.

الفصل الثامن والستون

برهمن لاهور

قد اكتشفت لفندت الاهوري (صاحب جريدة أخبار عام) أن ما أندرنا به عند دخول روسيا في مرو من وشك دخولها في سرخس ليس من قبيل كان ويكون وسيكون، فقد دخلت روسيا مدينة سرخس برضاء من التركمان — كما قدمنا في العدد الماضي — فليس له أن يستبطئ سير الهول الشمالي ليذكر أسور الحكومة التي يُظهر المادفة عنها (وهي الحكومة الإنجليزية)، فعما قريب تظلله هبوة الرزح في أرض بنجاب تحت جدران، وله بعد أن رأى ما رأى من صدق ما نقول أن يطمئن إلى ما ننبئ به فيما بعد؛ فإننا نحكي عن طبائع الأمم وحقائق السياسة ومقتضياتها وليس يغنى ظنه من الحق شيئاً.

الفصل التاسع والستون

هذا

سُررنا بمقابلة أفالضل من أرباب الجرائد في مصر أتوا إلى أوروبا ليحضروا مؤتمراً في لندن، ويقفوا على دقائق المفاوضات التي تجري فيه متعلقة بالمسألة المصرية، وينشروها مع ما تجود به قرائتهم من الرأي الصحيح في جرائدتهم تنويرًا للأفهام، وتنبيهًا للأفكار، فحمدنا سعيهم، وشكروا صنيعهم، وأعظمنا همتهم في خدمة البلاد المصرية، قيامًا بما فرضته عليهم الجامعة المشرقية، وما أوجبته ذمة الجوار، وإن لم يكونوا من نبت في تراب مصر، ولا جبل من طينتها.

ولكننا أسفنا غاية الأسف على احتمالهم لهذا العمل العظيم أفادًا بلا معززين لهم من أبناء الديار المصرية، لا من المسلمين ولا من المسيحيين، أولئك الذين حفظُ بهم المكاره ودأهتمهم مغيرات الرزايا من كل جانب، ولهم في البلاد نسبٌ صريح، وورثوا ما أقاموا فيه عن آبائهم وأجدادهم من أجيال طويلة، وفيهم عارفون باللغات الأجنبية على اختلافها، ومنهم من نال شرف المعرفة على نفقة بلاده، وإنما كانت تعدد البلاد مثل هذه المهمات.

ألا يوجد بينهم شاب يغلي دمه وتجيش أحشاؤه لما نزل بدياره وبني وطنه مما يتالم له العالم أجمع؟! أو إن لم يكن هذا فتىً يعظم حمه، ويسمو عزمه، فيطلب ذكرًا رفيعًا، وثناءً باقيًا، فتهض همته للشكایة من مُصابه ومصاب إخوانه، أو لإرشادهم إلى ما به من النجاة، وما يتوصلون به إلى الخلاص؟!

ألا يوجد شيخٌ قضى وطره من الدنيا وفاضتْ عليه البلاد بخيرها؛ يتذكر نعم الأوطان عليه، فينبغي لأداء شكرها بما يستطيع من خدمتها؟! ألا يوجد من هؤلاء وهؤلاء أغنياء لا يخافون إعداماً فيتسامحون في بذل شيء من فضل ما لهم ينفقونه على أنفسهم في طلب الإنفاق لدى الدول التي يهمها النظر في شؤونهم؟!

ألا يوجد فيهم من ورث عن آبائه ثروة واسعة وهو يبذدها فيما لا يعود عليه بمجد ثابت ولا شرف دائم، فيجعل الإنفاق على نفسه في السفر لهذه الغاية المحمودة داخلًا في دائرة إسرافه.

يا عجباً، ما هذا الْحُمُول؟! ولمَ هذا الانزواءُ للذهول عما رزئت به أوطانهم؟! كيف وأَسْنَةُ الحوادث مصوبة إلى أفئدتهم؟! وألسنتها تلغ في دماء قلوبهم العوز وال الحاجة؟! كيف وإنما نعرف فيهم الأغنياء الموسرين، ومن لا تنفذ ثروتهم إلا بأيدي أعدائهم المغلبين، إذا استمروا في تماديهم هذا الشح والحرص؟!

كيف وفيهم الأسيء ومن أشرفوا في البذل على الإسراف والتبذير فيما لا ينالون منه إلا مذلة في الوجه، ورفة لا وجود لها إلا في الوهم؟! الخوف والجبن.

كيف وقد بدا لهم أن الخطر في سكوتهم أشد من الخطر في عوileهم وصياغهم، الراحة مفقودة، والنظام مختل، والحقوق ضائعة، والفتنة محدقة بهم، والأجانب ضربوا خناجرهم على حناجرهم، فلو لم يتداركوا أنفسهم بالسعي في كشف هذه البلايا لأصبحوا لا تُرى إلا مساكنهم، بل الخطر كل الخطر إنما هو في إهمال مصلحة الوطن وليس على ساع في خير وطنه وملته في خطر إذا أتي البيوت من أبوابها، وطلب الغاية بأسبابها، فمن أي شيء يخافون، وأي سلطة يرهبون؟!

إن لم يكن لِجراح الوطن أثر في أفئدتهم فأين الإحساس الطبيعي الموعظ في نفوس البشر، الباعث على المباراة والمنافسة؟! إنما الله وإنما إليه راجعون.

الفصل السابعون

العدالة الإنجليزية!

الرکون إلى العدالة والسکون إلى الأمان والراحة؛ من الأمور الطبيعية في الإنسان، وهذه حقيقة أدركها الجنس الإنجليزي الشريف، لهذا تراه يجوب الأقطار ويتقلب في الأمصار حاملاً على أحد عاتقيه علم العدالة وعلى العاتق الآخر لواء الأمان والراحة، رجاء أن يملك أهواء العالم أجمعين، وينال الكرامة في جميع أنحاء المسكونة.

إلا أنا نعجب غاية العجب لجفلة الناس من ألوان هذه الأعلام، وفزعهم من الاستظلال بظلها، ومن تفيفها يوماً فزعاً لانتباز عنده في آخر ولو لفحة لهيب جهنم، هؤلاء الأيرلنديون من جنس الإنجليز وعلى دينهم، وينطرون بلغتهم ولا يوجد بينهم وبين سُكَّان بريطانيا العظمى فرق إلا فيما لا يُعدُ الاختلاف فيه خلافاً حقيقياً من عقائد المذهب الكاثوليكي والبروتستانتي، ويصح أن يقال: إنه خلاف في فروع الدين لا في أصوله.

وجزيرة أيرلندا تعد جزءاً أصلياً من مملكة بريطانيا، وسكانها يعدون عنصراً داخلاً في قوام الأمة، وعليهم بسط جناح المرحمة الإنجليزية من أجيال طويلة حتى حسب الجميع أمّة واحدة، ومع ذلك ترى آلافاً مؤلفةً من الأيرلنديين يهجرن أولادهم ويهاجرون إلى أمريكا ويخذلونها سكناً لهم؛ فراراً من عدالة الإنجليز.

وكل يوم ترى المحترقين بنيران الحمية منهم يخاطرون بأنفسهم في أعمال يقصدون بها هدم السلطة الإنجليزية وإهلاك القائمين بها، وفي كل يوم يخدون الأحاديد ويدفنون المواد الملتهبة (الديناميت) في أماكن مختلفة من مراكز الحكومة وطرق مسیر الكافة

من الإنجليز، تارة تحت قصر الملكة، وأخرى في مقاعد الوزراء، وتطوراً تحت دار الندوة، وأخر في جسور السكة الحديدية؛ ليدمروا كل مكان بمن يُقْلُه. وزاد ذلك حتى أفسر الحكومة في هذه الأيام، وما من مدة تمضي إلا وتسمع بموقع بين عساكر المحافظة الإنجليزية في أيرلندا وبين الأهالي، ومنها ما حدث في ثامن هذا الشهر (يونيو) من معركة بين العساكر وال العامة جُرح فيها كثير.

هل جلاء الأيرلنديين وتهافتهم على الموت وسأتمهم من الحياة في معاندة السلطة الإنجليزية ناشئ عن نفرتهم من العدل وكراحتهم للراحة والميل إليهما طبيعي في فطرة البشر؟! أظن لو كان عدلاً حقيقياً يعرفه بنو الإنسان لما نبت عنه الطياع، ولا آثرت الأنفس الموت على التمتع به، ولا طلبَ الخلاص منه أقواماً يتهدون مع أرباب السلطة في الجنس واللغة والدين، ولا فضلوا عليه مهاجرة الأوطان واحتمال آلام الغربية، ومشاق الطروح في أراضٍ لا يجدون فيها من العيش إلا لماجا (أدنى ما يؤكل).

ولكنه عدل تفرد به الإنجليز من بين الحيوانات الناطقة، من أحكامه أن توضع الجزية على كنائس الكاثوليك تؤديها إلى كنائس البروتستانت عن يد وهي صاغرة، واستمر ذلك إلى عهد قريب، ومن مقتضياته أن يكون الأيرلندي خادماً بل عبداً رقاً لأمراء британцы لا يتذمرون له من لوازم الحياة إلا ما يشتغل به لتنمية ثروتهم وتوفير لذتهم. إن كان هذا العدل لا يوافق أذواق المتقين معهم في الصفات السابق ذكرها، فكيف تُرجى ملائمة لأذواق الذين لا نسبة بينهم وبينهم، ولا صلة تجمعهم، لا في لغة ولا جنس ولا دين؟ هذا النوع البهيج من العدل ظهرت له آثارٌ في البلاد الهندية: دخلها الإنجليز وهي أغنى أرض في العالم، وأخصب تربة في المسكونة، وسكانها أنعم الناس عيشاً، وأوسعهم ثروة، فإذا هي اليوم بسر العدالة كأنها صفاصف وأمرات (أرض لا نبات بها).

أهاليها حُفاة عراة أذلاء، رضوا من المعيشة بالشظف، ومن القوت بالعلف، وما يجدون ما به يقنعون، تراهم بعد ما سلباً أملاكهم، وابتزوا ثروتهم، واستثار الإنجليز بجميع ما كان لهم، يطلبون التعيش في المهن الدينية ولا يصلون إلى ما يطلبون، يكون منهم الكاتب المنشئ البليغ الحاسب يقطع الأرض سعياً من بلد إلى بلد ومن ولاية إلى ولاية ليحصل خدمة ينال من أجرها ثلثين فرنكًا في الشهر، ولا يسعده الحظ بنوالها! ومن سنتين دخلوا مصر وهي أرض الراحة والسلام، وأهلوها في رغد من العيش، وأمن من الغواص، فإذا هي اليوم — ببركة العدل الإنجلizi، وحسن الإدراة البريطانية —

أرضُ الفتنة، ومجالات الحرب، ومضارب الخلل والفساد، قضت العدالة بحرمان آلافِ من الوطنين وطردهم من وظائفهم في الحكومة، وهم ذوو أهل وعيال لا عيش لهم إلا من رواتب الخدم الوطنية، وحل محلهم في الوظائف أخلاطٌ من الإنجليز.

وكسدت أسواق التجارة، وغلت أيدي الزارعين عن العمل في الفلاح بفقد الأمن وعموم الاضطراب، وامتنعت الأرض عن الإنبات بإهمال الأعمال العامة، واستولى الفقر على الفلاحين حتى عجزوا عن وفاء ديونهم وقصرت أيديهم عن أداء ما عليهم من الضرائب لحكومتهم.

ومع كل هذا ترى الإنجليز لا تأخذهم ريبة في أنهم عادلون قوامون بالقسط، وأن حلولهم في أي قطر وسلطتهم على أي شعب مقرونة بالسعادة والرفاقة والأمن والراحة، ويعجبون كل العجب من انحراف المصريين عنهم ونفرة قلوبهم منهم، ويقولون: يا سبحان الله! كيف يوجد بين جمعيات سرية أو جهرية تختلف على بعضهم وتجمع الألفة من العبودية لهم؟! وكيف يختلج في خاطر مصرى أن ينقم على الإنجليز؟!

ولما أحسوا بحركة الخواطر واحتلال الحمية في نفوس بعض المصريين وتوجسوا الخيفة من إقدامهم على كلمة الحق، وهي بلادنا لنا، ونحن أعلم بمصلحتنا من غيرنا، ولا نريد أن تكون طعمة للإنجليز؛ أرادوا أن يقيموا ببرهانًا على عدتهم ويوطنوا النُّفوس على الرضا بحكمهم ويمحو كل ضغينة من قلوب المصريين، بالقوة العسكرية، كأنهم بإطلاق النيران وسل السيوف يودعون في القلوب محبة، وفي النُّفوس رضى، وهي طريقةٌ جديدة في إزالة التناقض وإيجاد التألف، وربما كانت سنة قديمة عند الإنجليز.

وجاء في برقيةٍ من مراسل التايمز في القاهرة أن العساكر الإنجليزية انتشرت في شوارع القاهرة شاكية السلاح لتعزيز قوة حفظ الأمن، والحامل على ذلك ما تأكد عند حفاظ الأمن من الإنجليز أن في تلك المدينة جمعيات جهرية أو سرية، أو أن فيها أشخاصاً مصريين يُحبون بلادهم ولا يَوْدُون أن يكون السلطان في حكومتها لأجنبى عليهم، خصوصاً إن كان ظالماً فيهم.

أو أن في تلك المدينة من يخطر بباله أن يقول كما يقول أدنى رجل من الإنجليز: إن مصلحة وطننا مقدمة على كل مصلحة، أو أن فيها من يحدث نفسه بأن الإنجليز لا خير في ولايتهم، ويرى شقاء بلاده في سوء إدارتهم.

فهاج غيظ مأمورى الإنجليز وبعثهم على الشدة في طلب الوقوف على مكامن أولئك الذين لا يميلون إليهم ليؤخذوا كل ذي سريرة بما اختلج في صدره من الانتقاد على

أعمالهم، ومن عزّمهم أن يستعملوا من أجهزة الإضاءة ما يشرق به النور ليلاً في كل شوارع المدينة وأذقتها، من القلعة إلى أضيق حارة فيها، ليحققوا ما ظنوه ويكتشفوا ما توقعوه (وهم في عملهم هذا يراغعون مصلحة المصريين ويأسفون على حالهم، حيث كفروا نعمة النظام ولم يعترفوا للإنجليز بهذا الإحسان الذي تفضلوا به عليهم من مدة سنين ويأسفون)، ويررون من العدل أن تشرب قلوب المصريين مودتهم بقوة السلاح حتى تكون سيئاتهم حسنات، وربما لا يتم لهم من ذلك ما يقصدون.

الفصل الحادي والسبعون

إنجلترا وفرنسا

أصنعت آذانُ الراغبين في الوقوف على نهاية الحوادث المصرية لاستماع ما يتحدث به بين الحكومات الأوروبية من يوم دعتْ إنجلترا جميع الدول العظام للجتماع في مؤتمر ينظر في بعض المسائل المصرية، إلا أنها منعت دون حجاب الكتمان، وإنما كانت تصل إليها دندنة أو جلبة أو غمغمة أو جمجمة، وكل حس يصلها يثير رواكِه الأوهام فتهيج فيها غرائب الصور والأشكال.

والمذاعون من أرباب الجرائد في أوروبا — وهم أشبه بالداعين إلى الألعيب والكموديات — كانوا يذهبون من الكلام وجوهاً مختلفة ويتنافسون في التمثيل والتصوير للتغريب والتهويل، حتى أبزوا الأرض في صورة السماء والسماء في صورة الأرض، خصوصاً فيما يتعلق بالمفاهيم التي كانت جارية بين وزارَتِي فرنسا وإنجلترا، فكان يخيل لمتصفح جرائدِهم أن البحر غاصَة بالمراكب، والمدربات يصادم بعضها ببعض، وأن فضاء البر أضيق بالجيوش المتلاحمَة لا يجد السالك من بينها سبيلاً.

وتجسم الخيال لأرباب الأذهان الحادة، فكان منهم مهندسو حرب يعينون موقع العساكر وطرق المعاولة وجموع الملاحمين تجول في أذهانهم يميناً وشمالاً ويموج بعضها في بعض، وكأنَّما كانت مخيلاتهم معرضَة لجيوش العالمين، وكأن في كل فوج داعياً وفي كل قبيل منادياً يقول: حقي هذا، فهيعات تتعالى وزفرات تتضاعد وأرغاء وأزياد، وتقطب في الوجه وشزر في المناظر، وفي كل ذلك هول يأخذ بالأباب.

والعَارِفُونَ بِقُوَّةِ فَرْنَسَا الْبَرِّيَّةِ وَالْبَحْرِيَّةِ وَالَّذِينَ يَقْدِرُونَ حُقُوقَهَا حَقَّ قَدْرِهَا؛ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ تَمَثَّالَ الْعَظَمَةِ الْبَرِّيَّةِ أَصْبَحَ مِنْكَسَ الرَّأْسِ مِنْحَنِيَ الظَّهَرِ قَدْ هُوَ بِهَامَتِهِ إِلَى رَكْبَتِهِ يَتَوَارِي مِنَ النَّاسِ خَجْلًا بِمَا ظَهَرَ مِنْ ضَعْفِهِ وَعَجْزِهِ، وَأَنَّ حُكْمَةَ إِنْجْلِتَرَا سَتَعُودُ بِالْخَيْبَةِ (وَإِنْ أَعْدَتْ فِي الْأَلْيَادِ وَجَحَافِلَ مِنَ الْأَوْغَادِ).

وَتَقَوَّتْ هَذِهِ الْأَوْهَامُ بِمَا يَطْنَطِنُ أَرْبَابَ الْجَرَائِدِ، وَوَلَعْتُ الْنَّفْوَسَ بِالْوَقْفِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَانْبَعَثَتْ رَسُلُ الْأَفْكَارِ تَجْوِسَ خَلَالَ الشَّيْوُنِ وَالْأَطْوَارِ، لِتَصِلَّ إِلَى شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْرَارِ، وَاجْتَمَعَتِ الْأَرْوَاحُ فِي الْأَذَانِ؛ لِعُلَّهَا تَسْتَرِقَ سَمِعًا عَنْ تَلَكَ الْمَدَائِنَاتِ، وَكَمِنَتْ كُلُّ نَفْسٍ فِي مَشْكَاهَةِ بَاصِرَتِهَا؛ لِعُلَّهَا تَسْتَشِفَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ مَا يَنْبَئُ عَنِ الْحَقِيقَةِ أَوْ يَقْرَبُهَا مِنَ الْفَهْمِ، وَالْجَمِيعُ وَاقْفُونَ وَرَاءَ حِجَابَ هَذَا الْمَلْعُبِ الشَّائِقِ، وَبَعْدَ طَوْلِ الْإِنْتَظَارِ كُشِّفَ السَّتَّارُ.

فَإِذَا عَادَتِ الْإِنْجِلِيزُ جَالِسَةً فِي هِيَكَلِ الْأَمْوَانِ، وَبِيَدِهَا تَاجٌ يَحْكِي رَأْسَ الثُّورِ (تَاجُ الْفَرَاعِنَةِ) مَتَهِيَّةً أَنْ تَضَعِّفَ عَلَى رَأْسِهَا، وَالْمَلُوكُ الْعِظَامُ وَقَوْفُ بَيْنِ يَدِيهَا مُسْتَعِدُونَ لِتَهْنِتَهَا، كَأَنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَفَاوِضَاتُ وَالْمَخَابِرَاتُ إِعْدَادًا وَتَجْهِيزًا لِإِجْلَاسِهَا عَلَى كَرْسِيِّ مِيَّنَا الْأَوَّلِ وَرَمْسِيَّ الْأَوَّلِ — لَا حُولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

قَامَ رَئِيسُ الْوُزَارَاءِ الْفَرَنْسِيُّ فِي مَجْلِسِ النُّوَابِ خَطِيئًا؛ لِبَيَانِ الْإِتْفَاقِ الَّذِي عَقَدَهُ مَعَ حُكْمَةِ إِنْجْلِتَرَا لِيَرِي النُّوَابِ رَأْيِهِمْ، وَقَبْلِ ذَكْرِهِ أَنْفَقَ مَا لَدِيهِ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ وَحَسَنِ الْبَيَانِ لِإِقْنَاعِهِمْ بِقَبْوِلِ مَا أَجْرَاهُ.

تَلْطِفُ فِي الْكَلَامِ وَأَبْدَعُ وَصُوبُ وَصَعْدَ وَأَتَى عَلَى تَرْغِيبِ يَشْوُبُهُ تَرْهِيبِ، وَيَأْسِ يَحْوَطِهِ أَمْلِ، وَأَدْرَجَ فِي طَيِّ خَطَابِهِ أَنَّ فَرْنَسَا قَبْلَ هَذَا الْعَهْدِ الْجَدِيدِ لَمْ تَكُنْ عَلَى شَيْءٍ، وَبِهِ نَالَتْ أَشْيَاءٌ، وَأَوْمَأَ إِلَى أَنَّ وَزَارَتِهِ لَوْ طَلَبَتْ أَرْزِيدُ مَا حَصَلَتْ لِأَدَى الْأَمْرِ إِلَى مَمَانَعَةِ الْحُكْمَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ وَأَفْضَى الْخَلَافَ إِلَى اِنْقَلَابِهَا، وَرَبِّمَا يَخْلُفُهَا وَزَارَةُ تَطْمِحُ إِلَى الْإِسْتِيَّالِ عَلَى مَصْرَ.

وَجَاءَ فِي نَطْقَةِ بِمَا حَرَكَ الْطَّبَاعَ وَمَالَ بِالْأَسْمَاعِ حِيثُ قَالَ: يَلْزَمُ لِسِيَاسِيَّ قَبْلِ إِبْرَامِ حَكْمٍ أَنْ يُلْاحِظَ جَمِيعَ أَطْرَافَهُ وَلَوْاحِقَهُ، فَهَذِهِ الْكَلَمَةُ الرَّفِيقَيَّةُ جَدَّدَتْ فِي السَّامِعِينَ آمَالًا وَظَنَّوا أَنَّ الْمَرَاقِبَةَ الْثَّنَائِيَّةَ قَدْ أُعِيدَتْ، أَوْ تَقْرَرَ اِشْتِرَاكُ فَرْنَسَا مَعَ إِنْجْلِتَرَا فِي الْإِحْتَلَالِ الْعَسْكَرِيِّ، أَوْ إِبْرَامُ الْحَكْمِ بِخُرُوجِ الْإِنْجِلِيزِ مِنْ مَصْرَ، وَبِالْجَمِلَةِ أَنَّهُمْ فَازُوا فُورًا عَظِيمًا.

وبعد مقدمات طويلاً¹ بين الاتفاق فإذا هو — بعد إمعان النظر — على هذا النحو: إن الإنجليز سادات مصر يفعلون فيها ما يشاءون، وليس لنا أن نعارضهم، فلا المراقبة الثانية عادت، ولا الاشتراك في التداخل العسكري أو النظر الإداري حصل، ولا قررت حرية القتال على أصل ثابت، ولا تحقق جلاء الإنجليز على صورة قطعية، ولا تأصلت مراقبة دولية كما كان يتوهם بعض السياسيين، بل كما كان يلجم الإنجليز عند نهاية العجز على ما أشار إليه كثير من سياسيهم، فانقضت صدور التواب.

فلما رأى² شدة تأثيرهم دفعة واحدة وأحس منهم القنوط، حاول إحياء آمالهم بقوله: إننا سلكنا في اتفاقنا هذا مسلك سائر الدول، ومن السنن المتبعة فيها تنازل كل من طلاب الاتفاق عن شيء مما عليه الاختلاف حتى يتقاربوا ويتعادلوا فيسهل اتفاقهم، يوهم بهذا أنه وإن ترك كل حق لفرنسا في مصر إلا أن الإنجليز أيضًا تساهلوا معه في أمور.

هذه المسامحة التي لم تكنمنتظرة من حكومة فرنسا ذهبت بالظنون إلى ما وراء الظاهر المعروف، ومنه ما بعث مراسل جريدة «التاج بلات الألماني» في فيينا على قوله: يظن هنا (في فيينا) أن الدول ستتعارض هذه الاتفاق رغمًا عن كل وهم. أ.ه.

وليس ببعيد أن يكون نعير الإنجليز وهديهم وإرهابهم للوزارة الفرنسية بالليل للألمان هو الذي دعاها لهذا التساهل الغريب، بل حملها على ترك الحق بالكلية، أو ربما ظن رئيس الوزراء أن اشتداده في اقتضاء حقه أو حق من له بهم علاقة صحيحة يوجب تغييرًا في وزارة جلادستون، فيقوم خلفها على الافتراض بالقوة وانتهاك كل حق، فتضيق الحقوق الفرنسية بلا منة من فرنسا في ضياعها، فسارع إلى موافقتها على ما تشاء، وطرح مصلحة فرنسا في مصر بين يديها لتكون المنة في استيلاء الإنجليز على مصر الفرنسين.

ولكنا نظن أن هذا النوع من المعاملة لا يفيد فرنسا أكبر مما يجلب عليها من الضرر؛ فإن التساهل وسوء السياسة الذي كان من الحكومة الفرنسية مع بريطانيا في الهند عندما كان للأمتين منافسة فيه آلت إلى تغلب الإنجليز على جميع المالك الهندية،

¹ هكذا نذكرها الأفغاني وقد رأينا بقدر الإمكان الإبقاء على روح الأفغاني في كتاباته!

² يقصد رئيس الوزراء الفرنسي.

ورجع الفرنسيون بخفي حنين، ولم يُمحَ أثر ذلك الخسران من خواطر الأمة الفرنسية إلى الآن، والمستقبل أشبه بالماضي من الماء بالماء.

وقد يقال: إن الحكومة الفرنسية حولت نظرها عن مصر إلى جهة أخرى، وبقي رجاؤنا في نواب الأمة الفرنسية؛ فإنهم وإن أظهروا ثقتهم بالوزارة بعد مجادلات طويلة إلا أنهم شرطوا عليها أن لا تبرم حكماً في المؤتمر إلا بمشورتهم — اللهم حق الرجاء — وإننا في عجب من حرص مجلس البرلمان الإنجليزي حيث يعارض جلادستون في هذا الاتفاق مع أن أقرب نتائجه الاستيلاء، وقد طلب البرلمان من جلادستون مثل ما طلب نواب فرنسا من وزيرها.

أما حقوق العثمانيين والمصريين فلم نر لها بين المتفقين ذكراً، اللهم إلا أن يقوم أربابها على المطالبة بها، وعند ذلك نرى لها فصلاً بين هذه الأبواب.

الفصل الثاني والسبعون

الاتفاق

عهدُ بين وزارَتِي فرنسا وإنجلترا، تواطأنا عليه؛ ليكون موضوع البحث في المؤتمر، وأشرنا إلى أن غايتها تنازلُ فرنسا عن جميع حقوقها في مصر ونفَضَ يديها من كل مصلحة لها فيها، والاعتراف لإنجلترا بالسيادة عليها وإن لم تذكر حروف السيادة، وهذا ما يحتوي عليه من المواد:

الأولى: أن يستمر حلول الجيش الإنجليزي في الأراضي المصرية إلى أول يناير سنة ١٨٨٨ (ثلاث سنوات ونصف)، ثم لا يخلِها إلا بعد انعقاد مؤتمر جديد من نواب الدول العظام يتفقون فيه على أن الإِخْلَاء لا يضر بالنظام الداخلي لمصر ولا بالعلاقات السياسية بين الدول، فإنْ حصل اختلافٌ ولو من دولة واحدة ترى ضرورة إطالة المدة كان الخيار لدولة إنجلترا في الجلاء أو البقاء.

دولة إنجلترا هي الدولة التي أطلقت مدافعاها على مدينة الإسكندرية والمؤتمر منعقدٌ في الأستانة من رجال المالك العظيمة وفيهم نائب فرنسا، ولم توفر المؤتمر ولم تُراعِ حرمة الدولة ولم تتحقق مع واحدة منها على العمل الذي باشرته، فهل يعجزها

^١ أعاد التاريخ نفسه بعد ٧٤ عاماً وأطلقت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل جحيم قنابلهم على مصر لينالوا مأربهم ويفحققوا غايتهم، وقد نجحوا في قتل أبرياء وتحطيم مبان، ولكنهم فشلوا في القضاء على معنويات الشعب وروحه في حياة حرة كريمة.

في خلال هذه المدة الطويلة أن تستميل دولة من الدول إليها، حتى إذا انعقد المؤتمر بعد ثلاث سنوات ونصف ذهبت إلى أن إخلاء القطر المصري من العساكر الإنجليزية يُخشى منه على نظام البلاد أو سلم أوروبا، فيكون حجة لإنجلترا في إطالة المدة وإن خالفها بقية الدول ومنطوق الشرط يؤيد حجتها.

وكيف يمكن لبقية الدول إذا خالفت إحداها أن تلزم دولة بريطانيا بالخروج من ديار مصر بعدها غلت أياديها بتقرير هذا الشرط وكتبت على نفسها أن الجلاء لا يكون حتماً إلا إذا اتفقت عليه جميع الدول!

السياسات في أوروبا سريعة الانقلاب، والمنافسات لا تقف عند حد يحيط به النظر، ومطامع كل من الدول لا تنتهي عند غاية، فليس بعيد - بل هو أقرب من كل قريب - أن توجد دولة في دول أوروبا تشد عضد إنجلترا على دعوى أن إخلاءها لمصر يُحدث هزة في سلام أوروبا، وربما تكون تلك الدولة هي الدولة القوية التي يصعب على سائر الدول مخالفتها، ولا تجد فرنسا عند ذلك موئلاً تجأ إليه سوى الرضاء والتسليم.

إذا فرضنا عجز إنجلترا عن استهواء دولة أوروبية توافقها على المكابرة في أحوال مصر، وأن سياسة أوروبا وقفت على حالتها في وقتنا الحاضر، وأن جميع الدول تحالفت على قول الحق، فهل تعجز دولة بريطانيا وهي هي عن أن تُثير شغبًا في بعض الأرجاء المصرية بأن تغري مالطيًا بقطبي أو روميًا بفلاح أو حمار، فتسيل قطرات من الدماء تخيل كل قطرة منها بحراً وتنادي أن للفتن مثارات وللعصيان أمارات والنظام في خطر ولها حق المحافظة عليه، إلى أن تقلب أرض مصر جنة يكون فيها أمم العالم إخوانًا على سرر متقابلين؟!

ولو اعتبر المسيو جول فري بالمعاهدات التي عقدتها إنجلترا مع السلطنة التيمورية وغيرها من ممالك الهند، وكيف أقدمت تلك الدولة على نقضها ولم تُبال فيه بعهد ولا ذمة؛ لَظَهَرَ لَهُ أَنَّ نَفْضَ رُوسِيَا لِعَهْدِهَا مَعَ بُولُوْنِيَا لَيْسَ شَيْئًا يُذَكَّرُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى حَفْظِ إِنْجِلْتَرَا لِذَمَّهَا مَعَ تَلْكَ الْمَالَكَ الْعَظِيمَةِ.

لو تأمل هذا الوزير في الأعمال الإنجليزية؛ لَمَّا نَفَسَهُ فِي الْاحْتِجَاجِ بِشَرْفِ إِنْجِلْتَرَا عَلَى خَلْوِ غَرْضِهَا وَإِلْخَاصِهَا فِيمَا وَاثَقَتُهُ عَلَيْهِ.

إن لم يكن في خاتمة الشرط سر فِلَمْ اهْتَمَ بِهَا الْوَزَارَةُ الإِنْجِلِيزِيَّةُ وَأَلْحَتْ عَلَى تَثْبِيْتِهَا؟! إن لم يكن لها غرض في استعمالها وقتها فِلَمْ أَصْدَرْتُ أَوْامِرَهَا بِمَدِ سَكَّةِ الْحَدِيدِ مِنْ سَوَاكِنَ إِلَى بِرْبَرَ عَلَى نَفْقَةِ الْحُكُومَةِ الْبِرِّيْطَانِيَّةِ؟!

إن كان لسيو جول فري ثقة بمسيو جلادستون واعتماد على عفته وطهارة ذيله، فمن يضمن له بقاءه في رئاسة الوزارة إلى نهاية المدة حتى يوفي بعهده؟ فإذا استعفت وزارة جلادستون لعلة داخلية أو أزمة خارجية وخلفتها وزارة تحت رئاسة اللورد تشرشل أو اللورد سالسبوري، وهُمَا من الطالبين الاستيلاء على مصر أو إعلان السيادة الإنجليزية عليها، فأي مانع يمنعهما من الاستفادة من هذه الخاتمة السيئة في مقصدهما المعروف؟!

المادة الثانية: الغيت المراقبة الثانية وسيعوض عنها بتوسيع السلطة لقومسيون الدين العمومي، فيُمنح حق الاطلاع على مصاريف الحكومة والاعتراض على ما يزيد منها عن المقرر في الميزانية، ويكون له ذلك ابتداءً من سنة ١٨٨٥، وميزانية تلك السنة تحررها حكومة إنجلترا وتعرضها على المؤتمر الدولي ليقرر ما تحويه، على أن يكون قانوناً للنفقات لا يخالف إلا لضرورة تخرق النظام.

وفيما بعد سنة ١٨٨٥ يخول لصندوق الدين حق مساعدة الحكومة المصرية على تحضير ميزانيتها السنوية، بمعنى أنه تعرض عليه قبل تقريرها ليبدي فيها رأيه، إلا أن ما يكون له من الرأي في جميع الأحوال ليس إلا استشارياً محضًا لا ينقض ولا يبرم، فإذا انجلت العساكر عن مصر يكون له حق المراقبة على تحصيل الإيرادات جمِيعاً وضبطه على قواعد صحيحة وطرق منتظمة، وبهذا يحوز حقوق المراقبة الثانية ما عدا الحضور في مجلس الوزراء، ورئيس القومسيون في جميع الأحوال يكون إنجلزيًّا. إن كانت مراقبة قومسيون الدين على تحصيل الإيرادات لا تكون إلا بعد انجلاء الجيش الإنجليزي، أَفلا يكون هذا أملاً من الآمال ربما يُنال وهو يكون فيه عوض حقيقي عن المراقبة، وهو من رسوم الخيال وبينه وبين الثبوت أمد غير قصير؟ إن رضيت الأمة الفرنسية بتنقيص فائدة الدين لهذا الأمل الموهوم فقد خسرت كما قالت جريدة «لا جوستيس» خسارة محققة لوعد لا كافل لها بوفائه.

المادة الثالثة: إحماء مصر والمكافلة لها (ما يعبر عنه بالحياد) بأن تجعل حكومة في إفريقيا على أصول حكومة بلجيكا في أوروبا، وتحرير القناة، أي إباحته ممراً لجميع مراكب الدول من أي نوع كانت، فإن كانت الدولتان متحاربتين ضرب لبائهما فيه مدة لا يسُوّغ فيها إِنزال عساكر أو ذخائر على حافتيه ولا تباح المناوشة فيه ولا على القرب منه ولا فوق شيء من المياه المصرية، وإن كانت الدولة العثمانية إحدى المتحاربتين.

إلا أن شيئاً من هذه القيود لا يحذر أخذ الاحتياط للدفاع عن مصر نفسها إذا دعت إليه أحوال وإذا ألحقت مراكب دولة من الدولة ضرراً بالقناة ألزمت بتعويضه، وعلى حُكُومة مصر أن تهيئ ما يمكنها من تنفيذ الشروط على المراكب الحربية مدة الحرب، ولا يجوز أن يبني على حافات القناة ولا على مقربة منه معاقل وحصون. وهذه الشروط جميعها تقرر ويجري حكمها بعد جلاء العساكر الإنجليزية عن وادي النيل، وفاتحة هذا الفصل تنطق بأن الإنجليز إن قصر بهم السعي عن التملك في الأراضي المصرية فقد هيئوا كلاليب لاختطافها من أيدي المسلمين والانقلاب بها إلى قوم آخرين، كما أشرنا إليه في موضع آخر.

هذا الذي صرخ به من تشكيل الحكومة في مصر على مثال حكومة بلجيكا هو الأمر العظيم الذي نوهه مسيو جول فري، وقال: إنه من أجل أحكام السياسة وأسمها، وصحيح العقل يرتاب في كونه حكماً سياسياً فضلاً عن كونه سامياً؛ لما يلاحظ فيه من عواقب المiscalبة والشحنة بين الأمم الأوروبية إلى أجيال بعد ما تقرر لديهم أن الشرقي لا يليق به أن يستقل بحكم نفسه!

فإن خدعا الظاهر فربما يرى فيه خيراً لفرنسا أو لأوروبا، بمعنى أنه أفضل لها من التملك الإنجليزي، أما المسلم فيarah نكأية للته والشرقي يجده خراباً لبلاده، هذا الأود الذي ظهر في سياسة مسيو جول فري لا يقمعه إلا حمية الدولة العثمانية واستدادها في حفظ مكانتها السياسية، وحرص مجلس النواب الفرنسي على حماية المصالح الفرنسية التي يسهل صونها بشيء من العزيمة وبصيغ من البصيرة — والله الأمر يفعل ما يشاء.^٢

^٢ تأمين قناة السويس، وسد بقناطر الأعداء، واستئناف الملاحة فيه بإدارة مصرية، خير ما يمكن أن يعتز به الأفغاني ومحمد عبده، لو بعثا من عليائهم.

الفصل الثالث والسبعون

الباب العالى

روت جريدة діلی نیوز خبراً يسر كل مسلم يهمه نجاح الدولة العثمانية ويرى عزته في عزتها، وذلك أن الباب العالى يأبى أن يرى جيشاً إنجليزياً يحتل مصر، ويرغب إذا اشتد العصيان أن يفوض الأمر إلى الخديو الذي يتبع نصائح الدولة العلية صاحبة السلطة الشرعية عليه.

وكل شرط يرمي إلى جعل مصر تحت حماية أجنبية فليس عند الباب العالى في موضع القبول؛ لأنه يكون تمهدًا لضعف سلطة السلطان على تلك البلاد، ويمكن أن يقبل الاتفاق الفرنسي الإنجليزى في غير هذين الأمرين (الاحتلال الإنجليزى والحماية الأجنبية).

وورد في رسالة من مراسل جريدة نوفل برييس لبير الفرنسية مناقشةً جرت بينه وبين أحد السياسيين الروس نقلتها جريدة التان، جاء فيها أن دولة الروس ستقاوم دولة بريطانيا في مطامعها وتؤيد الدولة العثمانية في مطالبه؛ رعايةً لصالحها المرتبطة بمصالح العثمانيين في المسألة المصرية وفي الاتفاق المنعقد بين دولتي فرنسا وإنجلترا.

الفصل الرابع والسبعون

الإنجليز والإسلام

الحكومة الإنجليزية عدوة المسلمين عداءً شديداً لاتهامها المالك الإسلامية، تغذى المسير إلى آرائها منها سالكة جادتها المعهودة من اللين والمواربة والخداعة والمخاتلة، فإن بلغ بها السعي حداً من الغرض فذلك، وإن عجزت أخذت طريقاً آخر لانتزاع قطعة من أيدي المسلمين بأية وسيلة وتسليمها لقوم من سواهم أياً كانوا، لأن لها لذة في نكاشة أهل الدين وكأنها تتغنى السعادة في تذليلهم ومحو ما يكون من ملتهم، وكمال بهجتها في أن تراهم أذلاء عبيداً لا يملكون من أمرهم شيئاً!

وفي تصانيف جلادستون وخطبه الضافية أيام الحرب العثمانية مع الروس ومقالات أشباحه نباً، بل أصدق الأنباء عمّا تكّنه صدور الإنجليز من العداوة لل المسلمين.

لهذه الحكومة طمع التمكّن في أرض مصر، ولها من كل جبل قبضة وفي كل سهل خطوة لتنال مطمعها، وهمتها اليوم في إرضاء بعض الدول على استبدادها بالأمر في مصر بما تسول لسياسييها من أوهام المنافع وخيالات الفوائد، وفي تثبيط بعضها بالماروغات والتهديدات، فإن بلغت همتها مبلغ القصد فهو خير ما تطلب، وإلا عقدت عزمها على نقل الولاية في مصر من أيدي المصريين والأتراك إلى أيدي أقوام آخرين.

هذا ما تُشير إليه جريدة الدليل نيوز الوزارية (الإنجليزية) عند كلامها عن قناة السويس، حيث تقول: يمكن القطع بحيد القناة على الأساس الموضوع في برقية اللورد جرانفيل المرسلة إلى الدول في ٣ يناير سنة ١٨٨٣، وليس تلك الحيدة إلا حكماً من

أحكام النظام الذي وضعته الوزارة الإنجليزية ليكون قاعدة تقوم عليها هيئة الحكومة المصرية بعد جلاء العساكر عنها.

ولكن لا يرى الإنجليز في حيدة القناة وحدها ضماناً صحيحاً لوقاية مصر من غارة دولة أجنبية عليها، ولا كفالة كافية لاستقلالها، بل يمكن أن يذهب الرأي إلى ضرورة حيدة مصر نفسها بأن تحول حوكتها إلى حوكمة سويسريّة أو بلجيكيّة في إفريقيا وتوضع تحت حماية الدول عموماً، فتؤمن الإغارة عليها من إحداها إذا آل الأمر إلى هذه الحال — والعياذ بالله — فهل يسمح أرباب الحماية أو السيادة بتفويض أعمال الإدارة والقضاء والمالية للمصريين العارفين بشئون بلادهم؟ كيف نظن هذا وقد سجل عليهم الإنجليز أنهم أضعف من أن يقوموا بعمل جزئي أو كلي في خدمة أوطنانهم، وأن من الضروري لحياتهم أن يكونوا آلة صماء في أيدي غيرهم من الأوروبيين؟

قد يعقب ذلك — لو حصل — تشكيل مئات من المجالس في القطر المصري، كلها تشبه المحاكم المختلطة، أما مجالس الفصل والقضاء — ابتدائية واستئنافية — فالأمر فيها بَيْنَ، وأما إدارة الداخلية والمالية وفروعها فلا تستقل بها دولة من الدول؛ فإن طبيعة الأمر تأبه، فلا يتولى أعمالها إلا مجلسٌ مُؤلَّفٌ من أقوام مختلفة الأشكال واللغات متباعدة الحكومات، ولو تفضل السائدون على المصريين عند بداية العمل لسمحوا بأن يكون في كل مجلس واحد منهم إلى زمان محدود.

أولئك الأعضاء الأجانب whom نواب دولهم لا يكون سيرهم إلا كما سار إخوانهم من قبل، كل منهم يستدعي من أبناء جلدته من يستخدمه في وجه من وجوه الأعمال التي يولي النظر فيها، وتقع بينهم المنافسات، ثم تكون المحباة، كُلُّ يتغاضى عما يأتيه الآخر ليتغاضى الآخر عنه، فلا تكون مدة حتى تضيق أرض مصر بالأجانب، ولا يعود فيها مقر لوظني، هذا إلى ما يتبعه من إقامة عسکر مختلط للمحافظة في المدن والأقاليم، فلا يبقى للمصريين إلا خسائص الأعمال يفلحون الأرض ويعانون الأعمال الشاقة ولكنهم أجراء عسفاء لغيرهم يؤدون ثمرات ما يكسبون إلى من لا يعرفون، يخرجون عن جميع ما كانوا نالوه في الأزمان الأخيرة من عهد محمد علي إلى الآن، ولا يمر زمان طويل إلا يصبحون كسكان الأمريكتين ينحسرُون إلى بعض الأطراف القاسية عن العمran أو يندمجون مع الأجانب، فلا يوقف لهم على أثر صحيح، وتصير الأرضي المصرية مأهولةً بأخلاق مختلفة، كما في أراضي أمريكا الجنوبيّة والشماليّة، ويقوم لفيف أولئك الأغراط مقام أبناء الأرض الصادقين، وهذا مما لا يسر عاقلاً وإن راق في نظر بعض المباركين.

وأملنا في الدولة العثمانية أن تقوم على قدم ثبت عليها الأسلافُ الأولون، وتقديم بعريمة ثابتة على المطالبة بحقوقها في مصر وإعادتها إلى حالتها الأولى قبل التدخل الإنجليزي، ثم تلقي بزمام الحكومة فيها إلى ذوي عزم من المصريين؛ صيانة لحوزة الإسلام.

وفي الخن أن دولة روسيا لا تفوتها هذه الفرصة لمساعدة العثمانيين؛ لتستميل إليها قلوبَهم، ولا تختلف عنها دولة فرنسا، فإن مصالح الدولتين في فتوحاتها بالبلاد الشرقية أَخْضَى على السياسيين فيهما — إن كانوا كما يقال سياسيين — بالاتحاد مع العثمانيين.^١

^١ مرة أخرى هذا هو المأخذ الوحيد على الأفغاني؛ فهو لا يزال يُصر في صراعه الصحفي على طرد الإنجليز والأجانب واستبدالهما برمز الدولة العثمانية؛ لأنها — على حد قوله — صاحبة الحق الشرعي مع المصريين في إدارة البلاد!

الفصل الخامس والسبعون

الباب العالى والإنجليز

يهتم المسلمون في كل أرض بأمر ما يجري في مصر، بل تذهب نفوسهم حسرات كلما رأوا أو سمعوا أن جندياً أجنبياً يجول في نواحيها مقاتلاً أو حامياً، وليس شأن مصر عندهم كغيرها من البلاد، فإنها بهرة الإسلام وباب الحرمين الشريفين، فكل نازلة بها ترزاً الدين وتصدح من أركانه.

وال المسلمين — في قلتهم هذا — ينظرون إلى الدولة العثمانية ويقلبون وجوههم في سماء سلطتها الحسية والمعنوية؛ يرجون منها عزمه ثابتة تُنقد بها الأرضي المصرية من تبُوُّ الأعداء، ويُحفظ بها شرف المسلمين ومكانتهم بين الأمم، وتصان بها ولاية الإسلام من السقوط في حبائل هذه الدولة الدهنية — دولة الإنجليز — التي أخذت على نفسها أن تبيد ولاية هذا الدين وتحول حابله على نابله، هذا فضلاً عما يراه كل مسلم من أن عزة الدولة العثمانية وشوكتها ليست إلا بسلامة ملكتها على مصر، فإن قضي فيها الأمر لغيرها — والعياذ بالله — أصبحت حقوق العثمانيين في جميع ممالكهم معرضة للخطر. فهذه دولة الإنجليز كمرض الأكلة يظهر أثره ضعيفاً لا يحس به عند بدئه ثم يذهب في البدن فيفسده ويبليه بدون أن يشعر المصابُ بالألم، هكذا شأن الإنجليز في لينهم وتلطفُهم وحلوّة وعودهم وتملّقهم وخضوعهم، يسلبون المالك ملكه بل الحيّ حياته وهو مأخوذ بما يشعرون له. ولا ريب في أن الإهانة التي تمس الدولة العثمانية تنال جميع المسلمين في الشرق والغرب، فإن كل مسلم — وله الحق — يعد هذه الدولة دولته ولو تباعدت الأقطار.

إن الهنديين إلى اليوم وما بعد اليوم يُباهون بها ويحسبون أنفسهم في عداد الأمم التي لم تذهب سلطنتها ويعتقدون أن لهم سلطاناً قوياً في الدولة العثمانية، بل يرون أن خلاصهم من قيد الرق الإنجليزي لا بد أن يكون يوماً ما بسعتها، وقد أظهرت أيام الحرب الأخيرة آثار لحمتهم معها باللحمة الملبية بما لم يبق ريبة لراتب في شدة صلتهم بها.

لهذا كنا نعجب لسُكُوت الدولة العثمانية في هذه الأزمان الأخيرة عندما اشتدت مقارعات السياسيين من كل دولة وتصارعوا في المفاوضات والمجادلات محاماً عمالهم من المصالح في مصر، مع أن الدولة كانت أحق وأولى من جميع الدول بالاهتمام وبذل الجهد للمناضلة عن حقوقها الثابتة إرضاءً لخواطير المسلمين عموماً، واستبقاءً لحسن عقيدتهم فيها، وحمايةً عن ممالكها وأهم مملكة منها، إلى أن أطلعنا على إعلان بعث به الباب العالي إلى الدول بطريق التلغراف فيما يتعلق بالاتفاق المنعقد بين فرنسا وإنجلترا في المسألة المصرية، أتى فيها على بيان العواقب السيئة التي تنشأ من طول مدة الاحتلال الإنجليزي في مصر.

وأظهر أن مجرد تحديد المدة لا يكفي الإنجليز عن حرصهم وغاية ما فيه أنه يستتبع مداعاة الدول والدولة العثمانية مع الإنجليز، وبرهن على أن بقاء العساكر الإنجليزية في مصر ليس بضروري في حل المسألة، فإن كانت الدول لا ترى في العساكر الأهلية كفاية لصيانة البلاد من الخلل، فالباب العالي مستعد لإرسال العساكر إليها على ما تقتضيه حقوقه فيها كما عرضه على الدولة البريطانية وجرى البحث فيه، ولكن حال دون الإجراء مواطن سياسية.

فإن لم تقبل الدول أن يستقل الجيش العثماني بحل هذا المشكل، فإنه يعرض عليها أن يحتل مصر جيش مختلط يؤلف من عثمانيين وفرنسيين وإنجليز وإيطاليين وإسبانيين وإلى الدول تعين الأجل في الوجهين.

وزاد الباب العالي في إعلانه هذا خدشاً لخواطير الإنجليز حيث قال: إن الإنجليز قد أنهوا أعمالهم في محو العصيان وتنشيط سلطة الخديو، إلا أنهم لم يأتوا في تحسين حال مصر وتقويم نظامها إلا بما فيه إجراء بعض مقاصدهم السابقة. وإنما نقول — كما يهتف به كل مسلم: إن من فروض الدولة العثمانية أن لا تدع وسيلة للذود عن مصر وَكَفَ يد الإنجليز عنها، وأن تكون همتها في ذلك كهمتها في الذود عن نفس الأستانة، وليس لها أن ترهب هذه الرعود وتلك البروق التي لا تعقب مطرأً.

ومن الحق أن نقول: إن في مكنته العثمانيين أن يقوضوا هذا البيت البلوري (بيت العظمة الإنجليزية) بحجر واحد فإذا اشترت الأزمة تيسر لهم السعي في الوئام بين الإيرانيين والأفغانيين والبلوجيين ولا يكفيهم هذا إلا كلمتين يستندان إلى أصل ديني قويم، وعندما يعرف الإنجليز مقام أنفسهم في الأقطار الهندية والممالك الشرقية.

هل تسلط الإنجليز في الأراضي الهندية الواسعة إلا بسبب المخاصمات المذهبية التي كانت بين الأفغانيين والإيرانيين؟ ولو نظرنا إليها نظر التحقيق لما رأيناها مما يوجب شق العصا وتقرير الكلمة، ولا ريبة عندنا أن رفع الشقاق وتجديد الوفاق بين تلك الأمم أيسِرُ شيء على الدولة العثمانية؛ لما لها من المكانة العليا في نفوس المسلمين قاطبة، ولا يظن أن اعتصام الإنجليز في جزائر بريطانيا والهند يقصر بالعثمانيين عن النكبة بهم لانقطاع السبل بين هؤلاء وأولئك وانسداد المسالك بين الممالك العثمانية والإنجليزية؛ فإن الظن يختلف عند وجود الاتفاق بين الأفغان والإيرانيين واتحاد كلمة الفرس مع العثمانيين.

هذه طريق محرمة وبندر عباس إلى بلوجستان مفتوحة للسايك مطروقة للسابل، وهي الطريق التي سلكها أول جيش إسلامي بعث به الحاج بن يوسف لفتح السندي، إن هذه لجولة لو كانت لآثارٍ في وجوه الإنجليز غبرة يضلون فيها عن رشادهم. وملعونُ أن الحي لا يسلم نفسه للموت بلا مُدافعة ما دام قادرًا عليها، يكفي لقيام مليون من المقاتلين الأفغانيين والبلوجيين، تحرك خمسة آلاف عثماني إلى أحياهم، لست أبالي أن أقول الحق إذا حصل التساهل في أمر مصر وانفتح باب المطامع لكل دولة صغيرة أو كبيرة وعزت بعد هذا وسائل التلاقي، فلتلت الدولة العثمانية على ما في الوضع. ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم.

أسف

غالت ناثة الدهر طراز العرب، وزهرة الأدب، صفينا أديب أفندي إسحق، قضى نحبه في شرح الشبوبية، وعنفوان الفتوة، وترك لنا قلوبًا آسفة، وشئونًا فائضة — إنا الله وإننا إليه راجعون.

الفصل السادس والسبعون

حرية الصحافة والاستعمار!

أَسْفَ يَصْهُرُ الْجَسْمُ وَيُذَبِّ الْفَوَادَ، وَحَسْرَةُ تَفَلْذُ الْأَكْبَادَ عَلَى قَبِيلِ مِنْ أَمَّةٍ أَوْ شَخْصٍ مِنْهَا ذِي هَمَةٍ يَسْتَعِينُ اللَّهُ فِي عَمَلٍ يُنْقَذُ أُمَّتَهُ مِنْ ضَعْفَةٍ أَوْ يَرْجِعُ إِلَيْهَا بِمَنْفَعَةٍ، ثُمَّ يَوْجَدُ لَهُ فِي وَجْهِهِ عَمَلُهُ مِنْ تَلْكَ الْأَمَّةِ مِنْ يَنْجَمُ كَقْرَنَ الْمَعْزَ لِيَفْقَأُ عَيْنَ الْعَامِلِ الْفَاضِلَةِ، فَيَقْطَعُ عَلَيْهِ أَسْبَابَ الْعَمَلِ وَيَعْرِقلُهُ عَنِ الْقَصْدِ لِيَكْسُبْ مَدْحَةً بَاطِلَةً أَوْ مَنْفَعَةً عَاجِلَةً.

وَإِنَّمَا مُثَلُّ مَنْ يَكُونُ عَلَى هَذِهِ الصَّفَةِ فِي الْأَمَّةِ كَمَرْضِ السَّكَتَةِ فِي الْبَدْنِ، أَوْ الصَّدَعِ فِي الرَّأْسِ، أَوْ الْخَبْلِ فِي الْعَقْلِ، أَوْ الشَّجَى فِي الْحَلْقِ، أَوْ الْقَنْدِي فِي الْعَيْنِ؛ هُؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَعْدُونَ بِكُلِّ صَرَاطٍ يُؤْعِدُونَ وَيَصْدُونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْحَقِّ، وَيَبْغُونَهَا عَوْجًا.

لَوْ كَانَ فِي هُؤُلَاءِ الْعَصَالِ الْطَّبَاعِ (الْأَعْصَلُ: الْمَعَوْجُ فِي صَلَابَةِ) بَقِيَّةً مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ أَوْ أَثْرَ مِنَ الْعُقْلِ يَدْرِكُونَ بِهِ مَا يَنْشَأُ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْجَزِئِيَّةِ مِنَ الْمَضَارِ الْكَلِيَّةِ، وَيَشْعُرُونَ بِهَذَا الْجَرْمِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَدْكُرُ الرَّوَاسِيُّ وَيَهِدُ الشَّامِخَاتِ؛ لِذَاهِبِوْ خَجْلًا وَاسْتَتِرُوا عَنِ النَّاسِ بِحَبَابِ الْعَدْمِ، وَتَمْنَعُوا لَوْ مَحِيتُ أَسْمَاؤُهُمْ مِنْ لَوْحِ الْوِجْدَوْ، وَلَكِنْ يَظْهَرُ مِنْ جَرَأَتِهِمْ عَلَى خَطْبَيِّهِمْ أَنَّهُمْ ذَهَلُوا عَنْ أَنفُسِهِمْ فَلَا يَعْلَمُونَ مَاذَا يَعْمَلُونَ.

هَذَا الْعَمَلُ الصَّغِيرُ الَّذِي يَجْلِبُ عَلَى الْأَمَّةِ شَرًّا كَبِيرًا أَوْ يَحْرِمُهَا مِنْ خَيْرِ عَامٍ؛ لَيْسَ فِي وَسْعِ حَكِيمٍ مِنَ الْبَشَرِ أَنْ يَحْدُدَ دَرْجَتَهُ مِنَ الْخَسْرَةِ وَالسَّفَالَةِ، وَلَا فِي طَوْعَهُ أَنْ يُحْبِطَ بَعْنَهُ الْفَسَادُ الَّذِي ضَرَبَ فِي طَمْعِ شَخْصٍ يُقْدِمُ عَلَى مَثْلِهِ، وَلَا تَوْجَدْ كَلْمَةٌ وَلَا جَمْلَةٌ وَلَا كِتَابٌ يَفِي بِبَيَانِ حَالِهِ، سَوْيَ أَنْ يَقَالُ: خَائِنُ مَلْتَهِ وَوَطْنَهِ.

أولئك أشخاص كثيراً ما يوجدون في الأمم المعتلة، يُشبه أن يكون منهم صاحبُ جريدة «أوده أخبار» التي تطبع في «لكنثو» من بلاد الهند، أنفض رأسه ورفع عقيرته على جريدة «أمير تابازار برتركا» التي تُنشر في بلاد «بنجالة»، كتبت هذه الجريدة «البنجالية» فصلاً بيّنْت فيه سوء معاملة الحكومة الإنجليزية الهندية وخسونتها على الهنديين وإهانتها لهم، وإجحافها بحقوقهم، وحرمانها لهم من خدمة أوطنهم، وإثقالها عليهم بالضرائب الباهظة، واستئثارها بجميع ما يكسبون من كدهم وتعبهم، مع احتكارها جميع ينابيع الثروة، مما أوجب شدة الضيق والضنك في عامة الأقطار الهندية وكان سبباً في انحراف قلوب الهنديين عن الحكومة ونفرتهم منها.

ثم انبعثت هذا بقولها: «فليس لحكومة الهند بعد ذلك كله أن ترجو مساعدة رعاياها لها عند وقوع حرب بينها وبين الروس، ولا أن تؤمل في العساكر الهندية بذل أرواحهم في الدفاع عنها؛ فإن الجندي يشركون الأهالي فيما ألم بهم ويأملون كما يأملون، وليس من الحق لحكومة بريطانيا — مع سلوكها هذا — أن تلوم الهنديين إذا آثروا عليها دولة الروس واختاروها حاكمة لهم». هذا مجمل ما قالت.

وأقل ما كان يترتب على هذا الكلام وأمثاله من الفوائد هو تنبه الحكومة الإنجليزية لما خرجمت به قلوب الأهالي وأحرجت صدورهم، فتعدل مشربها وتقوّم منهجها مع الهنديين وترفع عن كواهلهم بعض الضرائب الثقيلة، وتمنح الوطنيين بعض الوظائف في الدوائر الملكية أو العسكرية، وتكتف عن إهانتهم وتذليلهم؛ ليكون لها عدة إذا دهمتها أم صبور (الداهية أو الحرب الشديدة) من جهة الشمال.

وكان على الهنديين — خصوصاً أرباب المعرف منهم — أن يؤيدوا القائل في قوله أو يحمدوا له سعيه أو يتركونه و شأنه، لعل خيراً كثيراً أو قليلاً يستتبع ذلك لأوطانهم وأبناء أمتهم، ولكن وأسفًا! بدل هذا يلتوي صاحب جريدة «أوده أخبار» ويجرور عن جادة الصواب في تقرير الجريدة البنجالية وتعنيفها، ثم يطلب من الحكومة الإنجليزية أن تمحو حرية الجرائد من بلاد بنجالة.

وهذه الجريدة وإن وصفها مقوم الجرائد في الهند (مدير المطبوعات) بأنها متملقة معمقة لحكومة، إلا أنه ما كان يخطر ببالنا أن تتحطّ وتسفل إلى هذا الدرك، ولا أن ترتكب في تملقها هذه الجريمة العظمى، وهي: طلب محو الحرية في البنجالة، وصادُّ أبناء وطنها عن التنبية على بعض حقوقهم وشكایة شيءٍ من أربزائهم — لا حول ولا قوة إلا بالله.

الفصل السابع والسبعون

تركيا

ليس في التعلات أعجب مما يتعلل به الإنجليز، ولا في المحاورات أغرب مما يستدلون به، لا مقدمات بينة ولا حجج قيمة، وأقوى ما يكون من أدلةهم أولى به أن يكون في معرض الهزل من أن يكون في جانب الجد، ولكن أغرب من جرأتهم على الجهر بمداعبة الأمم بما هو أشبه بالترهات: إصغاء الآذان لما يقولون وانصراف الأذهان عن بيان الهجو فيما يوردون، وإظهار الوهن فيما به يتعللون؛ ليتهتك الستار عن أغراضهم، وتظهر خفيات مقاصدهم، وترتفع الريبة عنم يخدعون بملاءباتهم.

إن الإنجليز ساقوا جيشاً إلى مصر وبؤواه أرضها مدة لا تزيد على سنتين، فكان حُول جيشهم سبباً في انحلال النظام، واحتلال الأحكام، وعموم الفساد في أرجاء البلاد، حتى صار الناهبون وقطّاع الطرق على نحو الجيوش المنظمة سرايا وكتائب تزحف للغارمة على القرى والبلدان ضاحية بلا استثار، وسرى الاختلال في عموم الأعمال الإدارية والقضائية، فقدت الأمانة على الحقوق كافة، وسقطت البلاد بسبب ذلك إلى درك من الضيق والعسر لم يكن يخطر على بال، وما كان شيء من تلك الفظائع ولا واحد من هذه المفاسد ولا قليل من هاته الشدائـد موجوداً أيام الحركة التي سموها فتنة عسكرية، واحتـروا منها دليلاً على الفوضى، وزعموا فيها وسيلة للتدخل بعساكرهم.

حالة مصر شاهدةٌ على أنه لم يكن للاختلال فيها اسمٌ ولا للفوضوية أثرٌ إلا بعد ما وطئ الإنجليز أرضها، ومع ذلك يزعمون أنهم ما أتواها إلا لتقرير الراحة وإصلاح النظام وإزالة الفوضى، ويريدون أن تمتد إقامتهم فيها إلى أجل بعيد؛ ليتمموا القصد

الذى أتوا إليه، وشرطوا جلاءهم عنها برسوخ الأمان وانقطاع شأفة الاعتداء، واجتماع خواطر الأهالى على الرضا بما يُرسم عليهم من السائدين في ديارهم والتسليم لما يُقضى به فيهم!

ألا يعجب من هذه التعلة؟! هل يوجد أبله في أي أمة يظن في المصريين الركون إلى السكينة ما دام الجيش الأجنبي متبوئاً ديارهم؟! أليس وجود عسكر أجنبي تحت أنظارهم كافياً في نفرة قلوبهم وازدياد شغفهم؟! الطبيعة تحكم باستحالة ما يطلب الإنجليز منهم، والتجربة من مدة سنين طبقت بين الحكم العقلي وبين الواقع الحقيقى، هل يمكن سلامه خواطر المصريين من القلق بعدما علموا أن الإنجليز لم يفتوحوا بلدًا من بلاد الشرق إلا تحت راية هذه الحجج وعلى هذه الطريقة التي يسلكونها في مصر؟! وهل كان لهم سلطان في جهة من جهات الشرق إلا بدعوى أنهم يُريدون فيها الإصلاح ثم ينجلون عنها أتقياء الراحات أعضاء الذيول؟!

ماذا يريد الإنجليز من تقرير الراحة بعساكرهم في مصر؟ هل يُريدون مكافحة اللصوص حتى يقهروهم على طرح السلاح ويقروا الأهالى شرهم؟! إن كان هذا قد صدّهم فيا خيبة الأمل! فإن شيئاً من هذه الفظائع لم يكن إلا وجيوشهم نازلة بالبلاد، فكأنّما كانت تلك الجيوش مثاراً لهذا الفساد، مضى عليها سنتان وهي في معاقل مصر وهبّت أعصار السوء بقدومها، وكلما طال الزمان زاد الخطر وقويت عصابات الشر، فماذا قد يكون منها في ثلاثة سنين ونصف إلا مثل ما كان من أثراها في سنتين أو أشد فتنة؟ فكيف يُعقل أن يكون بقاوها في مصر مُفيداً لرد الأمان إليها، وهل تكون علل المفاسد مجلبة للمصالح؟! نعم يكون هذا إذا قيل: إن حصو الرمضاء يطفئها أو إن وقود النار يخدمها! هل يقصدون من تقرير الراحة إخماد فتنة السودان؟! إن صح هذا القصد منهم فمتى سعوا إليه، وأي جيش ساقوه، وأي قوة وجهوا بها لتكسر سورة الثورة وتمحو أثراها؟

تهافتو بجيش عظيم على منازلة رجل من رجال محمد أحمد «عثمان دجمة» في سواحل البحر الأحمر، فما كانت إلا مهارشة هرت فيها العساكر وبلغ صوت وقوف القواد إلى أقصاصي المسكونة، وارتدى بهم الذعر إلى البحر، وقفلوا إلى ديارهم يتلفتون إلى ما وراءهم خوفاً ورهبةً.

كان الواجب أن يتبعوا عثمان دجمة إلى بربور والخرطوم حتى يُبَدِّدوا جُنْدَه ويلحقوا به صاحب الدعوة، فإن عجزوا عن الكل فلا أقل من أن يأتوا على بعض، فما الذي

صدهم عن سبيل القصد، لو كانوا فيه من الصادقين؟ رجعوا وتركوا جوردون باشا في فم التنين ثم التجئوا إلى ملك الحبشه؛ ليثيروا به حرباً صليبيّةً تسود بها وجوه الكاذبين الذي يزعمون أنهم دعاة الإنسانية ورعاة التمدن.

فماذ يكون من عساكرهم لو أقامت في مصر أضعاف ما أقامت؟ أظن لا يختلف المستقبل عن الماضي إلا بعظام خطوبه وشتداد نوبه.

هل يبتغون المحافظة على حدود مصر الأولى وحمايتها من هجمات السودانيين، ويقفون عند حد المدافعة ولا يذهبون إلى ما وراء ذلك؟ إن كانت بغية البقاء في مصر ما دامت مصر أو السوداناً؛ لأن صيال التأثرين يتوقع في جميع الأطراف من حدود مصر.

وأداموا قائمين بنشر هذه الدعوة، بل كلما طال الزمن اشتد خطرهم وقويت أضلاعهم، وكل كرة لهم أو فرة تقوم بها للإنجليز حجة في ملزمة الحدود المصرية للدفاع عنها فلا يكون لحلول الجيش الإنجليزي بأرض مصر أبداً ينتهي ولا أجل ينضهي، فما لهم ينسبون على الدول والدولة العثمانية والمصريين بتحديد مدة الحلول إلى ثلاثة سنوات ونصف مع سرد الألفاظ المبهمة كتقرير الراحة وحفظ النظام وإعادة الطمأنينة ... إلخ، مما يُسمع ولا يُفهم؟!

وليس من المبالغة أن نقول: إن حلول الجيش الإنجليزي كان — وسيكون — من أعظم الأسباب لقوة محمد أحمد، ولو لا وجود العساكر الإنجليزية في مصر ما تمكن الرجل من الظهور بهذه الدعوة العظيمة، ولقد كان يتبرأ من نسبتها إليه أيام كانت الحكومة المصرية خالصة للمصريين، بل ما كان يجد أحداً يلبي دعوته أو يدخل تحت رايته.

هذه تواريخ الأمم وهذا سير طبيعة الكائنات، ترشد المستبصرين إلى أن مثل هذه الدعوة لا يقوم قائمها في أمة إلا عند اشتداد الخطوب عليها وزحف الأقرباء إليها، أي حجة لمحمد أحمد في دعوة الناس إليه وأي نفثة تجمع القلوب عليه أقوى من أن يقول: إن الإنجليز من نيتهم الاستيلاء على أرض مصر، وهي في عداد الأراضي المقدسة وباب الحرمين الشريفين ومهد العلوم الدينية ودعاية القوة الإسلامية، فمن كان يؤمن بالله ورسوله فليُحِبْ داعي الله في مدافعتهم، وإنقاذ البلاد من رجسهم، وهذا الكلام مما يزعج قلب كل مسلم ويبعثه على الاتفاق مع صاحب النداء.

هل يُتَوَهَّم بعد سقوط الخرطوم وجيش الإنجليز حالاً بأرض مصر أن تقف دعوة محمد أحمد عند تخوم محدودة وهو الزاعم أنه منقذ المسلمين؟ هل يبعد عند العقل أن

يمتد لياق شعلته إلى أقطار إسلامية يخشى الإنجليز منها غائلة الفتنة كما يخشونها في الهند؟ قد نرى الحالة أقرب إلى المخافة منها إلى الأمان، وسيعلم الإنجليز أنهم كانوا أحرجَ الناس إلى السلم وأفقرَهم إلى القناعة.

أي قوة تقف هذه الدعوة وتحجبها عن الانتشار، بل تردها على قائلها وتدهب بها لأن لم ينطق بها لسانٌ أو يُذعن لها جنَان؟ ليس لقوة أن تأتي بهذا الأثر على أحسن وُجوهه إلا قوة العثمانيين وأولي العزم من المصريين.

هل تظن دولة بريطانيا أن عقد مؤتمر لتصفية الدين المصري يبطئ سير محمد أحمد، أو يخفف من وطأته، أو يرده على عقبه، فتثال مقصودها وتصبح آمنة مطمئنة في ديار مصر؟ إنها إلى الآن في عجز عن إرضاء الدول بقبول الأصول الابتدائية التي تحب أن تكون موضوعاً لبحث المؤتمر.

إن تصفية الدين المصري يهم إنجلترا وحدها ولا نظنه يهم الدول ولا يهم محمد أحمد، وإنما نرى الدول — خصوصاً دولة روسيا والنمسا والأمة الفرنسية — مهتمة كل الاهتمام بكشف مقاصد الإنجليز والبنش عن غاياتهم فيما كانوا شرطوه من تخصيص البحث بالمسائل المالية، حتى إن شدة المعارضات، وكثرة المفاوضات، والاشتداد من الدول في طلب تعميم البحث في المؤتمر ليحيط بجميع فروع المسألة المصرية؛ أحدث شگاً عند صاحب جريدة التايمز في انعقاد المؤتمر، ودفع بالسيو جلادستون إلى ربوة شديدة، فهو من أمره في حيرة لا يهتدى إلى ما يسكن به خواطر الدول، بل ولا ما يقنع به أوداءه المخلصين، بل ولا ما يوفق به بين زملائه في الوزارة؛ لتفرق كلمتهم وتباين آرائهم.

أما قائم السودان فهو في إعراض عن كل هذه المجادلات وإغضاء عما يكون في عرضها من المحاولات، سواء عنده انعقد المؤتمر على رغبة الإنجليز أو على وفق الآراء العمومية، وهو مغذٍ في سيره، ذاهب وراء فكره، ولا يمر يوم من أيامه إلا ونسمع فيه بخبر فتح أو حدث زحف، حتى جاءت الأخبار الأخيرة بدخوله عاصمة السودان «الخرطوم».

• وورد في برقية من القاهرة إلى «الدليلي تلغراف» بتاريخ ٣ يوليه أنه وصلت رسائلٌ من بعض عساكر السودانيين وهم في مدينة الخرطوم إلى أناس يوثق بهم في القاهرة، ذكر فيها أن حامية المدينة ضعفت عن دوام المدفعية، وأعلن محمد أحمد بتتأمين جميع السكان على أرواحهم وأموالهم وأخذ على نفسه وقايتهم من كل ضرر يتوقعونه، فبضعف الحامية وثقة الأهالي وبعد الفاتح

فتحت المدينة بغایة السهولة في نهاية شهر مايو بدون سفك دم، وأن كثيراً من الإفرنج أسلمو، وأن جوردون مع كونه مستمسكاً بدينه ولم يبدل دخل في أمان الفاتحين وسيق إلى محمد أحمد محفوظاً لم يمسه سوء.

• وفي خبر آخر بالتاريخ عينه أن القسيس «سوارو» وكهنة الرسالة الكاثوليكية في السودان وردت منهم أخباراً من أهالي الخرطوم تُفيد أن المدينة فُتحت ووقع جوردون أسيراً، وما زال إلى الآن على قيد الحياة، ونقلت جريدة «الديلي تلغراف» أن تاجراً في القاهرة أتاه كتابٌ من جنوب بربير يخبره أن الخرطوم مفتوحة الأبواب لمن يقصدها بالتجارة وإن كانت في قبضة جيوش السودان. وفي رسالة من مكاتب التان بسوakin أن جماعة من الوجاهة في مدينة الخرطوم دفعتهم الحمية للانتقام من جوردون أخذًا بثأر الضابطين اللذين قتلهم بتهمة الخيانة (حسين باشا وسعيد باشا)، فهجموا عليه وقتلوه، ثم اتفقوا مع المحاصرين على تسليم المدينة فدخلوها آمنين، ويزعم المراسل أن للحكومة البريطانية علماً بهذه الحادثة من زمان طويل إلا أنها كتمته خيفة هيجان الأفكار عليها. ونحن لا يهمنا موت جوردون ولا حياته ولا راحته ولا عناؤه، وإنما يظهر من كل هذه الأخبار أن الخرطوم أصبحت سودانية لا إنجليزية ولا مصرية، فإن تمكنت وزارة مسيو جلادستون من تفنيد المستفيض من هذه الروايات فربما يصعب عليها المكابرة فيما يعقبها. إن شوكة الداعي تقوى بعد فتح الخرطوم، وتمهد له سبلًا عديدةً للوصول إلى مصر العليا أو السفل، وإن تأثير دعائه يقطع مسافات بعيدة في هنئيات قصيرة.

ماجٌ خواطٌ المصريين واهترت قلوبهم؛ لسماع هذه الأخبار، وربما نسمع بعد اليوم أن ريح الجنوب حملت قسطلًا تشيره سبابك خيل الفتنة وجاوزت به حدود مصر، فإن كان هذا شأن الحركات في بلاد السودان فتعليق الإنجلiz جلاءهم على انقطاعها يشهد برغبتهما في الاحتلال الدائم ما بقي محمد أحمد وما بقيت له خلفاء. على أننا نرتاب في قدرة عساكرهم على صيانة التخوم المصرية، فقد ظهرت نهاية قوتها على سواحل البحر الأحمر. نعم ربما يختلج بخواطِر الوزراء البريطانيين أن يخدعوا الدولة العثمانية ويحملوها على الحكم بعصيان محمد أحمد وتضليله ليحولوا القلوب عنه ثم يجنوا الثمرة كما جنوا من الحكم بعصيان أحمد عرابي، ولكن قد تبين

الرشد من الغي، وظهر للدولة العثمانية سوء طوية الإنجليز وعدوانهم على حقوقها، فليس من المحتمل أن تتخذ لهم مرة ثانية ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. كما أنه يشبه الحال أن عثمانياً يجُوز سوق الجيوش العثمانية إلى السودان لتذليله وعساكر الإنجليز في القاهرة، ينتظر العثمانيون بعد انقضاء الفتنة نهاية المراوغات الإنجليزية حتى تئول مسألة مصر إلى مثل ما آلت مسألة بوسنة وهرسك مع دولة النمسا، فعلى العثمانيين وأصحاب العزيمة من المصريين أن يجمعوا أمرهم على كشف هذه النازلة؛ صوناً لأوطانهم، ولاتقاء شر ربما يحدث في جهات أخرى، فإن قضى حرص دولة الإنجليز بصد أرباب الحقوق الشرعية عن أداء المفروض عليهم جهلاً منها بمصلحة نفسها وبمصالح تلك البلاد؛ فعلى العثمانيين أن يُقيموا الحجّة بسيوفهم وجيوشهم لا بالرقائب والأوراق؛ فإن هذا فساد لو أهمل لعَمَّ وعمت زوايده، ولا نظن أن دولة بريطانيا تثبت على نفختها هذه، فإنها ستشتغل بداخل البيت عن خارجه بعد قليل.

لسنا نقولُ ما نقولُ جزاً، ولكن دعوة القائم السوداني أُشربتْ قلوب الأكثرين في الهند وبلوستان وأفغانستان، وقد علق شرر الثورة بأهداب الخواطير فلا تثبت أن تلتهب، فلله ولله العثمانية أن تمد نظرها إلى أعمق المسألة وتقدر قوة الإنجليز وأهبيتهم العسكرية، مع ملاحظة ارتباكاتهم في ممالكهم وظهور عجزهم وضعفهم في الحوادث الأخيرة، ومراعاة آراء الغالب من الدول العظيمة.

وبعد الإحاطة بهذا كله — وهي أسهل من كل سهل — تظهر عزماً ثابتاً وبأساً قوياً يليق بدولة عظيمة كدولة آل عثمان طالما ظهرت على يديها خوارق العادات — والله الأمر من قبل ومن بعد.

الفصل الثامن والسبعون

الباب العالى

ذكرت جريدة إستندار أن معارضه الباب العالى لمطامح إنجلترا ليست قاصرة على المانعة في جعل مصر حكمة بلجيكية في أفريقيا تحت حماية الدول، كما في عزم جلادستون أن يعرضه على المؤتمر، بل صرحت الدولة العثمانية لسفيرها في لندن مرزوس باشا بأنه متى وضع لائحة جلادستون موضع البحث في المؤتمر، بعثت إليه بتعليمات للمعارضة الشديدة في هذه المادة وكل ما يكون من قبيلها (ما يمس حقوق الدولة والمصريين).
ولا نرتاب في أن الدولة العثمانية – بعزمها هذا – قد قامت بفرضية شرعية، ومثلها من يقوم بها في مصر وفيسائر المالك العثمانية؛ فإن كل ذي بصيرة يدرك أن صيانة جُزء من مماليكها موقوفٌ على صيانة الآخر، والتفريط في شيء منها يُحدث الخلل في الباقي. وكفانا عبرة أن مجرد طلب جلادستون لحرية قناة السويس حملَ دولة الروس على طلب بوغاز البوسفور، كما ذكرتهُ الجرائد الروسية، ودعا بعض سياسي الروس أن يقول: إن المسألة المصرية قد صارت الآن مسحراً للمسألة الشرقية، ولا نظن شيئاً من هذا يخفى على عقلاً العثمانيين.

الفصل التاسع والسبعون

يقطة من سنة

﴿رَبَّنَا آتَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيْئَةً لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (الكهف: ١٠)، ربنا اشرح صدورنا لما فيه خيرنا وخير أهل مِنْتَنَا أجمعين، اللهم إنك تعلم خيرنا وفلاحنا في اجتماعنا وائتلافنا، وارتباطنا بعلاقة ديننا، واعتصامنا بحبلك المتين، اللهم كفر عنا سيئات التفريط فيما أوجبت علينا من ذلك بالهداية إلى الإنابة والإعانة على تلافي ما فرط والقيام بالمستطاع مما فرست.

مضى زمانٌ فرط فيه الهنديون عند تداخل الإنجليز في شؤونهم فتدابرلوا، وحول كلُّ وجهه عن الآخر، ولم يُصغوا لدعوة الله في طلب الاعتصام بحبله، فذاقوا وبال أمرهم، وسقطوا جميعًا تحت سلطة الدولة الإنجليزية، وسادت عليهم واتخذت السادات منهم خدماً لرجالها وخولاً بعد أن كانت تدعى أنها خادمة لهم أمينة في الخدمة، ولم يهن لها أن تكون سيدة عادلة، بل تجاوزت فيهم حد العدل، واستبدت عليهم ظالمة جائرة.

فلما لفحتهم نيران القسوة، أقبل بعضهم على بعض ونهضوا جميعًا؛ للتملُّص من أغلال ظالمتهم، من نحو أربع وعشرين سنة. إلا أن إخوانهم الأفغانيين والبلوجيين والإيرانيين كانوا في غفوة عما نهضوا إليه ولم يمددوا لهم يد المساعدة، بل كان الإيرانيون في حرب مع الإنجليز ولكن لم يواصلهم الهنديون ولم يرتبطوا بهم في التعاون على شأنهم، كما أنهم لم يرتبطوا في ذلك مع العثمانيين، فإهمال جيرانهم ورسوخ أقدام

العدو بينهم؛ كان سبباً في تغلب الظلمة الأغраб عليهم، ولو عقل المهملون لعلموا أن العدو إذا تمكن في الهند قويت شوكته ثم كر عليهم، وأوقع بهم ما أوقع بإخوانهم.

بعد هذا زحف العدو الغريب على بلوجستان واشتغل معها بالمنازلة، وف祸 الأفغانيون والإيرانيون في تعزيزهم، فتم له بذلك أن يسود في جزء عظيم من أراضيهم، ثم انقلب على الأفغانيين وكانت بينه وبينهم حرب هائلة، امتد زمنها نحو سنتين وما نبض في الهنديين عرق، ولا امتد من الإيرانيين ساعد، ولا كانت بينهم وبين العثمانيين وصلة، ولو كان لجميعهم بصر بالعاقبة لأدركوا أن حياة كل منهم معقودة بحياة الآخرين.

بالغ الخصم في تطاوله حتى اعتدى على المالك العثماني بسوق جيوشه إلى الأقطار المصرية التي هي أعظم إمارة من إمارات العثمانيين، بل أهم أقطار المسلمين، وهو الآن في محاولة الاستيلاء على تلك البلاد، والاستبداد بالحكم فيها غير مبال بحقوق الدولة العثمانية، ولا محترم ولايتها الشرعية، وكان المسلمون لبداية الأمر على مثل تفريطهم السابق، غير ملتفتين إلى ما حمل بهدا القطر الإسلامي العثماني، ظنّاً منهم أن العدو يصدق مرة في وعده أو يخشى عاقبة السوء من طمعه، فلما رأوه غريقاً في غيه، متغللاً في سيره، مغروراً بقوته، ناصباً لحبيته، اهتزت رواسيهم وتحركت ثوابتهم، وتتباهوا من سباتهم وندموا على ما سلف من سابق التفريط، وأحسوا أن ما أصاب اليوم بعضهم فلا بد أن يمس يوماً جميعهم، فصارت المسألة المصرية سبباً في إحياء الأخوة الدينية، كما بشرتنا به الرسائل الواردة إلينا من فارس والهند وأفغانستان.

فلو تمادي الإنجليز في حرصهم، وحملهم الشره على غلط حقوق العثمانيين، وثبتت الدولة العثمانية في المدافعة والمطالبة، لوجد لها من المسلمين القادرين على نكبة الإنجليز مَنْ يقوم بنصرها؛ أداءً لما أوجب الله عليه.

وإنا بعد أداء الشكر لأولئك المؤمنين الصادقين، على ما أظهروا من حميتهم الدينية التي أشارت إليها رسائلهم؛ نرحب إليهم أن يحافظوا على وحدة العقيدة العامة وجامعة الشريعة الحقة، وأن يُصنعوا إلى أصوات الغilan التي تناذلهم في الليالي المظلمة، بما يُحاكي أصوات الإنس وإنما هي أصوات مردة الشياطين؛ يبتغون تفريغ الكلمة، وتشتيت الشمل وإخمام الغيرة، ونسأل الله تعالى ثباتاً لل المسلمين على أصول الاتحاد وقواعد الألف، وأن لا يميل بهم الهوى إلى جعل الاختلاف في المسائل الثانوية سبباً في حل الجامعة الإسلامية، التي قوامها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن لا يجعلوا هذا الخلاف نزريعة العدو إلى محق ملتهم وإفساد ولائهم — والله يهدي من يشاء إلى سوء السبيل.

الفصل الثمانون

حيلة إنجليزية

ذكر كثيرون من الجرائد الهندية، وفيها جريدة «أخبار عام» أن عدداً وافراً من الإنجليز يدخلون في دين الإسلام، في هذه الأيام، وكثرت الظنون في هذا العارض الجديد، الإجماع على أن ليس الباущ عليه حسن العقيدة في هذا الدين، والإذعان لأحكامه القدسية، وإنما القصد منه أن يخدعوا المسلمين بمشكلاتهم، ليركنا إليهم، ويحسنوا الظن بهم، فيبيحوا لهم بما تُكّنه صدورُهم من خواطر الميل إلى دعوة محمد أحمد السوداني. وهذا يدل على أن هذه الدعوة أخذت من قلوب الهندية، وعظمت منزلتها فيهم، وتوقع الإنجليز شرّاً من فشوها، وامتداد شهرتها بين مسلمي الهند، وطلبوها للاحتجاط هذه الوسائل.

وقالت بعض الجرائد: إن الخشية من الإذعان لدعوة السوداني قد انضم إليها الرهبة من قرب الروس لتخوم الهند، فكان من مجموعهما فزع شديد، حمل الإنجليز على التوّد لل المسلمين، والظهور في مظاهر العُذُول المنصفين، بل الأصفياء المخلصين، حتى إن الإخلاص والعدالة تحمل الكثير منهم على التدين بالدين الإسلامي ليملكون بذلك قلوب السذج، ويُمْحَصُوا بعض الصدور من الحقد عليهم، ويتحققوا به شرّاً عاجلاً أو آجلاً. ولكن الصيف ضيّعت اللbn.

كان يمكن لهم ذلك بالاعتدال في السلطة، والأخذ بشيء من الصفقة قبل اقتراب النكبة، أما الآن وقد أوفرت الصدور غلاً، ووقرت القلوب أحقاداً، وتحقق عند الكافة من المسلمين، بل وغيرهم من الهندية، أن الإنجليز لهم في كل مصلحة مفسدة، وفي كل حسنة سيئات، وفي كل صفاء دخل؛ فهم الخادعون الخائنوون، بل هم الكاذبون المنافقون. هذه

صفاتهم لم يبق فيها ريبة عند مسلم، فلا تفيدهم الحيلة أدنى فائدة، ولا تعود عليهم إلا بأسوأ عائدة، ولا ينالون منها إلا وقوف المسلمين على غاية سيرهم عند عجزهم، وازديادهم بصيرة في أمرهم، ويقيّنُوا بضعفهم، حيث لم يبق لديهم من الوسائل إلا خلع بينهم، والدخول في دين المسلمين إرضاءً لخواطرهم.

ولسنا في حاجة لتحذير المسلمين منهم؛ فإن لنا يقينًا بأنه لا يوجد مسلم في أقطار الهند جميًعاً إلا وهو على علم تام بما يريد به حاكموه من الإنجليز، فما هو بمُؤمنٍ لهم حتى ولو كانوا صادقين.

الفصل الحادي والثمانون

وداد الإنجليز لل المسلمين

يَظُهرُ مِن الرَّسَائِلِ وَالْبَرْقِيَّاتِ الْوَارِدَةِ مِنَ الْقَاهِرَةِ أَنَّ الْإِنْجْلِيزَ وَفَقُوا لِإِلَهَابِ حَرْبِ صَلِيبِيَّةِ بَيْنَ الْحَبْشَةِ وَمُسْلِمِيِّ السُّودَانِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَاذَا تَكُونُ الْعَاقِبَةُ إِذَا طَارَ شَرَرُهُمْ، رَبِّمَا لَا يَوْجُدُ مُسْلِمٌ يَعْتَقِدُ بِدِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا وَيَسْعِي بِبَذْلِ رُوحِهِ وَمَالِهِ لِإِحْبَاطِ أَعْمَالِ الْإِنْجْلِيزِ وَرَدِّ كَيْدِهِمْ، خَصْوَصًا مُسْلِمِيِّ الْهَنْدِ الْمُغْرُورِينَ بِخَدِيْعَةِ حَكَامِهِمْ، وَدُعَوْاهُمْ أَنْ دُولَتِهِمْ نَصِيرَةُ إِسْلَامِ، وَحَلِيفَةُ الدُّولَةِ العُثْمَانِيَّةِ.

فَمَا نَقَلَتِهِ الْأَخْبَارُ بِتَارِيخِ ١٩ يُونِيُّو سَنَةِ ١٨٨٤، أَنَّ مِنْ أَحْكَامِ الْاِتْفَاقِ الَّذِي عَقَدَهُ الْأَمْيَالُ هَفْتَ مَعَ مَلِكِ الْحَبْشَةِ: أَنْ تَكُونَ مَصْوَعَ مَبَاحةِ لِرْسَاءِ الْمَرَاكِبِ الْحَبْشِيَّةِ ابْتِدَاءً مِنْ شَهْرِ سَبْتَمْبَرٍ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ هَذَا بِنَزْعِهَا مِنْ أَيْدِيِّ الْمُصْرِيِّينَ، بَلِ الْعُثْمَانِيِّينَ، بَلِ الْمُسْلِمِينَ، وَجَعَلُهَا بَلَدًا إِنْجْلِيزِيَّةً يَبِيِّحُهَا الْإِنْجْلِيزُ لِمَنْ شَاءُوا وَيَمْنَعُونَهَا مِنْ أَرَادُوا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ بِتَقْدِيمِهَا أَقْطَانًا مَلِكَ الْحَبْشَةِ.

وَمِنْ أَحْكَامِهِ: أَنْ يَأْذِنَ الْمَلِكُ لِلْحَامِيَّةِ الْمَصْرِيَّةِ أَنْ تُقْيِمَ حَصُونًا عَلَى حُدُودِ مَمْلَكَتِهِ حَتَّى إِذَا هَجَمَ السُّودَانِيُّونَ عَلَيْهَا – بِاعتِبَارِ أَنَّهَا حَصُونٌ مَصْرِيَّةٌ – تَذَرَّعَ الْمَلِكُ لِمَوَاثِبِهِ بَدْعَوْيَ أَنَّهَا فِي حُدُودِ بَلَادِهِ، فَتَشَبَّهُ الْحَرْبُ وَيَحْمِي وَطِيسُهَا بَيْنَ مَسِيقِيِّ الْحَبْشَةِ وَمُسْلِمِيِّ السُّودَانِ.

وَلَا كَانَ غَرْضُ الْحُكُومَةِ الْبَرِطُونِيَّةِ أَنْ تَضُمَّ مَصْرُ وَمَلْحَقَاتِهَا إِلَيْهَا – كَمَا يَدْلِي بِهِ اهْتِمَامُهَا بِمَدِ سَكَةِ الْحَدِيدِ بَيْنَ سُواكِنَ وَبِرْبَرٍ – أَخْذَتْ عَلَى الْمَلِكِ عَهْدًا بِقَبْوِلِ مَا

تحكم به ملکة إنجلترا عند عروض مشكلاتٍ بينه وبين الحكومة المصرية وإنْ جرى الحكم على العُرف ولم تلاحظ فيه الأُصول السياسية.

هذه هي الدولة التي بلغ الخافقين صوتُ دعواها أنها حامية الإسلام والمسلمين، وظهيره للعثمانيين! فليعلم كل مسلم أن من نيتها انقراض هذا الدين وأهله من وجه الأرض، وإن لم يكن ذلك عليها بيسير.

الفصل الثاني والثمانون

التهتك في الحيلة

اشتهرت دولة الإنجليز بخلاة الشرقيين وأخذهم بالرويغة^١ حتى وضحت سبلها من كثرة ما طرقت، وانقلب وجه الحيلة فظهر مستورُها، وعادت تشبه ألهيات الصبيان، وألاعيب الأطفال، يدرك سرها الذكي والغبي، من يوم كان اللورد دوفرين في القاهرة لكشف حالة مصر وتقرير نظامها لحكومتها (كما يزعمون)، لوح للحكومة بترك السودان، ثم جاء من بعده الماجور بارنج، وألزم الحكومة بالتنازل عن حقها فيه؛ لأنَّه يكلفها نفقاتٍ وافرةً ليس لها عوضٌ من الفائدة، فامتثلت الحكومةُ أمر غالبيتها وهمت بأخلاصه. ولم تلابس عملها حتى صدرتْ أوامرُ الدولة البريطانية بتعيين الجنرال جوردون للقيام بتخلية السودان؛ فتكون المنة على السودانيين في استقلالهم (الموهوم) لدولة بريطانيا، وتكون الصلة بينهم وبينها خاصة، وما وصل الخرطوم إلا وأقام محمد أحمد أميراً على كوردفان، وأخذ في إرجاع الولايات السودانية لِلوكها الأقدمين أو أبناءهم، ولم يكن القصدُ من هذه الزغفة إلا أن يكون السودانُ بعد تنازل المصريين فراتة لا حق لأحد فيه فیأخذُه السابق إليه بدون أن تتعرض فيه المشكلات السياسية ليتيسر للإنجليز عاجلاً أو آجلاً أن يستولوا عليه وينزعوه من أيدي أمرائه الصغار، ويكون فيه بعض العوض عن مصر لو صدتهم مقاومات الدول عنها كما أشرنا إلى ذلك في أحد الأعداد.

^١ الرويغة: المكر والحيلة.

وفي هذه الأزمان الأخيرة أخرجت حكومة إنجلترا من جرابها العوبية أخرى، ومثلت من ضيق جوردون في الخرطوم سبيلاً عظيماً لتمهيد طريق يوصل الجيوش لتخليصه، فأصدرت أوامرها إلى أحد المصانع الكبيرة بإعداد الآلات، وتعيين المهندسين والصناع، ليسيروا إلى سواحل البحر الأحمر ويباشروا مد سكة حديد من سواكن إلى بربور كما ذكرت ذلك جريدة «البال مال جازيت»، وتزعم أن لا باعث لها على ذلك إلا الرغبة في تخلص جوردون! إن كان جوردون في خطر ويحتاج في إنقاذه إلى إرسال الجيوش، فهل يبقى حياً إلى أن تتم سكة الحديد وتخرق الجبال والأودية وتسير عليها العربات حاملة الجيوش، مع أن الأخبار قد أشارت إلى وقوعه أسيراً أو هلاكه قتيلاً؟!
إذا فرضنا هلاك جوردون – كما هو الحال – أو خلاصه، فهل تهدم دولة إنجلترا طريق الحديد، وتنقض بناءها بعد إنفاق النفقات الواسعة عليها، أو تتبرع بهبتها للحكومة المصرية سخاءً وجوداً؟!

كلا والله، لا هذا ولا ذاك، ولكن أخذت أقرب الطريقين للاستيلاء على السودان، فإن مد الطريق الحديدية في تلك الجهة يسهل لها الولاية على السودان الشرقي، فإذا استقر لها الأمر فيه وصلته بالغربي ولم تلاق في ذلك صعوبةً، على أنها في خلال المدة بعد مد السكك الحديدية تستفيد أعظم فائدة جوهرية من مواصلة البلاد السودانية، فإنها تفتح للتجارة الإنجليزية باباً وتغلق، بصفتها باب المنفعة عن مصر فتأتي بضائع البن ونحوها مما يحتاج إليه السودانيون من إنجلترا إلى سواكن، ومن سواكن تذهب إلى السودان، بدون أن تصل إلى أيدي المصريين، وتنقل الأصناف التجارية السودانية من داخل السودان إلى بربور ثم تتحمل إلى سواكن وتتصدر إلى أوروبا ولا يراها مصري.
إذا تولى الإنجليز مصر – لا قدر الله – حرموا الوطنيين من الاشتراك معهم في تجارة السودان – وهي من أغزر ينابيع ثروتهم التجارية – وإذا أجهلتهم الحوادث للجلاء عنها فقد اختصوا بمادة المنفعة التي يمكن أن تأتي من أقطار السودان، وبذلك يتقوّض كثيرون من بيوت التجارة في الأقطار المصرية، ويعدم بخراها آلاف مؤلفة من النقوس، فليس حقيقة الغرض من مد سكة الحديد من سواكن إلى بربور إلا التوصل إلى ينبع متذفق من ينابيع الثروة المصرية، وتحويل مجرى عن مصر إلى جزائر بريطانيا، وستأتي على تفصيل الخسائر التي تلم بأهالي مصر من مد هذه السكة في عدد آخر.
هذه إحدى خطئات الإنجليز الذين بعد استيلائهم على الهند حظروا على الأهالي في جميع ممالكهم أن يعالجو زراعة الأصناف التجارية كالنيلية ونحوها، واختصت

الفصل الثاني والثمانون

الحكومة الإنجليزية بزراعتها، وزادوا في المظلمة فحكموا على جميع الحكومات المستقلة التي يتولاها النوابون والرجالات أن لا تزرع الأفيفون بحجة أن الحكومة الهندية الإنجليزية تزرعه، فلا يجوز لغيرها العمل في زراعته؛ كي لا تقلل الفائدة، أو لئلا تستفيد شيئاً مما تستفيد.

هذه آثار جورها، يثبتها خراب البيوت القديمة وفاقة العائلات الشريفة، في كل بلد لها فيه أمرٌ ونهيٌ، ولا تزال ترد شرعتها هذه في كل قطر تطأه أرجل رجالها قريباً كان أو بعيداً، فعلى البصیر أن ينظر وعلى الليبب أن يحظر.

الفصل الثالث والثمانون

فرصة يجب أن لا تضيع

نشرت الدعوات وطلبت الدول العظام لعقد مؤتمر في لندن بعد مفاوضات طويلة بين حكومتي فرنسا وإنجلترا، ماذا كان المؤتمر، وماذا نوّت الحكومة الإنجليزية بالدعوة إليه؟ وماذا كانت تقصد الدول من وجود نوابها فيه؟ وأية غاية كان يطلبها خريط السياسة اللورد بسمارك؟

انعقد المؤتمر ثم صار عقيماً، وبقيت تلك المقاصد مكتوبة في صدور أربابها، كانت حكومة إنجلترا تطمح للاستيلاء على مصر باسم أمير مصر، وحالت دون مطمحها المصاعب أزماناً، حتى سُنحت لها الفرصة المشئومة بتشويه وجه الحركة العربية، فتيسّر لها بتلك الحركة إرضاء الدول، واستئذان الدولة العثمانية بالتدخل في توقيفها، فسهل لها دخول مصر على نية أن لا تخرج، وهل يمح الظمآن بارد الزلال من فيه؟!

ظلت أنها ملكت أرض مصر، ووُجِدَتْ عليها دينًا ثقيلاً فرغبت تخفيفه؛ لأنها ترى ما ينفق من خزانة مصر إنما ينقص من خزانة إنجلترا، ولم تقصد بتخفيفه رحمة الفلاحين، ولم يبعثها عليه الشفقة على المصريين، وعميت بصيرة من ظن بحكومة إنجلترا قصد المرحمة في هذا أو في غيره من الأعمال.

قصدتْ تعمية الأمر على الدول؛ لتنازل منهم تصديقاً على أعمالها، فيتسع لها المجال فيما بعد، وببدأت باستمالة فرنسا وعقدت معها اتفاقاً يوطّن نفوس السياسيين على الرضا بما تُريد، ثم أنشأ السير بارنوج لائحة لمالية أثبت فيها عجز مصر عن أداء

ديونها، إلا أن رجال الدول كانوا أحذق من أن ينخدعوا؛ لعلمهم أن وادي النيل أحوج إلى العدالة وحسن الإدارة من تخفيف الدين. لم يخفَ على السياسيين أن مصر لو سلمت إدارتها لحاكم نافذ الكلمة قوي العزيمة واسع الخبرة بأحوال البلاد، لوسعت قدرتها أداء ما عليها بل وما يزيد عليه – وإن كان يقل على دولة تجارية.

قررت في الاتفاق الفرنسي إطالة مدة حلولها العسكري إلى ثلاثة سنوات ونصف ثم تخرج، على شرط اتفاق جميع الدول على خروجها، فعلقتُ بما يشبه المحال؛ لتسهل عليها المواربة، ولكن لم يذهب على رجال السياسة فيسائر الدول أنبقاء إنجلترا في مصر لا يزيدوها إلا خراباً.

ولما انعقد المؤتمر كشف مسيو دبلنير الفرنسي ما في لائحة بارنج من الأغلاط، فشرعت إنجلترا في تهديد فرنسا بالليل إلى ألمانيا، إلا أن السفير الألماني، وهو تلميذ البرنس بسمارك ولا يعمل إلا بإشارته، كان أميلَ إلى فرنسا؛ فإن سياسة البرنس مبنيةٌ على التفريق بين فرنسا وإنجلترا (وقد حصل) فحصل اليأس لحكومة إنجلترا من تخفيف النفقة على الملك الذي زعمت أنها ملكته، فحلت المؤتمر، أو انحل بطبيعة، وصارت الدول الأوروبية في جهة، وإنجلترا وحدها في جهة أخرى،^١ ولم يكن من رأي الدول أن يقعوا آلة في يد إنجلترا تستعملهم في قضاء أوطارها، فطاشت جرائد الإنجليز غصباً على ألمانيا وأخذت تذكّرها بأن استيلاءها على الألزاس واللورين إنما كان بمساعدة إنجلترا المعنوية، وهاجت الجرائد النمساوية والألمانية، وصالت بالطعن والتجريح في السياسة الإنجليزية، واتفقت حكومة ألمانيا والنمسا على إلزام إنجلترا بتحديد أجل لدفع الخسائر التي نشأت عن ضرب الإسكندرية.

الحكومة الإنجليزية في رجفة شديدة، وخيفة من سوء العاقبة، إلا أنها على عادتها تُظهر الإقدام وتنطق بالحماس وتُوهم أنها غنية عن العالمين، عمدت إلى الاستقلال بتدويخ مصر، وتقرير سلطتها فيها وإخمام فتنة السودان، وظننت أنها قادرة على ذلك،

^١ ما أقصى التاريخ وما أعظم دروسه، في يوم ألمت مصر قناتها وثارت ثائرة فرنسا وإنجلترا وغيرهما، انعقد مؤتمر لندن ١٩٥٦ ليسترد القناة من أبنائهما ... وكتب لها هذا المؤتمر الفشل، ولأصحاب القناة الشرعيين النصر المبين.

فجهزت القواد وعيت اللورد نورثبروك، أعدى أعداء المسلمين ومخرب بيوت الشرقيين، ليتوال العمل لدولته في القطر المصري، ولكن هيئات وهيئات.

ترك الآن بيان ما يترتب على انفراد الإنجليز عن سائر الدول في أمر مصر إلى عدد آخر، ونقدم كشفاً لجوهر حالهم العامة.

أولاً: إن الإنجليز – على عادتهم المألوفة – إذا قصدوا الاستيلاء على قطر لا يصرحون بقصدهم حتى يتمكنوا فيه، ولا يبقى لهم منازع في الداخل ولا في الخارج، فلو فرضنا أن المصريين والدول أجمعين اتفقوا الآن وطلبا من إنجلترا أن تُعلن بتملكها لمصر لامتنعت الحكومة الإنجليزية وأظهرت العفة والقناعة، ولأظهر المستر جلادستون في دلوق الزهاد ولصالح جميع الإنجليز من جميع الأحزاب، أستغفر الله لا نريد سوى إصلاح البلد وتوفير خيراتها! وتحت هذا الحجاب يتصرفون تصرف الملوك ويختصون بالوظائف العليا، ويدبرون حكومة البلد على رغبتهم، وينقلون ثروتها إلى جيزيتهم، ويمزقونها قطعاً يهبون منها ما لا يهمهم لأعداء البلد، ليعينوهم على تذليلها واستعبادها.

وثانياً: إن حكومة الإنجليز من أضعف الحكومات في القوة العسكرية البرية، وأحد سلاحها التهديد، وواكِب قوتها التهويل، ووضع الأمور الصغيرة تحت النظارات العميقية؛ لترهب بذلك كل جاهم، وتخيف كل غبي، لهذا لا تتمكن بدسائسها في قطر إلا عند سُكُون أهاليه، فإذا نبذ الأهالي طاعتها، وعارضوها في أعمالها، سرت ضعفها بترك البلد لأهله؛ فإن مقاومة الأهالي أشدُّ بأشدّ مضاعفة من القوة العسكرية المجتمعة في أماكن مخصوصة تحت قيادة رؤساء معينين، تنهرم بانهزامهم، وما جرى لحكومة إنجلترا مع الأفغانيين أعظم شاهد على ما نقول.

دخلت الحكومة الإنجليزية أرض الأفغان بستين ألف عسكريًّا واستولت على المدن، وكاد قدمها يرسخ في البلد، فلما قام الأهالي من كل صدق، والتحتم المقاتل في جميع أنحاء أفغانستان، عجز الستون ألفاً عن الوقوف موقف الدُّفاع، واضطربت حكومة إنجلترا بعد تسلطها سنتين، وبعد صرف ثلاثين مليون جنيه إسترليني؛ أن تطلب الأمير عبد الرحمن خان من روسيا بعدما أقام عند الروسيين اثنتي عشرة سنة معززاً مكرماً، وأن تقدم له أربعة ملايين من الجنيهات لينفقها في إدارة بلاده، وتركت له البلد وولت. حكومة الإنجليز إنما تخص للضُّرورة والضُّرورة أحکام، فعل قبائل العرب في مصر وشمائخها أن يتذكروا شهامتهم العربية، وحميّتهم الدينية، ويقتدوا بالأفغانيين؛

لينقذوا بلادهم من أيدي أعدائهم الأجانب، الذين لو تمكنا في البلاد لمحقوهم وأذلوهم، وليس من الفتنة أن ندعوهم إلى طلب الحقوق والدفاع عن الدين والوطن كما يظن بعض المتطهرين على موائد السياسة، فإنما ننادي على صاحب البيت أن يُدافع عن حريمه وماله وشرفه، وأن يخرج مخالب عدوه من أحشائه، وهي سُنة جرى عليها دُعاء الحق في كل أمة، وتاريخ أوروبا القديم والحديث، وتاريخ الأمم الشرقية أولها وأخرها تنطق بصدق ما نقول.

وعلى المصريين عموماً واللَّاحِين خصوصاً أن يجمعوا أمرهم على أن يمنعوا الحكومة كل ما تطلب منهم، وأن يرفعوا أصواتهم بنداء واحدٍ قائلين: لا نطيع إلا حاكماً وطنياً مسلماً نافذاً الكلمة حازم الرأي، قادرًا على إدارة البلاد بقوة وطنية، وليسوا في ذلك جميع الدول ويبهنوها على قدرتهم، ويقيموا الأدلة على أن مصلحة الدائنين لا يمكن حفظها إلا بإجابة طلبهم، فإن فعلوا هذا وجدوا لهم من الدول أنصاراً، بل ومن الجنس الإنجليزي نفسه!

على الدولة العثمانية أن تتذكر أنه لو لا فرمانها بعصيان عربي لـما سهل للإنجليز أن يدخلوا أرض مصر،^٢ ولا أصابوا هذه الغنية باردة، فلتنتظر إلى قوتها ونفوذها وتلاحظ أن الحل على من عقد، والعقد على من حل، ولا تنس أن مصر حبكة المالك العثمانية كما بَيَّنَا مراراً، ولا تغفل من النمسا وشرهها، وروسيا وطمعها، وفرنسا وآمالها، فمن الأمور الطبيعية أن المنافسة أو الموازنة تدعو الأقران إلى التسابق في الأطماع، وإذا فرط متساهل في أهل ملته فلن يجد منهم فيما بعد عوناً، لو تحرك العثمانيون لرأوا عوناً من جميع المسلمين؛ خصوصاً وقد حصلت كدوره بين إمارة الأفغان وحكومة الإنجلiz، بل نكر ما قلناه مراراً من أن نفوذ العثمانيين في الهند يمنع الإنجلiz من الجهر بعادتهم البتة، فهذه فرصة الإقدام، فإن ولت الفرصة فربما يصعب التلافي، ولا يبقى إلا الندم، حيث لا ينفع الندم — وفق الله الدولة العثمانية إلى ما فيه خيرها وخير المسلمين، وبصَرَّها بالرشد وكفاحها شرور المفسدين.

^٢ هذا هو أول هجوم يشنـه الأفغاني على الدولة العثمانية؛ لأنـها أصدرت فرمانـها الخاص باتهـام عـربي بالعصـيان ونكـست حـركـته، مما أدى إلى تـسلـل الإنـجـليـز واستـعمـار مصر سـبـعة عـقـود!

الفصل الرابع والثمانون

تنبيه

طلب إلينا أحد الأعاظم من ذوي الحل والعقد في المسلمين أن ننشر الجملة الآتية بنصها،
فها هي:

﴿وَإِن تَوَلَّنُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

(التوبه: ٣)

ملعون من يخون بلاده لمرض في قلبه، ملعون من يبيع أهل ملته بحطام يلتذ به، ملعون من يمكّن الأجانب من دياره، محروم من شرف الله الحنيفية من يعظم الصغير، ويصغر العظيم، ويمهد الطرق لخوض كلمته إعلاهً كلمة الأغراط، ملعون من يختل في صدره أن يلحق عاراً بأمته ليتم ناقصاً من لذته، عجباً عجباً، لا حول ولا قوة إلا بالله، هل صحيح أن خمسة ملايين سابقة وخمسة ملايين لاحقة تمكّن الأجانب من مصر، وهي مفتاح الحجاز وباب الأقطار الشامية، هيئات هيئات، أيظن مريض القلب أن يُترك حتى يأتي هذا المنكر؟! أيظن أنه يعيش حتى يتمتع بما تكسب يداه؟! أيتوهم أنه يبقى حياً على وجه الأرض وفيها مسلم؟! لا أظن أن يكون له حظ من البقاء، ولو كان في أبراجٍ من الفولاذ. ا.ه.

الفصل الخامس والثمانون

مطلوب من توفيق باشا أن يموت شهيداً!

يتوكأ الإنجليز عن توفيق باشا في حركتهم بمصر، ويستخدمونه آلة لتخريب بلاده و هدم ملكه، وما يكون من شر ينسبونه إليه، وما عساه يوجد من خير يصلون نسبته بهم، ويردونه إلى أنفسهم، وفيما بين ذلك يبغضون إليه الولاية الإسلامية، ويحببون إليه إغفال الأصول الدينية، وهو يميل معهم ويمدهم في مقاصدهم ويُطْوِعُ البلاد لهم بما بقي له من السلطة الصورية، كما يتظاهر بالتدليل والمحافظة على الصلوات.

فإن كان باطنه يطابق ظاهره، وكان معتقداً بدين الإسلام، فعليه أن يتتحى عن الأمر ويترك الملك لمن يستطيع إنقاذه مما هو فيه، فتبراً ذمته من العار الذي يلحقه ويتحقق بيت محمد علي من تصرفة، فإن لم يكن هذا فعليه أن يجهر بعقidته، ويقاوم الإنجليز بما في جهده، ويموت شهيداً في سبيل دينه ووطنه، وإن فليس يعني عنه من الله شيئاً؛ أن يظهر عند أهل خاصته وحاشيته أنه ناقم على الإنجليز كاره لوجودهم في بلاد مصر ويود لو يخرجون! كما أنبأتنا به الأخبار الخصوصية من القطر المصري.

إذا تمادى توفيق باشا في سيره الملتوي فعل المصريين أن لا يقعوا صيداً في يد الإنجليز بهذه الحالة البالية وهذا الفخ الواهن، ولينظروا في شؤونهم وما توجه عليهم فروض دينهم، وإنما الله بغا في عنة.

الفصل السادس والثمانون

هؤلاء رجال الإنجليز، وهذه أفكارهم

تأخر صدور الجريدة أيامًا؛ لضرورة ما مسنا من ضعف في المزاج مع مصادفة رداءة الهواء في البلاد الفرنسية هذه الأيام، والحمد لله على زوال المانع، إلا أننا مع ذلك لم نُنصر في أداء الواجب من العمل الذي قمنا به في المدافعة عن حقوق المسلمين، فقد خلقنا — والشكر لله — لهذا العمل وطُبِّعنا عليه، ونرجو دُيَانَ السماوات والأرض أن نموت في هذه السبيل، وأن نُبعث في زمرة السالكين فيها.

رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبد (المحرر الأول لهذه الجريدة) إلى لندن إجابةً لدعوة من يُرجى منهم الخير لِلّتّنا، ومن يُؤمّل فيهم صدق النّية في رعاية مصالح المسلمين من رجال السياسة الإنجليزية، وليستكشف مناصب الفخاخ السياسية التي ما مرت قدُّم شرقي إلا سقطت منها فيما يعسر الخلاص منه، وليسبر أغوار المطامع الإنجليزية التي لا يدرك مُنتهاها.

تلك المطامع التي يعدما التهمت ثلث المكونة وطَوَّقت كرة الأرض بالفتح والاستسلام لم تزل في مد لا جزر معه، ولا يزال رجال حكومة بريطانيا في نهم شديد لابتلاع ممالك العالم، وكلما أساغوا قطرًا طلبوا إليه آخر، وليستطلع خفايا المقصاد من أثناء الأفكار وغضون الأقوال، وليقف على الطرق المألوفة بين أولئك السياسيين في التلوين، ويتبيّن كيف يتمكّنون من إبراز محسن الأعمال في صفاتٍ رديئةٍ يستنكراها كل ناظر إليها، وإظهار السيئات في ألوان بهجة تسر الناظرين، حتى يمكن بعد ذلك وضع ميزان قسط يتميّز به الزييف من النضار الخالص؛ كي لا يغتر الجاهل، ولا يزل العالم.

لaci (محرر الجريدة) كثيراً من رجال السياسة الإنجليزية وأنفذ النّاس رأيّاً فيها، وقد جرت بينه وبينهم محادثات طويلة في الأحوال المصرية، ومن محادثاته التمهيدية ما نُشر في بعض الجرائد الإنجليزية كجريدة «البال مال جازيت»، وجريدة «التروت» التي يحررها النائب الشهير مسّتر لابوشير، وجريدة «التايمز»، وسيذكر شيء مما جرى بينه وبين بعض الأكابر من رجال الحكومة مما يستفيد منه الشرقيون عموماً، والمصريون خصوصاً، وستأتي جريدةٌ على بعض ما استنبطه من فحوى أقوالهم وأدركه من مرامي أفكارهم، أما الآن فنأتي على جملةٍ واحدةٍ من محادثةٍ طويلةٍ كانت بينه وبين اللورد «هرتنكتون» وزير الحرب الإنجليزية؛ ليأخذ كل مصرى منها حظه، ويصيّب كل شرقي سهمه، ويقف جميعهم على موقع الشرقيين من أنظار الحكومة الإنجليزية.

سأل اللورد هرتنكتون وزير الحرب الإنجليزية: «ألا يُرضي المصريين أن يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الحكومة الإنجليزية؟ وألا يرون حكومتنا خيراً لهم من حكومة الأتراك، وفلان باشا وفلان باشا؟» فأجاب الشيخ (محرر جريتنا): «كلا، إن المصريين قوم عرب، وكلهم مسلمون إلا قليلاً، وفيهم من محبّي أوطانهم مثل ما في الشعب الإنجليزي، فلا يخطر ببال أحدٍ منهم الميل إلى الخضوع لسلطةٍ من يُخالفه في الدين والجنس، ولا يصح لحضرته اللورد وهو على علم بطبعات الأمم أن يتصور هذا الميل في المصريين.»

فقال الوزير: «هل تنكر أن الجهة عامة في أقطار مصر، وأن الكافية لا تفرق بين الحاكم الأجنبي والحاكم الوطني، وأن ما ذكرته من النفرة من سلطة الأجانب إنما يكون في الأمم المهدبة؟» فاحتد الشيخ حدة تلقي ب المسلم لا يتهاون في أداء ما فرضه الدين، وأوجبته حقوق الشريعة، وقال: «أولاً إن النفرة من ولاية الأجنبي ونبذ الطبع لسلطته مما أودع في فطرة البشر، وليس بمحتاج للدرس والمطالعة، وهو شعور إنساني ظهرت قوته في أشد الأمم توحشاً كقبائل الزولو الذين لم تنسوا ما كابدتهمو منهم في الدّفاع عن أوطانهم.»

وثانياً إن المسلمين مهما كانوا وعلى أية درجة وجدوا لا يصلون من الجهل إلى الدّرجة التي يتصورها الوزير؛ فإن الأميين منهم ومن لا يقرءون ولا يكتبون، لا يفوّتهم العلم بضروريات الدين، ومن أجلاها ومن أظهرها عندهم أن لا يدينوا لخالفيهم فيه، وإن لهم في الخطب الجمعية ومواعظ الوعظ في مساجدهم ما يقوم مقام العلوم الابتدائية، وإن جميع ما يتلقونه من النصائح الدينية يُحذّرهم من الخضوع لمن لا يُوافقهم ويحدث فيهم من الإحساسات الشريفة الإنسانية ما لا ينحطون معه عن سائر الأمم، خصوصاً

المصريين الذين ينطقون باللسان العربي ويفهمون دقائق ما أودع في ذلك اللسان وهو لسان دينهم.

وثالثاً إن أرض مصر من زمن محمد علي قد انتشرت فيها العلوم والأداب الجديدة على نحو ما هو موجود في بلاد أوروبا، وأخذ كل مصري نصيباً منها على قدره، ولا تخلو قرية من القرى الصغيرة من أن يكون فيها قارئون وكتابون، والأخبار العمومية توصلها إليهم الجرائد العربية، ومن لم يقرأ يستتبّ الأخبار من القارئين، فبهذا أضافوا إلى الشعور الطبيعي والتقليد الديني محبة وطنية منشؤها التهذيب العمومي قوي بها الميلان الأولان، ولا أظنهما يخالفون في ذلك سائر الأمم.» ا.هـ.

أين العلماء الأذكياء؟ أين الجهلة الأغبياء؟ أين الأباء الأعلية؟ أين السفلة الأدنى؟ ليري كل واحد منهم منزلة الشرقيين عند رجال الحكومة الإنجليزية، كل ذي شكل إنساني وصورة بشرية يدرك ما وراء هذه الأسئلة، وما تشف عن هذه الظنون العجيبة، هذا اللورد هرتكتون وزير الحربة الإنجليزية يظن أن الجهل بلغ من المسلمين عموماً، والمصريين خصوصاً، إلى حد سلب عنهم كل إحساس إنساني، وأنهم في حضيض من الجهل، لا يميزون فيه بين الغريب والقريب، ولا بين العدو والمحبب.

هذا دليل على أن الإنجليز – إلا من أنوار الله بصيرته ووفقه لفهم الصواب – يعتقدون أن الأمم الشرقية، والأمة المصرية، في درجة الحيوانات السائمة، والدواب الراعية، لا تتألم إلا من الجوع وفواعل الطبيعة المادية، وليس لها من الإحساس إلا نوع من الانفعالات البدنية، ولا تعرف من شئونها إلا ما به تقوم حياتها الحيوانية، فتألف راكبها والعامل عليها ومستخدمها في أي عمل من الأعمال الشاقة؛ ما دام يقدم لها طعاماً وشراباً، وأنها تهش وتتشق لرؤيه من يقدم لها غذاءها وعشاءها وإن كان من أشد البلاء عليها، بما يسومها من مشاق الأعمال، فإذا عجزت عن العمل ذبحها وتُغَدَّى بلحومها!

ألا فأعجبوا ... إن كانت هذه عقيدة رجال الحكومة الإنجليزية في الأمم التي يتسلطون عليها، فأي معاملة تكون منهم لها؟! ألا يعاملونهم معاملة العجموات والحيوانات الرُّبُع؟! بل، وهكذا يعاملون، وهذا تصرفهم في البلاد الهندية، يشهد بأ Finch لسان على ما يعملون.

فالمصريون الآن بين أمرتين أفضلهما أيسرهما: إما أن يتناكفوا ويتضاربوا ويبذلوا أموالهم وأرواحهم في حفظ شرفهم الإنساني ومكانتهم العربية، وأداء حق عقيدتهم

الدينية، ويخلصوا أنفسهم من عبودية قوم لا ينظرون إليهم إلا كما ينظرون إلى البغال والحمير، وإن هموا بذلك وجدوا لهم من إخوانهم المسلمين أنصاراً ينتظرون الآن حركة منهم، وهذا أشرف الأمرين وما هو عليهم بعسر، وإنما أن ينسلخوا عن جميع الخصائص الإنسانية، ويخلعوا حلية الإيمان، ويتبأوا منهم شرف العرب، وليرحملوا ناف العبودية على أنفاسهم، وليرقاسموا الحيوانات في حظوظها، وليرستعدوا لكل ذلة، وليرقبلوا كل ضيم. وهذا أعنصر الأمرين وأدناهما، وما أظن مصرياً يختاره لنفسه، ولئن اختاره — معاذ الله — فسيذهب الله بهم ويورث الأرض قوماً آخرين؛ فإن الله غيورٌ على دينه، غيورٌ على العدل، منتقمٌ من الضالين — وإنما الله وإنما إليه راجعون.

الفصل السابع والثمانون

اللورد نورث بروك حاكم مصر الجديد

كثيراً ما أتينا في جريتنا على بيان مسالك الإنجليز في تملك الهند وتذليلهم لأهاليه، وذكرنا أن سيرة الحكومة الإنجليزية في افتتاح البلاد لا تُشبه سير الفاتحين الذين يزحفون بخيالهم ورجالهم على الأقطار، فيقتلون ويُقتلون، حتى يتغلبوا على من يريدون، وقلنا: إن الإنجليز ملكوا نحو ثلث العالم بلا سفك دماء غزيرة، ولا صرف أموال وافرة، وإنما ملكوا ما ملكوا بسلاح الحيلة، يدخلون في كل بلد أسوداً ضاربة، في جُنُود ضائقة! يعرضون أنفسهم في صورة خدمة صادقين، وأمنة ناصحين، طالبين للراحة، مُقْوِمين للنظام!

نادينا مراراً بأن الإنجليز إذا أرادوا التدخل في ملك للشرقين، ورأوا أن القائم به رجل حاذق بصير، وأن وجوده في الملك يبيطئ سيرهم إلى ما يقصدون؛ بادروا إلى التشويش عليه، فإذا ما أُفسدوا عليه قلوب رعيته ويسروا عليه أحقادها، أو يغروا أحد أعضاء العائلة المالكة بالعصيان وطلب الملك ليجدوا في ذلك وسيلة للدخول في الأمر، أو يتلقوا مع الوزراء على كل صاحب السلطة، ثم ينصبون بدله إما ضعيفاً أحمق، وإما صبياً لم يبلغ الرشد، إما من أبناء الملك أو أقاربه ليتمكنوا من بلوغ مقاصدهم تحت علمه، ويبلغوا غاياتهم باسمه، ويقطعوا المسافة الطويلة في مدة قصيرة، بلا ممانع ولا عائق، مع إصابتهم جزيل الأجر، على ما عملوا في بداية العمل.

هذا كما فعلوا من مدة غير بعيدة مع «راجا برودا»، خلعوه بدعوى باطلة، لَمَّا أحسوا فيه البصيرة والحزم، وأقاموا بدله ولدًا صغيرًا من عائلته، ثم انتصروا له وأوصياء، فوضعوا أيديهم على جميع خزانته، وتولوا إدارة ممالكه، واستلموا قيادة عساكره، ولم يبق له إلا الاسم، يُذكر ولا يُشكِّر!

كل هذا تحت راية العدالة والإصلاح، وحفظ الراحة وتقرير النظام، ولم يساقوه إليه إلا بباعث المحبة والإخلاص (ولا يذكر هناك اسم التملك والاستيلاء). نعم، ولهم الحق في استبقاء اسم والسكوت عن آخر؛ فإنَّ الأمراء الشرقيين لا يبالغون بما دلت عليه الأسماء، وإنما يهمهم طنطنةُ الألفاظ وضخامةُ الألقاب!

إذا سُلِّبَ الأمير الشرقي ملكه وما له، وجُردَ من جميع حقوقه، وبقي له لقبه ولو حلقه؛ فهو في سكرة من لذة ما بقي له، وفي ذهول عما سُلِّبَ منه، هذه خلة عرفها الإنجليز في كلَّ أمير شرقي، فلَمْ لا يقرُّونَ أعينهم بحفظ هذه الأسماء، بعدما جُردَت عن معانيها، وأي داعٍ يدعُو رجال الإنجليز لإزعاج قلوب الأمراء بتنزع هذه الألقاب؟

إنَّ اللقب الضخم حصنٌ حصين، يُسْجِنُ فيه الأمير الشرقي، أو جُبٌّ عميق يلقى فيه، وهو يظنه جنةً عرضها السماوات والأرض، فليعيشُ أمراء المشرق ممتنعين بذبح ألقابهم، وسعادةً أسمائهم، ويكتفُّونَ من المجد أنْ يُقال لهم بين خدمهم وخاصتهم، في داخل دوائرهم: «نواب صاحب»، «راجا صاحب»، «خديو صاحب»، «سلطان صاحب»، واحجلتاه! هذه الألقاب كانت تشير إلى ملك فسيح، ومجد شامخ، وشوكة قوية، وسطوة تخضع لها الشمم العوالي، فكيف طابتْ نفوسُ أمراء المشرق بقبولها عارية من كل شرف، لم يبق من معناها إلا سلطة على الخدم والحشم، وما هم فيها بأحرار، بل لا بد أن يوافقو فيها رضاء الأجانب.

من أدقَّ رجال الحكومة الإنجليزية في فنِّ الحيلة، وأمهرُهم في صناعةِ الخدعة، وأطولهم باعًا في النفاق، وأخذُهم في اختراع الوسائل لسلبِ الأملال من أربابها، وأشهرهم في عداوة المسلمين؛ ذلك اللورد المحترم «نورث بروك».

كان هذا الرجل البارُّ حاكِمًا في الهند فأذاقَ أهاليه مُرَّ العذاب، في كُلُّوسِ المحبة والوداد، كم خرب بيوتًا، وقلب عروشًا، وكم خفضَ رفيعًا، وأذلَّ عزيزًا، وهو في جميع سيناته يبكي بكاء الشفقة، ويُسْكِب دموعَ المرحمة على الهنديين، ويقول: «إنني أول إنجليزي تهمه رفاهة أهل الهند، وإنني وحيدُ بين الإنجليز بمحبة الهنود، والسعى فيما يعود عليهم بالصلاح والنجاح، وإنني أستغفرُ الله إن كنت قصرت في عملٍ يؤمل بهم إلى

الفَلَاح»، وينادي في الهنديين بقوله: «وَالْأَسْفَاهُ! إِنَّكُمُ الْيَوْمَ مَا عَرَفْتُمُونِي، وَلَا أَحْطَمُ بِمَا حَوَاهُ ضَمِيرِي، مِنْ إِرَادَةِ الْخَيْرِ لِكُمْ». هذا هو الكاهن الحاذق في وعظه (ودونه في النفاق عبد الله بن أبي سلول رأس المنافقين في الإسلام).

إن الحكومة الإنجليزية عرفت قدره في براعته ومعرفته بوجوه المكر، وخبرته بأحوال الشرقيين، وسعة علمه بكيفيات التصرف في عقولهم وأهواهم، وطُرُقَ أخذهم من حيث لا يشعرون، واعترفت له حُكْمَتُهُ بصدق الطُّوْبَى في مُعَاوَدَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ لأجل هذا قررت أن تبعثه إلى مصر، وعزمت على إرساله إليها مفوضاً من قبلها يفعل ما يشاء.

ولكن لا نظن حبّاله الخداعية تصرع فطانة المصريين وتأخذ عقولهم، فإن تنسى له النجاح، ورضي المصريون على أنفسهم عار الذل، ووصمة الضيّم، فلا يكون إلا باستعمال توفيق باشا آلة في جميع أعماله، يستخدمه لإدخال مصر في ملك الحكومة الإنجليزية، يلقنه الأوامر السامية، ويلهمه الإرادات السنّية، لتذليل أهل بلاده وسوق المصريين لقتل إخوانهم وفتح البلاد الثائرة، وإقرار السلطة فيها للحكومة الإنجليزية.

فإنْ تَمَّ لَهُ مَا يُرِيدُ مِنْ تَسْكِينِ الْفِتْنَ وَتَقْرِيبِ الْمُصْرِيِّينَ لِلرِّضَاءِ بِحُكْمَةِ تَنْفُرِهِمْ طباعُهُمْ عَمِدَ إِلَى خَلْعِ تَوْفِيقِ باشا بِأَيَّةِ عَلَةٍ وَطَلْبِ تَوْلِيَّةِ ابْنِهِ عَبَاسٍ؛ لِكُونِهِ ولَدًا صَغِيرًا لَمْ يُبَلِّغِ الرُّشُدَ، وَاسْتَنْدَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْفَرْمَانَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ (يَحْتَرِمُونَهَا إِذَا وَافَقُتْ أَغْرَاضُهُمْ)، وَجَعَلَ نُوبَارَ باشا دِيَوَانًا لَهُ (الْدِيَوَانُ وَزِيرٌ يُعِينُهُ الْإِنْجِلِيزُ مِنْ طَرْفِهِمْ فِي الْمَالِكِ الَّتِي تَبَقَّى فِي الْهَنْدِ تَحْتَ أَسْمَاءِ الْأَمْرَاءِ الَّذِينَ لَا يُعْرَفُ فِيهِمُ الرُّشُدُ وَلَا يَجُوزُ عَزْلُهُ إِلَّا بِأَمْرِ مِنْ حُكْمَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ).

نُوبَارَ باشا لا يُقْصِرُ فِي هَذَا الْعَمَلِ وَلَا يَأْلُو جَهَدًا فِي إِبْلَاغِهِ إِلَى نَهَايَتِهِ، نُوبَارَ باشا رَجُلٌ لَا هُوَ مُسْلِمٌ فَيُغَارُ عَلَى دِينِهِ، وَلَا هُوَ مُصْرِيٌّ فَيُحِتَّمِي عَلَى وَطْنِهِ، وَلَا هُوَ عَرَبٌ فَتَأْخُذَهُ النُّفَرَةُ عَلَى جَنْسِهِ، وَبِهَذَا الطَّرِيقِ نَالَ سُلْطَةً فِي الْقَطْرِ الْمُصْرِيِّ مَدَدًا لَا تَنْقُصُ عَنِ الْبَاقِيِّ مِنْ عُمْرِهِ، وَيَكُونُ فِي أَمَانٍ مِنِ الْعَزْلِ، تَحْتَ ظِلِّ حُكْمَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ.

هَذِهِ مَقَاصِدُهُ الَّتِي بَلَغْتُنَا مِنْ مَصْدَرٍ يُوْتَقُّ بِهِ، وَلَا نَظَنَّهُ يَنْجُحُ فِيهَا؛ فَإِنَّ صَلَاحَ الْأَمْرِ فِي مَصْرِ لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا مَنْ هُوَ أَعْرَفُ بِحَالِ الْمُصْرِيِّينَ وَأَقْرَبُ إِلَيْهِمْ مِنْ «نُورُثَ بُرُوك»، هَذَا الْلُّورِدِ يَسْلُكُ فِي سِيرِهِ عَلَى مَا جَرَى عَلَيْهِ فِي الْهَنْدِ، إِنَّا نَذَرُ طَرْفًا مِنْ أَعْمَالِهِ عَبْرَ الْمُعْتَرِّينَ.

إِنَّ «جِيرِتْ سِتِّك» كَانَ رَاجِاً عَلَى مَمَالِكِ «جِنْبَةِ» الْوَاقِعَةِ فِي جَنْبِ «عَنْبَرِ سِرِّ» مِنْ طَرِفِ «هَمَالِيَا»، فَلَمَّا مَاتَ هَذَا الْمَلِكَ تَوَلَّ ابْنُهُ «سَرْسِينِك» وَهُوَ وَلَدُهُ مِنِ الْمَلْكَةِ، ثُمَّ مَاتَ

وتولى شقيقه «سوجيت سنك» على طبق قانون الوثنين، فلما ذهب «نورث بروك» حاكماً في الهند قصد إلى تنفيذ حكمه في تلك المملكة واستملأك أراضيها حسب المأثور بين أمثاله من رجال حكومته، فطلب من «سوجيت سنك» أن يتنازل عن الملك لأنخيه «قوبال سنك» وكان وليداً من جارية، ولا يجوز في قوانين الوثنين أن يتولى الملك أبناء الإماماء ما دام من أبناء الأحرار حيًّا، فلما تَمَّنَّ «سوجيت سنك» من التنازل؛ اعتماداً على قانون باده، أنزل بحكم اللورد جبراً بعدما ضربت زوجته التي كانت ملكة تلك البلاد (الكونها زوجة الملك) ونهب جميع ما كان في بيت الملك من الخزائن والتحف والجواهر الثمينة والمخلفات القديمة (أنتيكات) التي كان يتوارثها الملوك من أجيال طويلة (فإن عائلة الملك كانت من قدماء العائلات الملكة).

ثم نصب بدله «كوبال سنك»، وبعد مدة قصيرة عزل «كوبال سنك» ونصب ولده الصغير «سيام سنك» ليكون الأمر والنهي حسًّا ومعنى بيد أمراء الإنجليز، وتحت تصرف الديوان الذي أقاموه من طرفهم! هذا مثالٌ لما يطول عده من أعمال اللورد نورث بروك في الهند.

ثم إن «سوجت سنك» المخلوع ظن أن نورث بروك وحده هو الظالم، وأنه لو رفع أمره للحكومة العليا في لندن يجد لديها عدلاً ويصادف منها إنصافاً، فجاء من مدة ست سنوات وعرض حاله على الحكومة، فإذا القلوب متشابهة، والآفونوس متواقة، والآراء متألبة على سلب الحقوق، والغلو في العداون، وفي خلال هذه المدة أنفق كل ما كان عنده في المطالبة بحقه، والمرافعة مع ظالمه، حتى أصبح صفر اليدين، لا يملك قوت يومه، ولا حد منصافاً.

هذا الملك السيئ الحظ مع ما كان له من رفعة الشأن، وارتفاع نسبه في الملك إلى أجداده الأقدمين، من نحو ألف سنة؛ تراه الآن يتضور من الجوع في بلاد أوروبا رث الثياب حقيرًا ذليلًا، هذا الذي احترمه اللورد نورث بروك الذي تريد حكومة إنجلترا أن ترمي به مصر، وهذا هو الإصلاح الذي يقصد إجراءه فيها!

لكن رجاءنا في المسلمين، وأملنا في المصريين، وقوه إيماننا بوعود الله، وصدق النبأ عما تكنه الحوادث المصرية، وتآلب الدول على معاكسة الحكومة الإنجليزية، واضطرار الدولة العثمانية للدفاع عن مصر؛ كل هذا يبشرنا بخيبة هذا الغادر في قصده — والله لا يهدى كيد الخائنين.

الفصل الثامن والثمانون

نكتة

عندما كان الشيخ محمد عبده يتحدث أرباب السياسة في لندن كان أغلبهم يقول له: «كثيراً ما سمعنا من الأجانب الذين ينتمون إلى البلاد المصرية أخباراً متعلقة بها، لكننا لا نحلها محل الاعتبار؛ لما نعلم عن الشعب المصري الحقيقي، أما أنت فلكونك عريقاً في المصرية، وعالماً من علماء المسلمين، فنحب أن تبين أفكارك، وما تعلمه من أحوال الأهالي المصريين، وشئون أمائهم واستعداداتهم، وما يليقون له، وما يليق بهم؛ فإننا نرى ذلك منك حاكياً عن حقيقة الأمر فيهم، وكاشفاً عن أفكار أهالي مصر عموماً»، وقد أشارت إلى هذا المعنى جريدة «البال مال جازيت».

الفصل التاسع والثمانون

معارضة الإنجليز

تنبهتُ أفكار الدول الأوروبية في هذه الأيام إلى ما يمسها من إيغال الإنجليز في طمعهم، وأن ظفريهم في أعمالهم المشرقة لممّا يخدم أنفاس أوروبا ويسد عليها أبواب التجارة، ولو نجح الإنجليز في سيرهم إلى ما يطمحون إليه، لم يبق موضع قدم للتجارة الأوروبية، فيضرّب الفقر في غالب أقطار أوروبا التي قوام معيشتها التجارة، وأن الدول لتعجز بعد هذا عن حاجاتها.

هذا فزع أملت بدايته بنفوس الدول من صيحة الطبيعة، وزاد عليه ما خدش خواطرها من الإهانات المتتابعة اللاحقة بها من غرور الإنجليز. دولة إنجلترا هي التي تركت الدول تأثر في الأستانة، واستبدت بإطلاق النيران على مدينة الإسكندرية.

هذه الدولة هي التي دعت الدول العظام إلى مؤتمر المداولة في مسألة مصر، معترفة بحقوقها فيها، فلما لم تج بها الدول إلى مطلبها الباطل، صرّفت نوابهم، وانطلقت في أعمالها غير مبالغة بهم، وعزمت على إرسال «اللورد نورث بروك»، و«الجنرال ولسلي»، في آن واحد إلى مصر.

هذا كُلُّهُ حَرَّكَ خواطر الدول، وصار من أعظم البواعث على اجتماع الأباطرة الثلاثة في شهر سبتمبر — كما أنيات الجرائد — وأكد أن موضع المداولة بينهم هذه المسألة المهمة، لهذه المسألة كانت مدينة وارزين دار ندوة سياسية، وبها وجد البرنس بسمارك مجالاً واسعاً للسياسة.

تلاقي الكونت كالنوكى مع البرنس بسمارك، وطالت مدة الاجتماع ولحق بهما مسيو دي جيرس وزير دولة روسيا، وكان البحث فيما ألم بالدول بعد مؤتمر لندن، ثم عقب ذلك سفر مسيو كورسيل سفير فرنسا في برلين إلى وارزين للاقاء بسمارك (وإن أولت بعض الجرائد الإنجليزية حركة هذا السفير بمقصد آخر)، فهذه الزيارات المتتالية بين هؤلاء الوزراء العظام، بعد خيبة المؤتمر، تفتح للمتأمل باباً واسعاً من الفكر، وتشف عن أمور عظيمة سيكشفها الزمان عن قريب.

هذا إلى جانب الأمر الجديد الذي صدر من دولة ألمانيا وهو تعيين وزير في سفارة مجلة لدى شاه إيران وفي أعضاء سفارته بروكش باشا المشهور بعلم الخط المصري القديم، وهي أول مرة كان لهذه الدولة سفير عند الشاه، ثم ذهاب ميرزا خان سفيراً خصوصياً من الدولة الفارسية إلى الدولة الروسية، ونيله غاية التمجيل والتكريم.

كل هذا يُنبئنا أن في كمين الغيب مصيبة كبيرة ستنتقض على دولة الإنجليز ... إن الأحقاد قد أخذت بقلوب الأمم الأوروبية وامتلأت الأفئدة غيظاً حتى طفت، ولهذا لا ترى جريدة ألمانية أو نمساوية أو فرنسية إلا وهي مشحونة بالطعن والتدليس، والوعيد والتهديد، والإذلال بسوء عاقبة حكومة الإنجليز.

ليس بعيد على عدل الله أن ينكّس أعلام العاتين، الذين يعيشون في الأرض مفسدين ويسلبون ممالك العالم غيلة، ويهضمون حقوق الأمم بغيّاً وعدواناً، ويسيّمونها عذاب الرق والعبودية عتواً واستكباراً، أظلم جوّ السياسة على سابلة الإنجليز، وزأرت عليهم ضاربة الويل من كل جانب، ولهم في هذه الأحوال حركة الخابط، إما ستراً لضعفهم، أو غروراً ببأسهم.

ويتعلّقون بحالي الوسائل لامتلاك مصر والسودان، اللورد نورث بروك وسميع الله خان الدّهْري يذهبان إلى مصر لتأليف القلوب، وجميع الخواطر على ولاء الحكومة الإنجليزية، وإن ولسي بعدهما نال من حُسن الصيت بصرف الدنانير في التل الكبير؛ عزم على أن يفتح فتحاً آخر بمثل تلك الوسيلة، ولكننا لا نظن في السودان مثل شهيد الخيانة وأبى سلطان باشا إضرابه، وهذا من جهة أخرى يسعون لإجبار الحكومة المصرية على إعلان الإفلاس وإشهار العجز عن القيام بنفقات الحكومة؛ ليجدوا في ذلك وسيلة لترير حمایتهم على القطر المصري، وتخفيض فائدة الدين والاستبداد بشئون المملكة.

إنهم نالوا في الحرب المصرية من الدولة العثمانية فرماناً سلطانياً بعصيان عراقي، فحقّقُوا به دماء رجالهم، وصانوا كثيراً من أموالهم، واليوم يسعى اللورد دوفرين

بمواعيده العرقوبية، وأيماناته الكاذبة عند الباب العالى ليحمله على إرسال عشر مدرعات إلى الإسكندرية، وسوق جيش إلى سواحل البحر الأحمر؛ ليكون هذا بدل الفرمان بعصيان محمد أحمد، ويفوز الإنجليز بالسلطُ على مصر والسودان، ويحلقون – وهم الكاذبون – إنهم لا يمسون حقوق السلطان (هل أبقوا حقوقاً تمس؟) حتى إذا ثبتت أقدامهم تحت ظلَ العَلَم العثماني، قلوا للعثمانيين ظهر المجن وأجاوهم بِهَزِ الرءوس وكشة الأناب.

ولا نظن أن الدولة العثمانية تفتُّ بوعود الإنجليز مرة ثانية، فلا يُلْدُغ المؤمن من حجر مرتين، وقد جربتُ منهم حلاوة الوعد، وذاقت في إخلفه مضاضات الإهانة، ومرارات التحقيق. نعم، هذا وقت يتَسَنَّى للدولة العثمانية أن تتفق مع سائر الدول لصون مصالحها، ولا يخطر ببال عثماني أن ينال خيراً بالاتفاق مع الإنجليز.

إن حكومة بريطانيا ما عاهدتَّه عهداً إلا ونقضته، بعدما جنتْ ثمرته، فربحها في العهود خاص بها، لا يشركها فيه غيرها، لم يخف على الدولة العثمانية أن الإنجليز تصرفوا في الأراضي المصرية تصرف المالكين بلا مشورتها، وهبوا قسماً عظيماً من السودان الشرقي للحبشة وأثاروا حرباً صليبيةً بين الحبشيين ومسلمي السودان، نزعوا إلى الاستيلاء على زيلع وهرر وبربر، هل كان شيء من هذا بإذن الباب العالى؟ فعلَّ أي وجه تثق الدولة بإنجلترا، بعدما جربت من غدرها ما جربت ورأت من عدوانها ما رأت؟ لو تساهلت الدولة مع الإنجليز في مسألة مصر فسنسمع عن قريب بأُمُور في الحجاز وسوريا واليمن وبغداد وكلها من دسائس الإنجليز، أما لو أقدم العثمانيون بعزمٍ ثابتة وأقبلوا على شأنهم في مصر، مع هيجان الأفغانيين وانفراط إنجلترا عن سائر الدول؛ لَوْجَدُوا لهم أنصاراً من جميع المسلمين في الشرق، ومن المصريين والسودانيين، ولأرغموا الإنجليز، واسترجعوا ما فقدوه من المكانة أيام حرب روسيا، ولأعادوا عزتهم الأولى.

هكذا ينبغي أن يُساق الجيش العثماني، لصدمة الإنجليز لا لخدمتهم، فإن لم تفعل الدولة العثمانية فعلَّ الدنيا العفا، وعلى الإسلام السلام!

وليعلم المصريون من الفلاحين والعرب أن الإنجليز لا يقصدون إلا استعبادهم واستخدامهم كما يستخدم الأرقاء، وأول نير للذل يوضع على عنق أمائهم، فعلِّهم إلا يكونوا آلَة في تمكين العدو من رقابهم، وأن لا يكون بعضهم فَحَّا لصيد باقيهم، لَعَمْرُ الله إنا لفِي عجب من الذين يحفظون القِلَاع في السودان، ومن المصريين الذين يَحْفُون لمقاتلة السودانيين، هل يعلمون أي أمة يخدمون؟!

بل، إن حامية كسلا حافظت عليها حتى تسلّمها للحبشة، وإن حماة القلاع في السودان يحفظونها حتى يسلّموها لقّواد الإنجليز إن استطاعوا، نعم كنا نحب أن نرى هذه الشهامة من العساكر المصرية، لكن إذا لم يكونوا في تصرف دولة أجنبية، أما اليوم فثباتهم هو العار بعينه، والله لا أظن شخصاً في قلبه ذرة من الإيمان تسمح له نفسه بهذا العمل، فإن لم يسعوا في إخراج عدوهم من ديارهم، والظن بهم أن يسعوا، فلا أقل أن يكفوا عن مساعدته في تملّكها.

ألا يعلم المصريون أن حركة خفيفة منهم في معارضة الإنجليز في هذا الوقت تجلب تدخل الدول، وتكون سبباً لإنقاذهم من هذا العدو الذي لا يكتفي بأكل لحومهم حتى يهشم من عظامهم؟ فليعلموا ذلك وليعملوا – والله لا يضيع أجر العاملين.

الفصل التسعون

الدّهْريون في الهند

دخل الإنجليزُ بلادَ الهندِ ولعبوا بعقولِ أمَرائهمُ وملوكيَّةِ عِرقِهنَّا على نحوٍ يُضحكُ العُقَلاءَ ويبكيَّهم، وكانوا يوغلونَ في أحشاءِ الهندِ ويُتَخَطِّفُونَ أراضيَّهُم قطعةً بعدَ قطعةً، كلَّما سادوا في أرضٍ أدلوا على سكانَها وأظهروا الضَّجرَ والسَّآمةَ من الإقامةِ بينَهمْ قائلِينَ: إنَّ الإنجليزَ لا يُشَتَّغلُونَ إلَّا بالأعمالِ التجارِيَّةِ، أمَّا مقارفَةُ الإِدَارَةِ والسياسيَّةِ فليُسْتَهَانَ بهمْ، إنَّما يدعُوهُمْ إلَى احتمالِ ثقافَةِ الشَّفَقَةِ عَلَى الملُوكِ والأُمَّارِ العاجِزِينَ عنِ سياسَةِ مُمَالِكِهِمْ، وممَّى قدرِ الْأَمِيرِ أوَّلَ الْمَلَكِ عَلَى ضَبْطِ بَلَادِهِ فَلَا يَبْقَى إِنْجِليزِيَّ فِيهَا؛ لأنَّهُمْ أشغالًا مهمَّةً أُخْرَى تُرْكُوهَا لِحُضُورِ المَرْحَمَةِ.

وبهذا سلب الإنجليز كلَّ مالِكٍ ملِكَه بحجَّةِ أنَّ العملَ في الملكِ ثقيلٌ على النَّفْسِ متعَبٌ للْفَكَرِ والْبَدَنِ، فالْأَوَّلُ لصَاحِبِ الْمَلَكِ أَنْ يَسْتَرِيحَ وَأَنْ يَمُوتَ فَقِيرًا ذلِيلًا تخلصًا من عَنَاءِ التَّدَبِيرِ؛ وينادُونَ بِأَنَّهُمْ مُتَى سُنِّتَ الْفَرَصَةُ وَجَاءَ الْوَقْتُ الَّذِي لَا يَكُونُ لِلأَعْمَالِ الْمَعَاشِيَّةِ وَلَا الْمَعَادِيَّةِ تَأْثِيرٌ عَلَى الْأَبْدَانِ وَلَا عَلَى الْأَفْكَارِ؛ فَإِنَّهُمْ مُسْتَعْدُونَ لِتَرْكِ الْبَلَادِ (يَوْمُ الْحَشْرِ)، وَالْيَوْمِ يَقُولُونَ نَفْسَ الْكَلَامِ بِعِينِهِ فِي مَصْرِ!

ولما استقرتُ أقدامِهِمْ في الهندِ وألقوا به عصاهم ومحيتَ آثارَ السُّلْطَانَةِ التِّيمُوريَّةِ؛ نظروا إلىَ الْبَلَادِ نَظَرَةً ثَانِيَةً فوجدوَا فِيهَا خَمْسِينَ ملِيُونًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُجْرُوحٌ بِزَوَالِ مُلْكِهِمُ الْعَظِيمِ، وَهُمْ يَتَصَلُّونَ بِمَلَيْيَنَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ شَرَقًا وَغَربًا وَشَمَالًا وَجَنُوبًا، وَأَحْسَوْا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ مَا دَامُوا عَلَى دِينِهِمْ، وَمَا دَامَ الْقُرْآنُ يُتَلَى

بينهم فمحال أن يخلصوا في الخضوع لسلطة أجنبى عنهم، خصوصاً إن كان ذلك الأجنبى خطف الملك منهم بالخديعة والمكر تحت ستار المحبة والصداقة.

فطفقوا يتسبّبون بكل وسيلة لتوهين الاعتقاد الإسلامي، وحملوا القسّيس والرؤساء الروحانيين على كتب الكتب ونشر الرسائل محسّنة بالطعن في الديانة الإسلامية، مفعمة بالشتم والسباب لصاحب الشريعة (بِرَأَهُ اللَّهُ مَا قَالُوا)، فأتوا من هذا العمل الشنيع مما تنفر منه الطباع، ولا يمكن معه لذى غيرة أن يُقْيم على أرض تنشر فيها تلك الكتب، وأن يسكن تحت سماءٍ تُشَرِّق شمسُها على مُرْتَكِبِي ذلك الإفك العظيم.

وما قَصْدُهُم بذلك إلا توهين عقائد المسلمين، وحملهم على التدين بمذهب الإنجليز، هذا من جهة، ومن جهة أخرى في تضييق سبل المعيشة على المسلمين، وتشديد الوطأة عليهم والإضرار بهم، من كل وجه، فضرروا على أيديهم في الأعمال العامة، وسلبوا أوقاف المساجد والمدارس، ونفوا علماءهم وعظامهم إلى جزائر «أندونمان» و«فلفلان» رجاءً أن تفديهم هذه الوسيلة إن لم تفدهم الأولى في رد المسلمين عن دينهم، بإسقاطهم في أغوار الجهل بعقائدهم حتى يذهبوا عما فرضه الله عليهم.

فلما خاب أمل أولئك الحكام الجائرين في الوسيلة الأولى، وطال عليهم الأمد في الاستفادة من الثانية؛ نزعوا إلى تدبير آخر في إزالة الدين الإسلامي من أرض الهند أو إضعافه؛ لأنهم لا يخافون إلا من المسلمين أصحاب ذلك الملك المنهوب والحق المسلوب، فاتفق أن رجلاً اسمه أحمد خان بهادر (لقب تعظيم في الهند) كان يحوم حول الإنجليز لينال فائدة منهم، فعرض نفسه عليهم وخطا بخطوات لخلع دينه والتدين بالماذهب الإنجليزي، وبدأ سيره بكتابه يثبت فيه أن التوراة والإنجيل ليسا محرفين ولا مبدلين لينال بذلك الزلفى عندهم، ثم راجع نفسه فرأى أن الإنجليز لن يرضوا عنه حتى يقول: إني نصراني، وأن هذا العمل الحقير لا يؤتى عليه أجرًا جزيلاً، خصوصاً وقد أتى بمثل كتابه **أُلُوف** من القسّيس والبطارقة وما أمكنهم أن يحولوا من المسلمين عن الدين أشخاصاً معدودة، فأخذ طريقاً آخر في خدمة حكامه الإنجليز بتفریق كلمة المسلمين وتبديد شملهم.

فظهر بمظهر الطبيعين (الدَّهْرِيِّينَ) ونادى بأن لا وجود إلا للطبيعة العميماء، وليس لهذا الكون إلهٌ حكيم (إِنْ هَذَا إِلَّا الضَّلَالُ الْمُبِينُ)، وأن جميع الأنبياء كانوا طبيعين لا يعتقدون بالإله الذي جاءت به الشرائع (نَعُوذُ بِاللَّهِ)، ولقب نفسه بالنيجري (الطبيعي)، وأخذ يُغري أبناء الأغنياء من الشُّبُّان الطائشين، فمال إليه أشخاصٌ منهم؛ تملّصاً من

قيود الشرع الشريف وسعياً وراء الشهوات البهيمية، فراق لحكام الإنجلiz مشربه ورأوا فيه خير وسلية لإفساد قلوب المسلمين، فأخذوا في تعزيزه وتكريمه، وساعدوه على بناء مدرسة في «علي كده» وسموها مدرسة المحمديين، لتكون فخاً يصيدون به أبناء المؤمنين ليربوهم على أفكار هذا الرجل (أحمد خان بهادرور).

وكتب أحمد خان تفسيرًا على القرآن فحرف الكلم عن موضعه، وبدل ما أنزل الله، وأنشأ جريدة باسم تهذيب الأخلاق، لا ينشر فيها إلا ما يضل عقول المسلمين، ويوُقِّع الشقاق بينهم، ويلقي العداوة بين مسلمي الهند وغيرهم، خصوصاً بينهم وبين العثمانيين، وجهر بالدعوة لخلع الأديان كافة (لكن لا يدعو إلا المسلمين) ونادى: الطبيعة! الطبيعة! ليوسوس للناس بأن أوروبا ما تقدمت في المدنية، وما ارتفت في العلم والصنعة، وما فاقت في القوة والاقتدار إلا برفض الأديان، والرجوع إلى الغرض المقصود من كل دين (على زعمه وهو بيان مسالك الطبيعة، قد افترى على الله كذبًا).

ولما كان في الهند أحسسنا من بعض ضعفاء العقول اغتراراً بترهات هذا الرجل وتلامذته، فكتبنا رسالة في بيان مذهبهم الفاسد وما ينشأ عنه من المفاسد، وأثبتنا أن الدين أساس المدنية وقوم العمران، وطبع رسالة في اللغتين الهندية والفارسية. إن أحمد خان ومن تبعه خلعوا لباس الدين وجهروا بالدعوة إلى خلعه ابتغاء الفتنة المسلمين وطلباً لتفريق كلمتهم، وزادوا على زيفهم أنهم يزرعون الشقاق بين أهل الهند وسائر المسلمين، وكتبوا عدة كتب في معارضه الخلافة الإسلامية.

هؤلاء الدهرييون ليسوا كالدهريين في أوروبا، فإن من ترك الدين في البلاد الغربية تبقى عنده محبة أوطانه ولا تنقص حميته لحفظ بلاده من عادات الأجانب، ويبذل في ترقيتها والمدافعة عنها نفائس أمواله، ويفدي مصلحتها بروحه.

أما أحمد خان وأصحابه فإنهم كما يدعون الناس لنبذ الدين؛ يهولون عليهم مصالح أوطانهم ويسهلون على النُّفوس تحكم الأجنبي فيها، ويجهودون في محو آثار الغيرة الدينية والجنسية، وينقبون على المصالح الوطنية التي ربما غفل الإنجلiz عن سلبها لينبهوا الحكومة عليها فلا تدعها!

يفعلون هذا لا لأجر جزيل، ولا شرف رفيع، ولكن لعيش دنيء ونفع زهيد ... (هكذا يمتاز دهريُّ الشرق عن دهريُّ الغرب، بالخسنة والدناءة بعد الكفر والزندقة). أحسن الإنجلiz إلى أحمد خان بتوظيف ولده مولوي محمود عضواً في مجلس قرية من قرى الهند لا تزيد عن «شبراخيت» في مديرية البحيرة.

ومن حبائله لصيده الضعفاء من المسلمين أنه يعدهم ويمنيهم بأنهم لو تبعوه لأدخلهم في وظائف الحكومة، بما له من الجاه عند جائرة الإنجليز، وحكومة الإنجليز لم توظف من أصحابه إلا أربعة أعضاء في مجالس القرى، ولا يوجد وطني هندي في مثل هذه الوظائف سواهم، هذا هو المجد الذي ناله أحمد خان ثمناً لدينه ووطنه، فهو كما قال صديق نواب حسن خان ملك بهوبيال صاحب التصانيف المشهورة: إن «أحمد خان» دَجَالُ آخر الزمان، نعم ساعده حكام الإنجليز على استخدام بعض من يخدمهم، لكن لا في الحكومة الإنجليزية الهندية ولا على الخزينة الإنجليزية، وإنما يلزم الحاكم أحد النواب الباقين على صورة استقلالهم أن يوظفوه في بعض الوظائف الدانية.

راق هذا المشرب في أعين الحكام الإنجليز وابتهدعوا به، وظنوه موصلاً إلى غايتهم من محو الدين الإسلامي من البلاد الهندية، هؤلاء الدهريون ساروا جيشاً للحكومة الإنجليزية في الهند يسلمون سيفهم لقطع رقاب المسلمين، لكن مع البكاء عليهم والصياح بهم، إنما لا نقتلكم إلا شفقة عليكم ورحمة بكم وطلبًا لإصلاحكم ورفاهة عيشتكم، ورأى الإنجليز أن هذه أقربُ الوسائل لنيل المقصود من ضعف الإسلام والمسلمين.

كان التلميذ الأرشد لأحمد خان والوزير الأول والمدير له في جميع شئونه رجلاً اسمه سميع الله خان.

سميع الله خان هو أعظم الدهريين دهاءً، وأشدهم اجتهاداً في تضليل المسلمين، وأدفهم حيلةً وأقواهم مكرًا في إيجاد الوسائل لتفريق شمل المؤمنين، وتمكين الحكومة الإنجليزية في أرض الهند، يقوم هذا الخادع خطيباً في محافل المسلمين فتسبق دموعه كلامه، ويأتي بغاية ما عنده من الفصاحة: لهدم أركان الديانة الإسلامية وإبطال عقائدها الأصلية، ويتجراً على حضرة الألوهية، ويطعن في الرسالة و أصحابها. كل ذلك وهو ينتحب كأنما يرشي الدين وأهله.

إذا دخل في بلد من بلدان لأداء هذه الخدمة واظب أيامًا على دخول المساجد، وحضور المحافل الدينية، واستدرج الناس بعذب الكلام، ولطف الوعد، وجذبهم إليه من حيث لا يشعرون، فإذا اجتمع عليه بعضُ من الناس اغتراراً بطلاؤه ظاهره بدأ في دعوتهم إلى مشربه الكدر (خلع الدين).

هذا العدوُّ المُبِين للإسلام والمسلمين قد نال بمساعيه هذه وظيفة قاض (في الشريعة الإنجليزية) في بلدة «أكره» وهي بلدة لا تزيد عن دسوق في مديرية الغربية، قالت جريدة التايمز بعدما مدحت سميع الله خان بكل ما يمدح به: «إن هذه الوظيفة (قاض في

بلد صغير) هي أعلى وظيفة ينالها هندي وطني.» (أيحتاج لإثبات العدالة الإنجليزية إلى شاهد أكبر من هذا).

نورث بروك، اللورد الإنجليزي الذي أشرنا إلى طرف من تاريخه في الهند في العدد الماضي، عرف سميع الله خان حق المعرفة عندما كان حكمداراً في الهند، ووقف على أنه أصدق الناس في خدمة الإنجليز وأقدرهم على أدائهم؛ ولهذا طلبه ذلك اللورد ليكون كاتم سره في مصر ليستعمله في تنفيذ المصريين من الدولة العثمانية، وفي إقناع المصريين بأن حكومة إنجلترا تُريد بهم خيراً، ويستخدمه في استمالة قلوب العلماء؛ لأنه واحدٌ منهم (على دعواه).

وقد يكون من نيته أن يدخل الجامع، ويعظ، ويخطب، ويروي عن عدل الإنجليز ما لا صحة له وما تكذبه المشاهدة. ولكن رجاءنا في نباهة المصريين وصدق عقائدهم الدينية وشدة ارتباطهم بالدولة العثمانية؛ أن لا ينخدعوا لهذا الراكس الهندي (الراكس بلسان السنسكريت الشيطان المريد)، لا نجح الله له مقصداً ولا أثاله مبتغى.

الفصل الحادي والتسعون

جريدة الأهرام

اشتد غضب نوبار باشا على جريدة الأهرام فأصدر أمره بتعليقها شهراً ووقف مطبعتها، وقيل في السبب: إنها نشرت رسائل مدير الجريدة وهو في لندن على ما فيها من بيان بعض مساوى السياسة الإنجليزية على خلاف رغبة سعادة الباشا! وقيل: إن السبب لنشر الشكر الذي قدم إلى المدير والمحرر من أعيان البلاد دلالة على استحسان مشرب الصحيفة (استقباح سياسة الإنجليز).

ولكن كتب إلينا من مصدر خاص أن هذه المسائل العمومية لا تهم نوبار باشا إلا إذا مسست مصلحته الخاصة، فالسبب الحقيقي هو المنهج المستقيم الذي سلكه «الأهرام». دعا إلى ذكر بعض الرجال الوطنيين مثل رياض باشا وشريف باشا، مع وصفهما بالوطنية وعلو الهمة وكمال الغيرة.

نوبار باشا ساع إلى أمر مهم وهو ما ذكرناه في العدد السابق ونشرته بعدها جريدة «الديبا» وسائر الجرائد الإنجليزية، وهو أن يكون ولـي القاصر «عباس» بعد خلع أبيه فينال بسطةً في السلطة وإطلاقاً في الأمر والنهي، وعلم أن هذا وقت الفرصة لحرص الحكومة الإنجليزية على تملك مصر وهي محتاجة في ذلك إلى كل من ليس له وطن ولا دين ولا جنس في مصر، فهي في شدة الاحتياج لنوبار باشا، وتوفيق باشا قبة جوفاء لا يرجع منها إلا صدى الأصوات، إن قلت: لا فلا، أو قلت: نعم فنعم، فهو في غضبه ورضاه تابع لما يلقى إليه.

فعلم نوبار باشا أن خديوياً مثل هذا يمكن أن يكون واسطة في تمكين الإنجليز من مصر من حيث لا يشعر، وتقديم هذه الخدمة لهم يعني لنفسه من العزة قصراً شاهقاً، فكيف يطيب لنوبار باشا مع هذا السعي أن يسمع ذكر رياض باشا وشريف باشا مع وصفي الوطنية وعلو الهمة، ربما الإكثار من ذكر هؤلاء الرجال يحرك الخواطر الوطنية فيندفع منها سيلٌ يهدم كل ما يعنيه.

إن صاحب الأهرام أكثر من ذكر الوطن والوطنيين، ونوبار باشا أبعد الناس عنهم لهذا أغضبه ذكرهما، كلما ذكر لفظ الوطن أو الله أو الجنس أو الأمة، سواء كان في مقال عام أو في جانب شخص خاص، حسب نوبار باشا أن في الكلام تهكماً عليه واستهزة به، ولا عجب من نوبار باشا إن ظن ما فعل ما فعل؛ فالرجل ليس بمصري ولا عربي ولا مسلم، فإذا باع مصر بأبخس الأثمان فهو الرابح، لا خسر ملةً ولا وطنًا ولا جنساً.

وقيل: إن نوبار يطلب إبعاد الزبير باشا من مصر، فإن نال مطلبه لم يبعد أن يطلب لشريف باشا ورياض باشا وكل ذي شهامة أو فكر في مصر مثل ما طلب للزبير، وتكون الحكومة التوبيرية حكومة هندية، وهل يبعد مثل هذا على من يسعى لخلع الخديو؟! إن الذي يؤيد ما روي لنا في سبب تعطيل الأهرام هو أن نوبار باشا ما تحرك لحجز العروة الوثقى عن دخول مصر إلا عندما ذكر فيها رياض باشا مع ذكر بعض أوصافه، وإلا فإن كان السبب ذكر الإسلام والمسلمين فيها فذلك ينذرنا بوقف الأزهار وبأمر نوبار باشا. إنني أتعجب وكل ذي إحساس يتعجب من سكان الديار المصرية من المصريين والأتراك والجهازيين واليمنيين، ألا يوجد من بين هؤلاء فتى يشمر عن ساعد ويتقدم بصدره ويخطو خطوة إلى هذا الوزير الأرمني، فيبطل هذه الصفقة وينقض هذه البيعة ويكشف له وللمغوروين من أمثاله حقيقة الوطنية، ويرفع الحجاب عن واجبات الملة؟! لا حول ولا قوة إلا بالله.

إن المولعين بحب الحياة يقضونها من خوف الذل في الذل، ويعيشون من خوف العبودية في العبودية، ويتجرعون مراتات سكرات الموت في كل لحظة خوفاً من الموت، لا الدين يسوقهم إلى مرضاه الله، ولا الحمية الوطنية تدفعهم إلى ما به فخر بني الإنسان!

الفصل الثاني والتسعون

lahor

جاءتنا رسالةً من لاهور باللغة الهندية (ورجأنا أن تكون المكتبة فيما بعد باللغة الفارسية) فرأينا أن ننشر ملخصها: قال الكاتب:

«إنا نسمع صاحب جريدة «أخبار عامة» الاهوري ينادي من صميم قلبه بأن الإنجليز سلاطيننا، خصوصاً عند كلامه في الانتقاد على العروة الوثقى، ومن غريب كلامه قوله: إن غرض العروة أن تفصّم رابطة الاتحاد بين الرعايا الهنديّين وسلاطينهم الإنجليز، ولا يخجل من قوله: إن سلاطيننا الإنجليز هم الذين زينوا الهند بإصلاح طرقه ومد السكك الحديدية في أنحائه ووصل أرجائه بأسلاك التلغراف. كأنّما الإنجليز من سلالة بكر «ماجيت» أو من جنس «الجهيري» أو من أحفاد «أكبر شاه الهندي»!»

وإذا سمع سامع صوت هذه الجريدة على بعد يظن أن هذه الأعمال التي زينوا بها الهند – على رأي الجريدة – ما قام بها الإنجليز إلا لنفعة الهنديّين، ويتّهمون أن الهندّيين جنوا من ثمرتها شيئاً، وأن ضجرهم من سلطة الإنجليز ونزعوّهم إلى التملّص منها إنما هو من كفران النعمة.

يا عجباً من هذا البانديت الاهوري! إنه يرى فقر أبناء وطنه ومسكتهم ويشهد بعينه أنهم لا يجدون ما يسدون به رمقهم، وأن أسعد النّاس منهم من يحصل عشر روبيات في الشهر بعد أن يبلغ درجةً عاليةً من الكمال، ومن جملتهم نفس صاحب الجريدة، فكيف يطيل لسانه بشكر هذه الحكومة ويضع على ظهور الهنديّين حملًا

ثقيلاً من المنة لد سك الحديد وخطوط التلغراف؟! إن كانت حكومة الإنجليز تسوس الهند بالعدل، فأين ذهبت ثروة أهاليه مع خصب الأرض ووفرة الثمرات؟! ولأي سبب ابْتُلَى النَّاسُ بِالْفَقْرِ حَتَّى لَا يَجِدُوا قَوْتَأً؟!

إن الجرائد الإنجليزية في الهند تُنذر حكومتها بأنه لو استمرت الإدارة الهندية على حالها هذا فلا يمضي عشر سنوات إلا وتكون فتننة عمومية تأخذ بجميع أطراف الهند ويكون منشؤها الجوع، فإذا أنشأت الحكومة الإنجليزية سك الحديد لنقل بضائعها وترويج تجاراتها وحمل العساكر لقتل أبناء البلد، وليس عند الهندوَّن الآن ما يباع ويشتري حتى يستفيدوا من سهولة نقله، فلأي شيء تكون المنة على الهندوَّن؟! وإذا مدت خطوط التلغراف لاستطلاع ما يجري في ممالكها وتسهيل المخبرة بين رجالها، فأي منفعة في هذا توجب مسحة الهندوَّن؟!

إن رجال الإنجليز بعدما دخلوا البلد على هيئة تجار وكانوا يخضعون للصغير والكبير أزيد من قرن، بلغ من أمرهم الآن أن لا يعودوا الهندوَّن من فصيلة البشر، إذا أراد الإنجليز أن يجمعوا أعيان البلد لإلزامهم بأداء ضريبة جديدة هيئوا مكاناً علياً يرتفع عن الأرض نحو ثلات أذرع لتوضع عليه كراسي سادة الإنجليز، ويجلس الهندوَّن في منخفض من الأرض إظهاراً للامتياز، مع أنهم ما جمعوهم إلا لسلخ ما بقي من جلودهم وامتصاص ثملة دمائهم.

أي أمة متوحشة أو متمندة تعامل أمة أخرى بهذه المعاملة؟! أحلف بالله أن جنس الهندو (قوم برهما) حينما قدموا من إيران وفتحوا الهند ما عاملوا السكنته القدماء بهذه المعاملة مع أنهم كانوا يعتقدون أنفسهم سماوين، وما أذلوا جنس «الباريا» بهذه الدَّرَجَةِ مع أنهم كانوا يزعمون أنهم أبناء الآلهة، قبلوا جنس «التانكَان» في مصافهم وأشركوه في حقوقهم مع كونه مغلوبًا لهم.

فتح المسلمين أرض الهند فعاملوا الوثنين كمعاملتهم لبني ملتهم وما حرمونهم من الوظائف السامية، وما من سلطان مسلم تسلط في الهند إلا كان له من الوثنين عمال ووزراء، كان المسلمين يسيرون مع الوثنين سيرة الإخوة حتى أوقع الإنجليز بينهم الشقاق في بنجاب وأطراف مدراس.

يُزعم الإنجليز أن المسلمين أولو تعصب ديني يجور بهم عن العدل، مع أننا نرى إلى الآن في الهند حكومات صغيرة يحكمهم راجوات ونوابون من أهل السنة والشيعة ونرى للراجا الوثنى وزيرًا مسلماً وعمالاً مسلماً ونواباً مسلماً وزيراً وثنىً وعمالاً

واثنين، وهكذا السنين مع الشيعة والشيعيون مع أهل السنة، ولا نرى في الملايين الكثيرة المحكمة بالإنجليز رجلاً هندياً في وظيفة شريفة.

إن هذا البانديت (صاحب أخبار عام) لا يخجل من قوله: إن الإنجليز سلاطيننا، أي سلطان يستكشف من شرف رعيته ويعدهم في عداد البهائم؟!

إن اللورد ريبون لما صار حاكماً على الهند ورأى أن روسيا وصلت إلى مرو وأحس بنفرة الهنود من الحكومة الإنجليزية واستعدادهم للثورة؛ أراد أن يُطّلب قلوبهم بأمرٍ حقيرٍ يسخر منه الأبله — فضلاً عن الحكيم — وهو توظيف «رام جندر متر» ومولوي محمود بن أحمد خان في وظيفة القضاء ببلدة صغيرة، وهما من تعلم الشرعية الإنجليزية في بلاد الإنجليز (انظر كيف يطّلب قلب أمّة عظيمة مجرورة الأفئدة ساقطة في جحيم الشقاء بمثل هذه النكتة المضحكة)، وهذا الالتفات من اللورد لكمال سياسته وحده، فماذا يكون موقع الهنود من نظره إذا كان يظن أن الأمم العظيمة المحترقة بنيران الظلم من أزمان تعرف بعدالة الإنجليز مجرد توظيف شخصين وظيفة صغيرة؟!

إن هذا مما عَدَه اللورد الإنجليزي أمراً لازماً لصون سياسته مما عساه يطّلُبُ عليها، ومع هذا قام الإنجليز في الهند ورفعوا شکواهم إلى لندن من تصرف اللورد، ولا يزالون يرّفعون ويقولون: كيف يجلس «كلا» أي الهندي الأسود على منصة القضاء، وربما يأتي وقتٌ تقام فيه الدعوى بين يديه على إنجليزي فيصدر الحكم منه عليه؟ (كيف يصدر الحكم من هندي على إنجليزي؟) فليعتبرْ منْ يعتبر.

إن الإنجليز لا تسمح نفوسهم أن يعترفوا بإنسانية الهندي ولو للضّرورة، أيحب البانديت الاهوري أن يلقي غشاوة الغش على عينيه وأعْيُن إخوانه ويفتري الكذب بقوله: إن بين الهنديين وحكومتهم نوعاً من الالئام؟! وهل مثل هذه الحكومة يلتمّ معها ذو إحساس؟!

إن البانديت يقول في جريدةٍ وفي أثناء انتقاده على العروة: إن سلالة الأُمّاء وأبناء العائلة التيمورية (ملوك الهند) عراةٌ في الأسواق، يتضورون جوغاً ولا يجدون حُصّاً يأوون إليه، فإذا كان هذا حالُ الأُمّاء — باعترافه — فكيف يكون حال سواهم؟ وكيف طوّعت له نفسه أن ينطّق بكلمة تُشعر بالرضا عن حكمة الإنجليز؟ إنه يتملّق للحكام ولكن لا أظنه ينال على التملّق أكثر من عشر روبيات في الشهر، فليس له أن يُتعب لسانه ويُجهد نفسه مجاناً.

لا ينكر البانديت أن الإنجليز إذا خاطبوا هندياً لا يكلمونه إلا بالعصا، وإذا اعتدى إنجليزي على هندي فقتله حَكَمَ أطباء الإنجليز بأن القتيل مات بالسل المزمن أو داء الكبد

أو بمرض عياء ورثه عن آبائه كي لا يُقادَّ إنجليزي بدم هنديٌّ، فيذهب دم الهندي هدرًا.

إن ظلم الإنجليز وجورهم يظهر لكل قارئ من تلك الورقة الصغيرة «أخبار عام»، وإنني أقول بلسان كل هندي – وثنياً أو مسلماً، سنياً أو شيعياً: إن البانديت لا يمكنه بورقته هذه أن يقطب جروح الهنديين ولا أن يطفئ لهيب أحشائهم مما يرونه كل يوم من سلب الأموال وإهانة الأديان وتضييع الحقوق وحرمان الأهالي من خدمة أوطانهم، وليس في طاقة قلمه أن يرفع شيئاً من الواقع ولا أن يحدث خاطر محبة الإنجليز في قلب هندي إلا من خربت ذمته ومرق من عهود دينه ووطنه، وإن البانديت يعرف هذا ولكنه يسعى لعله يحصل شيئاً زهيداً ويقنع به بعضاً منا، وكثير من الشرقيين صارت حوصلتهم كحوصلة العصافور يملؤها حَبَّان من الحنطة! وسنكتب إليكم عن تفصيل الأعمال الإنجليزية عندنا – إن شاء الله. ا.ه.».

الفصل الثالث والتسعون

الإنجليز والدول

ما للحكومة المصرية لاهيٌ عن شأنها؟! ماذا تتبعي من سُكُونها وميلها مع ريح الحكومة الإنجليزية؟! ماذا تنتظر الدولة العثمانية بعد انحلال المؤتمر على غير طائل؟! أَتَطْنُونُ الحكومة المصرية أن خضوعها لأوامر بريطانيا، واهتمامها بخدمة عساكرها الزاحفة إلى السودان؛ مما يوجب الخجل لحكومة الإنجلiz، فستتحي بعد ذلك أن تكفر نعمة الصداقة وترعى سابقة الخدمة، فترتك مصر نقية الراحة، برئيئة الذمة، وتمكّن الأمر للحكومة المصرية، وتشيد الخديوية لتوهّيق باشا؟! إن خَطَرَ هذا الوهم ببالي الحكام في مصر فقد خرقوها، فليس يحوم مثلُ هذا الهاجس في فُكُرٍ إلا وقد مَسَّهُ الخبل، ولا يخلج في صدرٍ حتى يختم عليه بطبع العمى.

حكومة بريطانيا انتحلت لنفسها أسباباً للدخول في وادي النيل، وأنشأت له عللاً، فغایتها من كل أعمالها أن تكون لها سلطة ممتازة فيه سواء تأيد توفيق باشا أو تأوده، ولا أحس رجالها أن بحث المؤتمر ربما ينجر إلى ما يمس غایتهم هذه تملصوا منه واستبدوا بأعمالهم وأخذوا على أنفسهم تسكين عاصفة الثورة السودانية، فإن تم لهم ما أرادوا واستقلوا بالعمل في السودان فهل يرجي منهم أن يخلوا مصر بعدهما فتحوا من ورائهم ما فتحوا؟! إن هذا إلا خيال باطل.

هل تهورت إنجلترا، وأغاختت جميع الدول العظام، وهيأت لنفسها خطر تأليهم عليها حبًّا في توفيق باشا ورغبةً في حفظ مسنه؟! هذا مما لا يُعقل، ربما تكون الدولة العثمانية والحكومة المصرية في رجاء أن الدول الأوروبية يستفرزها الغضب فتندفع بقوتها

على دولة الإنجليز فتكبلاها في سياستها وتلجهُها للجلاء عن مصر فتركتها لأهلها وكفى الله المؤمنين القتال، إن كان ذلك سبب الفتور فهو ثقة في غير محلها ونوع من الطمع غريب.

قد يكون اتفاق الدول على معاكسة الإنجليز متعلقاً بجهات أخرى ولا يكون إخلاء مصر من مواضيع الاتفاق – كما أشار إليه كثير من الجرائد – حيث ذكرت أن من المقاصد التي يجتمع لها القياصرة الثلاث كف روسيا عن مطامعها في أوروبا وإطلاق العنان لها في آسيا والأقطار الهندية، أليس من الممكن أن مناؤة الدول للإنجليز تنتهي بسلب جزء أو أجزاء من أراضي المسلمين في مقابلة تمكن الإنجليز في أراضي مصر؟

نبهت بعض الجرائد المهمة على شيء من هذا، وصرحت بما لا ينطق اللسان بذلك. إن للدول اهتماماً بنكالية الإنجليز، ومن أعظم البواعث على اجتماع القياصرة خروج إنجلترا عن حدها في الاستئثار بالمنفعة على غيرها، لكن أليس من الواجب على صاحب البيت أن يبدأ بعمل في الذود عن بيته قبل أن يساعد الجيران؟ خصوصاً إن كان للجيران أطماع متنوعة بعضها يمنع عن المساعدة وبعضها يحمل على التواني وتأجيل العمل لأوقات أخرى.

وما يدرينا لو حولنا الأمر إلى الجار لينقذ المغصوب من يد الغاصب لعله بعد استخلاصه يختص به لنفسه، فما الذي جنينا من ثمار مساعديه وأية فائدة حصلناها؟ لو شحت الحكومة المصرية بحياتها، وأبصرت أن بقاءها في إبائها، وترفعت عن هذا الخضوع البارد، وتجافت عن تسهيل الطرق وتمهيد السبل لسير العساكر الإنجليزية، ثم قامت الدولة العثمانية على المطالبة بحقوقها، وذهبت في الطلب مذهب العمل، ولم تكتف بلوائح تسطر، وحجج تنشر، ولم تستند على سفرائها الذين ليس لهم خوض حقيقيٌ إلا في ملاذهم وشهواتهم.

لو كان كل هذا لشاركتُ الدولة العثمانية ومعها حكومة مصر سائر الدول في معاكسة إنجلترا، وحيث إن للدولة العثمانية والحكومة المصرية الحق الأول والملكية الشرعية في تلك الأقطار فما يكون منها من الأعمال يُكسيهما تخليص البلاد فإن الدول تكون في عونهما ولا حقَّ لواحدٍ منها فيما بعدُ أن تستأثر عليهما.

إن إقدام الدولة على العمل وعدول الحكومة المصرية عن مسلكها المضر بها مما يقرب المسافة ويقصر المدة ويقوى حجة الدول في مطاردة إنجلترا، لو تساهلت الدولة العثمانية واطمأنَت الحكومة المصرية لحالتها الحاصرة، فبأي وجه تؤمل الحكومتان

نفعاً من مطاردة الدول؟! على فرض لو استخلصت مصر من أيدي الإنجليز ماذا يبعث الدول على مقارعة دولة عظيمة كدولة بريطانيا لسلبها ملكاً عظيماً ثم تسلمه للدولة العثمانية أو الحكومة المصرية؟

لا نتحاشى أن نقول: إن الدولة العثمانية والحكومة المصرية واقutan بين خطرين عظيمين: إن فاز الإنجليز في السودان فقد ضاع القطر المصري، واستقر فيه السلطان لحكومة إنجلترا، سواء عارضت الدول أم لم تعارض، وضياع القطر المصري هو ضياع الكل — كما أشرنا إليه مراً وكم يشهد به موقع البلاد المصرية من سائر بلاد المسلمين وإن خاب الإنجليز في منازلة التأثرين فليس يخفى على عقلٍ عاقلٍ ما يترب على هذه الخيبة، وما ينشأ عن غلبة محمد أحمد وأتباعه وانهزام العساكر الإنجليزية، وربما كان هذا الأمر الثاني، سبباً لداخلات أجنبية في جميع أقطارنا.

ليس من الصعب على الدولة العثمانية ولا على الحكومة المصرية أن تُظهرها شيئاً من الشدة وتأخذها بجانب من القوة، وتفقا على قدم الثبات؛ ودولة إنجلترا في تخبط مع الدول وارتباط بالسودان، والمسلمون من جميع الأقطار في هياج شديد، لو قامتا بها يسهل عليهما لحفظ لهما الموجود ورُدّ المفقود، وسُدّت أبواب المطامع، وأخذت الدولة العثمانية مكاناً من القوة تخشع له قلوب الجبارين، ولازدادت بذلك ثقة المسلمين وابعثت آمالهم. سلكت جريتنا مذهب الصدق في بيان حال الإنجليز مع الدولة العثمانية، وأثبتت عن بصيرة وكمال خبرة — أن الإنجليز يهابون منافرة الدولة ويخشون سوء مغبتها. جريتنا تنادي بذلك، من يوم صدورها بيتاً أن للدولة سلطة معنوية في الهند لم تبلغها حكومة الإنجليز بعد إفراغ جهدها.

هذه حقيقة الأمر، ومع ذلك لا ندري سر هذه السياسة اللينة التي لا نرى لها أثراً إلا في الأوراق وتحت أسنة الأقلام، والإنجليز يُقاتلون ويتملكون وتزداد أقدامُهم رسوحاً يوماً بعد يوم، وانطلق بهم الغي إلى أن أطّلوا أيديهم إلى الأوقاف المصرية يطلبون التصرف في خزينتها والقيام على إدارتها.

نُعيد الكلام مرة أخرى ونقول: إن جميع المسلمين في الأقطار الهندية وما يتاخماها؛ قائمون على قدم وساق متهمون لمواشة أعدائهم وسالبي حقوقهم، فثبتاً ما من الدولة العثمانية يظهر له أثر عظيم يضطر الحكومة الإنجليزية إلى ترك مصر. وليس للدولة أن تضيع هذه الفرصة؛ فقلما يأتي الزمان بمثلها. الدولة متألبة على الإنجليز، وروسيا مشرفة على الهند، والهنديون في هياج، وخطب السودان غير يسير، فإن لم تأخذ الدولة حقها من الإنجليز في هذا الوقت، فمتى؟!

الفصل الرابع والتسعون

تعظيم توفيق باشا لنورث بروك!

ورد خبرٌ من القاهرة بوصول اللورد نورث بروك إليها، وتمت المقابلة الرسمية بينه وبين توفيق باشا، وقدم إليه رسالة من اللورد جرانفيل يخوله فيها «نورث بورك» وكيلًا للحكومة الإنجليزية في القطر المصري، ويطلب من الحكومة المصرية أن تُساعدُه في حل المشكلات الحالية خصوصًا المالية، فأظهر توفيق باشا غاية المسرة من تعينه بهذه الوظيفة، وأكَّد له خلوص الوداد وكمال الرضا بجميع مطالبه. أ.ه.

ويظهر أن توفيق سرّ بقدوم اللورد نورث بروك، وإن لم يكن بينه وبينه معرفة شخصية، ولا له سابقة علم بأحواله ولا بما يريد أن يعمله في بلاده، هذا يمكن، وليت شعري ماذا يجني هذا الخديو الشاب من مرضاه هذا الخادع؟! وماذا يُصيّبُه من سهام حِيلَة؟! ولقد بینا في الأعداد الماضية بعض صفات هذا اللورد وطرفًا من أعماله في الهند، ونذكر الآن عملاً آخر منها.

طلب وهو حكمدار الهند أن يمكّن السلطة الإنجليزية في مملكة «كابورتال» وهي مملكة واسعة تُتّاخم «lahor» و«بتىالة»، فادعى على مهراجها (ملكتها) أنه مجنون وهو في رشاد عقله واعتدال مزاجه، وخلعه بهذه الدعوى وسجنه في «بكسو» حتى مات حتف أنفه وقيل: بالسم، وكان هذا الملك المخلوع ابن «راندھير سنك»، ونصب بدله ولدًا صغيرًا من أولاد كاتب من كُتّاب ذلك الملك، ليعد المملكة بذلك للدخول في حوزة الحكومة الإنجليزية، وكانت الحكومة الإنجليزية قد تركت لبعض الرجوات المخلوعين غبات صغيرة من بقایا أملاكهم للصيد، فكان لأولئك المساكين يسلون أنفسهم على ضياع

ممالكهم بصرف بعض الزمان فيها، فلما جاء اللورد نورث بروك حاكماً في الهند رآها كثيراً عليهم فنزعها من أيديهم وحرمهم من هذه المنفعة الزهيدة.

هذا هو اللورد الذي طلب سميح الله خان الدهري ليكون معيناً له في مصر على إرضاء المصريين بحكومة الإنجليز، وهو الذي أعطى المبالغ الواافرة للمعلم «بالر» لينثرها بين العرب حتى يثوروا في أراضي الدولة العثمانية أيام الحرب المصرية — كما أخبرنا الثقة الصادق من لندن — ولكن العرب قتلوا رسوله هذا وشنق به أشخاص من مصر بلا جرم، هذا اللورد هو الذي يبتهج توفيق باشا بقدومه! صان الله الأرضي المصرية المقدسة من شر هذا المحتال، ومن شر صاحبه سميح الله خان الدهري.

الفصل الخامس والتسعون

فرنسا وألمانيا

جزمت جريدة «نوفيل بريس ليبر» أن الباعث على سفر البارون كورسل (سفير فرنسا في برلين) إلى وارزين هو أهم حدث سياسي، وفي ظنها أن الحديث بينه وبين البرنس بسمارك انتقل إلى موضوع الحرب الصينية ومسألة الكونغو، قالت الجريدة: «إن بسمارك قد غير منهجه السياسي الذي سلكه من سنة 1870، كان مضطراً لإبعاد فرنسا عن سائر الدول، واليوم وجّهَ عزيمته لإبعاد إنجلترا».

ولمَّا اجتمعَ الأباطرةُ الثلاثةُ في سنة 1872 اضطربت خواطر الفرنسيين وكان كل منهم يحث نفسه: هل يُنْتَظَر اتفاق بين الأباطرة على مناولة الجمهورية؟ أما إذا اجتمعوا في هذا العام فلا يخالط الريب قلب فرنساوي، بل تكون النُّفُوس ساكنة مطمئنة، ولا يوجد في دولة أوروبية ما يوجب حدوث قلق في باريس بأي وجه كان، بل يوجد ما يثبت الطمأنينة، فإنِّي نية البرنس «بسمارك» في وارزين أن يقرب فرنسا إلى سائر الدول البرية، وإن زيارة البارون كورسل للبرنس تعد أكبر شاهد على ما نقول. ا.ه.

الفصل السادس والتسعون

كيد الإنجليز في مصر

أرسل الإنجليز مراكبهم إلى ثغر الإسكندرية سنة ١٨٨٢ بلا سبب أو لقصد تهيج الخواطر الساكنة، ثم أطلقوا نيران مدفعهم على ذلك التغر فكان عملهم الأول والثاني سبباً في خسارات جسيمة نُكِبَ بها سكان البلاد، ثم كان الضمانُ عليهم هذا إما سوء حظ المصريين أو لضعف الحكومة أو خرقها.

لا ريب أن خزانة الحكومة المصرية في عجز عن أداء هذه الغرامة الثقيلة التي هي – في الحقيقة – قصاص بلا جنائية، ولكن مع ذلك للمصابين حقٌ في المطالبة بخسائرهم، وليس لهم صرُّ على الإهمال فيها، فحدثت ربيكة، وحكومة الإنجليز كالصياد الماهر لا يطلب السمكَ إلا عند تعكير الماء! رأت أن تصيد صيداً أو تخطو خطوة أخرى إلى مقصدها في مصر بعد خطواتها السابقة أو تتمكن مخالفتها في أحشاء مصر، بل يصح أن نقول: إن الحكومة الإنجليزية بحيلتها التي أشرفَت على تتميمها تُريد أن تقبض على زمام البلاد المصرية ف تكون بأسرها في تصرفها.

من المعلوم أن عمار المساجد والمدارس الدينية إنما هو بالأوقاف التي أنشأها صلَاءُ المَلَكَ من أزمان مديدة ولا يزال ينشئها المقتدون لآثارهم، وقيام الدين الإسلامي إنما هو بعمَار المساجد والمدارس الدينية، فالأوقافُ عمادٌ عظيمٌ يقوم عليه عرْشُ الديانة الإسلامية، فَقَحَّدَ رجالُ الحكومة الإنجليزية بكيدِهم أنْ يجعلوا العلماء الذين يعمرون مساجد الله ومَعَاهِدَ العلوم الشرعية خاضعين لأحكامِهم، مرتبطين بعِمالِهم حتى يستعملوهم، (وإن

طلبوا محالاً) في جلب قلوب الأهالي إليهم وتتألifها على ولائهم، وربما نالوا بهم حجة عند دول أوروبا، يثبتون بها رغبة المصريين في بقائهم تحت سلطة الحكومة الإنجليزية واطمئنانهم إلى ما تقضي به فيهم.

هكذا رأى اللورد نورث بروك أن يحل مسألة التعويضات بأنْ تدفع الحكومة الإنجليزية قرضاً للخزينة المصرية تؤدي به تعويضات الخسائر التي حدثت من ضرب الإسكندرية، على شرطٍ أن تكون الأوقاف العمومية كافلةً للقرض وفوائده وتكون إدارة الأوقاف في تصرف الإنجليز.

ألا أيها النائمون تيقظوا، ألا أيها الغافلون تنبهوا، يا أهل الشرف والناموس، ويا أرباب المروءة والنخوة، ويا أولي الغيرة الدينية والحمية الإسلامية، ارفعوا رءوسكم، ترموا بلاءً منصباً على أوطانكم، وما أنتم ببعيد منه، ولا بمعزل عنه، إن لم يكن أصابكم اليوم، فسيصيبكم غداً، تساهلتم في الذود عن حقوقكم المقدسة، ولهؤلئك عن ما أضمرت لكم هذه الحكومة من الإهانة والتلليل وسوم الخسف، وتعللتم بالأوهام، فتنتقم أنفسكم وتربيصتم وارتبتتم وغررتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغرركم بالله الغرور، أصبحتم على شفا جرف المذلة، ويخشى أن يُقذف بكم — بعد قليل — في جحيم العبودية، إلا أن وقت التدارك ما فات، فالأرواح في الأجساد، والعقول في الرءوس، والهم في التفوس، وإقدام العدو في زلل، وشئونه في خلل، فاثبتوها ولا تهنوها، ولا تحزنوا وأنتم الأعلون، إن كنتم مؤمنين، لا ترضوا بالدنيا، خوفاً من المنية، واعلموا أن ثباتاً قليلاً وإقداماً خفيقاً في هذا الوقت يفعل ما لا يفعله الجيش العرمم.

نعم؛ فإن الدول متفقة على معاكسة الإنجليز، والإنجليز في شغل شاغل بالمسألة السودانية، وقلوب رعاياهم في الشرق — خصوصاً المسلمين — منحرفة عنهم، وكوامن الأحقاد متهيئة للوثبة عليهم، فعملٌ صغيرٌ في مناوأتهم من أهل مصر يوجب — بعون الله — سقوطهم وتنكيس أعلامهم، ورجوعهم بالخيبة خاسرين.

فالثبات الثبات! وحذار حذار من التوانى والت怯اع! هذا وقت يقرب فيه المؤمنين إلى ربهم بأفضل عمل شرعي، هذا وقت تُنال فيه سعادة الدارين، للعامل فيه خير الدنيا وله في الآخرة الحسنى وزيادة، هذا وقت تظهر فيه ثقة المؤمن بوعد ربه، هذا وقت يشكر فيه العامل على بسيط الأرض، ويحمد له عمله فوق سبع سمات.

ألا إن الشيطان يخوّف أولياءه، فلا تخافوا أعداءكم ولا تكونوا كالذين استحبوا الدنيا على الآخرة، إن الله تعالى قد جعل من علامات الإيمان حبّ الموت اختياراً لرضاه

وإعلاه لكلمته، كونوا مع الله في نصره ينصركم ويثبت أقدامكم، ثُقُوا بوعد الله؛ فلن يُخالف الله وعده، إِنْ أَخْلَصْتُمْ لَهُ فِي الْعَمَلِ سَلْعًا قُلُوبَكُمْ، وَامْتَحِنُوا إِيمَانَكُمْ، وَلَا تَرْتَابُوا فِي وَعْدِ رَبِّكُمْ، فَلَنْ يَرْتَابَ فِيهَا إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ.

الفصل السابع والتسعون

الصراع بين إنجلترا وفرنسا

أظهرت جريدة إستندارد عند كلامها على السياسة الفرنسية حدة زائدة، وقالت: إننا وإن كنّا لا ننصح حكومتنا (الإنجليزية) بمعاداة دولة فرنسا؛ ولكن علينا أن ننهج الطريق الذي يوافقنا بدون أن ننتظر فضلاً من الأمة الفرنسية ولا أن نخشى غائلتها؛ فإن كل عمل لا يبني على هذا الأساس لا تكون غايتها إلا الخيبة، ولا عاقبة له إلا الخسارة، وإن تبادر المصالح بين فرنسا وإنجلترا في درجة لا يمكن معها وفاق بين الدولتين. أ.ه.

ولم تنفرد جريدة إستندارد بهذا القول، ولكن على شاكلتها جميع الجرائد الإنجليزية المهمة، وليست جرائد فرنسا بأقل حدة من جرائد إنجلترا في تسوية السياسة الإنجليزية، وهذا مما يرشد إلى تمكّن النفرة بين الدولتين، وربما ذهب بهما التbagض الذي يزداد يوماً بعد يوم إلى مقارعة أشد من مقارعة الكلام.

والسياسيون في إنجلترا يرون أنهم يخسرون في ذلك اليوم أكثر مما تخسر حكومة فرنسا؛ فإن انفرادهم عن الدول وضعفهم في القوى العسكرية، وجفول أمتهم من الحرب خارج بلادهم، إذا امتد زمنها أو كان المنازل فيها أمّة قوية حربية؛ كل هذا سيوقعهم في فشل لا يسهل عليهم النجاة من عواقبه — نسأل الله تحقيق ما يخافون.

الفصل الثامن والتسعون

نهاية الإنجليز

حركات العقلاء على حسب المقاصد ومقدرة نقدراها وأولاها بالاعتبار ما يصدر عن كبار الرجال الذين يدبرون شؤون المالك على قواعد العقل وأصول الفكر، وعلى رعاية الأمم في كل دولة أن يكونوا بممرصد لكل حركة سياسية وبمراقب للنظر في غايتها والبحث عما بعث عليها، رب نهضة من سياسي عظيم تميد لها الراسيات في كل دولة وتضطرب لها الروابط العامة بين أمة وأمة.

فليس لحثك في السياسة أن يقصر نظره على ما عنده ويرد كل حادث سياسي إلى ما رسم في مخيلته واعتقده موافقاً لمصلحته، فيفضل عن الرشد بالقصور ويعيّب عن الصواب بالغرور، بل عليه أن يُطالع مقاصد السياسيين في لوح الإمكان، ويتلووها في صفحات المنافع والمضار التي يحمل على جلبها أو يدعو إلى دفعها طبائع الأمم، ولوازم مليتهم، وموقع بلدانهم، وعلاقتهم مع سواهم، حتى يمكنه أن يكون بين هذه الجوانب والدّوافع حافظاً لداره، واقياً لنظام سيره، يكون على غوارب أمواج الحوادث كالملاح الماهر، يضرب بسفينته عروض البحار، في أمن من الأخطار، يستفيد حتى من العواصف، وينجو حتى من القواصف.

كانت حكومة فرنسا أشدّ الدول في دفع إنجلترا عن مطالبها المالية، وبهذه الشدة سقط المؤتمر، بعد هذا بذل البرنس بسمارك جهده في اجتماع القياصرة الثلاثة فاجتمعوا في «إسكيارنيافيس»، ثلاثة ملوك عظام تلقوها بعد طول المخابرة ومعهم وزراؤهم، ورجال تميزوا بين السياسيين بعلو الرأي وبُعد الغاية.

هل كان هذا التلاقي لإطفاء لوعة الشوق وإجابة داعي المحبة الشخصية؟! هل كان كما ذكرته الصحف للتداول في الوسائل التي يجب استكمالها لقهر الفوضويين؟! كيف يكون هذا وليس أعوناً الفوضى إلا كخصوص تcumهم السطوة الداخلية ويكفي لسد أبواب الفرار في وجوههم مخابراتٌ خفيفةٌ بين أولئك الملوك، كما هو الشأن في أمثالها من المسائل الجزئية. إن ما تقوله الجرائد من هذا القبيل إنما يقصد به التعمية وصرف الأذهان عن النظر في الحقيقة – أي غرض عظيم دعاهم للاجتماع؟! – لم يجتمعوا لنفع دولة واحدة، فإن حكم المنافسة محا فضيلة الإيثار.

قد انضم لهذا الاجتماع تعدد الملاقاة بين البرنس بسمارك بهذا الاتفاق الإمبراطوري أن يجعل لفرنسا ركناً شديداً في معارضة إنجلترا حتى يستحكم الشقاق ويفضي إلى حرب تُوهي القوة الفرنسية ويُصيّب منها ما يحب، هذه فائدةٌ خاصةٌ بدولة الألمان لو قدرت على نيلها، فماذا ينال الدولتين المنافستين لها من الاتفاق معها؟ أُويريد البرنس مجرد المجاملة لفرنسا وقطعيب جراحتها بتأييدها في رغباتها فتكون المصفاة بينها وبين ألمانيا وتensi الأحقاد بينهما؟

غاية لا تطلب والشأن فيها كسابقتها، يقصد البرنس مجرد الانتقام من وزارة بريطانيا تشفيًّا من غيظ الإهانة التي لحقته في المؤتمر. إن كان هذا، ما بال الدول تتفق معه على انتقام شخصيًّا لا يمس المصلحة المشتركة، هل هذه الحركة الشديدة موجهة إلى ما يقصده بسمارك من التملك والفتح في الشرق وإلى هذا القصد تنتهي؟! أيصح أن يكون ذلك الأمرُ الكبيرُ وسيلةً لهذا الغرض الحقير، على أن إنجلترا كانت أقرب إلى ألمانيا في هذه الوجهة، وأجدر بأن يميل إليها البرنس ويتحالف معها لنيل هذه البغية؟!

هل أراد البرنس أن يحتل روسيا ويلهي فرنسا بالمسألة المصرية لتنام الأعين عن دولة النمسا، فتتقدم من طرف هرسك وبوسنة إلى ما شاء الله ووسع القوة، في غير موضع وصناعة في محل القطعية؟ هل أحب البرنس أن يمتع نظره بشهود الفتوحات، فبعدما فتح للنمسا باباً في الشرق من جهة هرسك رسم لروسيا طريق هراة وقندمار، ومد لفرنسا خطًّا في حدود تونس، وهو قريرُ العين بما يرى ويسمع من توسيع هذه الدول في فتوحاتها، وإن لم تعد من ذلك فائدةٌ على الأمة الألمانية؟ شيء لا يأتي عليه الفك ولا يصيّبه النظر.

هذا ولا يصح لنا أن نقول: إن الحلف العظيم بين القياصرة واهتمامهم بتأكيد الروابط بينهم مجرد كفٌّ يد الإنجليز عن مصر، وإبقاء فائدة الدين وبلغ الاستهلاك على

ما كانا عليه، وحفظ قانون المالية المصرية، كما ظن مراسل «الثان البرليني»، قال: إن في عزم البرنس بسمارك تأييد الحجة الفرنسية بثبات شديد وإرادة صحيحة، وسيكون مع فرنسا يدًا واحدةً في إبقاء الحالة المالية في مصر على ما كانت عليه، وفي زعم المراسل أنَّ هذا كان باعثًا لسياسيٍ إنجلترا على بذل الجهد لحلّ عقدة الاتفاق بين ألمانيا والنمسا وفرنسا؛ فإن المسألة المصرية بمجردها ليست مما يدعو إلى حملة عوممية.

إني أرى تحت هذا النفع جحافلَ أهواه، ووراء هذا الغيم وابلات أرzaء، أرى تنقلاً قريباً في حدود الجغرافيا في السياسية، وتبغييراً عظيماً في الخطط الدولية، وانقلاباً في هيئة الروابط العوممية، نعم، قد يكون من المبادئ الأولية لهذا العمل أن يتفق البرنس بسمارك مع فرنسا؛ فإنه لم يجد خيراً في مناؤتها زمناً طويلاً، وكلما رام الوضع منها زادت علواً وارتقاً فيريد أن يجرب صداقتها كما جرب عداوتها، وأن يدفع البرنس دولة روسيا إلى آسيا، فهو أسلم للدولتين الألمانيتين.

ثم يبعث النمسا على التقدم خطوات حيث تولي وجهها وفيما تخلفه وراءها فائدة البرنس المالية — أرسل البرنس ولده الكونت هيربرت بسمارك سفيراً في لندن ليكون حفيظاً لسره أميناً على عمله، حتى إذا ما فاته ما يرجو من العزيمة الأولى، لم يخجل من الانقلاب عنها إلى الأخرى، وربما يرى الارتباك الذي يؤدي به إلى ما يُريد إنما يكون بعقد مؤتمر جديد باسم المسألة المصرية، ويقال: إنه سيثبت على شدته في هذه المسألة إلى حد، كما روتُه الجرائد المهمة — وقضت الحوادث أن تكون الدولة العثمانية والحكومة المصرية التي هي جزءٌ من أجزاء الدولة في مهْبٍ رياحٍ مختلفة، فعليها التيقظ التام، والاحتراس الشديد؛ كي لا تكون خسارتَهما في استفادة غيرهما.

إذا قامت الدولة بعمل كما يليق بها حفظت حقوقها وصانت بقية ممالكها، الحكيم البقظ يستفيد من كل حادثة وإلا خرق الغافل عرضة لكل خطر، الدولة تطلب نكالية الإنجليز من كل وجه، فما الذي يمنع الدولة العثمانية من مُجارة الدول العظام وهي أقدرُهن على الإضرار بهم فإنهم في بلادها، يعيشون فيها مفسدين، وسُكّان البلاد لا ينتظرون إلا خطوة من دولتهم إليهم فيقييمون القيامة عليهم.

الفصل التاسع والتسعون

أسف

أنباء الأخبار الأخيرة بحدوث ثورة في دارسين من بلاد أرمنستان؛ قصد الإخلال بالسلطة العثمانية في تلك الأقطار، ومهب ريح هذه الثورة من جمعية الأرمنية في تفليس، والأسلحة والذخائر تنهال على التأثيرين من تلك الجمعية، هذه هي الأمم الخامدة التي لم يكن لها في الكون مكان، ولا على صفحة الوجود أثر، ولا في صفوف الأمم العظام قدم، أصبحت تطلب اسمًا رسميًّا وشأنًا عليًّا، تنفق أموالًا، وتبدل أرواحًا، ولا تُبالي بأغوال المانيا، فما بال المسلمين في بعض الأقطار وقد كانوا هامة العالم، نراهم اليوم في قنوط وبأيأس، تتخطف الدول الأجنبية ممالكتهم، وهم في سكون يكتفون بأسف العجائز، وتحسر الزمني، مع أن لهم دولاً عظامًا، وعدهم يتجاوز مائتي مليون من النُّفُوس، إن هذا لشيء عجيب حقًا!

الفصل المائة

إسماعيل باشا يحن إلى مصر!

عظم على الخديو السابق أمراً ما نزل بمصر، وعَزَّ عليه اشتداد الأزمة في داخليتها، وعسر ماليتها، واكتنافها بالفتن الخارجية، وارتكابها في المشكلات السياسية، فحن إليها (وله أن يحن)، وأراد أن لا يدع للإنجليز موضعًا للتععل (في تأمين الدين وأطفأ الثورة) فأظهر من سيرته ما ذكرته جريدة «الروبييليك فرانس» وهو: أن يتبرع بالتزام أداء ما يطلبه حاملو الأوراق المصرية مع استعداده لأن يقود جيشاً لمحاربة محمد أحمدي

ورأينا في جريدة الماتان: أن مسيو كورسيل سفير فرنسا في برلين أخبر حكومته بوجه رسمي أن القياصرة الثلاثة استقر عزمهم أن يبعثوا إلى الخديو «توفيق باشا» بلائحة مقتضاهما أن منصبه سيكون في خطر إذا استمر زماناً طويلاً على الركون للإنجليز في الدسائس المالية بالقطر المصري، وأن السعي في عودة إسماعيل باشا إلى مصر سيكون مؤيداً من وزارات برلين وسترايسبورج وفيينا وباريس، وأن مسيو هربت بسمارك يأخذ على نفسه أن يُشهر الدوائر السياسية بلندن ما يتربّط على عودة الخديو السابق من الفوائد؛ حيث يعلن رسمياً أن عودة إسماعيل باشا هي أفضل في نظر الدول من الأعمال التي تصدر من إنجلترا متعلقة بمصالح أوروبا ومنافعها في البلاد المصرية. ا.هـ.

إنا نعلم أن إسماعيل باشا لو رجع إلى مصر لا يكتفي بتخفيض سلطة الإنجلiz في وادي النيل، بل يبذل جهده في محو النفوذ الإنجلizي بالمرة، وربما مَدَ حاله إلى سائر البلاد الشرقية الداخلة في سلطة الإنجلiz؛ ليُحيط أعمالهم فيها، ويهدم أركان سلطتهم عليها؛ لأنه يعلم أن الدولة الإنجلizية هي السبب في كل مُصاب نزل به، وكأن الإنجلiz

أَحَسُّوا بذلك منه على ما روتْه بعْضُ الجرائد، فدفعوه عن نيل مقصده ولا يزالون يدفعونه، لكن لو اتفقت بقية الدول مع الدولة العثمانية على إرجاعه لم يبعد وقوعه، غير أن إحدى الجرائد ذكرت مانعاً قوياً وعائقاً شديداً يحول دون نجاح هذا المقصد، وهو امتناعُ الذات الشاهانية عن إصدار الفرمان لِإسماعيل باشا بخديوية مصر، أَيًّا كانت الحال.

واستعظام هذا المانع مبنيٌ على ما تراءى للسلطان من أن إسماعيل باشا وهو في أوروبا أعزل فاقد السيطرة لا حول له ولا قوة؛ كان مهتماً للتشويش على الخلافات العثمانية ومعارضة الذات الشاهانية، وأن الرسائل الكثيرة والمقالات المتعددة المطبوعة بالأحسن المختلفة المشحونة بما يمس الخلافة، وقد وصل إلى علم السلطان أن الحامل على تحريرها هو إسماعيل باشا، فهذا الظن هو الذي يمنع السلطان من تسهيل الطريق لعودته لحسباه أنه لو صار له نفوذ وسلطة في مصر فربما صدرت عنه أعمال لا تُوافق مصلحة الدولة.

فعلى رأي صاحب الجريدة إن عود إسماعيل باشا إلى مصر بعد اليأس من إنجلترا لا يكون إلا بإصلاح الصلة مع السلطان واستئصاله سائر الدول، هل يمكن هذا؟ ربما يمكن إذا وثق السلطان بما يطمئن به ووضح للدول ما يصح الركون إليه، هذا إذا لم ترَع الدول ولا الدولة العثمانية حركة الأفكار العمومية في مصر، فإن جعلت هذا أساس العمل زادت المسألة صعوبة؛ فإن الرأي العام في هذه الأيام مختلف بالديار المصرية، فمن النَّاس من سبقة ميلُه لتوفيق باشا، ومنهم من قام يدعو إلى حلِّ باشا ويطلبُ من النَّاس أن يوْقُعوا على محضر بطلبه كما جاءنا به خبر الثقة، ومنهم مَنْ هو ممسُّ عن الرأي صامتٌ عن القول. وسنأتي على بيان هذه المسألة فيما بعد، إذا دعت الحوادث حقيقة للكلام فيها.

الفصل الحادي والمائة

الفرصة

إذا تُلْيَت سطورُ الحوادث الأخيرة وأعطيت حقها من الاعتبار، ولوحظ ما وصلت إليه هيئة السياسة في أوروبا لهذا العهد القريب، وما يشف عنه اجتماع القياصرة الثلاثة، وما يُرْشِدُ إِلَيْهِ تداولُ الزيارات بين البارون دي كورسييل سفير فرنسا في برلين، وبين البرنس بسمارك، ولو تبصر مُتَأْمِلٌ فيما يتبع ذلك؛ لصَحَّ له الْحُكْمُ بخطر هذه الحالة في مصر على إنجلترا، وأنه لم يبق لتخلصها من يديها إِلَّا شيءٌ واحدٌ هو قيام العثمانيين على حقوقهم واحتياطاتهم في طلبها وعدم اطمئنانهم لأعمال وكلاء الإنجلiz في الأستانة، خصوصاً في هذا الوقت الذي هَمَّتْ فيه الدول بتحقيق السلطة الإنجلizية ونزع مصر من يد إنجلترا، ويرى السياسيون أنه لا شيء أشد تأثيراً وأجمل عائدة في تلطيف المسألة المصرية من مُداخَلة الدولة العثمانية.

وأَخْبَرَ مَرَاسِلُ صَحِيفَةِ التَّانِ في فِيَّبِنَا بِنَاءً عَلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ مَصْدَرٍ مُوْثَقٍ بِهِ أَنَّ دُولَةَ أَمَّانِيَا وَالنَّمْسَا وَرُوسِيَا مِنْ رَأِيِّهِمْ أَنَّ تَدَالِّ الدُّولَةِ العُثْمَانِيَّةِ وَتَجَدِيدِ سُلْطَانِيَّةِ وَادِيِّ النَّيلِ؛ يُوجَبُ تَعْدِيلُ الْحَالَةِ السِّيَاسِيَّةِ، وَلَيْسَ الْغَرْضُ مِنْ هَذَا إِلَّا كَفِيَّةُ الْإِنْجِلِيزِ عَنْ تَلْكَ الأَقْطَارِ، فَلَيْسَ مِنَ الرَّأْيِ أَنْ تَصْفِيَ الدُّولَةِ العُثْمَانِيَّةِ لِنَصَائِحِ إِنْجِلِيزِهَا وَوَكَلَائِهَا وَهِيَ تَرَى أَنَّ جَرَائِدَ الْإِنْجِلِيزِ تَنَادِيُّ بِلِسَانِ الْأَمَّةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ عَلَى حُكُومَةِ بَرِيْطَانِيَا طَالِبَةً مِنْهَا إِلْعَانَ الْحَمَاءِيَّةِ عَلَى مَصْرُ، بَلْ وَالْتَّمَكِينُ فِي الْخَرْطُومِ بَعْدَ رَفْعِ الْحَصَارِ عَنْهَا، وَتَنْصُحُهَا بِمَدِ سَكَّةِ الْحَدِيدِ مِنْ سَوَاكِنَ إِلَى مَدِينَةِ الْخَرْطُومِ، فَلَوْ تَسَاهَلَتْ

الدولة في هذا فقد فَرَّطَتْ في جزءٍ عظيمٍ من ممالكها، وأضاعتْ حَقًّا ثابتاً، وأي دولة سواها تهُمْ بِإِخْرَاجِ الإِنْجِلِيزِ مِنْ مِصْرَ، فَهِيَ صَاحِبَةُ الْحَقِّ فِيهَا، فَلَا يَكُونُ لِلْدُولَةِ نَصِيبٌ مِنْ مَلْكَهَا إِذَا أَضَاعَتْهُ بِالْتَّفْرِيْطِ.

اللورد نورث بروك وزبانيته يسعون لجلب قلوب الأهالي بتزيين الأماني وتخيل الآمال.

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (النساء: ١٢٠)، ليتخذوا من ميل المصريين حجة يجادلون بها الدول ويثبتون لأنفسهم حَقًا قانونيًّا في الإقامة بمصر، ثم من جهة أخرى يحشدون قوًّا عظيمًّا إلى مصر؛ استعدادًا لِلتَّلْقِيِّ الحوادِثِ المنتظرة لكن تحت اسم إنقاذ جوردون، فلو وَجَدَ الإِنْجِلِيزُ بِرْهَانًا مِنَ الْحِيلَةِ وَمِنْعَةِ الْقُوَّةِ وَحَمْلِهِمُ الْغَرُورِ وَالْكَبْرِيَاءِ عَلَى مَشَاوِرَةِ الدُّولِ اعْتِمَادًا عَلَى دُمُّ الاتِّصالِ فِي الْبَرِّ وَتَمْكِنَهُم مِنَ الْمَرَاكِزِ الْحَرَبِيَّةِ فِي الْبَحْرِ كَمَالَةً وَقَبْرَصً، وَأَنْ تَحَارِبَ الدُّولَةُ العُثْمَانِيَّةُ؛ فَهُمْ أَقْدَرُ النَّاسَ عَلَى مَحَارِبِهَا مِنْ جِهَةِ الْعَرِيشِ وَفِي عُمُومِ السَّواحِلِ، فَمَاذَا تَكُونُ الْعَاقِبَةُ؟ هُل تَكْتُمُ الدُّولَ غَيْرَهَا وَتَتَرَكُ الإِنْجِلِيزَ وَشَانِهِمْ؟ لَا نَظِنُ ذَلِكَ، وَلَكِنْ إِذَا حَالَتِ الْمَوَانِعُ دُونَ نَكَايَا الإِنْجِلِيزِ فِي مِصْرَ عَدَتِ الدُّولَ إِلَى نَكَايَتِهِمُ بِالْحَصُولِ عَلَى غَنِيمَةٍ تُعَادِلُ مِصْرَ وَلَا تَكُونُ إِلَّا فِي بَلَادِ الْمُسْلِمِينَ، فَتَسَاهَلُ أَصْحَابُ الْحَقِّ الْشَّرِعيِّ فِي وَادِي النِّيلِ يُضِيِّعُ لَهُمْ حُقُوقًا أُخْرَى فِي غَيْرِهِ.

إن الدولة العثمانية أولى من سائر الدول بالعمل في المسألة المصرية وأجردهم بالاهتمام بها، ومن الواجب أن تكون أَشَدَّ حِرَصًا على الظفر بالإنجليز فيها، إن الدولة في مقام المدافع عن حياته، وهو بحكم الطبع أقوى باعثًا وأدنى للعمل من طالب الفائدة، إن شرًّا يقع أولى بالتللافي من شرٍ يُتُوقَّع، وإن خطرًا عاجلًا أحرى بالالتفات من وهم باطل.

نفوس المصريين في هياج، فإن ما أفسد قلوبهم على الإنجليز من سوء التصرف في الحكومة واستسلام إدارتها وإبطال الحقوق الوطنية وحشد الجيوش إلى البلاد لقصد التمكّن فيها؛ كل هذه سهامٌ خرقتْ شغاف القلوب، وزاد الجراح نفراً ما اعترفت به جريدة التايمز من اشتداد الارتباك وتعطلُ أسباب المعيشة، ووقف دولاًب التجارة، وإشراف العائلات الكبيرة على الافتراض، خصوصاً الذين كانوا في خدمة أوطانهم وحرموا منها، فلو أَحْسَنَ المُصْرِيُّونَ وَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ بِحَرْكَةِ خَفِيفَةٍ مِنْ دُولَتِهِمْ (الْعُثْمَانِيَّةِ) لَكَفُواْهُ شَرُّ الإِنْجِلِيزِ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْعَمَلِ فِيهِ الْكَفَايَةُ.

والىوم يتوجه الإنجليز إلى السودان، فلو لحوا ثباتاً من العثمانيين لوقفوا وقفه
الحائز، بل سقطوا فيما لا منجي لهم منه، إن الخطر كل الخطر في سُكُوت العثمانيين
عن طلب حقوقهم، وليس من الرأي أن يُخاطروا بأنفسهم ثقة بمواعيد الإنجليز، وفي
علمهم أن لا وفاء لها، فهذا هو الوقتُ الذي يتمكنون فيه من إعادة سُلطتهم على القطر
المصري إلى أعلى السودان، وفي ذلك صيانة معاييرهم من العدوان ولا يرضي بقوات هذه
الفرصة إلا من أسلم نفسه للموت وألقى بها إلى التهلكة، هذا ما يثبته العيان ولا يختلف
عليه اثنان، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وما أنا عليكم بوكيل.

الفصل الثاني والمائة

جلادستون

قامت الدول الأوروبية كافة على المطالبة بحقوقها وإنعات الإنجليز في مصر، خصوصاً دولي فرنسا وألمانيا، وجميعهم يطالبون إنجلترا بإنجاز وعودها، ويقيمون الحجة عليها في أعمالها على كيفيات مختلفة ومن وجوه متعددة.

ومحمد أحمد وأتباعه قد فرغوا من أعمالهم الزراعية وأحرزوا غلتهم وهبئوا مؤنthem وجندوا الجنود الكثيفة وقصدوا أطراف دوصد وببر، وفي الأخبار الأخيرة أنهما سيروا جيშين على طريقين أحدهما يزحف من الصحراء والآخر على خط النيل، والقلق والاضطراب وضيق الحال واحتلال الأمن يزداد في مصر كل يوم حتى صار يخشى من فتنة عامة، خصوصاً بعدما أحس الناس بسوء نية الإنجليز.

ويمد هذه الأفكار ما فشى بين العساكر وال العامة من أن السلطان غير راض عن أعمال الإنجليز في مصر ولا هو مرتاح لزحفهم على السودان، وبوده لو يصادفون مقاومة لا يخطون بها خطوة، ونزلول ماء النيل وفقدان وسائل النقل ووعر الطريق وبعد المسافة، كل هذا أطفأ تلك الحرارة التي كانت تطير بالعساكر الإنجليزية إلى الخرطوم بأسرع من حركة البخار لإنقاذ جوردون – كما يزعمون – أو تملك الخرطوم – كما هو حقيقة القصد.

وانقلاب قلوب الهنديين على حُكّامهم الإنجليز وظهور تلك الضغائن مع العجز عن سترها، خصوصاً من النوايبين والرجوات الذي يتوجسون الشر من وثبات الحكومة

الإنجليزية عليهم، وهم الآن في ضجر شديد من تضييقها وتشديدها في مراقبة أعمالهم وهم على صورة الاستقلال، حتى إن بعضاً منهم ومن أعيان الأهالي الهنديين بعثوا بأناس إلى سرّخس ومررو وآشقاداب – على ما بلغنا – ليعرضوا إخلاصهم ويتبنّوا يوم خلاصهم، ذلك كله أحدث قلّاً واضطرباً في أفكار سياسيّ الإنجلiz وتخطّباً في سيرهم. فمن جهة يريدون ستر خجلهم من الأعمال المصرية مع قضاء بعض أو طارهم فيطلبون إلى الدول تشكيل مراقبة عمومية وترك مصر وشأنها، معبقاء شرذمة من عساكرهم في وادي حلفا لصيانة الحدود المصرية بعد طرد الجندي الوطني (كما صانوا سائر المالك الهندية بامثال هذه الشرذمات!) ويتوهمون أنهم يلهون الدول بهذه الأضحوكة، ومن جهة أخرى يبتغون إقناع أنفسهم وإقناع الأمة الإنجليزية بأوهام خيالية وترهات صبيانية يجعلونها أساساً لسياستهم في المالك الهندية، من ذلك ما اعتمدته اللورد دوفرين (ذلك السياسي المشهور الذي أفسد شؤون مصر) قاعدة متينة لصون المالك الهندية، بعد أن عين حكمداراً عليها، قال في مقال ألقاه في «بال فاست»: إنه يعد نفسه سعيداً بمعرفته الخصوصية لمسيو جيرس وزير خارجية روسيا، ثم أثني عليه بحدة تنبئ عن الإخلاص، وقال: إنني أرى لمسيو جيرس رغبة صادقة في حصول المسافات بين روسيا وإنجلز ورفع الشقاق بينهما، وبالغ في القول حتى قالت جريدة «الميموريال دبلوماتيك» بعد ذكر تهنئة روسيا للورد دوفرين على الوظيفة الجديدة: «إن اللورد مكلف بعقد وفاق تعين به مهلة لتلاطم الدولتين المتنازعتين في آسيا الوسطى بعد تحديد تخوم أفغانستان من طرف الشمال، هذا ما اندفع إليه جناب اللورد بقوة الاضطراب وشدة الشغف بتسكن خواطر الشعب الإنجلزي، وتغريب العقول في الهند، وإرضاء القلوب عن سياسة الحكومة وربما إرضاء نفسه أيضاً».

والقارئ يعلم من هذه الحالة مقدار العجز الملم بسياسي بريطانيا؛ حيث طفقوا يجعلون من مباني سياستهم في الشرق معرفة شخصية بين حاكمهم في الهند وبين وزير روسيا الذي لم يخط خطوة في الشرق إلا وغايتها الهند، ولم تتقدم قدماً إليه إلا بعد عهد ينكت ومتّاق ينقض، فإن حلف روسيا للورد هذه المرة لا يختلف هذا اليمين عن اليمين السابقة، على أن المحبة الشخصية لا قيمة لها في السياسات الكلية، وما سرور الإنجلز بها إلا من آثار الذهول وسر سأم العقول.

وأعجب من هذا أن جلادستون يرفع صوته بين شعبه بقوله: إن من ضعف العقل أن يُظن الوهن في إمبراطورية الإنجلز أو يترقب بها الضعف في المستقبل، وإن بسطة

الدول مما يوجب بسطة إنجلترا، عجباً! فإذا انبسطت روسيا إلى الهند فإلى أين تنبسط إنجلترا؟ أظنها تقبض، لا تنبسط، ويقول: إن يوماً تشعرون فيه بالخوف لبعيد وليس بقريب، سبحان الله! روسيا وضعتم يدها على باب الهند «سرخس» وشهرتها عمت أنحاء، وقلوب أهاليه ميالة إليها، وهي لا تهاب الإنجليز ولا تتوانى في سيرها، فأي يوم يشعر فيه بالخوف بعد يومه هذا؟! لأن الوزير لا يحس الخطر حتى تحل روسيا في بنجاب أو تصل إلى نهر السند.

لا جرم أن الارتكاب يضل بالإنسان عن رشده، ومن المضحكات ما ذهبت إليه جريدة البال مال جازيت من أن هذا الكلام من جلادستون يدل على ثقة جديدة منه بالدول بعد مفاوضات حل بها المشكلات، وأن من له أدنى إلمام بحال الإنجليز في ممالك الهند وضعف عسكريتهم، وتوزع أساطيلهم لحفظ سائر أملاكهم ونفرة الرعاعيا الشرقيين منهم، مع تأليب الدول عليهم وتقدم روسيا إلى الهند يوماً بعد يوم؛ يحكم بأن قد حل أحлем وقرب يوم يهدم فيه سلطانهم ويتقلس ظل سلطتهم في الشرق، ويهزاً بما يقول جلادستون: «إن إمبراطورية إنجلترا تزداد قدرتها بتجدد الأيام»، ومن رأى العقلاه أنه لو تقدم محمد أحمد وساعدته أهل الشهامة من الصعيد والشرقية والبحيرة في مصر، وخاب أمل الإنجليز في حملتهم، وقامت الفتنة في الهند، وتقدمت روسيا وخلصت النفوس من رق العبودية، وقضى الأمر وقيل بعدها للقوم الظالمين.

الفصل الثالث والمائة

عماء بعض الناس في مصر أو تعاميم عن مقاصد الإنجليز فيها

تسعى حكومة بريطانيا بكل ما في وسعها لوقف دفع الاستهلاك وتنقيص فائدة الدين المصري، ويعترضها في ذلك سائر الدول الأوروبية العظيمة، هل الدولة الإنجليزية أشد الدول رحمة على العالمين عموماً وعلى المصريين خصوصاً، فدعّتها الرحمة للقيام على هذا العمل قصداً لراحة المصريين وتخفيقاً لثقل الدين على الخزينة المصرية، وتوصلاً لرفاهة الأهالي وتوسيع دائرة ثروتهم؟

أو أن الدولة لم تُبالغ في الشفقة وهي على حد الاعتدال في الحكم، ولكن الدول تجاوزوا القسط في القسوة خشونة وغشمرة أو لعداوة خصوصية بينهم وبين المصريين، لهذا لا يريدون تخفيف شيء من أثقالهم؟! أو أنها اطلعت على أحوال المصريين وكشفت حقيقة ما هم عليه وعلمت عجزهم عن الوفاء بما عليهم وخفيت هذه الحقيقة على سائر الدول، فرأأت حكومة بريطانيا أن تخبر الدول بما وقفت عليه قياماً بخدمة الصدق، وإنما يعارضها من سواها؛ جهلاً بواقع الأمر؟! لا ... لا ... ليس شيء من ذلك.

من ساح في المستعمرات الإنجليزية كالبلاد الهندية ونحوها؛ تبين له أن الأهالي في تلك الممالك حملوا من أثقال الضرائب وأوقارب الرسوم الدائمة والمؤقتة ما لا يعرف له غاية ولا يؤخذ فيه بقياس، حتى سقطوا في مهواه من الفقر لا يجدون منها خلاصاً، ويوجد ملايين من أهل الهند يقتاتون بالأعشاب البرية؛ لفقدان أقوات البشر مع خصوبة

أراضيهم وجَوْدَة منابتهم، فهل يصح لعاقل أن يظن بعد هذا أن الإنجليز ضنوا برحمتهم على رعاياهم الهنديين وأفاضوا فيضها على المصريين؟

أي رابطة بين المصريين والجنس البريطاني تدعو إلى هذا الاختصاص؟! هل يصح أن يُقال: إن الأمة الفرنسية مع ما لها من سَابِق الآثار في مصر تُعادي المصريين وتُقْسُّو عليهم وتطلب تنكيلهم حقاً وانتقاماً؟ وهذا هو ما يحملها على المعارضَة في تخفيف الفوائد وتوفيق الاستهلاك؛ قصد الإضرار بالمصريين، ووافقتها على ذلك الدول الباقية! هذا مما لا يُعقل، فإنَّ في مصر ما يستميل الدول إليها لا ما يبعثها على الانتقام منها – كما لا يعقل – أو أن وكلاء السياسة في مصر ومديري خزينة الدين من رجال الدول العظام؛ قد خفي عليهم حال المصريين وشئون ماليتهم وتفرد الإنجليز بعلمها من بين سائر الأمم.

على أنَّ من يزعم أنَّ أرض مصر فقيرة في ثروتها قاصرةٌ عن أداء ما أوجبه عليها عهُد الدول؛ فقد افترى كذباً، فإنَّ مصر قد قامت بوفاء ما طُلب منها أيام وزارة رياض باشا أحسنَ قيام مع غاية السعة وارتياح الأهالي إلى تأدية الضرائب بأنواعها، ومسرتهم التامة من تقسيم المطلوبات على حسب المواسم الزراعية، وهكذا استمر الحال بعد رياض باشا على الأساس الذي وضع في عهده إلى أنْ زحفت إنجلترا بجيشٍ من دسائسها على تلك التُّفُوس المطمئنة فأقلقْتها، وتلك الأرواح الساكنة فأثارْتها، فما تتبعي إنجلترا الآن من الإلحاد على تنقیح قانون التصفيه وتنقيص الفوائد؟ وماذا بعث الدول على معارضتها؟! تري حُكْمُ بريطانيا أن تسود على مصر وتستبعد أهلها، وترى أن بقاء الحالة المالية على أُصولها السابقة يرجع بالمنفعة على الدائنين من الأُمم المختلفة، فلا يكون حُظُّ الخزينة الإنجلizية الخاصة من ثروة مصر وافرًا، ولهذا بادرت قبل إعلان الحماية أو السيادة أو الاستسلام بالسعي في تخفيف فائدة الدين ل تستأثر فيما بعد بما تزعم التفضيل به الآن على المصريين، فهي تسعى لفائتها الخاصة ليس إلا.

هذا قصدها، لم يخف على الدول فقامَت بمعارضتها وأصرَّت حرصاً على مصالحها لا تهدر فداءً لحظوظ الإنجليز وقضاءً لشهواتهم.

يهم الدول جلاء الإنجليز عن مصر عاجلاً أو آجلاً، لهذا تهتم بسد أبواب الحيل عليهم وإقامة العقبات الصعبة في كل خطوة يخطونها إلى مأربهم.

وظهرت مقاصِد الإنجليز وانكشفت مُضمراتهم لعموم أوروبا ولم يَبْقَ فيها ريبةٌ عند دولة من الدولة الأوروبيَّة، وإنْ كان بعض الغفل في تلك البلاد المنكوبة الحظ

(لا نريد نوبار باشا فإنه ضاربٌ في طريقه ذاهبٌ إلى مقصده يتزلف للإنجليز بكل ما يمكنه؛ لينال بوساطتهم ما أشرنا إليه مراراً)؛ تسول لهم أنفسهم إما جهلاً وإما طمعاً أن يمليوا مع ريح الحكومة الإنجليزية ويعظّموا أنها لا تقصد بالبلاد المصرية إلا خيراً، فإذا فاض الخيرُ في البلاد وشملت الراحة جميعَ أنحائها؛ اجلت العساكر الإنجليزية عنها كما جاءت إليها ورجعوا إلى بلادهم فرحين بأنهم أدوا فرائض الذمة وحقوق الإنسانية! والعجب من هؤلاء المغوروين كيف لم يعتبروا بحركات اللورد نورث بروك؟! يتجلو في البلاد المصرية ويستدعي إليه العمد والمشايخ ويداكرهم فيما ي يريد، طوراً سراً وطوراً آخر علانيةً، ويجاذبهم أطراف الأحاديث فيما يمكن أن يتّخذ وسيلة لتمكين حكومته من الولاية على تلك البلاد، أمّا كان يكفي هذا السير لإدراك الحقيقة؟! فيم يعلل الغافلون أنفسهم؟ وأي أوهام تخيل لهم ما يظنون؟!

أم يكشف الغطاء عن نية السوء بسؤال اللورد نورث بروك للشيخ العباسي المهدى شيخ الجامع الأزهر ومفتى القاهرة حيث افتتح الكلام معه بقوله: «ماذا تعلم من أفكار الأهالى لو أردنا نحن الإنجليز أن نديم الإقامة في البلاد؟»

فلو لم يكن لدولة الإنجليز عزم على تملّك وادي النيل فكيف كان هذا السياسي الدهاية يبتدر شيخاً من أجلّ المشايخ وأعلاهم مقاماً في القطر المصري بهذا السؤال، مع أنَّ أقل ما فيه إثارة الظنون وإحداث الريب إجابة حضرة الشيخ بما يفيد نفرة القلوب من بقاء الإنجليز في احتلال مصر، فاستدرك اللورد ما فرط منه بقوله إنَّا لا نريد البقاء، ولكن كان استدراكه مناقضاً لِمَا دلَّ عليه أول سؤاله، وما الإنكار إلا خديعة لا تخفي على الصبيان فضلاً عن الراشدين، ي يريد اللورد بهذه المحاولات أن يستكثن مضمورات القلوب ليتبين له ضروب السير إلى ما يقصد من التسلط على أرض مصر، حتى إذا سد في وجهه بابٌ حاول قرع باب آخر.

أما آن لهؤلاء المخدوعين أن يرجعوا لأنفسهم ويمدوا نظر الانتقاد لحركات هذا اللورد، أي إصلاح يقصده اللورد من طرد العساكر المصرية، وإلغاء كل ما يسمى جنداً مصرىً، ومحو هذا الاسم من دفاتر الحكومة المصرية؟! إن اللورد يُلْجُّ بكل اهتمام على استبدال الجندي المصري بأعوان الشرطة والخفر المسمى بالضابطة، ما هذا الاهتمام، إن لم يكن من قصده تمهيد الطرق للتسلط التام على مصر؟! هذا سبيلٌ سلكته الإنجليز في جميع فتوحاتها كما نَبَهْنَا مراراً، وإن هذا الدهاية الإنجليزى لا يحيد عنه بعدما سلكه أسلافه من قبله وقفاهم عليه عندما كان حكمدار الهند وجنوا ثماره، يجتهد بما في

وسعه لطرد العساكر المصرية وإبدالهم بالضابطة ليقترح بعد أيام تبديل رجال الضابطة المصريين بأقوام من الجيوش الإنجليزية أو الهندية، تعللًا بفساد أخلاق المصريين وعدم أهليتهم للخدم النظامية، وعجزهم عن القيام بوظائف الضبط وصيانة الراحة، وبذلك يجرد الحكومة من جميع قواها وتكون السلطة الإنجليزية سائدة في جميع الجهات بلا معارض لها من طرف الحكومة المحلية، كل هذا يجريه قبل إعلان السيادة والاستملاك كما فعل سابقوه في الهند مع كل نواب وراجا ولا يزال يفعل خلفهم من بعدهم.

يُزعم الإنجليز أن تدخلهم في مصر إنما كان لتسكين الاضطراب وإزالة العصيان وتقرير الراحة، ارتفع العصيان وسجن عرابي ورؤسائه حزبه وتبعدت جموعهم ولم يبق أثرًا لما سموه عصيًّا، وألزمهُت دولة بريطانيا حكومة مصر بالتنازل عن السودان من مدة طويلة، فماذا تريد من إرسال الجيوش إلى مصر الآن، المجرد إرسال جوردون كما يدعى رجال الإنجليز؟ إنهم يقولون: إن جوردون يسوق مراكبه في كل وقت لحرابية التأثيرين وتشهد الجرائد الإنجليزية نفسُها بأنَّه يستطيع الخلاص بأي وجه متى شاء، فليس هناك حاجة إلى تجريد الجيوش وسوقها إلى الأراضي المصرية تحت هذه التعلة، هل تريد حكومة بريطانيا بِتُوقِيَّة^١ جوشها أن ترفع الخلل الداخلي وتكتفُّ أيدي الناهبين وقطاع الطريق؟! هذا خلل ما حدث إلا بوجود الجيوش الأجنبية والنفرة من السلطة الغربية، فكيف يمكن محو الشيء بِتُوقِيَّة علَّ وجوده؟! هذا الخلل يرتفع ويُمحى أثره إذا انجلَّ جيشُ العدو عن الديار ولم يبق لها فيها رعوس ولا أذناب، نعم، هذه كلها تعلات يزعمها الإنجليز حجاًّ لما يسعون إليه من الاستلاء على عرش السيادة في مصر وحطّ الرجال في سهولها وحزونها.^٢

فلم يبق بعد هذا سوى أن ينتبه الغافل، ويلتفت صاحب الأمر إلى ما يحفل به ليحترس من هذا الكيد العظيم، ولا يُعين الإنجليز على مقاصدهم جهلاً منه أو اغتراراً بما يخيلون له من نفعٍ يعود على شخصه أو بلاده، سبحان الله! هل كان مثل هذا الأمر يحتاج إلى تنبية؟! هذا محل العجب من غفلة أمراء الشرق، لا تفيدهم التجارب، ولا تربّيهم المحن، ولا تعلمهم الحوادث، ولا تدرّبهم النوازل، وتناوب الرزايا والمصائب.

^١ يقصد الأفغاني بكلمة تُوقِيَّة: وقاية أو حراسة ...

^٢ حزونها: المناطق الوعرة.

من له أدنى خبرة بسير الإنجليز في ماضيهم أو حاضرهم، يعلم أنهم يملكون البلاد بأيدي سكانها، ويقتلون أمراءها بسيوف أنفسهم، يرى هذا الأمير الشرقي في أرض جاره فيظن النازلة خاصة بموقعها فيلهو عنها ولا يخشى السقوط فيما سقط فيه غيره، فيقع في نفس الشرك الذي صيد به جاره، مثلهم مثل الأغنام سوق القصاب منها واحداً واحداً إلى المذبحة وسائر القطيع في غفلة عما يجري على آحاده يرعى ويرتع آمناً مطمئناً حتى يفنى.

لا عار على أمة قليلة العدد ضعيفة القوة إذا تغلبت عليها أمة أشد منها قوة وأكثر سواداً وقهرتها بقوة السلاح، وإنما العار الذي لا يمحوه كر الدهور ولا ينسيه تطاول الأزمان، هو أن تسعى الأمة أو أحد رجالها أو طائفة منهم لتمكين أيدي العدو من نواصيهم، إما غفلةً عن شئونهم، وإما رغبةً في نفع وقتى وجزاء نceği على خيانتهم، فيكونون باحثين عن حتفهم بظلفهم.

علينا أن نرفع أعلام المحبة الوطنية، ونحمل عوامل الشهامة الإسلامية، وننقد نيران الغيرة الوطنية، لتخيب آمال الإنجليز ونرد كيدهم في نحورهم، ونقذف بأولئك المغفلين الذي يمليون إليهم خارج تخوم هذه الديار ليلحقوا بالخائنين ممن سبقوهم ويدوّقوا عذاب الهوان بما كانوا يكسبون، هذا إذا حصل اليأس من تيقظهم ورجوعهم إلى الحق والصدق في محبة الأوطان ورعاية مصالحها، فإن تابوا وأصلاحوا وأنابوا كان الحق ظهيرهم، وكان الله ولهم ونصيرهم، وهو نعم المولى ونعم النصير.

الفصل الرابع والمائة

إخفاق سعي الإنجليز

بيَّنا العلة في اهتمام الإنجليز بتحوير قانون المالية المصرية ومعارضة الدول لهم فيما يرغبون، ولما لم يجدهم إلحاهم، وثبتت الدول في امتناعها، نكبو عن طريقهم واستكانوا لرأي الدول، وأعلن ترجمان سرهم ولسان حالهم «نوبار باشا» لجميع قناصل الدول في مصر أن الحكومة المصرية (الإنجليزية) رجعت عما عزمت عليه — وكانت نفذته — من توقيف الاستهلاك، كان قصد الإنجليز بهذا التصرف إثبات سلطتهم وتقوية شوكتهم على المصالح العامة في مصر، وهو نفوذٌ عاجلٌ، وكانوا يؤمنون فيه فائدةً آجلاً كما أشرنا إليه، ولما رأوا أن طول الزمن على معارضته الدول لهم ربما يحول بينهم وبين غaiات آخر يبتغون الوصول إليها؛ انقلبوا عن وجههم ونقضوا عزيمتهم بلا خجل، ولا نظن أن يخفى على المصريين سر العزيمة الأولى وسر النقض الثاني، وأن هذا التنازل إنما دعت إليه الضرورة الحاضرة ووجود العقبة السياسية، أما سائر مطامعهم وبقية مقاصدهم فإنهم يغذون إليها السير ولا يدعون منها نقيراً، إلا أن تصادهم جيوش الهم وتقوم في وجوههم عقبات العزائم، هناك يرجعون بالخيبة ويخسرون خسراً مبيناً.

الحق

اعتدى على الحق جاهم فنال نكاله.

ينتصر الحق ويختزل الباطل وإن طاوله الكرم وأمهله العفو ومده الغرور.

جمال الدين الأفغاني - محمد عبده

(تمت كلمات «العروة الوثقى» بفضل الله.)

